الجاسوس الأسطوري طوال ٢٤ عاماً، قائد العمليات السرّية في السي. آي. إيه.
ومنسّق وزارة الخارجية الأميركية لشؤون مكافحة الإرهاب

هنري أ. كرامبتون

فنّ التجسُّس

الجهاز الخفي لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (السي. آي. إيه.)



«سردٌ حيويٌّ يجمع بين شجاعة جاسوسية من الطراز القديم، وبين تأمّلات عميقة حول مستقبل الحرب والعمل الاستخباراتي. كتابٌ يستحق القراءة».

الواشنطن بوست



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

فنّ التجسُّس

هنري أ. كرامبتون

الجاسوس الأسطوري طوال ٢٤ عاماً،
قائد العمليات السرّية في السي.آي.إيه.
ومنسّق وزارة الخارجية الأميركية لشؤون مكافحة الإرهاب

فنّ التجسُّس

الجهاز الخفي لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (السي.آي.إيه.)

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان

مبنى مجموعة تحسين الخياط

ص.ب.: ٨٣٧٥-١١ بيروت، لبنان

تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٤

ISBN: 978-9953-88-821-7

Originally published as: **The Art of Intelligence.**

ترجمة: أنطوان باسيل

تدقيق: وفيق زيتون

تصميم الغلاف: داني عوّاد

صورة الغلاف: Bev Lloyd-Roberts

الإخراج الفني: بسمة تقي

المحتويات

إلى حب حياتي، سيندي لاو،

وأبنائنا الثلاثة.

وإلى جميع عائلات من ضحّوا وخدموا،

مجهولين وغامضين.

مقدمة

شرعت في صيف عام ٢٠٠٢ في مهمة جديدة. حان وقت التغيير بعد عقدين من العمل في الجهاز الخفي في السي.آي.إيه، بما في ذلك الأشهر العشرة الأخيرة المؤدية إلى الحملة العسكرية الأميركية في أفغانستان.

شكّلت هذه المهمة خروجاً عن الذات، فلا مروحيات «أم آي ١٧» ولا طائرات «بريداتور» من دون طيار أو بنادق «أم ٤» الهجومية أو مسدسات طراز «غلوك» ١٩ ملم أو دروع جسدية مطلية بالسيراميك، ولا لقاحات أو أجهزة كشف الكذب ولا تنكّر أو تخفّ أو حتى أيّ من أساسيات الحرفة. وانتفت كذلك حاجتي إلى تفادي المراقبة أو إلى إدارة العملاء، وكذلك انتفى وجود الإرهابيين الذين يُفترض القضاء عليهم. لكن المهمّة تطلّبت انخراطي في ثقافة غريبة عني، كما عنت أن أعدّل سلوكي وأن أفترض لنفسي شخصية مختلفة.

لقد عدت إلى الجامعة طالباً.

منحتني السي.آي.إيه إجازة أكاديمية في كلية بول هـ. نيتزه للدراسات الدولية المتقدمة في جامعة جونز هوبكينز. وهي مهمة لم تخلُ من الإثارة مع أنها كانت أكثر هدوءاً من بعض التجارب الأكثر حداثة. فهي سنة أكاديمية كاملة من الانغماس الفكري أتخمت فيها نفسي بوليمة من المقررات والكتب التي تغطي الفكر السياسي والاستراتيجية العسكرية والصين والتاريخ والسياسة الخارجية والإرهاب والفلسفة. وقد استمتعت بذلك كلّه.

وقعتُ، وأنا أبحث في دليل مقررات ربيع عام ٢٠٠٣، على أمر غير متوقع:

صفّ في الاستخبارات. دفعني العنوان الجذاب، «فن الاستخبارات وحرفتها»، إلى البحث في خلفية الأستاذة المسؤولة عن المقرر، الدكتورة جينيفر سيمس التي امتلكت سيرة حياة مهنية مثيرة للإعجاب في كل من الأكاديميا والحكومة، إضافة إلى ما تمتلكه من سمعة قوية كباحثة.

وشعرت، بوصفي محترف استخبارات قديماً لا أزال على جدول معاشات السي.آي.إيه بما يدفعني إلى متابعة المقرر، إضافة إلى أنني تصوّرت أن الصفّ سيكون ممتعاً وسهلاً.

كان ممتعاً فعلاً. واستطلعنا كيف عمل جورج واشنطن، أحد أسياد الجاسوسية الأميركيين الكبار، على تحريك عملائه بحرفية تكتيكية رائعة واستغل، من ثم، استخباراتهم ببراعة وأضفى عليها قيمة استراتيجية. ودرسنا التقدم الذي تحقق في القدرات الاستخبارية في الحرب الأهلية الأميركية. وعلمنا أن الرئيس لنكولن أمضى الكثير من أيامه في غرفة التلغراف في البيت الأبيض وحوّلها إلى مركز الأمر الواقع للاستخبار والقيادة. وتابعنا كيف أدّت الاتصالات اللاسلكية والطائرات والرادار والأقمار الصناعية، وغير ذلك من الروائع التقنية، إلى تحويل العمل الاستخباراتي في سياق القرن العشرين.

لاحظنا كيف أن معظم القادة السياسيين الذين يصوغون سياسة الأمن القومي ويشنون الحروب فشلوا، بعكس واشنطن ولنكولن، في فهم الاستخبارات أو تقديرها. ويعود جزء من فشلهم في مواكبة التغييرات الجغرافية السياسية إلى الفجوات الموجودة بين جمع المعلومات الاستخبارية والتحليل الاستخباري والتطبيق السياسي. وتأمّلنا في كيفية رؤية الحكومة والمجتمع الأكبر ومعاملتهما لمحترفي الاستخبارات بتعليقات تراوح بين النفور العميق والخيالات الكرتونية. وجَنَت التوقعات، المرتفعة والمتدنية، الجاهلة وغير العقلانية أحياناً، على محترفي الاستخبارات، على هؤلاء الضباط ووكالاتهم في سياق التاريخ الأميركي. ولم يؤدِّ جهلنا الجماعي، كأمة، بالاستخبارات، إلى نسف قدراتنا الاستخبارية وحسب، ولكنه نسف أيضاً صانعي السياسة والمواطنين الذين تخدمهم.

كان الصف ممتعاً ولكنه لم يكن سهلاً. طالبتِ الدكتورة سيمس بأكثر مما توقعتُ من الدرس والتأمل. وكاد الأمر يصل بي إلى حد الارتباك لإدراكي مدى الأمور التي لا أعرفها وكم إنني أتعلم، بالرغم من سنوات خبرتي الكثيرة في عالم التجسّس والعمل الخفي والحرب في قارات عدة. وفتنتني تجربة التعلّم بالرغم من الكدر الذي تسبب لي به جهلي.

توسّعت مداركي، في خلال هذا الفصل الأكاديمي، بما هو أبعد بكثير من العمل الاستخباري. فهي المرة الأولى في عشرين عاماً التي لا أركّز فيها فقط على مهمات الاستخبارات الفورية والعملانية. ومكّنتني فرصة الدرس والتأمّل من أن أقدّر بشكل أفضل أن العالم يتحوّل سريعاً، ليس أقله في ما يتعلّق بطبيعة النزاع والمخاطرة والتنافس والتعاون. غير أنه يوجد قاسم مشترك واحد: وهو أن قيمة الاستخبارات إلى ازدياد. وقدّمت حملتنا العسكرية في أفغانستان في عامَي ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢ أمثلة كثيرة على هذا. وتوحي الاتجاهات الجيوسياسية التحويلية في أيامنا هذه، والكثير منها يغذيه التقدم التصاعدي في التكنولوجيا، بأن الاستخبارات ستلعب دوراً أكبر حتى في عالم يزداد استقلالية وتعقيداً. بيد أن فهمنا الجماعي وتقديرنا للاستخبارات لا يرقيان أبداً إلى حاجات بلادنا كما كان شأنهما في سياق التاريخ الأميركي.

بعدما كسبت الولايات المتحدة وحليفاتها الحرب الباردة وانهار الستار الحديدي في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٩، أعرب الكثيرون من المسؤولين والقادة المحترمين، من أمثال السناتور الراحل دانيال باتريك موينيهان، عن شكوكهم في الحاجة إلى استخبارات قوية. وشكك بعضهم في الحاجة إلى الجهاز الخفي. واغتنم الكونغرس في التسعينيات فرصة «عائدات السلام» فسلخ ميزانيات الاستخبارات حتى العظم. وشهدتُ، كعامل في الميدان في خلال عقد الانهيار هذا في الموازنة، على عمليات وُضعت على الرف، وشبكات عملاء تذوي. وأغلقت السي.آي.إيه محطات لها في كل أرجاء العالم. فبدا الأمر كما لو أن قادتنا يتوقعون زوال الخطر الجيوسياسي.

ارتفعت أصوات بعض قادة السي.آي.إيه ممن تساءلوا عن مهمتهم الغامضة. واستقال بعضهم ارتباكاً واشمئزازاً. غير أن اللافت هو أن بعض المتمرّسين في السي.آي.إيه اعتنقوا مفهوم العالم الجديد الخالي من الأعداء الحقيقيين. وأعلن قائد أحد أقسام الجهاز الخفي في السي.آي.إيه، ميلتون بيردن، أن روسيا لم تعد تمثّل أي تهديد جاسوسي ذي شأن. واكتسبت حجته قوة جذب إلى أن تم فضح سلسلة من الاختراقات الروسية مثل تلك التي حققها ألدريتش إيمس في السي.آي.إيه وروبرت هانسن في الأف. بي. آي. وألحق هؤلاء الخونة ضرراً عظيماً بالأمن القومي الأميركي. كما أنهم قدموا معلومات لمشغّليهم الروس أدت إلى إعدام ما يقارب الدزينة من العملاء الروس الشجعان العاملين مع السي.آي.إيه. ويبقى التجسّس واقعاً لا يمكن دحضه بالرغم من أنه يمكن للولايات المتحدة أن تربح أكثر بكثير عبر علاقة تعاونية مع روسيا والصين. وهاتان الدولتان العظميان شريكتان للولايات المتحدة في الدبلوماسية والعلوم والتجارة وغيرها الكثير. كما أنهما تشكلان غريمتين في الجاسوسية. ومن المرجّح أن لروسيا والصين اليوم، في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، عملاء استخبارات سريين في داخل الولايات المتحدة أكثر مما امتلكتا في عز الحرب الباردة.

بيد أن الولايات المتحدة كأمة تمتعت، في الهدوء المؤاتي الذي أعقب الحرب الباردة، بفترة راحة وهمية في عالم خيالي خالٍ من التهديدات الجدية والأعداء القاتلين. وأسهب واضعو السياسة في الحديث عن التفوق الأميركي الذي لا شبيه له وعن المسيرة العالمية التي يستحيل وقفها أو تعويقها لمبادئ الفكر السياسي الليبرالي والسوق الحرة. لقد تميّزت الحياة بالجودة.

ثم كان أن هاجمت القاعدة الديار الأميركية. حصل ذلك في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠١١. قَتَلَ أسامة بن لادن والخاطفون التسعة عشر التابعون له ٢٩٧٧ شخصاً معظمهم من الضحايا الأميركيين، ولكن كان بينهم مواطنون من دول كثيرة أخرى. قضى في ذلك اليوم مسيحيون ويهود ومسلمون وهندوس

وغيرهم. دُمّر برجا مركز التجارة العالمية في نيويورك وتناثرت الأشلاء الإنسانية وسط أكوام ضخمة من ركام المدينة. واختار بعض الضحايا القفز إلى حتفهم وقد أمسكوا بعضهم بعضاً، على أن يحترقوا ويُسحقوا في انهيار المبنيين. وسقط البنتاغون، مقر الجيش الأعظم في العالم، الواقع في خارج واشنطن العاصمة، جريحاً وقد أصيب جانبه بحفرة عميقة سوداء راح الدخان يتصاعد منها. وتناثر جنود وجنديات من الجيش الأميركي قتلى وجرحى في أرجاء الممرات.

شكّل الركّاب الأبطال على متن الرحلة ٩٣ لشركة «يونايتد» الرد الوحيد الفاعل على العدو في ذلك اليوم الكالح وتغلّبوا على الخاطفين. انفجرت الطائرة وقد خرجت عن السيطرة لدى اصطدامها بالأراضي الريفية في شانكسفيل بنسلفانيا. عمدت مجموعة المواطنين هذه، المؤلّفة من فريق ذاتي التنظيم من غير الحكوميين، إلى جمع المعلومات من هواتفهم الخلوية وإلى تحليل وضعهم والمخاطر، وخطّطوا ونفّذوا هجوماً مضاداً جريئاً. وقد حملت الطائرة على متنها ثلاثة وثلاثين راكباً وطاقماً من سبعة، ماتوا جميعهم، ومن شبه المؤكد أنهم أنقذوا بذلك المئات بمن فيهم قادتنا السياسيون في واشنطن العاصمة.

كافحت أميركا والعالم، وقد شعرا بالصدمة وبالغضب، لفهم ما يعنيه الهجوم. من هو هذا العدو؟ لماذا؟ ما الذي فعلته الولايات المتحدة لحماية مواطنيها؟ وما هو الرد الممكن؟

دفع ذلك اليوم الرهيب إلى تجدّد الشعور بالقابلية للعطب. وتساءل المواطنون هل ستتعرض تجمّعاتهم للهجوم. وأشعل انتهاك موطننا جدالاً حول الحرب والأمن وفي طليعتهما الاستخبارات. وسينشئ الكونغرس لاحقاً لجنة ٩/١١ مع تشديد على دور الاستخبارات. وجاءت استنتاجات اللجنة ومشاعر القادة السياسيين واضحة: شكّلت ٩/١١ إخفاقاً استخبارياً ضخماً وليس إخفاقاً سياسياً. ولم تمتلك اللجنة صلاحية الخوض في ذلك.

اتفقت اللجنة وصانعو السياسة، والكثيرون منهم صوّتوا لخفض ميزانيات

الاستخبارات، على أن الأخيرة على خطأ. لكن الاستخبارات باتت مهمة الآن، وتحتاج الولايات المتحدة إلى توفير المزيد من الموارد لها.

في العقد الذي أعقب ٩/١١ انفجرت ميزانيات الاستخبارات والبيروقراطيات في عربدة من النمو والاستنساخ والتشويش. وانتفخت ميزانية الاستخبارات السنوية من بضعة مليارات من الدولارات إلى ٧٥ مليار دولار بحلول عام ٢٠١١. وتحوّل زعماء السياسة الأميركيون بين ليلة وضحاها إلى مدافعين عن الاستخبارات. أنشأوا المزيد من اللجان الناقدة، وأنفقوا المزيد من دولارات الضرائب، ووضعوا المزيد من القواعد والنظم، وأقاموا المزيد من المنظمات المركزّة في واشنطن، مثل مكتب مدير الاستخبارات الوطنية، والمركز الوطني لمكافحة الإرهاب ووزارة الأمن الداخلي.

عمدت الإدارات الجمهورية والديمقراطية في غضون ذلك وفي شكل انتقائي إلى استغلال السي.آي.إيه لتكديس المكاسب السياسية، فيما أخذت تطلب المزيد، وأكثر من ذي قبل، من الوكالة. وسعى بعض من فريق جورج و. بوش إلى تقويض نزاهة، وحتى سلامة فاليري بلايم عميلة السي.آي.إيه السرّية بعد الانتقادات العلنية التي وجّهها زوجها السفير جو ويلسون إلى البيت الأبيض في عهد بوش. وكيف يمكن لمسؤولي البيت الأبيض، سواء من أجل مكسب سياسي أو أي سبب آخر، أن يعرّضوا للخطر قدس أقداس غطاء ضابطة في السي.آي.إيه وحياتها؟ وكيف يعرضون للخطر شبكة عملائها المؤلفة من أجانب يخاطرون بحياتهم للتجسّس لأميركا؟ وقد حُكِم على مستشار البيت الأبيض سكوتر ليبي لعدم تعاونه مع التحقيق الفدرالي في عملية التسريب.

وإلى جانب هذا الخرق الرهيب للثقة، احتضن الرئيس بوش وفريقه السي.آي.إيه لاستخباراتها وخدماتها، وبخاصة إذا توافقت مع التوقعات السياسية للإدارة. وأقام مدير السي.آي.إيه جورج تينيت علاقة وثيقة، وربما أكثر مما يجب، مع البيت الأبيض. وقد استفسر مني الرئيس بوش دائماً في خلال إيجازاتي له

في ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢ في كامب ديفيد وفي غرفة الأوضاع والغرفة البيضوية عن العمليات، وشجعني وضباطي المنتشرين في أفغانستان، ووفّر التوجيه الواضح والدعم المعنوي الكبير. فكيف يمكنه السماح، وربما التغاضي عن هجوم سياسي على ضابطة في السي.آي.إيه تعمل في الخفاء؟

عندما تولى الرئيس أوباما السلطة في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٩، هدّدت وزارة العدل ضباطاً في السي.آي.إيه بالسجن، لأنهم نفذوا أوامر قانونية في ظل الإدارة السابقة. فهل في ذلك محاولة لتجريم السياسة السابقة كوسيلة لمعاقبة السي.آي.إيه؟ أم يُرفس ضباط في السي.آي.إيه من أجل مكسب سياسي وحسب؟

طارد المدّعون العامون على مدى أكثر من عامين نائب مدير السي.آي.إيه للعمليات مايكل هايدن، القائد الشريف والشجاع، ولم يتخلوا عن القضية إلا بعد فشلهم في العثور على أي دليل على أي مخالفة، وانحسار الضوء السياسي عنها.

نشر الرئيس أوباما تفاصيل تقنيات التحقيق المحسّنة التي وافقت عليها الإدارة السابقة ووجّهتها، بالرغم من اعتراض مدير السي.آي.إيه مايكل هايدن، وكل مدير سابق للسي.آي. إيه لا يزال على قيد الحياة. فقد سعت إدارة أوباما إلى تملّق عناصر من الحزب الديمقراطي على حساب السي.آي.إيه وضباطها.

في غضون ذلك زوّد محامو الدفاع عن معتقلي القاعدة في غوانتانامو، موكليهم الإرهابيين، بصور ضباط في السي.آي.إيه وبأسمائهم. ولم تفعل وزارة العدل في إدارة أوباما شيئاً. ولم أستطع فهم كيف يمكن لقادة مسؤولين المضي في هذا السياق من العمل نظراً إلى الاعتماد المتزايد على ضباط الاستخبارات ومواردها لمتابعة الحرب ضد القاعدة حتى النهاية.

استدار الرئيس أوباما صوب السي.آي.إيه، وأطلق في بضعة أشهر هجمات على أهداف محددة في جنوب آسيا بأكثر مما أمر به الرئيس بوش في كامل ولايته. وكلّف الرئيس أوباما السي.آي.إيه تقفّي أثر المزيد من الإرهابيين وقتلهم،

واتصل بالعملاء شخصياً وهنأهم في أعقاب أنجاز مهماتهم بنجاح. وأصبح يثق بتقديرات السي.آي.إيه وكوفئت ثقته هذه. فقد عثرت السي.آي.إيه على أسامة بن لادن وهو ما وفّر للرئيس فرصة كسب صدقية سياسية كقائد أعلى. وامتلك شجاعة إصدار الأمر للسي.آي.إيه وللقوات البحرية الخاصة بشن العملية التي قتلت بن لادن في مخبئه الباكستاني في الأول من أيار/مايو ٢٠١١.

انضم الحلفاء الأوروبيون في العقد الذي أعقب ٩/١١ إلى المعركة السياسية المعادية للاستخبارات موجّهين الاتهامات إلى ضباط في السي.آي.إيه، ومتجاهلين تورّط ضباط استخباراتهم في عمليات مشتركة انتهت نهاية سيئة. وتشكّل إيطاليا في هذا الصدد مثالاً من الطراز الأول. وتساءلت السي.آي.إيه عن موثوقية شريكاتها الاستخباراتية الأجنبية وأسيادها السياسيين. كما تمعّنت الاستخبارات الأجنبية وأجهزة الأمن في من يمكنها الوثوق به في مجتمع الاستخبارات الأميركية. وتناقشت في ما بينها في المسؤولية الموكلة إلى كل من الأجهزة الأميركية. وهل يمكن لومهم في ذلك مع كل التسريبات الإعلامية ومع التكاثر المربك لكبار ضباط الاستخبارات والوكالات المختلفة والأقسام، ومع مجموعة الأدوار المحيّرة والصلاحيات المتشابكة؟ وكمثال على ذلك وظّف المكتب الجديد لمدير الاستخبارات الوطنية، في غياب ميثاق يقتصر على التنسيق بين وكالات الاستخبارات الأميركية، فريقاً من ضباط البروتوكول لمتابعة شؤون مسؤولي الارتباط الأجانب الزائرين. وسينتفخ مكتب مدير الاستخبارات الوطنية بفريق عمل يضم أكثر من ثلاثة آلاف عضو ومتعاقد يبحث معظمهم عن مهمّة.

تنوّعت مشاعر الجمهور الأميركي بشكل واسع على الجبهة الداخلية. وحصل إعجاب بضباط في السي.آي.إيه وبخاصة بعدما انتشر في القطاع العام خبر دورهم الريادي ضد القاعدة. وأصبح الضابط شبه العسكري في السي.آي.إيه، جوني مايك سبان، أول أميركي يُقتل بعد ٩/١١ وهو يحارب في سبيل بلاده. وحظي هذا البطل الأميركي الذي سقط، بتغطية صحافية واسعة مُحترَمة ومُبرَّرة.

وشعرنا نحن في السي.آي.إيه بنوع خاص، بحدّة الخسارة، لأن مايك كان ذلك النوع من الضباط الذين نكن لهم الاحترام: ناكر للذات وشجاع.

إلا أن الأمر لم يستغرق بعد ٩/١١ سوى سنتين لتصبح أميركا وبعض من قادتها على تضارب في شأن دور الاستخبارات. أخذت بعض الريبة والنفور من الاستخبارات في التزايد في بعض الدوائر، وبخاصة في ما يتعلق بتقنيات الاستجواب والعمليات الخفية القاتلة. كما شاع بعض القلق المُبرّر في شأن التجسّس في داخل البلاد إن لجهة قصوره، أو تحديه للحريات المدنية.

ضجّت وسائل الإعلام الشعبية وصناعة الترفيه بكل أطراف الطيف الاستخباراتي وشوّهته، من إضفاء صورة الأبطال الخارقين على عملاء الاستخبارات ومهماتهم، إلى صبغهم بأوصافٍ كريهة.

كافح الزعماء السياسيون ورجال القانون بأساس أكبر لتحديد هل نحن في حرب مع القاعدة؟ وكيف علينا، في هذه الحالة، أن نعامل العدو؟ هل هم مجرمون يجب أن يُحالوا إلى المحاكم المدنية؟ أم مقاتلون من الأعداء يتوجّب شحنهم إلى العالم السفلي في غوانتانامو؟ ولماذا يُوافق على الطائرات التي تطير من دون طيار وتشغّلها السي.آي.إيه لقتل قائد عدو محدّد، وربما يتضمن ذلك قتل عائلته غير المحظوظة، ولا يُوافق، بل وربما يُتخذ إجراء قانوني على عمل ضابط في السي.آي.إيه يحرم عدوّاً مسجوناً من النوم خلال الاستجواب؟

ولماذا أضحت السي.آي.إيه في صدارة هذا النزاع؟ فالأمر لا يتعلّق بمجرّد جمع المعلومات بل بعمل خفي على مستوى عالمي كبير. ولماذا هذا القدر من الأعمال الخفية؟ وماذا عن أدوات أصول الحكم الأخرى؟

شاركتُ في بعض هذا النزاع العملاني والسياسي، وبخاصة ذلك المتعلق بأفغانستان قبل ٩/١١ وبعدها، في كل من الميدان وفي واشنطن العاصمة. وجلست في الغالب في المقعد الأمامي أشاهد، بروعة ونفور معاً، مهمات الاستخبارات الأميركية والسياسة الخارجية في سعيها لحماية أمتنا، لكنها حوّلت الأمور أحياناً

إلى الأسوأ. فالغزو الوقح للعراق، على سبيل المثال، وما أعقبه من احتلال أحمق نسف التعاطف الدولي معنا بعد هجوم ٩/١١ وما أنتجه نجاحنا الأولي في أفغانستان من إعجاب وشعور وُدّي.

بدا أن في أساس هذا كلّه فهماً ضعيفاً للاستخبارات في أوساط صانعي السياسة والمسؤولين المنتخبين والقادة في كل من الحكومة والمجتمع الأوسع. وتساءلتُ عن القدر النابع منه، وعن الجهل والقدر النابع من التهكّم أو التلاعب الذي يمارسه السياسيون والصحافيون والمرفّهون والانتهازيون. وإذا كانت الاستخبارات تلعب مثل هذا الدور الأساسي جداً في أمننا القومي، وإذا كان يُفترض بها أن تحوز أهمية أكبر، وإذا احتاج المواطنون إلى فهم هذا الفن السرّي، فما هي الطريقة الفضلى لتحقيق ذلك؟

هنا تقع المفارقة. فغالباً ما يهمل قادة الاستخبارات الحاجة إلى الاتصال بالجمهور أو إلى تثقيفه، وذلك بحكم الميل العملاني والثقافي إلى السرّية وبخاصة في الجهاز الخفي التابع للسي.آي.إيه، ويعزز السياسيون في الغالب هذا الموقف لعدم رغبتهم في ظهور أي وجهات نظر مخالفة لوجهات نظرهم في المجال العام. ويريد السياسيون في الواقع حماية الاستخبارات لاستخدامهم الخاص، حتى فيما بينهم. وغالباً جداً ما تحول هذه السرّية الضرورية، خصوصاً في ما يتعلّق بالمصادر والأساليب، دون فهم عام أعمق للاستخبارات.

ناقشتُ والدكتورة سيمس هذه المفارقة في سياق مقرّرها وما بعده. وناقشنا كذلك أخلاقيات الاستخبارات. وعرّفتها على برتون غربر، الصديق العزيز، وهو سيّد متقاعد في الجاسوسية وكاثوليكي ورع. وقد زار صف الدكتورة سيمس وحاضر في أخلاقيات التجسّس مثيراً بذلك نقاشاً مهماً.

اتفقتُ والدكتورة سيمس على أن دراسة الاستخبارات لم تنضج بعد، إذ نحتاج إلى المزيد من النقاط المرجعية، والمزيد من المصادر، والتركيز الأكبر، والمزيد من النقاش الديناميكي والمحترم والحسن الاطلاع. وشجعتها على

تنظيم وتحرير نص عن الاستخبارات وهو ما كانت تفكّر فيه، وأقنعتُ برتون بمساعدتها في التحرير. ووافقتُ على المساهمة بفصلين هما «الاستخبارات والحرب: أفغانستان ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢» و«الاستخبارات الوطنية والأمن» في كتاب «تحويل الاستخبارات الأميركية» Transforming U.S. Intelligence وقد نشرته دار جامعة جورجتاون في عام ٢٠٠٥.

ويصلح الكتاب كنص مفيد للمهتمين بالدراسة الأكاديمية للاستخبارات، وهم فئة مهمة ولكن صغيرة نسبياً. وأشعرتني مساهمتي المتواضعة بالفخر.

عدت في عام ٢٠٠٣ بعد الإجازة الأكاديمية إلى الجهاز الخفي، في فترة عمل من سنتين، رئيساً لقسم المصادر الوطنية، وهو أحد المكونات الأكثر حساسية للسي.آي.إيه. وللقسم مكاتب منتشرة في أنحاء الولايات المتحدة. ويعمل قسم المصادر الوطنية مع أجهزة إنفاذ القانون ومع المواطنين الأميركيين والمؤسسات العامة والخاصة، لإنجاح مهمة الجهاز الخفي. واكتسبت فهماً جديداً عن بلادي وعن عمق النية الحسنة حيال السي.آي.إيه. وأدركت كذلك، بشكل مباشر، مركزية القطاع الخاص في أمننا الوطني. وشهدت كرئيس لقسم الموارد الوطنية على وجود التكنولوجيات والعولمة المتزايدة لعملية الربح وللخسارة. وقد أثّر فيّ وصولي إلى مديري القطاع الخاص الأميركي وخبرائه العاملين في كل أصقاع العالم وفهمي لهم. وأذهلني الترابط بين العام والخاص في الاستخبارات، وكذلك فيض المعلومات الاستخباراتية والإمكانات غير الملجومة.

بدا أن القيود المفروضة علينا تستند في جزء منها إلى غياب الدراسة العامة المسؤولة والحوار في شأن الاستخبارات، وبخاصة دور الاستخبارات في الطبيعة المتحوّلة للمخاطر. وارتفعت أصوات بالفعل، لكنها في الغالب أصوات غير المطّلعين، وذوي الدوافع السياسية أو قدامى التجسّس المجرّبين، في مواجهة عالم جديد لا يتطابق مع وجهات نظرهم الإيديولوجية أو توقعاتهم المهنية.

عرفتُ، كضابط في الجهاز الخفي، أنها ليست مسؤوليتي، وقد حُرمت من

لعب دورٍ مثل هذا التأييد العلني. أضف إلى ذلك أنني قد وسّعت بالفعل حدود المعايير الثقافية للسي.آي.إيه بكتابتي فصلين في نص أكاديمي.

دفعت بي الظروف في عام ٢٠٠٥ إلى لعب دور عام لم أتوقعه. بعدما طلبت مني وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس العمل منسّقاً لمكافحة الإرهاب برتبة سفير متجوّل. وهذا تعيين رئاسي وتطلّب تثبيتاً علنياً من مجلس الشيوخ. وافقتُ على العرض مدركاً أنني أضع بذلك حدّاً لحياتي كجاسوس.

قفزت من الخزانة، من العالم السري للجهاز الخفي، إلى مسرح الدبلوماسية العامة العالمية بوصفي ممثلاً للرئيس ولوزيرة الخارجية في سياسة مكافحة الإرهاب. وبدأتُ حياة جديدة متحوّلاً من جاسوس إلى دبلوماسي، من العمل الخفي إلى المقابلات التلفزيونية الدولية، ومن مزيج من الأسماء المستعارة إلى لقب محترم. والأكثر من ذلك كله هو أنني انتقلت من جامع للاستخبارات إلى مستهلك لها، من ضابط عمليات إلى مستشار وصانع للسياسة ومطبّق لها. وعندما التقاني الرئيس بوش أولاً في وزارة الخارجية سأل الوزيرة رايس: «أقاطع الرقاب دبلوماسي؟ هل ينجح ذلك؟».

عملت في مكافحة الإرهاب عبر وكالات كثيرة متنوعة وأقسام، واستوعبت منهج العمل في ما بين الوكالات، وبالتالي لم يكن الانتقال من العمليات إلى السياسة صعباً. وساعدتني في ذلك أيضاً سنوات انغماسي الكثيرة في عمليات مكافحة الإرهاب العالمية وعلاقاتي التعاونية مع الكثير من البلدان. وأمضيت معظم الأشهر الثمانية عشر التي عملت خلالها مع الوزيرة رايس مسافراً في الخارج عاملاً مع سفرائنا وقادتنا العسكريين وشركائنا الخارجيين. وربما شهدتُ عملية الانتقال هذه بعض العثرات، لكنني سعيت إلى التعلّم والتحسّن. بيد أنه وُجدت ثغرة كبيرة واحدة في خبرتي وإدراكي، إذ قللت إلى حد كبير من شأن حجم الجزء العام من هذه المهمة وأهميته. فقد أجريت أكثر من مئة مقابلة وغير ذلك من الأعمال الصحافية على مستوى العالم. وبدا المستمعون، المحليون والأجانب،

تواقين إلى انخراط أحدهم في الحوار وفي مناقشة سياسة مكافحة الإرهاب ودور الاستخبارات الداعم لها. أرادوا، من بين أشياء أخرى، من مسؤول أميركي كبير، أن يعيرهم أذناً صاغية.

أدهشتني، في خلال مهمتي هذه، أهمية التثقيف والنقاش العام المسؤول. وعملت جاهداً لتمثيل بلادي في هذه المنتديات المفتوحة متواصلاً مع الجمهور من بوغوتا إلى برلين إلى بيروت.

انتقلتُ بعد اعتزالي العمل الحكومي في عام ٢٠٠٧، وبدعم من المرأة التي مضى على زواجي بها سنوات كثيرة، إلى القطاع الخاص لأتمكن من دفع أقساط أولادنا الجامعية. وأردت أيضاً مزيداً من المرونة للتمتع بوقتي مع عائلتي وأصدقائي بعدما أصابني في الصميم إدراكي أنني أقضي المزيد من الوقت في التفكير بالعدو أكثر من أي شخص آخر. وشكّل التقاعد الخيار الصحيح بعد عشرين عاماً قضيتها في خدمة الحكومة.

بيد أنني سأكتز دائماً في قلبي خدمتي كضابط عمليات في السي.آي.إيه وقد شكّلت خدمتي ما هو أكثر من سيرة مهنية، بل مثّلت بالفعل مهمة عظيمة وأسلوب حياة. ومع هذا الفخر والحظوة في الخدمة، ومحبتي تلك لبلدي، تأتي المسؤولية. وأشعر، بالنظر إلى تجاربي الفريدة في مكافحة الإرهاب وفي الأكاديميا وفي قسم الموارد الوطنية وفي الدبلوماسية العامة، والآن في القطاع الخاص، بمسؤولية تلزمني التثقيف بالنظر خصوصاً إلى التحولات الضخمة في النزاع الجيوسياسي وما يرتبط بها من طلب على مهمة الاستخبارات ومحترفيها.

وتبقى المفارقة ومفادها: كيف يمكن لضابط سابق في السي.آي.إيه الحفاظ على الشرعة الثقافية للمحترف الساكت، والسعي في الوقت نفسه إلى اطلاع العامة وتوسيع المدارك ويدعم بذلك مهمة الاستخبارات؟ وأنا أسعى إلى إيجاد التوازن المناسب بين التحفّظ المشرّف لجاسوس متقاعد وبين المسؤولية العامة لمواطن نشط.

لم أرد، عند تقاعدي، وضع كتاب، إلا أن الوكيلين الأدبيين أندرو وايلي وسكوت مويرز، وغيرهما، امتلكوا القدرة على الإقناع. فقد قرأ سكوت بداية عنّي في وسائل الإعلام المطبوعة، ثم قام ببعض الأبحاث. وتضمّن ذلك اتصالاً بالصديق المشترك بيل هارلو الذي شهد لي. وسبق لهارلو أن خدم بشكل رائع ضابطاً للشؤون العامة في السي.آي.إيه في عهد المدير جورج تينيت. ودعاني سكوت وأندرو إلى مكتبهما في نيويورك حيث أقنعاني بأنه يمكنني، بل يتوجّب علي، أن أساهم ببعض ما أعرفه.

استندت إلى نقاشات مستعادة ومتجدّدة مع بعض المشاركين الآخرين في كتابة روايات شخصية لإيصال فهم أكثر عمقاً للمسائل المرتبطة بالاستخبارات والحرب والسياسة. ولهذه الروايات، المرتكزة إلى مشاركتي المباشرة أو مشاركة الضباط الذي عملوا تحت إمرتي في ذلك الوقت، أهميتها أيضاً، لأنها تتعلّق بأشخاص. والعمل الاستخباراتي يتعلّق في النهاية بالطبع بالأشخاص الذين ينخرطون في التجسّس في العمل الخفي، والذين يحلّلون المعلومات الاستخباراتية والذين يستخدمونها. كما أن العمل الاستخباراتي يتعلّق أيضاً بالمستهدفين للتجنيد وبالعملاء الأجانب، وبأولئك الذي يستفيدون أو يعانون من العواقب، الجيدة أو السيئة، للعمليات الاستخباراتية؛ والسياسة المستندة في معلوماتها إلى الاستخبارات.

يتناول القسم الأول من الكتاب أسس العمل. ويحظى جمع المعلومات الاستخباراتية، الذي عملت فيه على مدى ٢٤ عاماً، بالاهتمام الأكبر لأنه في الأساس أفضل ما أعرفه. كذلك يتطلب العمل الخفي، وهو الوجه الاستخباراتي الأكثر إثارة للجدل، معالجة إضافية. ويشكّل العمل الخفي الأهم في سيرتي المهنية، أي حملة أفغانستان في عامَي ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢، المثال الأول. ولذلك أسبابه العدة، أولها أنني لعبت دوراً قيادياً ويمكنني الكتابة عن هذه العمليات من موقع المرجع. وثانيها أن هذا النزاع شكّل موضوع دراسة ممتازة عن الاستخبارات المتكاملة مع العمل الخفي والحرب والسياسة. وتشكّل هذه الحملة نافذة على

المستقبل، ومزيجاً معقّداً من اللاعبين ممن ليسوا دولاً من الأعداء والحلفاء، ومن أمرٍ ما بين الاثنين. وثالثها أنه بات يوجد، بفضل بوب وودورد وغيره، كمّ لا سابق له من المعلومات المتاحة في المصادر المفتوحة، تسمح لي بمناقشة مواضيع بقيت لولا ذلك محظورة. ورابعها أن الشخصيات لعبت أدواراً درامية وآسرة. وخامسها أن جنوب آسيا سيبقى لسنوات كثيرة مقبلة منطقة حساسة بالنسبة إلى الأمن القومي الأميركي، وعلينا أن نتعلّم من نجاحاتنا ومن أخطائنا.

يوجز هذا النص أيضاً عالماً جديداً من المخاطر ودور جمع الاستخبارات والعمل الخفي في مثل هذه البيئة. ويشتمل على استكشاف المبادئ الاستراتيجية والدينامية المعقّدة الموجودة بين الاستخبارات والسياسة. ويراجع الكتاب حلقة الوصل بين النزاع والاستخبارات والحكم والمجتمع.

آمل في إلقاء بعض الضوء على فن الاستخبارات بسرد بعض الدروس التي تعلّمتها في سياق حياتي المهنية، تعزّزها تجارب الآخرين ووجهات نظرهم. ويشكّل هذا الكتاب محاولة مني لوصف قيمة الاستخبارات وكيف يمكنها حماية المؤسسات الليبرالية والارتقاء بمجتمعنا العالمي الذي يتزايد تشابكاً وترابطاً. وهو يتعلّق أيضاً بقيمة ضباط الاستخبارات بالنسبة إلى أمتنا.

يشكّل عنوان الكتاب تحية لمدير السي.آي.إيه الراحل ألن دالاس الذي كتب في عام ١٩٦١ «حرفة الاستخبارات» وللاستراتيجي الصيني صن-تزو الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد وكتابه «فن الحرب». ويستشهد دالاس في الجملة الأولى من كتابه بصن-تزو. وأنا مدين بالشكر لكثيرين آخرين ممن قاموا أيضاً بتوجيهي.

وليست الاستخبارات في النهاية أمراً جديداً بالضبط.

شدّد صن-تزو على أن فن الحرب ضروري للدولة. وأضاف أن «كل العمليات الحربية ترتكز إلى الخداع»، وأنه «إذا عرفت العدو وعرفت نفسك لا تحتاج إلى القلق من نتيجة مئة معركة». وهو بذلك يشير إلى قيمة الاستخبارات.

وما صحّ في الصين القديمة يصحّ اليوم. أخذت الحرب والاستخبارات تصبح أكثر حيوية ليس للدولة وحسب، بل أيضاً للاعبين من غير الدول وللمواطنين، لأننا ندخل في حقبة جديدة من النزاع بمميزاتها الخاصة ومتطلباتها.

بات عالم الاستخبارات في تقلّب كبير بسبب هذا التحوّل التاريخي. ويكافح مجتمعنا الاستخباراتي للعمل بفاعلية تشدّه في اتجاهات عدة قوى النزاع والتعاون الجديدة، ويتلوّى جراء المصالح السياسية المتغيّرة. وهذه المتلازمة حادة بنوع خاص في الولايات المتحدة حيث للمجتمع توقعات مختلفة ووجهات نظر متناقضة حول دور الاستخبارات. ويختلط الاحترام مع الرومانسية والمعرفة والجهل والريبة والخوف والنفور في ذهننا الوطني عندما نفكّر بالجواسيس. أو كما قالت مستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس في جلسة استماع في الكونغرس: «لدينا حساسية من الاستخبارات». ونكافح، كأمة، لفهم ودعم وكالات الاستخبارات ومحترفي التجسّس.

سينمو دور الاستخبارات مع استمرار التحوّل في طبيعة الحرب. ويحتاج جميع المواطنين، وليس مسؤولي الحكومة وحدهم، إلى إدراك أفضل للاستخبارات، إن لجهة قدراتها أو لجهة حدودها. ويمكن لاستخبارات أفضل أن تحمي تقدّم مصالح الولايات المتحدة وحلفائنا، وتساعد في تعزيز الديمقراطية الليبرالية على مستوى العالم. وهذا ما دفعني إلى خدمة بلادي، وما يجعلني استمر في احترام قسمي للدستور. وهذا هو السبب الذي يدفعني أيضاً إلى وضع هذا الكتاب.

آمل أن أنقل إليكم بعضاً ممّا تعلمته.

الفصل الأول

الحلم

إذا استطعت تخيّل الأمر فستمكّن، من تحقيقه. وإذا حلمت به فسيمكنك أن تصبحه.
ـ وليام آرثور وارد

حلمت وأنا فتى صغير أن أصبح جاسوساً. ووجدت بطريقة ما، وأنا في حوالى العاشرة أو الحادية عشرة من العمر، عنوان مكتب للسي.آي.إيه وكتبت رسالة بخط اليد، ربما على ورقة مسطّرة، أشرح فيها رغبتي في الخدمة. وجاوبتني السي.آي.إيه بعد ذلك بنحو أسبوعين. اكتشفت، بعودتي إلى المنزل من يوم روتيني آخر في المدرسة، مغلّفاً مختوماً ينتظرني، وضعته أمي على طاولة الكتابة في غرفة نومي. اعتنيت في إخراج الرسالة المكونة من صفحة وحيدة مطبوعة على ورقة للسي.آي.إيه رسمية مع شعار رأس النسر فوق بوصلة متعدّدة النجمات. وشكرني الشخص العطوف، الذي ردّ على رسالتي، على اهتمامي وشجعني على إعادة تقديم طلبي في عمر لاحق.

أذكر أنني أمسكت بالرسالة وفكّرت، ما مدى روعة الأمر؟ السي.آي.إيه موجودة بالفعل. وربما سيريدونني في يوم من الأيام.

والآن، بعد ذلك بأكثر من أربعين عاماً، لم تعد الرسالة بحوزتي، إلا أنني أعتزّ

بتلك الذكرى وبالكثير غيرها بعد سنواتي في الجهاز الخفي التابع للسي.آي.إيه. الأمر أكثر من وظيفة أو حياة مهنية، لأنه تحقيق لأمل مصمّم. أحببت كل يوم من أيامي في السي.آي.إيه حتى تلك القاسية والبشعة منها. وأتاحت لي خدمتي فرصة المساهمة بطرق فاقت حتى مفاهيمي الرومانسية الصبيانية.

في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١، وفيما القوات الأفغانية والأميركية تدحر الطالبان والقاعدة في أفغانستان، أنهيت والجنرال تومي فرانكس اجتماعاً جيداً آخر؛ وكل الاجتماعات معه جيدة. وفي لحظة خاصة ونحن نسير في الليل البارد على المدرج الإسمنتي للمطار العسكري الأميركي، وضع يده الكبيرة على كتفي وقال بمرح بصوته التكساسي الجهوري الذي كونه السجائر: «أعرف ما الذي تفعله يا هانك! أنت تعيش الحلم!».

وأجبته: «أصبت يا جنرال». وتساءلت إلى أي درجة هو محق. هل انتابته أفكار رومانسية مماثلة وهو فتى؟ تصورت أنه فعل ولا بدّ، أو أقله قام بما هو قريب منه. أدرك بحدسه ما حلمت به منذ فترة بعيدة. ونظرت إلى الجنرال في ضوء مختلف بعد هذا الحديث الوجيز. فهو أكثر بكثير من إنسان قاسي العظام والغضروف ومن سيل من التجديف. وعشت في وقت لاحق من تلك الليلة لحظة تأمل وفكّرت ملياً بواجبي في السي.آي.إيه

فاق حس المغامرة وروح الجماعة والخدمة كل ما سبق لي أن تخيّلته قبل ذلك بعقود. إلا أن التحديات جاءت أكثر قساوة هي الأخرى. لم أحلم قط بالأسى والغضب المريرين الناتجين عن كارثة مثل ٩/١١ وعن فقدان رجال وعملاء أجانب وضباط في السي.آي.إيه عملوا تحت إمرتي. كنّا في وسط حرب وأنا مسؤول عن حملة السي.آي.إيه في أفغانستان. وقد سبق أن نشرنا الفرق الأولى في داخل أفغانستان بعد أيام قليلة فقط على ٩/١١. امتلكنا نحو مئة ضابط منتشرين في كل زاوية من زوايا البلاد يعملون مع الميليشيات القبلية الأفغانية ويجمعون المعلومات وينخرطون في عمليات التدمير والتخريب والقتال. وامتطى بعض من رجالنا، ممن

انضمّوا إلى قوات الجيش الأميركي الخاصة، الأحصنة للمضي إلى المعركة. وشغّل آخرون طائرات «بريداتور» المسلحة التي تطير من دون طيار في السماء من فوقهم. فنحن ننتقم لهجوم رهيب على موطننا، ونحمي أمتنا. وغالباً ما طلب رئيس الولايات المتحدة التوجيه منّا، ونحن نقتل من العدو الآلاف.

حلمت طويلاً وأردت يائساً أن أخدم بلادي في زمن الواقعة الكبرى ومحاربة العدو الشرير.

شكّل النزاع المسلح في حروب أخرى وفي قرون مختلفة موضوع هوسي وأنا صبي. وغالباً ما أخذتني أمي، وهي معلّمة شجعتني على الاستكشاف، إلى مكتبة مقاطعة وارن في جورجيا. وفي الطابق الأرضي من مبنى حجري متهاوٍ من ثلاث طبقات احتوى في ما مضى على مدرسة المقاطعة، كفّنت المكتبة الصغيرة بالعزلة القاتمة، إذ حجبت الرفوف العالية المكتظّة بالكتب الرثّة معظم الضوء الذي يكافح للولوج من النوافذ الداكنة. والتصق مزيج من الغبار والعفن الفطري على الكتب وبعضها لم يُفتح من سنين. إنه ملاذ هادئ للمعرفة المخفية. أحببت المكان.

امتلأ رف صغير بسِيَر حياة الأبطال الأميركيين. وكان جورج واشنطن ونتانيل غرين وفرانسيس ماريون الملقب بثعلب المستنقع بعضاً من المفضلين لديّ. وغالباً ما اتسمت المعارك التي خاضوها ضد الإمبراطورية البريطانية بِسِماتٍ غير تقليدية وتطلبت معرفة خاصة وبصيرة نافذة، إلى جانب رأسمال إنساني متفوق وبخاصة في الزعامة. وهنا تعلّمت أنه لولا الاستخبارات والعمل الخفي لأخفق هؤلاء الزعماء المحاربون جميعهم.

شكّل جورج واشنطن بكل المقاييس سيداً استثنائياً في الجاسوسية وقد شدّد بقوة على حرفة الاستخبارات وقيمة منتوجها. واستخدم كل أنواع الاستخبارات: من جمع المعلومات إلى التحليل ومكافحة التجسّس والإنكار والخداع والدعاية. وعلمتُ أنه حتى بنجامين فرانكلين البدين والمثقف كان جاسوساً بارعاً في الاستخبارات، وأدار شبكة من العملاء في أوروبا.

أسر فرانسيس ماريون مخيّلتي ربما أكثر من أي شخص آخر. أعجبتني هجماته الخفية، السريعة، الدقيقة والجسورة على طريقة حرب العصابات على البريطانيين في أنحاء منخفضات كارولينا الجنوبية. ولم يكتفِ بمعرفة العدو فحسب، بل عرف أيضاً البيئة، الأرض المادية والإنسانية معاً. وهو واحد من أوائل أبطال الحرب غير النظامية في أميركا. ولا أزال حتى الآن أفكرّ في عمليات ثعلب المستنقع الجريئة كلّما قدت سيارتي على الجسر الذي يعبر نهر «بي دي» في كارولينا الجنوبية.

عمدت، وأنا فتى مشاكس مفتون برومانسية مآثر المحاربين، إلى إعادة خوض معارك الحرب الأميركية في الحقول والأحراج الواقعة خلف منزلنا. حفرت الخنادق والتحصينات. هاجمت الأشجار والأكمات. تعقّبت الأعداء الخياليين، راكضاً عبر الأحراج ومطلقاً النار على الأعداء، مهاجماً وصارخاً. ولا بد أن جيراننا، وهم قلة، اعتقدوا أنني مجنون.

وقرأت المزيد. أطلق طرزان لإدغار رايس بورو وكونان لروبرت إي. هوارد العنان لمخيلتي وأمدّاني بالوحي في لعبي. واستمتعت بالفن التصويري لفرانك فرازيتا الذي طلس الأغلفة الورقية لهذه الروايات الخيالية بأبطال ذوي عضلات مفتولة متجهّمين عابسين وقد زخرفها في الغالب بنساء شبه عاريات ذوات حجوم منافية للعقل.

لم استمتع في المدرسة الابتدائية بالرياضيات والعلوم لكنني أحببت العلوم الاجتماعية والجغرافيا والتاريخ. وأذكر بوضوح عندما علّمتنا مدرّستنا في الصف السادس الآنسة لانغدون عن غزوات الأشوريين عبر بلاد ما بين النهرين. ولم يمكنني بالطبع أن أعرف أنني في ٢٠٠٦ سأعبر مسرعاً ساحة القتال تلك بالذات بمروحية «سي إتش ـ ٤٧» ترافقني قوات خاصة أميركية بوصفي سفيراً أميركياً ومنسقاً لمكافحة الإرهاب، وقد أصبحتْ مرة أخرى منطقة حرب، لكن بات اسمها العراق.

انكببت، مع تقدمي في العمر، على الكتب المتعلقة بممارسة الاستخبارات والحرب الحديثة. وأذكر «الخط الأحمر الرفيع» The Thin Red Line لجايمس جونس عن معركة غوادلكانال. وقد تشبّعت صفحاته بالانفعالات الإنسانية كلها، المريعة منها والبطولية. تضاف إلى ذلك الرواية الكلاسيكية «نموت وحيدين» We Die Alone عن الفرار والهرب في الحرب العالمية الثانية وهي من وضع الكومندور النروجي جان بالسرود الذي تحمّل معاناة مستحيلة. وقد راعني تصميمه على البقاء إلى حد بتر أصابع قدميه التي عضها الثلج لتفادي المزيد من انتقال العدوى والموت. وقرأت كتباً عن مكتب الخدمات الاستراتيجية (أو. أس. أس)، الذي مهّد، في زمن الحرب، لنشوء كل من القوات الخاصة والسي.آي.إيه، وقرأت عن «لصوص ميريل» في بورما. كما إنني، وربما هذا هو الأهم، وضعت يدي على «حرفة الاستخبارات» The Craft of Intelligence لألن دالاس. ولا أزال أحتفظ بالكتاب، وهو الإصدار الأول المجلد بالورق لدار «سيغنت»، وقد طُبع في ١٩٦٥. وقد تجعّدت صفحاته الآن واصفرّت مع الزمن.

شاهدتُ شون كونري في دور جايمس بوند في فيلم «عملية عاصفة» Thunderball. جلست في القسم الأوسط لأحظى برؤية أفضل لقلب الشاشة في دار سينما «نوكس» الصغيرة الرثة في وارنتون، جورجيا. وانتجتْ شخصية بوند، المتشبّعة بالشخصانية التي تقارب المرض، تقابلها خدمة خالية من الأنانية للحكومة، أحلاماً جديدة. وطرحت لامبالاته بالسلطة وإخلاصه للمهمة، إلى جانب إبداعه الرائع، تعديلاً جديداً في مفاهيمي الآخذة في الظهور حول خدمة الحكومة. بيد أنني لم أهتم البتة بحنكته الاجتماعية، فهو في النهاية بريطاني. وربما أدركتُ، بسبب جذوري العميقة في الأحراج الخلفية في جورجيا، أنني لن أبلغ أبداً هذه الأناقة الكوزموبوليتية. أو إنني ربما لم أرغب أبداً بالمشروبات الفاخرة وبالملابس الباهظة الثمن. بيد أنني أردت كل شيء آخر وصمّمت على تحقيق ذلك.

شاهدت وعائلتي التغطية الليلية لحرب فيتنام على شبكات الأخبار. وتحدثنا عن الفتية المحليين الذين يقاتلون هناك، وبعضهم لم يعد. كثيرون جداً هم شبان مزارع وغابات مقاطعة وارن في جورجيا الذين لم يعودوا من الحروب التي خاضتها بلادنا. وتوجد نُصب في ساحة البلدة مكرّسة لخدمتهم وتضحيتهم. وقد حفر ١٥٤ اسماً لقدامى الحرب الثورية المدفونين في المقاطعة على كتلة من الغرانيت قبالة مبنى المحكمة. وهذا رقم استثنائي لمقاطعة بهذا الصغر.

غالباً ما اصطحبني والدي المسّاح ورسام الخرائط وحارس الغابة والحطاب إلى العمل معه أو إلى الصيد. وعثرنا في مرات عدة على مقابر مهجورة ذات مدافن مغمورة. استصلحت مصلحة غابات جورجيا الكثير جداً من المزارع العائلية وبعضها يحتوي على قطع أرض مخصصة لموتى العائلة. ولا يزال الكثير منها يحتفظ بشواهده، وبعضها مكسور، وبعضها الآخر غطّته بقع من الطحالب، وبعضها بهت إلى حد تصعب معه قراءة الأسماء والتواريخ. سكنتني القبور التي دخلت منذ فترة طويلة طي النسيان، وبعضها لجنود، وألهمتني. التفّ الفخر الكئيب بالواجب غير المعلن والشرف السري من حول هذه المواقع المقدسة الموجودة في عمق الغابة الهادئة.

ولعائلتنا تاريخ في الخدمة. فوالدي شغل على مدى نحو سنتين منصب ضابط صف في الفرقة المجوقلة ١٠١. وقاتل أشقاؤه الأربعة الأكبر منه سنّاً في الحرب العالمية الثانية. وحارب أجداده الكبار الأربعة جميعهم في صفوف الجيش الكونفدرالي في معركة «بيتشتري كريك» خارج أتلانتا. وتطوّع جدي الأعلى المباشر وليام كرامبتون في ١٨٦٣ وهو في الثالثة والأربعين. ووُصف في جدول الأسماء بأن طوله خمس أقدام وعشرة إنشات وهو ذو شعر داكن وبشرة داكنة. وبدا أنه يجهل القراءة والكتابة، إذ اكتفى بعلامة x مكان التوقيع.

أما جدي فهو أول من تخرّج في عائلته من الثانوية. أنجز ذلك بالمراسلة وهو

في الثامنة والثلاثين. أما والدي وأحد أشقائه فهما أول اثنين من آل كرامبتون يتخرجان من الجامعة.

شدّد أهلي على أهمية التعليم. وتخرّجت والدتي، التلميذة اللامعة والعاقدة العزم، من المعهد وهي في التاسعة عشرة. وشرعت على الفور في التعليم في المدرسة الابتدائية، عاضدة والدي الذي تابع دراسته في كلية الأحراج في جامعة جورجيا. وقد وفّرا لي كل فرصة للتعلّم.

أحببت العلم وانكببت على الدرس في مدرسة رسمية صغيرة تفتقر إلى الصفوف المتقدمة وإلى برامج التكريم، لكنها تمتلك معلمين جيدين وحريصين. تفوّقت في صفي وقفزت من فوق الصف السابع.

وضعت، وأنا في الصف الثامن، بحثي الأول وموضوعه حرب الأيام الستة في ١٩٦٧ التي حققت فيها إسرائيل انتصاراً مذهلاً على جيرانها العرب. شكّلت حرباً وجيزة تم الانتصار فيها قبل بدء المعركة بفعل التحضير الكثيف والاستخبارات الاستثنائية.

يتفوّق الهرمون الذكري في سن المراهقة على أحلام الطفولة، فانجرفت بعيداً من تلك الأحلام المتعلقة بخدمة الوطن وركّزت على مغامرات أكثر فورية وريبة. غادرت المنزل وأنا في السادسة عشرة وفي جيبي مئة دولار ومعي كيس المتاع العسكري الخاص بوالدي الذي مدّني بالمال، فيما أعطتني والدتي قبلة دامعة. أحببتهما بقوة، ولا أزال، إلا أن وقت الرحيل قد حان. فهناك عالم موجود في ما وراء غرفة الصف وما وراء أحراج جورجيا الصنوبرية.

سافرت غرباً ووجدت عملاً في ألاباما مع فريق مسح للأراضي. وتركت العمل بعد ذلك بأسابيع إلى وظيفة في معمل للسجّاد حيث قمت برزم ونقل مكبّات كبيرة من الخيوط. عملت في الدوام المسائي لأتمكن من الالتحاق بالمدرسة في النهار. غادرت ألاباما في السنة التالية، بعدما اشتغلت أربعين ساعة في المعمل وتابعت دراستي، ومعي رأسمال صغير وشهادتي الثانوية.

تابعت سفري غرباً. وقمت برحلتي الأولى إلى الخارج، وأنا في السابعة عشرة، إلى خواريز في المكسيك. عبرت الجسر سيراً من إل باسو في تكساس، وسأعود إلى المكسيك تكراراً.

التحقت بمعهد سانت جون في سانتا في وقد شدّني إليه «برنامج الكتب العظيمة». غير أنه سرعان ما اجتذبتني الفرص اللامنهجية في جامعة نيو مكسيكو في ألبوكرك، فانتقلت إليها. ودرست بشغف على مدى أربع سنوات: العلوم السياسية والتاريخ والأنثروبولوجيا والجغرافيا. وطاردت أيضاً الطالبات وتزلجت في تاوس ومارست الفنون القتالية ولعبت الركبي على الملاعب التي جفّفتها الشمس والمنتشرة في الجنوب الغربي.

انجرفت بعد تخرجي إلى ما وراء البحار متصوّراً، وأنا على هذا القدر من الاهتمام بالجغرافيا العالمية وبالسياسة الدولية، أن عليّ الحصول على منظور أفضل وأكثر عمقاً. جلتُ وعملت حيث أمكنني وأنا أزور نيوزيلندا وأستراليا وإندونيسيا وسنغافورة (حيث على جميع الرجال ذوي الشعر الطويل العودة إلى نهاية خط الوصول عند الجمارك والهجرة) وماليزيا وتايلندا والاتحاد السوفياتي والنروج والدنمرك وألمانيا وهولندا والمملكة المتحدة. وتمكّنت، بعون الله، من التملّص من الوقوع في قبضة القانون بسبب انتهاكات قانون الهجرة والتهريب والمتاجرة بالعملة في السوق السوداء والإخلال العنيف بالأمن العام وغير ذلك من الجنح. أمضيت سنة ثقافية رائعة في الخارج شكّلت تعريفاً حرّ الشكل بالمجازفة العالمية وبالمجازاة.

عدت، وأنا في الثانية والعشرين، إلى الولايات المتحدة وقدّمت طلباً آخر للالتحاق بالسي.آي.إيه وتلّقيت رسالة رفض أخرى. وعدّدت الرسالة المهذبة والرسمية الكثير من مكامن النقص عندي. أبلغتني السي.آي.إيه بضرورة متابعة درجة علمية متقدمة وباكتساب المزيد من الخبرة الدولية وبتعلّم لغة أجنبية، لغة مفيدة أكثر من إسبانية الشارع البدائية أو الأسترالية العامية.

ضمنت قرضاً طالبياً وانتقلت إلى منطقة واشنطن العاصمة ووجدت عملاً بدوام جزئي، وتسجّلت في كلية الدراسات العليا في الجامعة الأميركية. لم أقتنع بدراستي وصمّمت أكثر من ذي قبل على أن أصبح جاسوساً فاستحصلت بعد نحو شهرين على عنوان مكتب التجنيد المحلي للسي.آي.إيه في روسلين، فرجينيا.

دخلت إلى المكتب من دون موعد مسبق وجلست في قاعة الانتظار. وفي النهاية رحبت بي موظفة الاستقبال وشرحت لها أنني أريد الانضمام إلى جهاز السي.آي.إيه الخفي. طلبت مني الانتظار وذهبت. لم يوجد أحد آخر في المكان. وتساءلت هل أنني أخضع للمراقبة أو يتم تصويري. الأمر يوقف شعر الرأس.

وصل شاب أسود أنيق في حوالى الثلاثين للترحيب بي. واستخدم نوعاً من الاسم التافه وهو يصافحني. ووصف نفسه بأنه ضابط عمليات في السي.آي.إيه وقد عاد للتو من مهمة في الخارج. وبعد سؤالين في منطقة قاعة الاستقبال، حاول على ما يبدو أن يسبر فيها نواياي، جاملني طارحاً إجراء مقابلة معي. وانتقلنا إلى مكتب صغير. كان حذقاً ومرتاحاً وفاتناً وامتدت المقابلة إلى ما يقارب الساعة. أعطيته سيرتي المهنية وتقريراً بعلاماتي في المعهد وسبل الاتصال بي. سألني مرتين هل إن معدّل علاماتي مرتفع في الحقيقة إلى هذا الحد، وأكّدت له الأمر. وسأل عن تجاربي في الخارج، وأخبرته بالحقيقة، كل الحقيقة. ثم سألني هل انتهكت أية قوانين أميركية. واعترفت بشجاراتي مع حراس محمية الصيد وأنا فتى ما استوجب تلقي بعض التوبيخات القاسية. وأنني اشتركت ـ وأنا مربوط على مقود سيارة «بونتياك جي. تي. أو.» طراز ١٩٦٩ بمحرك سعته أربعمئة إنش مكعب ـ في بعض سباقات الشوارع من دون أن تمسكني الشرطة. وأنني انتهكت بعض قوانين السير. وأنني أطلقت الرصاص من أسلحة نارية عند حدود المدينة. وأنني خضت الكثير من الشجارات بالأيدي. وأنني قمت في حالات قليلة بالركض عارياً، ولكن لم أُعتقل أبداً وبالتالي لم أُتّهم بشيء. وهذا كل شيء. وسألني هل سبق لي أن جرّبت تعاطي المخدرات وأجبته: لا. مضيفاً

أنني أمتنع حتى عن معاقرة الكحول. وربما أنه تساءل عن كل حوادثي السيئة، وأنا صاحٍ.

سألني لماذا أريد الانضمام إلى السي.آي.إيه وأجبت أنني أحب بلادي وأريد خدمتها وهذه هي الطريقة الأفضل للمساهمة. وأخبرته أنني كتبت وأنا صبي إلى السي.آي.إيه وأردت أن أصبح ضابط عمليات. إنه حلم حياتي.

كان مهذّباً، لكنه لم يقدّم أي تشجيع أو تعقيب. وغادرت وأنا أفكّر بأن المقابلة أفضل من أي رسالة رفض أخرى. فقد تحدثت على الأقل مع ضابط سي.آي.إيه حقيقي. وسيطرتُ على آمالي، إذ ربما تطلّب الأمر سنوات. سأنهي إجازة الدراسات العليا وأتعلّم لغة أجنبية وأسافر لمدة قصيرة وأعود لأقدم طلباً جديداً. ربما أذهب إلى المكسيك وأتعلّم الإسبانية. وربما أعود إلى جنوب شرق آسيا. ربما ألتحق بالجيش بالرغم من أنني لا أحبذ فكرة ارتداء زي رسمي والالتزام بنظام مكرّر وروتيني. فالحد الأقصى لسن توظيف ضباط عمليات السي.آي.إيه المحتملين هو الخامسة والثلاثين، ولديّ بالتالي المزيد من الوقت. وقد بدا هذا العمر بعيداً للغاية، وأنه تقدّم كبير في السن.

اتصلت السي.آي.إيه في تلك الليلة. أرادوا مني العودة في الأسبوع التالي لمقابلة أخرى.

«يا للهول»، تمتمت وأنا أقفل سماعة الهاتف. ووثبت في أنحاء الغرفة وأنا ألاكم بقبضتيَ الهواء وأختنق عواطفي. لقد توفّرت لي فرصة بعد سنوات من الحلم والاستعداد.

بعد تسعة أشهر والكثير من المقابلات والاختبارات والخضوع لجهاز فحص الكذب، انضممت إلى الجهاز الخفي في السي.آي.إيه بوصفي ضابط عمليات متمرّناً. كنت في الثالثة والعشرين.

الفصل الثاني

التدريب

يُعتقد أن الخبرة والمهارة لدى مختلف الأفراد هما من أنواع الشجاعة:
حيث أن سقراط اعتقد أيضاً أن الشجاعة معرفة.
ـ أرسطو، الأخلاق النيكوماخية

كنت الأصغر سنّاً في صف التدريب في السي.آي.إيه والأقل علماً وخبرة. لم أخضع للخدمة العسكرية، ولا أعرف لغة أجنبية، ولا أمتلك شهادة في الدراسات العليا ولا مهارات تقنية ولا نَسَباً مهنيّاً.

شرعتُ في العمل اليدوي الجاد وأنا في الثالثة عشرة. ونضمّن ذلك التلويح بساطور خاص لفتح الطرق أمام خط المساحة في الأحراج الكثيفة، وحفر الخنادق إلى جانب الطرق المعبدة بالأسفلت الحار وسحب الخشب في مواقع البناء. وحاولت وفشلت في احتراف الركبي في الدوري الأسترالي. وتشاجرت عبر أربع قارات ونتج عن ذلك، عندي وعند الآخرين، كسر عظام وفقد أسنان. إلا أنني لم أصب بجروح تنهكني ولم أمتلك سجلاً إجرامياً. ويبدو أن السي.آي.إيه تصوّرت أن للأمر اعتباراً ما.

أمكنني قراءة الخرائط وإيجاد طريقي في الأدغال والنجاة في أراضٍ أجنبية والتعامل مع الأسلحة النارية والمثابرة على العمل. والأهم أنني جلبت معي رغبة

وقدرة على التعلّم وعلى إدارة المخاطر الكبرى وعلى خدمة بلادي في أماكن غامضة وبعيدة.

ضمّت دورة تدريبي في السي.آي.إيه أكثر من ثلاثين مواطناً أميركياً كانوا حتى فترة قريبة طلاباً وجنوداً ورجال أعمال وشرطة ومحامين وبيروقراطيين. واجتزنا العتبة بعد أشهر كثيرة من التحقيق في خلفياتنا، ومن الاختبارات والمقابلات. أصبحنا متدربين في الجهاز الخفي التابع للسي.آي.إيه، الذراع التجسسية للولايات المتحدة الأميركية. عملنا لمدير الاستخبارات المركزية الذي عمل للرئيس. وتساءلتُ عن النتيجة في خلال الأشهر الثمانية عشر المقبلة من التدريب. من سيتأهّل لمهمة خفية فيما وراء البحار؟ تملّكتني الثقة، وقد غذّاها تصميمي على التفوّق وسط هؤلاء المتدربين الأكبر سناً والأكثر خبرة والأشد ثقافة. وعزّزت هذه الثقة شجاعتي على استكشاف جهلي والتعلّم من هذا الاستكشاف. كايدني حس المغامرة، وتساءلت عن الكثير من الأمور لكنني لم أفكّر مرّة بأنني سأفشل. كما أنني لم أتخيّل أبداً أن يجسّد رفاق صفي التدريبي أموراً قصوى مثل الوطنية البطولية والخيانة الإجرامية.

أحد هؤلاء هو إدوارد لي هوارد الذي ارتدّ إلى الاتحاد السوفياتي وفضح عملاء خارجيين مخلصين للسي.آي.إيه، وهم من الروس الذين اعتُقِلوا وحوكِموا وكُبّلوا ثم أُطلقت النار على رؤوسهم من الخلف. كما أنه زوّد مشغلّيه السوفيات بأسماء رفاق صفّه التقييمي، وأنا من بينهم. وبرز هذا بعد ذلك بسنوات عندما قرأت وثيقة سرّية أعطتها الـ«كا. جي. بي.» لأحد أجهزة الأمن الخارجية، وهو جهاز اخترقته السي.آي.إيه. وسلمني مصدرنا، من دون أن يخفي حبوره، ورقة الـ«كا. جي. بي» في وقت متأخر من إحدى الليالي خلال لقاء وجيز في زقاق مهجور. وعرّفت عني المذكرة، وقد قرأتها في وقت لاحق من تلك الأمسية بعدما بدلت سيارتي وعدت إلى المنزل، بأنني ضابط في السي.آي.إيه. وحذّرت الـكا. جي. بي» جهاز الأمن الأجنبي بأنني خطر وتتوجّب مراقبتي. لم أفاجأ، لكنني

أحسست ببعض التوتّر لرؤية اسمي في مذكرة للـ «كا. جي. بي.». إلا إنني شعرت، بعد لحظة من التفكير، بالإطراء.

رفيقي الآخر في الصف كان ستيف كابس. وهو عملاق أصلع يضع نظارتين، ولاعب كرة قدم سابق في المعهد، درس علم الأمراض في الطب الشرعي ثم خدم فترة خمس سنوات ضابطاً في المارينز. وقد مارس ستيف القيادة المنضبطة منذ اليوم الأول. وسيقود عمليات السي.آي.إيه الميدانية في زمن الحرب، ويساعد في إقناع القذافي بالتخلي عن برنامج الأسلحة النووية في ليبيا. وسيترقّى في النهاية إلى قمة الجهاز الخفي ويستقيل لأسباب مبدئية ليعود بعدها نائباً لمدير السي.آي.إيه. ولا يزال ستيف واحداً من أصدقائي والمؤتمنين على أسراري.

استلمنا، بعد وقت قليل على بدئنا، النتائج من الفريق الطبي والصحة النفسية نفسه الذي فحصنا خلال عملية التقويم/التوظيف التي قامت بها الوكالة. أطلع كلانا، ستيف وأنا، واحدنا الآخر على نتائج الأطباء النفسيين. وأظهر ستيف الصورة النفسية المثالية لضابط محرّك للعملاء: منفتح باعتدال، حاد التحليل، يمتلك حسّاً متوازناً بالمخاطرة، وهو أيضاً يقدر تراتبية القيادة ويحترمها.

أما أنا فلم أتناسب مع هذه الصورة، بل احتللت في جدول الطبيب النفسي مرتبة شبه المنطوي على ذاته، البديهي جدّاً، غير التقليدي، ومن النوع شبه المتمرّد. وأنا، في تركيبة عجيبة، أخفي نفوراً من السلطة لكنني أقدم الإخلاص لمن أخدمهم. وأكدوا لي مع ذلك أنني أقع ضمن الحدود العلمية القصوى للقبول. بيد أنهم يرون أن علاماتي تشير إلى احتمالات مهنية متواضعة.

ولطالما تساءلت كيف بدا الملف الشخصي لإدوارد لي هوارد.

تلقينا توجيهنا الأساسي في غرفة صف في مبنى عادي للمكاتب في ضاحية فرجينيا. وكان المدربون هم الآخرون عاديين، ولا يمكنني تذكّر أيّ منهم. إلا أنني أذكر الاستمارات الكثيرة التي عبأناها والهيكليات التنظيمية التي حفظناها غيباً. كما إنني أذكر محاضرة مقرونة بعرض للشرائح المصورة تظهر أنظمة الأسلحة

الأجنبية وقد وُضعت جنباً إلى جنب مع مثيلاتها الأميركية. بدت الصور متشابهة في شكل ملفت لأن الجواسيس الأجانب سرقوا المخططات الأميركية. وشرح المحاضر أمثلة مختلفة عن حالات تجسّس معروفة ضد الولايات المتحدة، إضافة إلى تلك الأكثر إثارة للقلق والمتعلقة بالخسارة التي لا تفسير لها لأسرار مختلفة لمصلحة قوى خارجية. وأطلق ذلك موضوعاً متواصلاً وحيوياً خلال فترة التدريب وفي حياتي المهنية: الحاجة إلى المعرفة وإلى التصنيف والتحقّق من المعلومات الاستخباراتية ومن مصادرها. وضعت هذه الشروحات التمهيدية المتعلقة بالأمن وبمكافحة التجسس أسس ثقافتي التجسسية.

وقد تؤدي كل حلقة تدريبية إلى إصدار أمر بتولي مهمات مؤقتة تستمر من عدة أسابيع إلى عدة أشهر في الأقسام الجغرافية أو العملانية داخل الجهاز الخفي الذي يُعرف أيضاً باسم مديرية العمليات. وجاء ذلك بمثابة تقديم سريع لنوعية العمل في الأقسام التي سيلتحق بها كل واحد منّا في النهاية. وسبق لي أن سافرت عبر جنوب شرق آسيا وأحببت المكان، فطلبت تولّي مهمة في هذا الفرع.

وبوصفنا أغراراً متدربين لا نعرف شيئاً عن العمل الموكل إلينا، كُلّفنا أساساً العمل سعاة مكتب. بيد أن ذلك شكّل فرصة رائعة لإلقاء نظرة على العمليات الفعلية، وتلقي التعليم من جواسيس حقيقيين يعملون في مقر القيادة بعد انتهاء مهمتهم في الميدان.

حصلتُ، في الأسبوع الأول من مهمتي المؤقتة في أحد مكاتب فرع جنوب شرق آسيا، على نكهتي الأولى من العمليات المتعلقة بالموت والحياة. فقد كدّس أحد الضباط، وهو فتى لطيف ولكن خشن، أمضى سنوات كثيرة في فيتنام، ملفات على مكتبي وطلب مني أن أقرأها وأقدم له تقويمي لها. أراد أن يعرف كيفية التخلّص من حسابات إيداع لعملاء أجانب فقدنا الاتصال معهم. كشفت الملفات عن روايات بطولية ولا تعرف الرحمة. واحتوت واحدة من الأكثر إزعاجاً على نسخة مكتوبة لاتصالات لاسلكية لعميل أجنبي يلعن مشغّله

في السي.آي.إيه الموجود في مكان آمن وبعيد، فيما العميل وفريق استطلاعه يتعرضون لاجتياح العدو. ولم يمتلك العميل الميت عناصر معروفين من عائلته، أقله ما من أحد على قيد الحياة. واقترحتُ إقفال حساب الإيداع وإعادة المال إلى الخزانة الأميركية.

أذكر أيضاً أول تجربة لي مع عملية تسريب خلال تلك المهمة المؤقتة نفسها. راعني في أوائل ١٩٨١ رؤية العناوين الكبرى في واشنطن بوست وهي تكشف عن وجود فريق استطلاع من السي.آي.إيه في لاوس يبحث عن أسرى حرب فيتنام الأميركيين. والرواية صحيحة لأنني ساعدت في تنظيم بعض اللوجستيات في مقر القيادة. وعرفت أن الفريق لا يزال في لاوس وببعد مسافة طويلة من الحدود التايلاندية ومن السلامة. كيف أمكن حصول هذا التسريب؟ ولماذا تطبع صحيفة أميركية مثل هذا الموضوع؟

انتقلت في مهمتي المؤقتة التالية إلى قسم أفريقيا. كدت لا أعرف شيئاً عن تلك القارة، غير أن قيادة القسم والعملاء الميدانيين استهووني. وقد شكّلوا مجموعة مختلطة ولكنهم بمعظمهم فرحون وفاحشون ومتهتّكون. ونظر البعض في الجهاز الخفي إلى قسم أفريقيا بوصفه مقر الضباط الأقل تقليدية والأكثر تمرّداً. ورأى فيه آخرون بؤرة من عدم الانسجام لا يمكنها العمل في بيئات أكثر تطوّراً.

وُضعتُ بإمرة رئيس أحد الفروع وهو رجل ضخم محاط بهالة أضخم من الكاريزما. وهو من بين أوائل الضباط شبه العسكريين في السي.آي.إيه الذين نُشروا في لاوس في أوائل الستينيات وعملوا مع الهمونغ. وتولى لاحقاً رئاسة محطة في البلدان الأفريقية الناطقة بالفرنسية. وهو يطالب بالتفوّق وبخاصة في مجال الاتصالات، ويتوقّع المبادرة وحتى الإبداع. كما إنه لم يتردّد في تكديس المسؤولية على متدربين شبان مثلي.

جلس في مكتبه، الذي جعله وجوده الذي يستهلك الكثير من المساحة يبدو أصغر مما هو فعلاً، وعلّمني كيفية التعامل مع فريق اتصال أجنبي مُرسل إلى

الولايات المتحدة لتلقي تدريب أساسي على الحرفة. وهذه علاقة استخبارية جديدة وأول زيارة لهم. وسيصل رئيس البلاد بعد وقت قليل من إنجاز التدريب. مثّل الأمر أهمية كبرى بالنسبة إلى الفرع.

سألته: «من سيشرف على هذه الزيارة؟ ومن هو الضابط المسؤول؟» وأجابني رئيس فرعي في شكل قاطع: «أنت هو».

قبعت في مكاني وأنا مدرك أنه فقد صوابه. فأنا حتى لم أخضع للتدريب ولا أعرف شيئاً عن أفريقيا، وبالتأكيد ليس عن هذه الدولة وليس عن جهاز الارتباط هذا. وأنا لم التحق بالوكالة إلا قبل أشهر قليلة، وبدأت حديثاً العمل في هذا الفرع.

راقبني رئيس فرعي منتظراً أن أقول شيئاً، ربما أرادني أن أنكمش خوفاً أو أعترض. وعادت بي الذاكرة إلى حادثة في دوري الصغار في كرة القاعدة وأنا ما زلت في حوالى السابعة أو الثامنة من العمر. طلب إليّ مدربي مايك هودجز الانتقال من خط الدفاع إلى القاعدة الأولى. ارتبتُ في الأمر وظهر عليّ ذلك، ورد مايك بنظرة من التبرّم والغضب وهو على حافة الحنق لأنني لم أثق بقراره أو بنفسي. ابتلعت خوفي وانتقلت إلى القاعدة الأولى وبقيت ألعب فيها ما تبقى من الموسم. وهي أمثولة يجدر تذكّرها.

«آه، ها، نعم سيدي. لا مشكلة. شكراً»، أجبته بقدر ما أمكنني استجماعه من ثقة بالنفس.

شرعت في إطالة لحيتي، واخترت فرانكو أول اسم عملاني مستعار. استطلعت البيت المأمون والتقيت بالقيّمين عليه، واجتمعت بالمدربين ونظّمت البرنامج. ثم التقيت بمتدربي الارتباط الأجانب وواكبتهم في كل تحركاتهم.

تدبّرت أمري بطريقة من الطرق على امتداد الأسابيع الأربعة التالية. لم يمكنني الحكم على فاعلية التدريب أو على الوقع العملاني أو السياسي لأنني لا أمتلك نقاطاً مرجعية. واكتفيت بالخدمة كمرافق جاهل ولكن ممتثل للواجب.

أذكر حصول مفاجأة واحدة فقط. ففي فترة الاستراحة من التدريب في وقت متأخر من بعد الظهر طلب أحد الطلاب الزائرين الحديث معي على انفراد، فانتقلنا إلى غرفة صغيرة في البيت الآمن بعيداً من الآخرين.

أشار التلميذ متجهّماً إلى ما بين فخذيه وهمس: «عضوي يؤلمني».

وسألته: «عضوك؟»

وكرّر القول: «عضوي الذكري».

«وما خطبه؟»

«لا أدري»، قال وهو يئن. «ربما يجب أن تنظر؟»

«كلا، هذا لن يحصل»، أجبته بتهذيب، «فأنا لا اتفحّص سوى عضوي. دعني أحضر طبيباً».

فحص طبيب السي.آي.إيه التلميذ في صباح اليوم التالي، وغادر الغرفة بعد بضع دقائق وألقى زجاجة حبوب في يدي قائلاً: «أعطيته حقنة. تأكد من تناوله الحبوب بحسب الوصفة».

وسألته: «أهو أمر سيء؟»

«ربما أسوأ حالة مرض سيلان لم يسبق لي أبداً رؤية مثلها». وربّت على كتفي وأسرع إلى سيارته.

وسرعان ما انضم إليّ مريضي الأجنبي.

لم أتصوّر أبداً هذا العمل جزءاً من مهمتي. ولم يمكنني أن أتذكر أية شروحات أو كتب أو أفلام لجيمس بوند بهذا الخصوص.

أمسكت بزجاجة الدواء قبالة وجه زميل الارتباط الأجنبي وشرحت ببطء وبلغة بسيطة: «يجب أن تتناول هذه الحبوب في كل يوم..»، وجلجلت زجاجة الحبوب، «... وإلا سقط عضوك».

«نعم، نعم، أشكرك، أشكرك»، تمتم وهو يمسك بالزجاجة.

أتاحت لي مهمتي في قسم أفريقيا تولي المزيد من المسؤولية، بأكثر مما تخيّلته من التحديات، من كل الأنواع، وبما هو أكثر من مواكبة زميلٍ ارتباط ما مصاب بالسيلان في أنحاء واشنطن؛ بل تعلّق الأمر بالوصول إلى حيّز واسع من الأهداف العملانية في القارة. فقد جنّد ضبّاط قسم أفريقيا روساً وصينيين وكوبيين وحتى كوريين شماليين إلى جانب مسؤولين أفريقيين ومتمردين وتشكيلة من الركائز التي يستلزمها جمع المعلومات الاستخباراتية والعمل الخفي. وهو قسم مفتوح على مصراعيه وبخاصة بالمقارنة مع بعض الأقسام الجغرافية الأخرى التي تمتلك محطات كبيرة وبيئات أكثر تقييداً. فالضباط العاملون من خلف الستار الحديدي على سبيل المثال أدّوا عملاً شجاعاً ومهماً لكنهم اعتمدوا على الهيكلية والانضباط أكثر من اعتمادهم على الفوضى والإبداع.

أشرق ضباط قسم أفريقيا بشكل عام في البيئات المائعة وغير المنظّمة والمزبدة. واجتذبت القارة ضباطاً من الأنماط المبادرة وغير التقليدية. وهو قسم امتلأ بشخصيات أكبر من الحجم الطبيعي أمثال الراحل وليام «بوانا» موسبي وهو رجل مربوع القامة مفتول العضلات ذو شاربين ضخمين أشبه بمقود الدراجة وقد جسّد قيم القسم. وأحب هؤلاء الفتية، الجريئون وغير التقليديين في المظهر وفي الأفعال، المهمة وأحبوا المخاطرة. وأردت أن أبقى معهم وأتعلّم منهم.

انتقلت مع رفاق دورتي، بعد مهمتي المؤقتة في قسم أفريقيا، إلى «المزرعة» [مقر التدريب السري التابع للسي.آي.إيه] لأشهر من التدريب المكثّف على الحرفة.

تراوح مدرّبو «المزرعة»، باستثناء اثنين من المدمنين على الخمرة غير القابلين للإصلاح، من الجيد إلى الممتاز. ومن بينهم ضباط محنّكون مثل غاري شرون الخبير في شؤون جنوب آسيا الذي سيقود بعد ٩/١١ فريق «كاسر الفك» Jawbreaker الأول إلى داخل أفغانستان. وخدم بعضهم رؤساء محطات، وخدم

بعضهم فنانين مبدعين في العمليات في المناطق المحظورة، وأدت براعتهم في الحرفة إلى الحفاظ على حياة ضباط العمليات والعملاء. وعمل هؤلاء المدربون في الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية وفي بلدان آسيا الشيوعية حيث تمارس الأجهزة المعادية عمليات مكافحة تجسس واسعة ومتطورة لإحباط السي.آي.إيه. وكان المدربون الآخرون، ومعظمهم من قدامى فيتنام، خبراء شبه عسكريين امتلكوا تجربة أكثر حداثة في أفريقيا وأميركا اللاتينية. ودمج بعضهم بين المواهب التجسّسية والمهارات التقنية. وكان بعضهم من اللغويين الموهوبين. وقلّة منهم، قلّة فقط، كانت من المُجنّدين الثابتين للعملاء الأجانب المنتجين. ويصح هذا في كل أقسام الجهاز، فالمجنّدون قلّة نادرة ولهم قيمة عالية.

علّمنا هؤلاء المدربون في سياق أشهر كثيرة أسس العمل التجسّسي الواسع. وحاضروا في الأوجه المتعددة للحرفة بما في ذلك الرسائل المشفّرة وصناديق البريد الميتة والمراقبة ومكافحة المراقبة. تدرّبنا سيراً على الأقدام وفي السيارات، وسافرنا إلى الأماكن الحضرية المختلفة لنتمكن من المناورة في المدن المكتظة أو في الضواحي المتفرقة.

عرفت أن جمع المعلومات الاستخبارية يتم من مصادر كثيرة، مثل الصور الجوية واعتراض الإشارات الهوائية والاختراقات السمعية والاستماع إلى الهواتف والتسلّل إلى الأماكن سرّاً، وأيضاً من المصادر المفتوحة.

إلا أن لبّ الاستخبارات هو التجسّس البشري. ويتعلّق التجسّس في أبسط أسسه بفهم نطاق السلوك، من الشرير إلى الجليل، والتأثير فيه والمناورة عبر هذه المتاهة الانفعالية طلباً للمعلومات القيمة التي لا تتوفّر بغير ذلك. ويشكّل التجسّس أيضاً أساس العمل الخفي الذي لا يتعلّق بجمع المعلومات، بل يشكّل بالأحرى أداة أخرى من أدوات الحرفة، ورديفاً للسياسة الخارجية.

لم يأتِ أدائي في التجسّس متساوياً، وبالتالي ربما كان أطباء السي.آي.إيه النفسيون جزئياً على حق. فمهاراتي التقنية رهيبة، ومعرفتي العلمية بدائية،

وتمكّني من اللغات الأجنبية رديء وليس لديّ أي حظ بالنجاح في التظاهر بأنني غير أميركي. أدركت ميولي ومحدوديتي في اللغات وفي الاندماج بالثقافات الأخرى، ولم أجهد بالتالي للعب دور المشغّل المتعدّد اللغات، بل نقلت معي ثقافة ريف جورجيا الدنيوي الأساسي إلى كل أنحاء الكرة الأرضية. لم أمتلك أي خيار آخر، وعملت بالتالي سعيداً بالتنشئة الجريئة التي تلقيتها. وأجريت بعض التعديلات في تشدّقي الغليظ بالكلام، ليتمكّن المسؤولون الأوروبيون والمتمردون الأفارقة وأسياد الحرب الآسيويون ودبلوماسيو أميركا اللاتينية من فهم إنكليزيتي.

امتلكت ميلاً أقل إلى الانضباط المحكم الذي يميّز العمليات في المناطق المحرّمة، مع أنني سافرت وعملت بصفات تجارية مزعومة في بعض البيئات المحظورة. وامتلكت ذاكرة جيّدة لكنها غير استثنائية، إلا في مجال الخرائط، إذ سهل عليّ قراءة الخرائط وتذكّرها وتتبّعها. تمتّعت بأسلوب كتابي مناسب وجهدت لتحسينه بدءاً من «المزرعة»، حيث شرح لي المدرب الساخط الفارق بين صيغة المبني للمعلوم وصيغة المبني للمجهول. فأنا على ما يبدو كنت أغفو في صف اللغة الإنكليزية.

يُعتبر التواصل، وبخاصة عملية كتابة التقارير الحاسمة، ولكن الرتيبة أحياناً، أساساً في التجسّس. وقد كتبت في سياق حياتي المهنية آلاف التقارير والبرقيات العملانية والرسائل الدبلوماسية.

شدّد المدربون في «المزرعة» بما لا نهاية له على إلزامية إنتاج الاستخبارات للزبائن، إلى أي فرع من فروع الحكومة انتموا. أما الزبون الأول فهو الرئيس طبعاً، لكن يوجد الكثيرون غيره مثل السفراء والقادة العسكريين والمشرّعين وضباط فرض القانون والدبلوماسيين والمحلّلين. فجميعهم في حاجة إلى الاستخبارات للمساعدة في اتخاذ قرارات سياسية وفي وضع خطط عملانية عن معرفة.

يلتقط الضباط العملانيون هذه الاستخبارات وينقلونها على شكل تقرير

رسمي ذي بنية منظّمة. وهو يحمل عنواناً وتاريخ الاستحصال على المعلومات وسطراً ثانوياً يتعلّق بالمصدر ويسعى إلى وصف مقدار وصول العميل إلى المعلومات وسجل تتبع صدقيته. وحدهم القلة من عناصر الـسي.آي.إيه الذين يفترض بهم إدارة العملية أو تشغيلها يعرفون هوية المصدر. ولا يحتاج زبائن تقارير الاستخبارات إلى معرفة اسمه ولكنهم يحتاجون إلى معرفة نوعيته ونوعية معلوماته. وهذا هو هدف السطر الثانوي المتعلق باسم المصدر، فهو يحمي هويته لكنه يزوّد الزبون بنقطة مرجعية، بحسّ بالنوعية والسياق المتعلقين بالمصدر.

علّمنا المدربون أيضاً صياغة برقية عملانية مرفقة تُبث على موجة ضيقة في موازاة التقرير الاستخباراتي الرسمي، وتشرح هذه البرقية الجوانب العملانية. ويتمكّن ضابط العمليات بهذه الطريقة من توفير تفاصيل الاستحواذ، أي كيف حصل المصدر على المعلومات ولماذا. وستتلقى حفنة فقط من موظفي الـسي. آي.إيه المنخرطين في القضية هذه البرقية.

وشرح المدربون أن على هذه الرسالة أن تحمل الكثير من الأجوبة العملانية: هل استحصل المصدر على المعلومات في سياق وظيفته العادية؟ وفي حال النفي، ما هي الظروف التي مكّنته من ذلك؟ كيف أمكن للعميل أن يبرّر للآخرين هذا الوصول؟ وماذا عن عواقب أعماله؟ هل يثق بمصادره؟ لماذا؟ هل يصل دائماً إلى هذا النوع من المعلومات؟ ما هي الأجندة المحتملة الأخرى للعميل لتوفير هذه المعلومات غير الاستجابة إلى متطلبات الضابط العملاني وتوجيهاته؟ هل يسعى العميل، أو ربما المصادر الثانوية، إلى التأثير وليس الاطلاع فقط؟ وما هو السبب في هذه الحال؟

اعتمد مدرّبو «المزرعة» تكراراً تمارين متنوعة لاختبار قدرتنا على التمييز بين الاستخبارات المستندة إلى وقائع وبين الاستدلال والتكهّن والرأي. وجعلونا نفرّق الاستخبارات عن المعلومات العملانية. وفي إحدى الحلقات التدريبية أعطاني ثلاثة مدربين مختلفين ثلاث روايات مختلفة للمعلومة نفسها. وقضت

مهمتي بتذكّر كل المعلومات وكتابة تقرير استخباري وحيد من المصادر الثلاثة معاً، مصفّياً الوقائع من كل شيء آخر. وصغتُ كذلك بالطبع برقية عملانية مرفقة. ثم عمد المدربون إلى تشريح عملي وتركوني أتأمل فضلات متاهة ما اعتبرته في ذهني تحفة استخباراتية.

شكّل هذا النوع من التدريب وجبة يومية، وهو أشبه بالتمرين بالذخيرة الحية ذهنياً واجتماعياً ونفسياً. وكان بمثابة معسكر أدبي غريب وحاد، وفيه تفاعل بين الأشخاص. كان ممتعاً وأحياناً سارّاً.

دارت دروس التجسّس الأكثر فتنة بالنسبة إليّ حول فن التجنيد غير الدقيق في شكل محزن. وقدّر أحد المدربين، وهو محنّك فظ من إثنية غير محددة، أن أقل من عشرين بالمئة من الضباط جنّدوا ثمانين بالمئة من أفضل العملاء. ورأى أنه لا توجد طريقة حقيقية لمعرفة أي ضباط سيصبحون أفضل مجنّدين إلى أن يتم نشرهم في الخارج. وشرح أن أفضل المجنّدين يأتون بكل الأشكال والحجوم ويُظهرون نطاقاً واسعاً من الشخصيات. لم يبالِ كثيراً بتكهّنات الأطباء النفسيين حول الأداء، وركّز على أن كل طالب يجب أن يتدرّب باجتهاد ويكتسب عادات جيدة ويمضي في أثر العملاء المحتملين، ويستمر في التعلّم. وشدّد على أن كبار المُجنّدين يعملون باستمرار على صقل مهاراتهم. وأنهم في حالة اختبار وتكيّف دائمين بسبب اختلاف كل الأهداف والبيئات.

أوجز المدربون مكوّنات عملية التجنيد بكلمة: «ماتا» وهي تعني المال، الإيديولوجيا، التوريط والأنا. وفكّرت في واحدة أخرى هي الانتقام، الذي ربما يشكّل امتداداً للأنا لكنه، مع ذلك، على ما يكفي من القوة ليستحق تسميته الخاصة. وسأتعلم لاحقاً في حياتي المهنية، في عالم مكافحة الإرهاب والحرب، تطبيق الإكراه، من الدقيق المعقّد إلى الحركي الهائل.

يستكشف الضابط في كل عمليات التجنيد تقريباً تركيبة من العوامل المحفّزة ويستغلها. ويأتي كل ضابط عمليات بمجموعته الخاصة من المهارات. بعضهم

يرش الألوان الفاقعة على قماشة كبيرة، فيما يرسم آخرون بدقة شديدة طبقات من التفاصيل فوق طبقات. يصوغ بعضهم العلاقات مع عملاء محتملين ارتكازاً إلى حدس جامح، وهو لا يعرف ما الذي سيزوّدونه به. ويكيد غيرهم ويخطّطون ارتكازاً إلى دراسات نفسية واسعة محاولين التلوين وفق الأعداد.

على ضابط العمليات الناجح أن يدرك أنه ليس الجزء الأهم في عملية التجنيد، فالعنصر الأساسي في العملية هو الشخص المستهدَف للتجنيد. وعلى ضابط العمليات ألا يسمح للأهداف الفورية الخاصة أن تحجب تطلعات المستهدَف، وعليه أن يفهم أن للعميل المحتملَ رؤيته هو الآخر بالرغم من أنه يحتاج إلى المساعدة للتعبير عن حاجاته. ويتمثل الهدف النهائي في الكشف عن رؤية المستهدَف وتفهّمها والسماح له بتقديم خدمة استخباراتية.

بيد أن الأمر يصبح أكثر صعوبة لأن القماشة الجيوسياسية تتحوّل باستمرار، وتتمزّق أحياناً على امتداد خطوط صدع غير مرئية. ويتساءل ضابط العمليات والعميل باستمرار في شأن كل منهما ومقدرته ونواياه. ويعرف الضابط أن التجنيد وما ينتج عنه من معلومات لن يكونا مثاليين أبداً. وهو يأمل في أن يتمكّن أحد من التعرّف إلى صور اللقطات الخاطفة وتقديرها. كما أنه يأمل في أن يتمكّن هو والعميل من النجاة ومن تنمية وتوسيع مساهمتيهما لأصحاب الأمر العملانيين والسياسيين.

لم يشبع جوعي إلى تعلّم الاستخبارات وتقديم المهمة، فقضيت الليل والنهار أدرس وأتمرّن. تميّز إدائي في «المزرعة» بالرداءة في البداية، ليصبح عادياً في المنتصف، ومحترماً في التمرين النهائي. ومنح المدربون غالبية صفنا، وأنا من بينهم، إجازة بالعمل في الخارج.

وافق قسم أفريقيا على طلبي أن يصبح مركزي. بقي عملي الأول كضابط عمليات مرخّص هو العمل السابق نفسه وأنا متدرّب في مهمة مؤقتة: ساعي مكتب. قد أكون تخرّجت من «المزرعة» غير أنني في غياب الخبرة الميدانية

لست في الحقيقة إلا كاتباً. ومع ذلك عملت بفرح في انتظار الدورة شبه العسكرية وتكليفي في مآل الأمر مهمة في الخارج.

في أحد الأيام، وأنا أعيش نمط الانتظار هذا، مرّ شاب طويل القامة من أمام مكتبي ثم توقّف واستدار على نفسه وسأل: «من أنت؟ وماذا تفعل؟».

أجبته: «أنا ضابط مكتبي»، متسائلاً عمن يكونه هذا الفتى الوقح. وهو أكبر مني ببضع سنوات وحسب. تصوّرت، بالنظر إلى ثقته بنفسه، أنه ضابط ميداني ولا شك.

أضاف، كما لو أنه يقرأ أفكاري: «أنا نائب رئيس محطة. أنت تساند محطتي. ألديك فكرة عمّا تقوم به؟».

«بلى، إنني أتتبع آثار قيادتكم العملانية وأجيب على أسئلة أخرى ترميها في وجهي. لقد انتهيت للتو من المزرعة، وانتظر مهمتي».

حدّق إليّ ثم تنهّد وهو على قاب قوسين من الغضب. سحب كرسياً وأمسك بورقة، وشرح لي بعناية، وهو يصوّر رسوماً بيانية، كيفية عمل المحطة. أدرج قائمة بأهم العملاء، وقدّم تفصيلاً كبيراً حول فنون الحرفة، ووصف شبكة العملاء المميّزة والتحديات التي تواجهها المحطة، وأوجز علاقات المحطة بجهاز الارتباط المحلي، وشرح كيف أن المحطة تخدم نطاقاً واسعاً من زبائن السياسة الأميركية، وأجاب على أسئلتي بوضوح وصبر. تعلّمت منه في خمس وعشرين دقيقة أكثر مما تعلّمته في أيام من القراءة.

وخلص بعد هذا التدريب الذي لم أطلبه ولكنني احتجت إليه إلى القول: «إن عملك هنا في المقر مهم، فنحن نعتمد عليك».

وأجبته: «نعم سيدي، شكراً».

ورحل بالفجائية نفسها التي ظهر فيها. إنه فظ ومباشر وصريح ولو أنه متكلّف بعض الشيء. ولم يكن مضطراً إلى التحوّل عن مشاغله لتثقيف وتشجيع غرّ خام.

لكن هذا ما يفعله القادة الجيدون. وفكّرت أنني ربما أحظى في أحد الأيام بفرصة العمل معه.

شكّل هذا لقائي الأول مع كوفر بلاك، واستمر طريقانا في التقاطع في أفريقيا. وسترقى رتبة كل منّا على مدى العقدين التاليين، وسيتولى قيادة مركز مكافحة الإرهاب، وأنا نائباً له. وسيصبح ناصحي وصديقي إلى الأبد.

بعد ذلك بنحو أسبوعين ظهر قائد ميداني آخر في أفريقيا في حجرتي الصغيرة، وهو قصير القامة وشبه بدين ويتحدّث بجمل مقتضبة وسريعة. قال إن رئيس محطة صغيرة ولكن مهمة ذات برنامج للعمل الخفي يحظى بتمويل جيّد. وقال إن المحطة تحتاج إلى المزيد من الموارد، وبخاصة من بين المستهدفين من الكثير من بلدان العالم الثالث هناك. ولاحظ بحماسة كبيرة أن روساً وصينيين وليبيين وكوبيين والمزيد غيرهم ينتظرون من يجنّدهم.

أضاف: «اطّلعت على ملفك. وأنت شاب وعازب. وقد أبليت حسناً في المزرعة وبخاصة في سيناريوهات التجنيد».

«نعم سيدي، لقد استمتعت بالأمر».

أعتقد في الحقيقة أنك ستستمتع به أكثر في الميدان. أريدك أن تلتحق بمحطتنا. عمل التغطية سيكون حقيقياً معظم النهار، لكن اجتماعاتك مع العملاء ستتم ليلاً. أحتاج إلى جواب الآن».

«يمكنك المراهنة على ذلك. سآتي. متى تريدني؟»

«الشهر المقبل».

«لكن من المقرر، سيدي، ان أبدأ حينها في تدريبي شبه العسكري. وأنا أفتقر إلى الخبرة العسكرية، وسيفيدني ذلك».

«أنت لا تحتاجه. لا توجد حرب لك لتخوضها، فنحن نعمل في مجال التجسّس».

أردت الخضوع للدورة شبه العسكرية، لكن رغبتي في الوجود في الميدان كانت أكبر. ولم أمتلك بالطبع أي فكرة عن أنني سأقود في عام ٢٠٠١ حرب السي.آي.إيه في أفغانستان، في أكبر عملية خفية شبه عسكرية منذ فيتنام.

«الشهر المقبل، سأكون هناك. شكراً سيدي».

وهكذا أسقطت الدورة شبه العسكرية. وبت الأول بين رفاق دورتي الذي ينزل إلى الميدان.

لم اكتفِ في «المزرعة» وفي المقر بتعلّم أسس التجسّس وحسب، بل اكتسبت تصوّراً أكبر لنقاط قوتي وضعفي بوصفي ضابط عمليات وليداً. فاتتني أجزاء من التجسّس، وبخاصة تلك المتعلقة بالعلوم واللغات الصعبة. أما حسن حرفتي الميدانية وجمعي المعلومات وبراعتي في الكتابة فكانت مناسبة وستتحسّن.

إلا أنني برعت، من بين كل جوانب عمل التجسّس، في المجال الأكثر تقديراً: وهو تجنيد العملاء الأجانب. وصلت إلى أفريقيا وأنا في الخامسة والعشرين. وشرعت على الفور في استكشاف وتقويم وإعداد وصيد وتجنيد الجواسيس لأميركا. تلك هي مهمة حياتي، وقد عرفت ذلك.

سأخدم لأكثر من عقد في أفريقيا حيث سألتقي زوجتي وحيث سنربي أولادنا. لم يسبق لي أن تخيّلت أبداً أن تكون لي عائلة في أفريقيا، ولم أفكّر بالتأكيد بمثل هذا الفرح العائلي في القارة أو بمثل هذا الحب العائلي للأفريقيين. إنها نِعم غير متوقعة لأنني جئت في الأساس لهدف واحد وحسب: التجسّس.

الفصل الثالث

التجنيد

لا أحب هذا الرجل. يجب أن أتوصّل إلى معرفته أكثر.
ـ كلام منسوب إلى إبراهام لنكولن

صرَخَتْ: «ستتسبّب بمقتل زوجي. ستتسبّب بمقتلنا جميعاً».

جلس زوجها بهدوء في المقعد الخلفي لسيارة «السيدان» الصغيرة، وجلست هي في مقعد الراكب الأمامي. فتلت جذعها لتصبح في مواجهتي، أمسكت بيدها بالمقعد، وثبّتت يدها الأخرى إلى لوحة العدادات. غطّت لهجة إنكليزيتها القوية التي لا تلين على هدير السيارة الرديئة المتسخة. قدتُ عبر الشوارع الرطبة المليئة بالحفر متسائلاً كيف أرد على هذا التقريع الطويل المبكي وأنا أتفادى حواجز الطرق التي يقيمها جنود مراهقون سكارى في هذه الليلة الأفريقية الدبِقة النتِنة.

سبق لي منذ أسبوع أن جنّدت زوجها جاسوساً للولايات المتحدة. وهو أجنبي مثلي يقيم ويعمل في هذه الشظيّة الفقيرة والعنيفة التي تُدعى دولة. لم يعمل بنصيحتي وأخبر زوجته، وهي امرأة رائعة وصلبة وجديرة بالإعجاب كما تحب زوجها وأولادها. ومن الواضح، بالرغم من نفورها من حكومتها، أنها لا تعتقد أن على زوجها أن يصبح مصدري وعميلي. وهي لن تعرّض عائلتها

للخطر، ولم تفهم كيف يمكنني التخفيف من هذا الخطر. ولا تريد أن تسمع، أو أي شيء من هذا.

ضغطتُ وحاولت أن اشرح الحاجة إلى المساعدة منهما، وسعيت إلى إيجاز أسس الحرفة التي سنستخدمها لإبقائهما سالمين. حاولت تجنيدها، وقدتُ قرابة الساعة في الليل مجادلاً وضاغطاً ومداعباً من دون طائل. لقد فشلت الصفقة.

أنزلتهما على مقربة من سيارتهما، وشرعت في محاولة أخرى لكشف احتمال وجود رقيب، وأخذت في صياغة البرقية في رأسي، البرقية التي سأرسلها في اليوم التالي إلى مقر القيادة. فقد سبق لي أن أفدت عن عملية التجنيد، وردّ المقر بحماسة وثناء. سبق لي أن جندت مصادر جيدة، لكن هذا هو الأفضل، أو يمكن أن يكون الأفضل.

كتبت البرقية في صباح اليوم التالي وسحبت عملية التجنيد، ويا له من وضع حرج، بل الأسوأ. ويا لها من خسارة لمصدر عظيم محتمل.

تهيّأت بعد ذلك بأشهر قليلة لترك مركزي لمهمة أخرى في بلد آخر. أردت وداع هذا الشخص، مصدري المحتمل الذي خسرته، ونحن لم نتحادث منذ ثورة زوجته.

أقمنا علاقة وثيقة بالرغم من أننا لم نلتقِ سوى مرات قليلة في مرحلة التقييم/ التطوير في عملية التجنيد. تحدّث بشغف عن حبه لعائلته ولبلده، وتحدّث بالقوة نفسها عن خوفه من هذه الحكومة وكرهه لها. تآكله الإحباط في كل يوم، ولم يتأكد من العمل الذي يتوجب عليه القيام به، لكنه أسرّ إليّ بأن عليه أن يفعل شيئاً، إذ لا يمكنه الاستمرار في هذا الإذلال. ولا يمكنه أن يتغاضى، بإذعانه، عن خطايا النظام الذي يخدمه.

أخبرته أن الحكومة الأميركية تحتاج يائسة إلى فهم حكومته، وإلى وضع سياسة تساعد في يوم من الأيام على تحرير شعبه. وشرحت له أن الارتداد لن

يحقق هذا، فالولايات المتحدة تحتاج إلى متعاونين أقوياء متفانين في داخل حكومته. وإذا أمكنه أن يثبت على مرّ السنين بأنه مصدر قيّم وموثوق به فربّما تصبح إعادة الاستيطان في الولايات المتحدة ممكنة. لم يسأل أبداً عن المال، ولم أطرح الأمر. تصوّرت أن هذا سيأتي لاحقاً.

تيقّنتُ من أنه أمكن أن يشكّل مصدراً جيّداً، فهو فطن وذو تركيز وشجاع. أراد التجسّس للسبب الصحيح: للمساهمة من أجل بلده وشعبه وعائلته، ولتصحيح أخطاء هذه الحكومة الوحشية الديكتاتورية. تعاطفتُ مع محنته كما تعاطفت مع الكثير من المصادر الذين جندتهم وسأجندهم. والأكثر من ذلك أنني احترمته، وأنا مدين له بالشكر على ثقته وأردت أن أبلغه ذلك. احتجت إلى توديعه.

توجهت سيراً إلى منزلهما مع ضوء الصباح الباكر، وكان ديك يصيح في البعيد، وقد غاب أي صوت أو مشهد لسيارات عابرة على طريق المسكن. لم يسبق لي أبداً زيارتهما، إذ التقينا في أماكن سرّية، وكانت كلّ لقاءاتنا مُدبّرة سلفاً ما عدا اللقاءين الأولين. لم اتصل بهما هاتفياً، ولم أرَ أثراً لأي زائرين في صباح هذا الأحد الحار المشبع بالرطوبة. والزيارة في حد ذاتها كانت مخاطرة ولكنها مخاطرة معقولة. سرت بهدوء على الطريق المحفّر غير المعبّد وأنا أكثر قلقاً من وجود كلب شرس أو مريض، من أي مراقبة معادية.

استقبلاني معاً عند الباب. ظهر السرور عليه ولم يظهر عليها، ولو أنها ارتاحت عندما شرحتُ أنني أغادر البلاد ولا أريد إلا وداعهما. حصرت اللقاء بدقائق قليلة، وواكبني من باب الكياسة على الدرج وعلى طول الممشى الإسمنتي المتهاوي الذي يؤدي إلى الطريق أمام منزلهما المتواضع. أما هي فبقيت عند الشرفة مكتوفة اليدين وعيناها مثبتتان عليّ. وهي على بعد حوالى ١٥ متراً منا.

صافحته، واستمر في مصافحتي ولم يتركني، وشدّ أكثر فأكثر. همس وظهره إلى زوجته: «عليّ القيام بالأمر»، فابتسمتُ وتمتمت: «غداً مساء عند الساعة

١٨:٣٠». وأعطيته العنوان وهو مكان يعرفه. ثم أومأت برأسي إلى زوجته التي لا تزال واقفة كالحارس عند الشرفة، وخرجت من الحي مستخدماً طريقاً آخر.

التقيته في المساء التالي في المكان المتفق عليه سلفاً. وجلنا بالسيارة لمدة نصف ساعة وأنا أضاعف تأكدي من عدم وجود مراقبة، وأراجع حالته الذهنية.

سألته: «أمتأكد أنت من أنك تريد القيام بالأمر؟».

«بالتأكيد. يجب عليّ ذلك. لا يمكنني العيش على هذا النحو وأنا أساند حكومتي فيما تعامل شعبي بوحشية. أكره العمل من وراء ظهر زوجتي، لكنها يوماً ما ستفهم».

«تعرف أنني مغادر وأن هذا لقاؤنا الأخير. يجب أن أعرّفك على ضابط آخر، علينا التوجّه إليه الآن».

سألني العميل الجديد: «من هو؟ أهو جيّد؟».

«يمكنك أن تراهن على ذلك. إنه من قدامى فيتنام ورئيسي، وهو أيضاً صديق عظيم ومتشوّق للقائك والعمل معك».

يعرف أي ضابط عمليات تجنيد أن تحويل العميل إلى ضابط آخر يشكّل فعلاً عملانياً حرجاً. وعلى العميل، وبخاصة العميل الجديد، أن يقبل بأن علاقته هي مع السي.آي.إيه وليس مع مجرّد ضابط فرد. وتُعتبر عملية التحويل أيضاً أداة فاعلة للمصادقة لأن الضابط الآخر يجلب معه منظوراً آخر للحالة.

اقتربنا من الموقع الآمن الموجود على طريق ترابي ضيق يؤدي إلى كوخ منعزل صغير يطل على الماء. انتظر زميلي في الخارج عند مسافة حذرة، ووقف بحيث يراه مصدرنا الجديد بسهولة وأنا أركن السيارة.

اقترب زميلي بقامته الطويلة وبنيته السليمة بهدوء من السيارة ونحن نغادرها. قمت بعملية التعريف وأفسحت لهما المجال.

تصافحا وتفحّص أحدهما الآخر. ابتسما وهزّا برأسيهما وانخرطا في نقاش أخذ يشتد حماسة.

فكّرت بأن الأمر لن يستغرقهما طويلاً، وأنا أراقبهما يعملان على إقامة اتصال وصوغ علاقة متينة. فالعملية وحياة مصدرنا تعتمدان على ذلك، وهو ما يدركانه بالتأكيد.

واكتفيت، باستثناء تدخلين وجيزين، بمراقبتهما. ثم ودّعتهما معاً بعد فترة معقولة بلغت نصف ساعة. عليهما تغطية الكثير من الأمور ولم يعد يوجد ما يمكنني المساهمة فيه أكثر.

لم أرَ صديقي العميل أبداً بعد ذلك. ولم أعرف مصيره إلا بعد ذلك بسنوات عدة. فقد عمل بشكل منتج للسي.آي.إيه على مدى سنين، وساندته زوجته في ذلك في مآل الأمر. وفّر استخبارات قيمة عبر طيف واسع من المسائل المهمة. ولم ينكشف أبداً. وتقاعد ببساطة وهدوء، ثريّاً وآمناً. فالجواسيس الشرفاء مثله هم الذين ساهموا في كسب الحرب الباردة.

المال

بقامته الممشوقة القائمة وشعره الكثيف الأسود المزيّت الذي يسرحه دورياً إلى الوراء بمشط متسخ، كان ينظر بضع دقائق في أرجاء الحانة كمن يبحث عن أحد. وخمّنت أنه لا يبحث عن أحد بالتحديد.

ابتسم كاشفاً عن أسنان بيضاء لامعة ردّا على تقديم نفسي له، وسأل: «كيف الفتيات هنا؟».

أجبته: «لا أدري، ربما هنّ رهان خطر».

تراقص حاجباه الداكنان إلى أعلى وأسفل وهو يظهر المزيد من تلك الأسنان البيضاء، ثم جابت عيناه الحانة المعتمة الحقيرة.

قلت في سرّي: يا له من وغد.

تبادلنا الملاحظات حول المشهد الاجتماعي الحزين، ولم يستغرق الأمر طويلاً جداً. شرب ولم أشرب، لكنني دفعت ثمن أكواب الويسكي لأنه دبلوماسي أجنبي ولأنني تساءلت إذا كان يصلح عميلاً.

واصلنا لقاءاتنا، في الملهى نفسه في العادة حيث يمكنه الحصول على مومس. دفعت ثمن مشروبه واستمعت إلى شكاويه المتعلقة في معظمها بمرتبه الحكومي الضئيل أو بالنساء اللواتي هن دون المستوى في هذه البلدة القذرة. واستخرجت على مدى الأسابيع المعلومات المتعلقة بسيرة حياته وسعيت إلى تحديد مدى وصوله إلى المعلومات السرية الفريدة والقيمة، وهذا سهل لأنه ثرثار. وهو أيضاً طمّاع بشكل سافر وأناني بشكل طفولي. أراد المال مقابل نسخة من الإنجاز الشخصي، ولم يظهر أي اهتمام بالإيديولوجيا أو حتى بأسس العلاقات الدولية. هو لا يبالي برأي الآخرين فيه، وتصوّرت بالتالي أنه لا يوجد الكثير من القدرة على تعريضه لموقف فاضح. لعبت الأنا لديه دوراً لكنه لم يكن الدور الأسمى، لأنه أدرك حدوده وإمكاناته. ولم أستطع في بعض الأحيان إلا أن أعجب بالفتى بالرغم من دوافعه الأساسية وحياته غير الملهِمة، فهو مرح وشفاف ومتواضع وصريح.

ثرثر واشتكى: «هل أنت الشخص المناسب؟ هل أنت الشخص المناسب في سفارتك الأميركية؟ يمكن... هل عليّ ربما، بطريقة ما، أن أتحدث إلى شخص آخر؟ نعم؟ لا؟» ووضع يديه على خاصرتيه ودفع بصدره النحيل إلى الأمام ورفع ذقنه إلى الأعلى. بدا سخيفاً.

أجبته: «كلا، فأنا الشخص المناسب. نريد وحسب أن نتأكد من نجاح مثل هذا التدبير بالنسبة إليك وإلينا».

«سأعمل، وتدفعون لي. أعطيكم أسراراً. هكذا ببساطة!» وابتسم. ثم هزّ كتفيه. «ربما لست أنت الشخص المطلوب. ربما لا. ربما شخص آخر».

سألته: «كم تريد؟».

أجاب: «ألف دولار في الشهر».

«سأطلب ثلاثمئة وأعلمك بالأمر في الأسبوع المقبل».

تدلّت شفته السفلى، ففكّرت أنه ربما كان مُزعجاً جداً وهو صغير. جاب بعينيه الحانة شبه الفارغة قبل أن نجلس في زاوية هادئة، فمن المبكر جدّاً له اصطياد مومس. أردت العودة إلى المنزل وقراءة كتاب عن بطل حقيقي يمكنه أن يحفزني بشعور بالمهمة أبعد جدّاً من حاجات هذا الهدف الأنانية. أخذ التعامل مع هذا الفتى يصبح مضجراً بالرغم من قيمته المسلية ودرجته الاستخباراتية المحتملة.

أخيراً قال المرشح ردّاً على عرضي: «هذا لا يكفي، لكنني سأراك في الأسبوع المقبل».

دخل فيما كنت أسير في اتجاه المخرج، شابان لبنانيان قويّا البنية إلى الحانة الكدرة. فكّرت أنهما ربما كانا مقاتلَيْن من حزب الله من بيروت أو من سهل البقاع جاءا للراحة وللاستجمام، ووددت لو أجنّد واحداً منهما. تساءلت هل أن في وسع عميلي المحتمل التقرّب منهما لأني ربما لا أتمكّن من ذلك.

وافق في الأسبوع التالي على الراتب بعد المزيد من الشكوى. قبل بالمهمات وبرهن عن درجة معقولة من الانضباط. وعاد إلى بلاده في زيارة وجيزة التقى فيها ضابطاً محلّياً في السي.آي.إيه، شرع في المزيد من التحقّق من قدرة مصدرنا على الوصول إلى المعلومات ومن إمكاناته. وجاء القرار: يمكن للعميل أن يصل بشكل محدود إلى الاستخبارات لكنه يحتفظ بحيّز واسع من المعارف، ويمكنه استخراج معلومات استخباراتية متواضعة. إذ يبدو أن زملاءه في العمل يأتمنونه على أسرارهم لأنهم يعتبرونه غير مؤذٍ ومسلّ.

وفّر بعودته إلى مهمته الخارجية، في عمله معي، الحد الأدنى من الاستخبارات من حيث الكم والقيمة. وهذا ليس أمراً غريباً بالنسبة إلى بعض المسؤولين

الخارجيين الذين توكل إليهم مهمات صغيرة في وظائف ثانوية. لكن الإمكانية استندت إلى عودته إلى الديار حيث يمكن أن يصل بشكل أكبر إلى المعلومات المتميّزة، إنْ من خلال الوثائق أو من خلال علاقاته الشخصية.

وأنا، في هذه الحالة، لم أعرف النتيجة أبداً. صحيح أن هذا العميل بالذات أنتج بعد تجنيده معلومات تافهة إلا أنه امتلك ما يكفي من الطاقة الذهنية لتعلّم الحرفة، ومن الشجاعة لركوب المخاطر، ومن المهارة في بناء العلاقات الشخصية لإقامة شبكته الخاصة. فكّرنا في التثبّت منه وتدريبه وفي أن نبث فيه نوعاً من روح المهمة والولاء للسي.آي.إيه. واختبرناه في عملية تجريبية في خلال زيارته الوجيزة لدياره.

حوّلته في النهاية إلى ضابط آخر، ولا أمتلك أي فكرة عن مدى جودة أدائه أو الفترة التي بقي فيها عميلاً. لكن الشكوك راودتني نظراً إلى حوافزه الأنانية. وخشيت من أنّ في إمكان أي كان أن يستأجره.

بدأ بعض أفضل العملاء في التعاون مع السي.آي.إيه في مراكز معزولة عاشوا فيها حياة شاقّة وتلقوا في الغالب مساعدة محدودة من حكوماتهم. وتتراوح هذه المساعدة بين المسر للقلب والمثير للاشمئزاز. وقد وفّرتُ الدواء للزوجة المريضة لهدف في طور الإعداد، وسأجنّده بعد ذلك بأشهر. وسلّمت في مناسبة أخرى أشرطة فيديو إباحية لمستهدف آخر بالتجنيد، وأمكننا في النهاية تجنيده بفضل جهد بذله الفريق. واحتفظنا في إحدى المحطات بصندوق من المجلات الإباحية والفيديو كاحتياطي للطوارئ. لم ألتقِ أي دبلوماسي كوري شمالي لم يطلب أشياء إباحية إما لاستخدامه الخاص أو لإعادة بيعه. وهل يُستخدم مال دافعي الضرائب الأميركيين في سبيل دغدغة الكوريين الشماليين جنسياً؟ لا مشكلة في هذا إذا ساعد المصدر الكوري الشمالي السي.آي.إيه في فهم التهديد النووي الذي تشكّله بلاده. وهل تُدفع دولارات الضرائب الأميركية لعميل فاسد ومريب ينفق راتبه على البغايا؟ طبعاً، إذا أمكنه توفير أسرار قيّمة أو معلومات مهمة عن أهداف

مُحتمَلة أخرى مثل عناصر حزب الله. إلا أنه من النادر أن يعرف ضابط العمليات الجواب على هذا الحساب الأخلاقي إلى أن يجنّد العميل ويديره، وحتى في ذلك الوقت تبقى النتائج في الغالب غير مؤكدة. وهو يقوم بأفضل تقويم ممكن ويستمر في امتحان العميل ويركب هو والسي.آي.إيه المخاطر المادية والسياسية والأخلاقية.

فهل يساوي هذا الوغد الجشع والداعر والفاسق والمحبوب، الجهد والمخاطرة والمال؟ أحياناً لن يعرف الضابط المجنّد ذلك أبداً.

الإيديولوجية

لم يحظَ مقاتل العصابات الأفريقي الشاب المتمرّس على القتال بموعد أو باتصال سابق، واقترب مع ذلك من الحارس المحلّي في السفارة الأميركية. أبرز الزائر بطاقة هويته وخضع للتفتيش ثم دخل إلى مبنى السفارة. توجّه إلى كشك الحراسة المضاد للرصاص حيث رآه الحارس الأمني التابع للمارينز. قال الزائر إنه يريد أن يسلّم رسالة سياسية حسّاسة. وخضع لتدقيق آخر في الهوية وانتظار وجيز ومسح بآلة الكشف عن المعادن، ليُواكب بعد ذلك إلى غرفة اجتماع صغيرة كنا في انتظاره فيها.

دعاني نائب السفير إلى الانضمام إليه في حال أنتج الاجتماع أي مادة استخباراتية وأفضى، كما أملت، إلى الحصول على مصدر سرّي جديد. سبق أن قمت في فترة وجيزة من حياتي المهنية باستخلاص معلومات من عشرات يأتون من تلقاء أنفسهم، وهم في معظمهم من النصابين والأوغاد، بعضهم مسلٍّ وبعضهم مثير للشفقة. وقلة منهم متطوعون صادقون يريدون المساهمة في فتات من المعلومات لقاء أموال نقدية أو تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة. وكادوا جميعهم يغادرون وهم مصابون بخيبة الأمل. وجلبت قلة قليلة جداً معها ما يستحق مخاطر وجهد القيام باجتماعات مستقبلية سرية.

جلسنا بهدوء حول الطاولة واستمعنا إلى الزائر غير المدعو يعرض ما عنده. تحدّث الإنكليزية بطلاقة ولكن بلكنة غنائية عالية النغمة، وامتلأ الإيقاع بتناغمات غير متوقعة وممتعة. ابتسم بشكل متكرر واعتقدت في البداية أن في ذلك مؤشراً إلى توتره، لكنني عرفت لاحقاً أنه ابتسم لأنه سعيد. تلك هي طبيعته.

لم يأتِ متطوعاً كما أملتُ، بل رسولاً. ادّعى أن قادة تنظيمه ليسوا شيوعيين أو أعداء للولايات المتحدة. بل يسعون إلى توفير الحرية والعدالة لعناصرهم القبليين المضطهدين. ولم يرد قادته أن يُساء فهمهم، بل أرادوا الاحترام والمساعدة. وسبق لي أن سمعت ذلك من قبل من كل أنواع مدّعي الصلاح الذين يصفون أنفسهم بمقاتلي الحرية.

سألته: «لماذا يقبل قادتك السلاح والمال والتدريب من الألمان الشرقيين والكوبيين وغيرهم من وكلاء السوفيات؟».

وأجاب بلطف: «لأنهم يزوّدوننا بها وأنتم لا تفعلون».

تساءلت في البداية هل إنه متحاذق لكنني أدركت أنني ربما أعطيت الجواب نفسه لو كنت في مكانه. ما الذي كنت لأفعله لو أنني وُلدت في ظروفه نفسها؟ هل أقبل السلاح من حلف وارسو؟ وهل كنت لأمتلك شجاعته على القتال ومهارته في البقاء في مثل هذه البيئة القاسية؟

حدّقت إليه، وافترّ ثغره عن ابتسامة.

طرحت الأسئلة عليه للتحقّق من حسن نواياه وأنا أمسك ببطاقة هويته كلاجئ وأمتلك معرفة أساسية بالحرب وباللاعبين في هذه المأساة الرهيبة، وهو على معرفة بالتفاصيل الحديثة والدقيقة، لكن جوابه العام تميّز بالحذر والمحدودية. شعرت بأنه شخص نادر، اعتنى في التفريق بين الواقع المعروف والمعلومات المحتملة ورأيه. وهو فطن ودقيق وصارم وصادق وواقعي. فهل هو عميل بالفطرة؟

شكره نائب السفير ووعده بتمرير الرسالة إلى واشنطن، على أن تتصل به السفارة بعد تلقّي الجواب.

شككت في أن تفعل الحكومة الأميركية الكثير، هذا إن فعلت. بدا أننا ننظر إلى كل النزاعات من خلال الموشور الثنائي القطب للحرب الباردة الذي يحرّف سياساتنا ويقلّصها. فماذا عن الناس على الأرض، أولئك الذين يقاتلون ويُقتلون؟ ما هي أجندتهم؟ عَلِق هذا الشاب، الموجود في قلب مناوشات التمرد الحامية في وسط أفريقيا، في دوامة صراع إيديولوجي عالمي جبار بين الشيوعية والرأسمالية. وقد طرحت الخطط السوفياتية والنوايا، والدول المتورطة، والديناميات القبلية للنزاع، الكثير من الأسئلة على صانعي السياسة الأميركية. ويوجد الكثير الذي يتوجّب استطلاعه حول النزاع وحول هذا الشخص.

سألته عن مكان إقامته، فأعطاني اسم فندق رديء في جزء حقير من المدينة.

دعوته في الليلة التالية إلى عشاء من شرائح لحم البقر في مقهى جيد في حي آمن ولو أنه ليس راقياً. ويوفّر المكان، ورواده خليط من المحليين والسياح من حملة حقائب الظهر، ما يكفي من الانزواء. ولأنه ليس بالمكان الذي يقصده المسؤولون الحكوميون، فقد ارتديت ملابسي العادية التي أضعها خارج المكتب وهي كناية عن جينز رث وتي-شيرت.

رفع حاجبيه، ردّاً على دعوتي، وابتسم ابتسامة عريضة وهزّ برأسه وقال: «يمكنك أن تراهن على ذلك».

لم نجتمع بعد هذا العشاء في مكان عام. وقدّم لي في اللقاء الثاني، في سيارة متنقّلة، المزيد من التفاصيل عن تنظيمه، ثم المزيد من المعلومات في اللقاء التالي. سلّمته أدوية ومالاً وأغراضاً. لن يعود من عمق الأدغال قبل ثلاثة أشهر، ولا وسيلة لديّ للاتصال به. وفكّرت وأملت في أن يهتم بالمهمة بما هو أكثر من عشاء مؤلف من شرائح اللحم ومن المال.

عاد بعد أن اجتاز بضع مئات من الأميال في أكثر أراضي أفريقيا عدائية والتي تمتد على ثلاثة بلدان مختلفة والكثير من المناطق القبلية. واتصل بالرقم الذي حفظه غيباً.

سأل: «هل يمكنني التكلّم مع كيماو؟».

قالت المرأة: «الرقم خطأ، لا يوجد أحد هنا بهذا الاسم». وأقفلت الخط. تحقّق مساعد الدعم العملاني في المحطة بعد ذلك من مقسّم الاتصالات الواردة وأبلغني بالأمر على الفور.

كانت نتيجة هذا الاتصال وطلب التحدث مع كيماو اجتماعاً بعد ذلك بيومين في مكان حُدّد سلفاً في توقيت معيّن. سُررت لكوني في المدينة، ولن يكون على ضابط الدعم، الغريب على العميل، أن يجتمع معه.

شرعت في عملية استكشاف للتحقّق من عدم وجود مراقبة متوقفاً مرات عدة على طول الطريق لشراء الوقود أو تناول زجاجة ماء أو الحصول على مجلة رياضية محلية. وفّرت كل هذه الطرق والتوقفات المخطّط لها الفرص لتوجيه المراقبة في شكل طبيعي واستكشاف أي عملية تتبّع، من دون تنبيه من يراقب على أنني في وضع عملاني، وتابعت حتى المجمع الأخير للأبنية. قفز مصدري الجديد إلى السيارة، فاسترقت النظر إليه وأنا أشرع في زيادة سرعتي بانتظام خارجاً من المنطقة.

خسر من وزنه عشرين رطلاً (حوالى تسعة كيلوغرامات) لا يمكنه الاستغناء عنها. مررنا من تحت ضوء شارع ألقى وهجاً غير متساوٍ على قسماته النيلية (نسبة إلى نهر النيل). برزت عظمتا خديه من تحت بشرته الأرجوانية السوداء اللماعة. وتصوّرت لو أنه خسر بضعة أرطال أخرى فسيتحول إلى هيكل عظمي.

سألته: «كيف حالك؟».

«آه، أنا بخير، شكراً»، من دون أي تلميح إلى ضعف أو حزن أو سخرية.

فهو يتنفس ويتحرّك، وهو هنا يتشوّق لمناقشة الجغرافيا السياسية ومستقبل شعبه. وفكّرت في الرضى النبي. فهل هو بالفعل على هذا القدر من السرور؟ أم هي الرواقية مجسّدة؟ ما الذي صادفه في تلك الأشهر الثلاثة الأخيرة؟

سأعلم ذلك في سياق الأسبوعين التاليين. ووضعت، استناداً إلى وصفه، مسوّدة خريطة لمعسكرات منظمته القتالية. عرفت خطوط إمدادهم، وشرعت أيضاً في فهم العلاقات الداخلية والخارجية للتنظيم. فالحرب الباردة تشكّل الإطار ولكنها ليست بالتأكيد لبّ مشاغلهم. فهو ورجاله قد حاربوا لأسباب محلية وقبلية. كتبتُ عدة تقارير استخباراتية أكّد بعضها استخبارات الإشارة وصور الأقمار الاصطناعية. وعندما وصلتني إحدى الصور الجوية وتم تكييفها مع المقياس، قارنتها مع الخريطة التي وضعتها للمعسكرات ولطرق الإمداد. فتطابقت معها.

يوفّر مصدري الجديد استخبارات مفيدة ومثبتة. وهو قيّم، ويستحق المخاطرة، كما يستحق استثمارنا.

طلبت من أحد أطباء السي.آي.إيه أن يعاينه، وهو، على غرار جميع الذين التقيتهم في الجهاز، كفؤ ومتكرّس وصريح. وجاء تشخيصه: زحار، ملاريا، سوء تغذية وحياة قاسية جداً.

أطعمته، وقدمت له الدواء، واستمعت. وعلمت عن عالم مجهول من الكثيرين من صانعي السياسة والسياسيين في واشنطن.

تحدّث عن القيمة العملية والرمزية للأنعام والنساء والبنادق الهجومية والقتال الجيّد. وللمال وحده، في عالمه، أهميته لكنه ليس العامل الأهم ولا حتى من قريب. فلا يمكن للمرء أن يشتري عزة النفس والكرامة. وأطلعني على المعايير القبلية والثقافة والسياسة بالتفصيل التصويري.

شنّت قبيلة منتمية إلى تنظيمه غارة لسرقة أنعام قبيلة أخرى. خُطّط للأمر

كعملية خفية بسيطة لكنها سرعان ما تطوّرت إلى مذبحة للنساء والأولاد. وشنت القبيلة المُهانة سلسلة من الهجمات الانتقامية على واحدة من طرق الإمداد الرئيسية. وأصيب رعاتهم في حلف وارسو بالذهول والغضب. وقالوا إن هذا الإلهاء لا يؤدي إلى ما يقدّم الحرب على المصالح الأميركية. وتوتّرت العلاقة بين مجموعته وبين الألمان الشرقيين، بنوع خاص، بسبب هذه النزاعات القبلية.

فهم عميلي، وقد تلقى علومه في الغرب، ديمقراطية جفرسون وأعرب عن شكه في أن يرى في حياته مثل هذا التقدم وقد تحقّق في بلاده، وهو على حق. لكننا، هو وأنا، أدركنا أنه لا يوجد بديل من التقدم ولو ببطء وتزايد. كما أنه لا يوجد بديل من تعاوننا الواعد.

شغّلته على مدى نحو ثلاث سنوات، وحوّلته إلى ضابط آخر. وبعد ذلك بسنتين تولاّه أيضاً ضابط آخر. وخدم السي.آي.إيه بإخلاص، وأنتج مئات التقارير، واستحق مرتباً جيّداً. بيد أن مكافأته الكبرى تمثلت في سعيه إلى مساعدة شعبه. أراد لشعبه دولة قابلة للحياة وآمنة من خلال ما اعتقد أنه علاقة ضرورية ووثيقة مع الولايات المتحدة. أدرك مفهوم المؤسسات الليبرالية والأسواق الحرة والديمقراطية. وطمح إلى المساعدة في زرع هذه الأفكار والمثل في البقعة الخاصة به من أفريقيا.

لم يتمكّن قط من تحقيق حلمه. فقد مات بعودته من إحدى مهام السي.آي.إيه على معبُر حدودي مغبّر مهجور. ولم تعرف السي.آي.إيه بوفاته إلا بعد بضعة أيام. أما أنا، الموجود في مهمة أخرى في جزء آخر من العالم، فلم أعرف بنهايته المأساوية إلا بعد بضعة أسابيع. وبالطبع فإن هذا البطل-العميل غير معروف من العالم وأصبح منذ زمن بعيد طي النسيان في داخل السي.آي.إيه، إلا من زوجين من الضباط المشغّلين ومني أنا. تلك هي طبيعة التجسّس.

ولو أنه بقي حيّاً اليوم لدعوته إلى منزلي وعرّفته إلى زوجتي وأبنائي الذين ترعرعوا في أفريقيا. ولناقشنا روعة الأدغال وتحادثنا في السياسة وجلسنا على

المصطبة تحت أشجار السنديان. ولشويتُ شرائح اللحم واستمتعت برؤيته يأكلها. فهو يأكل دوماً بنهم وباستمتاع، تماماً كما عاش حياته.

إنه أكثر من جاسوس سعيد، وأكثر من واحد من أفضل عملائي. إنه معلّمي. كان رجلاً لامعاً وقوياً وشجاعاً. أحب شعبه وخدمه. وكان صديقاً ومصدر إلهام. شكّل أملاً لأفريقيا، وأنا أفتقده.

التورط

أخذ مالاً من صندوق النقود في السفارة زاعماً أنه يريد شراء لوازم، وخسره في عمل طائش واحد، ولم يمتلك أي وسيلة لإعادة المال المسروق. هو ليس بالمبلغ الكبير لكنه أكبر مما يمتلكه، وأكثر مما يمكنه الحصول عليه. عرف أن السفارة ستدقّق في حساب الصندوق في الأسبوع التالي، إنْ لم يكن أبكر. ويتعدى الأمر كونه مجرّد سرقة إذ إنه خرقٌ للأمن، وخطر على حكومته التي هي ربّ عمله.

بحث المسؤول عنه عن فرصةٍ للانتقام، وبخاصة إذا وُضع في موقع الخطر، فهو سيُحمل، إلى حد ما، المسؤولية. ولن يرحمه رئيسه وكل من في السفارة، وسيتساءلون عما ارتكبه من جرائم أخرى، وإذا وُجد مُذنباً بهذا فسيرتابون بأنه متورّط بأمور أخرى. وجميعهم أشبه بالأفاعي الملتفة والجاهزة للانقضاض عند أي خطر، ولو من الداخل. ويعيشون جميعهم في خوف خفي لا يرحم. ولو أُمسِك به فسيواجه تحقيقاً قاسياً ووحشياً تعقبه عقوبة طويلة بالسجن. هذا بسبب موقعه، وبسبب مسؤوليته المهنية الفريدة.

إنه يشغل موقع ضابط الاتصالات، ويُعرف أيضاً بكاتب الشيفرة، في إحدى السفارات. وليس بكاتب عادي للشيفرة. بل يعمل لحساب جهاز الاستخبارات الخارجية التابع لبلاده. ويمسك بمفاتيح التشفير، التابعة لنظام الاتصالات في جهازه، ويصل أيضاً إلى الملفات. ويعرف تقريباً كل ما يتعلق بشبكات التجسّس التابعة لدولته في البلد.

لا يمكن لجهازه التسامح حيال أي خرق للانضباط، وأي فعل جرمي، مهما بلغ من التفاهة. ولديه زوجة وأولاد عرّضهم أيضاً للخطر. الأولاد موجودون في الديار عند أهل زوجته بمثابة رهائن الأمر الواقع ضد ارتداده. وسيتعرّضون جميعهم للعقاب ولوصمهم بعار عدم الثقة السياسية. قال في نفسه: يا له من فعل غبي لنزوة غبية.

وعلى غرار كل مسؤول من مسؤولي بلاده الموجودين في مراكز في الخارج فكّر بالارتداد. فالإغراء الغربي واضح، وربما تسرّبت من بين أصابع من يتولون الرقابة صور ومفاهيم الحرية والمال والسيارات والأفلام والمنازل الكبيرة والفرص. وعندما يصبحون في الخارج، ولو في بلدان العالم الثالث، تتلألأ إغراءات الارتداد بوهج أكثر. إلا أنه لا يستطيع، لأنه يحب عائلته ولا يمكنه التخلي عنها، بل عليه في الواقع أن يحميها. هذا ما تفرضه عليه مسيحيّته.

عاش هذا النوع من التناقض. وغالباً ما عاقر الخمرة بقوة، وقامر قليلاً وعاشر المومسات كلما توفّر له ذلك، وفكّر في أن هذه الرذائل ليست على هذا القدر من السوء. وربما عمد إلى ارتكاب المزيد من الخطايا لولا أن جهازه يقيّد تحركاته ويحدّ من وقت فراغه ويراقب أفعاله، ومع ذلك اعتبر نفسه رجلاً جيداً وزوجاً صالحاً وأباً. يعرف أنه لامع، لكنه تصرّف بغباء. أحب بلاده، لكنه غير سياسي. ومع ذلك عاش في مجتمع وعمل لجهاز تحدّدهما السياسة. نبذ مجتمعهُ الله، لكنه عرف أن الله موجود. عرّفته جدته لأمه إلى الكتاب المقدس والإيمان والفداء. أخفى معتقداته المسيحية، وصلّى في السر. وها هو يصلّي بحثاً عن جواب على معضلته.

يقوم صباح كل يوم سبت، والذي يصادف يوم غد، بزيارة السوق المحلية برفقة عائلته وآخرين من السفارة. درس خريطة المنطقة، وسبق له أن حفظ غيباً عناوين سكن جميع ضباط السي.آي.إيه في المدينة. فقد تعقّب جهازه هؤلاء الضباط الأعداء لأسباب تتعلق بمكافحة التجسّس. امتلك ذاكرة رائعة وأمكنه

تذكّر كل العناوين. نظر إليها على الخريطة أمامه. فأحد أهداف السي.آي.إيه الرئيسة في البلاد هو اختراق سفارته، وجهازه الاستخباراتي. أدرك قيمته المحتملة لدى السي.آي.إيه.

وجد ما يريده وهو عنوان أحد الضباط على مسافة عشر دقائق سير من السوق، أي عشرين دقيقة ذهاباً وإياباً، وأقل من ذلك إذا أسرع في السير. وذلك وقت طويل بعيداً من السوق، لكنه افتقر إلى أي خيار آخر.

كان ضابط السي.آي.إيه، بحسب تذكّره للملف، شاباً، وهذه مدة خدمته الثانية فقط. ولا يوجد تقييم للضابط. هل هو على ما يكفي من النضج؟ هل هو كفؤ؟ فقد اخترق جهازه وزارة خارجية الدولة المضيفة التي زودته بكل المعلومات المتعلقة بجميع الموظفين الرسميين الأميركيين. وحدد جهازه من بينهم ضباط السي.آي.إيه. لم يعرف كيف حددوا هويات موظفي السي.آي.إيه إلا أنه يبدو أنهم يعرفونهم كلّهم. وحفظ أيضاً في ذاكرته صورة الضابط وغير ذلك من التفاصيل بما في ذلك نوع سيارته وطرازها ولونها ولوحة تسجيلها.

كتب في وقت مبكر من صباح اليوم التالي مذكّرة مفصّلة بالإنكليزية تضمّنت خريطة بسيطة ولكن دقيقة. استغرقه الأمر ساعتين لاستعانته الدائمة بالقاموس بسبب إنكليزيته البدائية وحرصه على أن يتفادى أية أخطاء. فكّر في كتابة المذكّرة بلغته الأصلية لكنه لم يعتقد أن لدى السي.آي.إيه ضابطاً مقيماً يعرف لغته الأم. وخشي من عدم تمكن السي.آي.إيه من نقل المذكرة إلى مكان آخر لترجمتها والحصول على جواب والتصرّف في الوقت المناسب. انتظر حتى آخر لحظة ممكنة ليكتب لأنه لم يشأ أن يحمل أي دين بدينه لوقت أطول من اللازم. استخدم ورقاً يذوب في الماء بحيث يمكنه إتلافه في ثوان. وسيأكله إذا لزم. طوى الورقة تكراراً وفق خطوط هندسية دقيقة. ثم ثناها بإحكام وإتقان.

ابتعد في السوق خلسة عن زوجته والآخرين، وسار بنشاط إلى عنوان ضابط السي.آي.إيه ولمح بعد أقل من عشر دقائق السيارة مركونة في الممر على بعد

خطوات فقط من المنعطف. قال في سرّه: شكراً يا الله. لم ير سوى زوجين من الناس في الشارع السكني الهادئ، فالوقت لا يزال مبكراً. سار إلى الباب لجهة السائق وأقحم المذكرة في الشق بين الباب والإطار. خمس ثوان، وها هو قد عاد إلى الشارع.

امتنع عن وضع المذكرة تحت مسّاحة الزجاج الأمامي لأنها ستبدو للعيان. وأي محاولة لقرع باب المنزل والاجتماع بالضابط صعبة، وهي معقّدة وتستهلك الوقت وخطرة. شكّلت المذكرة خياره الأفضل، ولو أنها مخاطرة عندها فرص قليلة بالنجاح. لكن السيارة هنا، ولديه في النهاية فرصة.

عاد إلى السوق وابتاع زهوراً لزوجته وتمشّى عائداً إلى الدفق البطيء للشارين.

طلب في المساء التالي الإذن بزيارة الكشك الواقع على مسافة مجمّعي أبنية من سفارته. احتاج لشراء السجائر له والشوكولا لزوجته. وافق ضابط الأمن ثم عرض الانضمام إليه.

قال في سرّه: «اللعنة، لن ينجح الأمر أبداً مع حارس إلى جانبي». وها إنه بات من دون خيار وسارا معاً إلى الكشك.

ما من علامة إلى وجود ضابط السي.آي.إيه الصغير. ما من علامة إلى وجود أي أميركي. والآن بوجود بلطجي الأمن إلى جانبه سيجهض ضابط السي.آي.إيه اللقاء حتى لو ظهر. فهذه الخطة اليائسة عبثية إلى أقصى حد، تماماً كحياته.

دخّن الحارس ونظره يجوب في أنحاء الحي القديم التعب. وهو سمين وليس على درجة كبيرة من الفطنة لكنه مخلص للنظام الذي يخدمه.

دفع كاتب الشيفرة ثمن ما اشتراه، ثم استدار مبتعداً عن منضدة المحاسبة فاحتكت به امرأة ممتلئة الجسم، عادية المنظر ذات لباس باهت. شعر بها تدفع بشيء إلى جيبه. صُعق، لكنه امتلك من الدراية ما جعله يستمر في السير. ووقف الحارس على بعد عشر خطوات منه ضجراً وغافلاً عن وجود المرأة.

أجابت السي.آي.إيه. ففي جيبه ما يكفي من المال لإعادة ما سرقه. وعرف أيضاً أن ذلك سيُرفق بالتعليمات.

لم يلتقِ ضابط السي.آي.إيه الصغير الذي التقط رسالته. ولم يرَ المرأة من جديد، وهي واحدة من الأفضل في الوكالة. ولم يلتقِ وجهاً لوجه مع أي ضابط سي.آي.إيه آخر في ذلك البلد. ومع ذلك تجسّس على مدى سنوات مسلّماً استخبارات تقطع الأنفاس ومعلومات لا سابق لها عن أنظمة الاتصالات لقاء مبالغ صغيرة من المال وإيداعات ضخمة في حساب سرّي خاص. وأتقن، بفضل براعته ومعرفته الخاصة والتوجيه المكتوب من السي.آي.إيه، استخدام صناديق البريد الميتة وغير ذلك من تقنية الاتصال الخفية. كان واحداً من أكثر عملاء السي.آي.إيه خصباً وقيمة، ولم يُمسَك به أبداً.

الأنا

عالج الرجل الطويل القامة النحيل، العمل الورقي ببطء. نظّم النسخ الثلاث ووضع بينها ورقتي حبر أزرق للنسخ وملّسها براحتي يديه، ثم شرع في الكتابة. خطّ حروفاً منفصلة كبيرة، سطراً بعد سطر، مستخدماً قلم حبر جاف بلاستيكياً شفافاً متشقّقاً. استحوذ القلم والاستمارة الحكومية على كامل انتباهه. حَوَلَ عينيه عبر زجاجات نظارتيه ذات الإطار الأسود. وتجعّد جبينه جراء التركيز.

دوّت مروحة الهواء المتمايلة المعلقة بالسقف بصوت هائل من فوق رأسينا دافعة بالهواء الساخن والرطب في أنحاء المكتب الصغير المعتم. وتدلّت روزنامة تحمل صورة إحدى جرافات التراب الثقيلة من مسمار على الجدار من خلفه وقد شُطِبت منها تواريخ الأيام التي سبقت. بدت علامات x على الأرقام شبه مثالية. وتساءلت هل استعان في ذلك بمسطرة.

وُضعت علبة مفتوحة من مشبكات الورق ومِخْتَمة ملطّخة وختمان مطاطيان باليان على مسافة متوازية بعضها من بعض عند أحد أطراف طاولة المكتب. ولم

يوجد أي شيء آخر، لا صور، ولا إشارات إلى حياته الخاصة. فهو مجرد كاتب يجلس إلى مكتبه ويعمل بصمت.

انتظرتُ وراقبت.

سلّمني إحدى النسخ بوقار صامت. قرأتُ التفاصيل، وقد كتبها كلها بالشكل الصحيح. قلت له ذلك وشكرته.

هزّ برأسه مرة واحدة. شبك يديه، ورفع رأسه أكثر بعض الشيء. برز عنقه من ياقة القميص الأبيض الرث. وتدلّى القميص وربطة العنق الرفيعة من فوق صدره المنتصب الهزيل.

سألته: «أيمكنني الاتصال بك إذا أردت طرح أي أسئلة؟».

«نعم، رجاء»، ردّ بانتظام. بلا حماسة ولا ودّ، ولكن بلا عدائية أيضاً. لم يمتلك بطاقة زيارة، فكتب رقم هاتفه على بطاقة زوّدته بها.

اتصلت به بعد ذلك بأسبوعين متذرّعاً بوجود مشكلة بيروقراطية. ووافق على اللقاء لحل المسألة.

انتقلنا سريعاً إلى مواضيع أخرى من بينها الجغرافيا السياسية وحياته الخاصة. فهو موظف حكومي لا زوجة له ولا صديقة. لم يحصّل إجازة جامعية لكنه يطالع باستمرار. طرح الأسئلة عن الولايات التي لم يسبق له زيارتها من قبل لكنه يريد رؤية نيويورك ولوس أنجلس. سبق له أن شاهد مناظر لهاتين المدينتين العظيمتين على التلفزيون. ربّ عمله عادل لكنه كثير الانشغال. وهو لا يمتلك خططاً مهنية مستقبلية. وادّعى أنه يستمتع بعمله بالرغم من كونه بسيطاً جداً.

شرع، بعد عدة اجتماعات ذات مستوى متدنّ، في تزويدي بالمعلومات التي غابت عنها في البداية أي معلومات حساسة جداً. لكنه أخذ، وقد اكتسب الثقة، في المزيد من المخاطرة إلى حد التحدث عما قرأه من أوراق سرّية. زوّدته بهديتين متواضعتين، قلم حبر رخيص ومجموعة أقلام رصاص لأنه سيصعب عليه

تفسير ما هو غالي الثمن. ومرّرت له في مآل الأمر مغلّفات صغيرة تحتوي القليل من النقود. وبادلني بعد ذلك بفترة قصيرة بالمثل وزوّدني بوثائق سرية. لم أحاول إقناعه، ولم أضطر لذلك؛ فقد تطورت العلاقة العملانية وحسب.

كان للمال والإيديولوجية أهمية، لكن هذا العميل أراد فوق كل شيء من يستمع إليه. فحظوظه بالترقية معدومة بسبب تعليمه الأساسي وافتقاره إلى الروابط العائلية. وهو كاتب ذكي جداً لا يلقى ما يستحقه من التقدير. يعرف ذلك ويريد المزيد. أراد المساهمة بشيء، من أجل شخصٍ ما، ولم يخفِ حاجته هذه، بل عبّر عنها بصراحة ووضوح. كان معجباً بالولايات المتحدة، لكن ذلك بدا أمراً ثانوياً. وتشوّق أكثر من أي شيء إلى مهمة ذات مغزى.

بعد نحو عام على تجنيده أعطاني في اجتماعنا في السيارة المنطلقة حزمة من الورق داخل مجلّد «مانيلا» مربوطة بشريط. قال إن الملف مهم لكنه لم يسهب في الكلام، فلدينا مسائل أخرى نناقشها والقليل من الوقت. أردت أن أبقي اجتماعاتنا لفترة تقل عن ١٥ دقيقة.

أنزلته، وقمت بعملية مراقبة للطريق، بدّلت سيارتي، وعدت في النهاية إلى المنزل. قرأت الأوراق وأنا جالس إلى طاولة غرفة الطعام.

وتمتمت: «أيها الإله الرحيم».

وأعدت قراءة الأوراق.

أصبح النص الحرفي للوثائق في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة بين يدي رئيس الولايات المتحدة الذي سأل من قدّم له المعلومات عن مصدر التقرير. وأجابه الشخص بأن المسؤول مصدر بشري سرّي، عميل أجنبي. ولم يمكنه أن يقدم للرئيس ما هو أكثر من ذلك لأنه لا يعرف هوية العميل. فشكره الرئيس وأمر بتقديم الشكر للعميل غير المعروف. مرّر الشخص الرسالة إلى مكتب الجهاز السري المسؤول عن العملية.

أبلغني مقر القيادة في اليوم التالي بالأمر عبر برقية مشفرة. بعد ذلك بأسبوعين، مرّرت لعميلي في اللقاء المقرر التالي معه، شكر الرئيس. كنا في لقاء آخر في سيارة منطلقة فلم أتمكن من رؤية جوابه، لكنني سمعت صوته وقد تلعثم وهو يسأل، «هل قام الرئيس... الرئيس قرأ الأوراق؟».

قلت: «نعم، الرئيس بنفسه».

«أنت تقول، تخبرني أن رئيس الولايات المتحدة قرأ الأوراق؟».

«نعم». أكّدت له من جديد.

«لم أعرف أنه يمكن لمثل هذا الأمر أن يحصل. هل يعرف شيئاً عني؟»

«لا يعرف هويتك أو أي شيء عنك سوى أنك تعمل للاستخبارات الأميركية وأننا نعتمد عليك».

سقطت السيارة في اثنتين من حفر الطريق. وأخذ المطر يهطل من جديد. دفعت المساحات المياه ولكن ليس بالسرعة الكافية. ووجدت صعوبة في الرؤية.

«نعم، يمكنكم الاعتماد عليّ. يمكن للرئيس الاعتماد عليّ».

قلت: «سنفعل. وأنا فخور بالعمل معك».

وقال العميل: «نعم. سنعمل معاً. هذا مهم».

مضينا بالسيارة التي تقافزت عبر المطر الاستوائي الغزير وليس لدينا المزيد لنقوله. أصغينا إلى المطر المنهمر على المعدن الرديء وإلى ضربات المسّاحتين وأنا أشق طريقي إلى المكان الذي سأنزله فيه.

لا نضيّع في العادة الوقت في المصافحة عند نقطة النزول، لكننا هذه المرة فعلنا. وأعطيته مغلفاً يحتوي على مكافأة متواضعة.

«أشكرك»، قال العميل وأنا أعرف أنه أكثر امتناناً للمهمة منه للمال. ذلك ما عناه. هززت رأسي، لكنه كان قد خرج من السيارة. سار مبتعداً عبر شلالات

الماء المنهمرة، إلى ليل أفريقيا الأسود عبر الزقاق الموحل إلى طريق آخر حيث بأمل العثور على تاكسي.

ماتا/أ ج

اختلف كل من قمت بتجنيده أو أشرفت عليه عن الآخر. فهم ينتشرون عبر سلسلة من العوامل التحفيزية، تركيبات متغيّرة لا تنتهي من المال والإيديولوجية والتورّط والأنا (ماتا). وستصبح المكونات الرئيسية في عمليات التجنيد، بعد ذلك بسنوات في أفغانستان، هي الانتقام والجبْر (أ ج). تعلّمتُ أنه لا يمكن أبداً استنساخ أي طيف من أطياف ماتا/أ ج. فكل عمل فريد من نوعه. ولم تتطور أي عملية تجنيد بالضبط كما تم تصوّرها. فبعضها كناية عن تقريب شبه دقيق، وبعضها فشل، وبعضها ولّد مشاكل غير متوقّعة، وأثبتت قلّة أنها استثنائية من حيث القوة والقيمة.

تحسّنت قدراتي في التجنيد لأنني تآلفت من خلال التجربة المستمرة مع الكثير من الإخفاقات على طول الطريق. تعلّمت من إخفاقاتي واحتفيت بهدوء بنجاحاتي. عملت سنتين لمصادقة كاتب الشيفرة الهادئ والمنضبط الذي بدا أنه يستمتع بلقاءاتنا الاجتماعية المتفرقة. تعلّمت أن أحبه وأحب زوجته وهي أكثر تحفظاً منه. تقدّم الأمر ببطء وثبات ثم بلغ مرحلة لم يحرز بعدها أي تقدم. لم أعمل أبداً على إقناعه بالأمر لأنني عرفت أنه سيرفض وربما يفيد جهازه الأمني بالمقاربة. وربما فعل ذلك منذ البداية.

شغّلت متطوّعاً حذقاً ومخادعاً على مدى أشهر عدة. فزوّدني باستخبارات جيدة طعّمها بأجزاء مختلقة لم يمكنني تمييزها. بقيت أدفع له مبالغ صغيرة من أموال الضرائب الأميركية سعياً إلى كسب التصديق والسيطرة، إلى أن طلبت المساعدة في النهاية. طلبت من أحد المحلّلين مراجعة كل التقارير، ومن عامل على جهاز كشف الكذب اختبار العميل. وتسلّح العامل بنص مطبوع من التقارير

وبالمراجعة الصارمة والنقدية للمحلّل وأوصل العميل بجهاز كشف الكذب وأجرى معه محاولات متكررة على مدى نحو ساعتين.

كنت في غرفة مجاورة في الفندق، ضيقة وعابقة برائحة السجادة الملطخة والعفونة الكريهة. وشعرت بالجوع بالرغم من الرائحة النتنة. ولم يمكنني سوى أن أنخر في ذاكرتي متسائلاً كيف آلت هذه الحالة إلى هذا الحد من التشابك. سيسقط هذا العميل في الامتحان، لكن ما مدى سوء الأمر؟

ناقشت وعامل آلة كشف الكذب النتيجة التي توصل إليها: هناك مؤشر إلى الخداع. لكننا لا نزال غير متيقنين من مداه. ما هو مدى الضرر؟ هل قام بإخبار آخرين؟ هل إنه تحت سيطرة جهازٍ معاد؟

واجهنا العميل فاعترف. استجوبناه على مدى ساعات بأسئلة فظّة وقاسية. وانتهينا إلى أن المسألة خداع من أجل الكسب المادي لا أكثر. لقد هدرت وقتاً ثميناً وعدة آلاف من الدولارات، وركبت المخاطر من أجل لا شيء، إلا زيادة ثقافتي التجسّسية.

افترق طريقي عن طريق العميل فاقد الصدقية. وأعتقد أنه غادر وقد تلقى ما يكفي من العقاب وخائفاً. أرسلت مذكرة حرق إلى مقر القيادة حُوّلت إلى كل محطات السي.آي.إيه في القارة.

يمكن للإخفاق أن يكون مقبولاً إذا حقّقت الحد الأقصى من النجاح والحد الأدنى من الضربات المرتدة باستخدام المهارة اللائقة بالحرفة والحكم المعقول على الأمور. واضطررت أيضاً إلى تكديس رأسمال فكري من أخطائي ومواصلة التحسّن.

شكّلت انفعالاتي، التي تراوحت بين الحب الأخوي والغضب القاتل، جزءاً مما قمت به من عمليات التجنيد. تعلّمت أن من شأن هذه الانفعالات، إذا فُهمت وسُخّرت، أن تعزز العملية التحليلية ودينامية العلاقة بين الأشخاص،

اللتين تطلبهما عمليات التجنيد. أدركت أيضاً أن هذه الانفعالات تشكّل انعكاساً لشخصيتي. وقد يشكّل توصيل من أنت وما تؤمن به الصفة الأكثر جذباً في عملية التجنيد، حتى عندما يعمل الضابط متخفياً، أو يوازن وجهات نظره للمستمعين المستهدفين. قد يبدو الأمر متناقضاً، لكن يمكن لجوهر القيم والمعتقدات أن يشع من خلال واجهة الحماية العملانية للضابط. فازدرائي الأنظمة الشيوعية وكرهي القاعدة واحترامي شعوب المكسيك وزيمبابوي وأستراليا وتايلندا وأفغانستان وأميركا تجاوزت كل ما يمكنني قوله لعميل محتمل.

يمكن للانفعالات أن تنسف بالطبع وتدمر العلاقات الإنسانية والحياة، وبخاصة في عالم التجسّس، إذ يمكن للخيانة والجشع والحقد والانتقام توليد سلوك يخرج عن سيطرة أي ضابط عملاني أو قائد سياسي. ولا توجد أبداً سيطرة مطلقة، بل بالأصح إلزامية رسم خريطة التضاريس البشرية واستخدام هذا الأساس لتقديم أجندة الاستخبارات. كما أن الانفعالات تربط الناس بعضهم ببعض وتجعل من التجسس أمراً ممكناً، وبخاصة عملية التجنيد. يبقى أن التحدي الذي يواجه ضابط العمليات يتمثل في كيفية ممارسة وعي الذات وانضباطها بحيث تؤدي الانفعالات إلى إحراز المزيد من المعرفة الفكرية وتعزيزها، وتحسين الحكم على الأمور وتمكين العلاقة لتأدية أعمال المهارة والشجاعة التي تولّد استخبارات قيّمة.

شدّد صن-تزو في كتابه «فن الحرب» على وعي الذات بقدر ما شدّد على معرفة العدو. وكذلك فعل الفلاسفة الإغريق القدماء، غير أني لم أتعلّم أمثولة مهمة في وعي الذات من أي كاتب أو خبير في الاستخبارات بل من صبي أفريقي.

انبعثت دوامات من البخار من الشقوق الضيقة في الأرض الأفريقية. وقد انتشرت الشقوق على امتداد جانبي الحافة الصخرية الشديدة الانحدار والحادة التي نزلتها في وقت متأخر من بعد ظهر أحد الأيام. أمكنني أحياناً ملاحظة هذه

الفتحات الحرارية، وهي مجرّد وميض خافت يتداخل في الهواء الذي هو بخلاف ذلك ساكن. وقد ألقت الشمس الاستوائية بأشعتها الصافية والحارقة طوال النهار، وأخذ الهواء الآن يبرد. لكن الحماوة كانت تعاود الظهور في كل مرة أجتاز هذه النفخات اللطيفة المتصاعدة من الشقوق العميقة في قشرة الأرض. أخذت، وأنا أنزل نحو السفح، أراقب الطريق مرةً، وأنظر مرةً أخرى إلى يميني عبر الفجوة العميقة لبركان قديم. تمتعت بالتجربة ولو أنني لم أجد تصنيفاً سهلاً لها في ذاكرتي. واجتاحني في ذلك اليوم خليط من الأوصاف غير التامة وغير الكافية: بري؛ قديم؛ موحش؛ جميل؛ قاسٍ؛ بدائي.

قاربت الوصول إلى موقع خيمتي، سعيداً وتعباً، بعد سفري مشياً معظم النهار في ما سُمّي عن حق وادي الصدع الأفريقي. شاهدت من البعيد خيمة صغيرة على شكل قبة إلى جانب سيارتي الجيب سوزوكي الصغيرة، وقد ناورت بها للوصول إلى حافة الفجوة البركانية. شعرت بالفخر بموقع تخييمي الذي اكتمل بمشهد بانورامي يمتد على بعد أميال. وقد وصلت في الليلة السابقة ونصبت الخيمة واستغرقت في النوم وسلكت الطريق في الصباح الباكر. بدا كل شيء على ما يرام، إذ لم يعدل بشر أو حيوان أو قوة طبيعية ملجأي المؤقت المتقن.

رميت نفسي على التراب على مقربة من خيمتي، وخلعت جوربيّ المشبعين بالعرق ونعليّ، وتغرغرت ببعض الماء الفاتر. نظّفت حلقي، وبصقت كمية كبيرة من اللعاب.

وقف على بعد خطوات قليلة مني صبي من «الماساي» من دون حراك. وهو ربما كان في الثامنة من العمر. حدق إليّ بنظرة خالية من التعبير. لم أسمعه، ولم أشاهده يقترب. لقد ظهر وحسب.

أشرت إليه بالانضمام إليّ، فسار صوبي لكنه لم يجلس. لقد غطّاه التراب وروث البقر، وطنّ الذباب حائماً حول القروح الجلدية المفتوحة على ساقيه الهزيلتين. أعطيته لوح شوكولا «كادبوري»، فلم يتفوّه بكلمة شكر، ولم يعرب

عن أي امتنان أو توقّع. سحب الورقة ولفّة الألومنيوم وقضم بتأنٍ وهو يواصل تفقّد موقع تخييمي.

افترضت أنه مأخوذ بكل أغراضي. تصوّرت أنه لم يسبق له أن رأى هذا النوع من الخيم، وهي أداة مصنوعة من أعمدة الألومنيوم المعكوفة والممرّرة داخل أكمام قبة النيلون. نظر إلى داخل الخيمة، وتطلع إلى داخل الآلية. صفّقت لنفسي على إحضاري مثل هذه المعجزات العصرية لهذا الطفل. وتصوّرت أن هذا اللقاء سيبقى عالقاً في ذاكرته إلى الأبد.

جلس القرفصاء إلى جانبي وهو لا يزال يقضم لوح الشوكولا، وتفحّصني عن كثب. ابتسمتُ ولم يبتسم. وأنهى الشوكولا ووقف. أعطيته بعض الماء فشرب منه قليلاً.

ها هو ينظر الآن إلى قدميّ الطريتين البيضاوين وهما لا تزالان مجعّدتين من تشربهما بالعرق. أما قدماه فكانتا مصفّحتين بطبقات عدة من الجلد الشبيه بالجلد الخام. تناول فردة جزمتي، المريحة والرثّة. قلّبها بين يديه. ثم رفعها إلى أنفه وشمها.

قطّب حاجبيه، وتوقّدت فتحتا أنفه. التوى وجهه وأُغمضت عيناه. اعتقدتُ أنه سيتقيّأ. رمى الجزمة ثم حدّق إليّ بانفعال يتجاوز أي ثقافة، اشمئزاز خالص.

نظر مرة أخرة إلى الجزمة، ثم عاود النظر إليّ. سخر واستدار وسار نحو الغسق الآخذ في التجمّع، وتركني وحدي.

التقطت الجزمة وشممتها. إنها مريعة بالفعل.

فكّرت في قرارة نفسي، يا له من أحمق متعجرف! افترضت أن هذا الولد الصغير سيستنير بمعجزات التخييم التقنية المعاصرة. وإذا به يغادر غير متأثر وحسب بل مشمئز أيضاً.

بات مثلي في حالة من الفوضى. بماذا فكّر أيضاً؟ ربما اعتقد أنني ضعيف

وقد اضطررت إلى الاعتماد على هذه العدة للبقاء مجرّد ليلتين في الأدغال. بينما كان لديه مئزر مهلهل وعصا فحسب. وربما اعتقد أنني متخلّف اجتماعياً اضطر إلى قضاء الليالي وحيداً في القفر من دون الاستفادة من عائلة أو حتى من زوجة. وهو سينام في كوخه ومن حوله عائلته الكبيرة. ربّما فكّر أنني فقير في شكل يائس لا امتلك أنعاماً بل مجرّد سيارة جيب صغيرة. يستخدم «الماساي» عبارة احتقار محدّدة لوصف مثل هذا الشخص: «دوروبو». فأنا «دوروبو»، رجل من دون أنعام، وبالتالي في منزلة دنيا. وهذا الفتى الصغير يرعى قطيعاً بكامله. ربما اعتقد أنني ضائع، ومن المؤكد أنه يعرف أين هو. ربما وجد فيّ المخلوق الأنجس الذي يلتقيه، وربما كنت في ذهنه كلّ ما سبق.

نظرت، وأنا جالس على التراب، والهواء يداعب قدميّ المقرفتين، إلى آخر خيوط الضوء في الأفق. سرعان ما سيصبح الطقس على درجة من البرد تتطلب ارتداء سترة، وهذا التوقّع تسبّب لي بقشعريرة. نظرت إلى جزمتي وقررت تركها خارج الخيمة.

شققت طريقي بصعوبة وحذر إلى حافة الفوهة. حدّقت إلى الليل الذي بدأ يلف المكان. وتساءلت عن الإنسانية وعن مكاني. درست الآداب في المعهد وقرأت أعداداً كبيرة من الكتب في الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، وبخاصة تلك المتعلقة بالمجتمعات التقليدية. أدرت عمليات تجسّس معقّدة على مدى سنوات عدة، وتداخلت مع أناس متنوعين من ثقافات مختلفة. ساعد أساتذة كثيرون ومرشدون في تثقيفي، بيد أن أحد أفضل أساتذتي ربما كان هذا الصبي شبه العاري.

في المستقبل، سواء تداخلت مع أسياد الحرب الأفغان الأميين أو التكنوقراط الأوروبيين، سأصغي إلى محادثيّ المحليين بدرجة أكبر من الأناة والاحترام. وسأوبخ في بعض الأحيان نفسي على عدم احتفاظي بذهن منفتح متذكّراً كيف أنه يمكن لمنظوري الثقافي أن يعميني عما هو واضح، كما فعل في تلك الأمسية الجميلة الأولية في وادي الصدع.

يمكن لجامعي الاستخبارات والمحلّلين الذين يفتقرون إلى الحدس التقمّصي، أو «الذكاء العميق»، أن يتوصلوا إلى استنتاجات معيبة جدّاً، وإلى عمليات رديئة، وإلى قرارات سياسية كارثية. وفي المقابل، تتقلّص المخاطر وتزداد المكافآت من خلال تفهم المعايير المحلية في سياق من الذكاء الإنساني، ومن خلال العمل على بناء غاية سياسية مشتركة مع الشركاء المحليين.

إن وعي الذات من خلال تفحّص الذات أساسي لضابط الاستخبارات الناجح، وبخاصة للمُجنّد. وفي غياب النقطة المرجعية المتينة والمركزية للذات ينحرف كل تقويم آخر أو حكم على الأمور. استخدمت في محاضراتي على الطلاب الذين يدرسون الاستخبارات المقارنة نظام التموضع العالمي (جي. بي. أس.). فأنت تقوم عند هبوطك في مكان أجنبي بإعداد جهاز التموضع التابع لك والذي يحدّد أولاً إحداثياتك بدقة. وحينذاك فقط تستطيع المباشرة في وضع خريطة المنطقة المحيطة، ويمكنك رسم مسارك. والأمر نفسه ينطبق على الضابط المحرّك. فكيف يمكنه معرفة الآخرين إذا لم يعرف نفسه؟ كيف يمكنه بناء علاقة ثقة ويعرف إلى أين يوجّه هذه العلاقة؟

لا تغرس «المزرعة» في المرء إدراك الذات هذا، بل تكشف عن قدراته الموجودة وتشحذها. تتفحّص السي.آي.إيه مقدّمي الطلبات بحثاً عن صفات الضابط المشغّل هذه التي تُكتسب من خلال خليط من العوامل الجينية والبيئية. الجواسيس الجيدون، على غرار الرياضيين، يولدون ويتم تطويرهم وتدريبهم. فالأصول الجينية تأتي صدفةً، والتدريب تقوم به السي.آي.إيه. ويحصل تطور الجاسوس خلال مسار حياته، وهذا المسار ليس محتوماً، فمسار التطور هو في الغالب نتيجة الإرادة الحرة. لقد لاحق أفضلَ المجنّدين، قبل انضمامهم إلى السي.آي.إيه، تحدّياتٌ ذات شأن، قاسية وأحياناً خطرة، لاختبار أنفسهم وقياسها في بيئات جديدة ومواقف. يرتكبون الأخطاء، يكتشفون أنفسهم وينمون.

تحدّثت في الموضوع مع جايمس سي. لانغدون، الذي شغل منصب عضو

في المجلس الاستشاري للاستخبارات التابع للرئيس من عام ٢٠٠١ إلى عام ٢٠٠٥. وغطّى المجلس الاستشاري نطاقاً واسعاً من المسائل التي تهم الرئيس. وامتلك جميع الأعضاء تراخيص أمنية رفيعة المستوى وإمكانية الوصول إلى مجتمع الاستخبارات. ليس جايمس ضابط استخبارات بل هو بالأحرى محام ناجح في واشنطن واستراتيجي ألمعي، توفّرت له فرصة دراسة مجتمع الاستخبارات وضباطه بفضل مكانته في المجلس الاستشاري. أطلق خلال سنوات خدمته الأربع سلسلة من النقاشات غير المنظمة وغير الرسمية مع أعداد كبيرة من عناصر الاستخبارات إكمالاً للمشاورات الأكثر رسمية للمجلس الاستشاري للاستخبارات. واكتسب، بوصفه مستمعاً مأذوناً له وغير منحاز ونبيهاً، تصوّراً استثنائياً لهذا المجتمع.

شدد جايمس، في مناسبات عدة خلال مناقشاتنا، على أن النقطة الأهم، تلك التي سمعها أكثر ما يكون من محترفي الاستخبارات، تركّز على نوعية الضباط. وهذا يطرح السؤال: ما هي التجارب المثالية لتطوير ضابط استخبارات من الدرجة الأولى؟ وقد وُجد، بحسب جايمس، إجماع ساحق بأن أفضل الضباط، سواء في العمليات أو في التحليل، هم في العادة من راكموا نطاقاً واسعاً من التجارب المتنوعة والمنيرة قبل انضمامهم إلى خدمة الحكومة. وطوّر هؤلاء الرجال والنساء وجهات نظر أكثر انفتاحاً وتقمّصاً للآخرين. ويمكنهم، من خلال ما راكموه من وجهات نظر، التداخل مع نطاق أوسع من الناس. كما يمكنهم أيضاً إدراك الوضع القائم والتشكيك فيه، وأحياناً تحديه. وينبع إدراكهم الحسي الثقافي والجيوسياسي من تجارب حياتهم، ومن معرفتهم لأنفسهم. لكن جايمس لاحظ، مرعوباً، أنه حتى ما قبل ٩/١١ على الأقل اعتقد الكثيرون أن السي. آي.إيه شددت على تشغيل ضبّاط ذوي «صفحة بيضاء» نظيفة بدلاً من أولئك الذين لديهم خلفية فريدة وتجارب عند حد السكين. سهلٌ أكثر القبول بضباط جدد ينضوون إلى الوضع القائم انتقلوا من كنف أهلهم إلى المعهد فالوظيفة، بدلاً من المغامر غير التقليدي. والأسوأ من ذلك هو أن لضبّاط السي.آي.إيه المحتملين هؤلاء أفراداً من عائلاتهم في باكستان أو في الصين، يطرحون مشاكل

أمنية بفضل وضعيتهم كأجانب. وعلم جايمس أن هذه المسألة الأمنية المترسخة في التقليد يبدو أنها تتغلب على كل مسائل المؤهلات الأخرى. ولا عجب في أن نسبة مئوية صغيرة فقط من ضباط العمليات في السي.آي.إيه هل التي جنّدت القسم الأكبر من العملاء الأجانب ذوي النوعية.

إن ضباط العمليات هؤلاء، الذي يفهمون أنفسهم ودوافعهم الخاصة وجهلهم أفضل ما يكون فيما يستكشفون إيديولوجيات الآخرين ونقاط ضعفهم وغضبهم ومخاوفهم وآمالهم وتطلعاتهم، هم الذين يجنّدون أفضل الجواسيس. ويحصل من يدركون ما لا يعرفونه على أفضل الاستخبارات. هذا هو المفتاح: إذا لم يدرك ضابط الاستخبارات افتقاره الخاص إلى المعرفة فكيف سيدرك الفجوات التي يتوجّب ملؤها؟ وإذا لم ينظر ويستمع بذهن منفتح، وإذا لم يمتلك حيّزاً واسعاً من التجارب المتباينة، فكيف سيجنّد المصادر ويجمع المعلومات؟

يعبئ تجنيد المصادر البشرية النقص في المنظومة. وفي غياب المصادر الجديدة المحنّكة ومع قيام المصادر القديمة بسد تدفّق المعلومات، يدقّ قلب الجاسوسية بضعف أكبر، ويعاني جسم الاستخبارات. وقد تسعى مؤسسة الاستخبارات إلى التعويض فتعتمد أكثر على التكنولوجيا والتحليل وأدوات الإدارة أو إلى إعادة تنظيم لا تنتهي. لكن من دون الجاسوسية ستصبح كل عناصر الاستخبارات الأخرى أقل وليس أكثر. وفي غياب الجاسوسية ذات النوعية سيُخدم ممارسو فن قيادة الدولة، وزعماؤنا بنوع خاص، بشكل سيىء.

والضباط الذين يتمكّنون من تجنيد المصادر البشرية هم الأكثر قيمة لأن قلة صغيرة فقط يمكنها إنجاز هذه المهمة بثبات. فالندرة ترفع من القيمة. وستزيد قيمة هؤلاء الضباط نظراً إلى أن تعقيدات عالم الجغرافيا السياسية ستتطلّب استخبارات من كل المصادر، ولكن من التجسّس بنوع خاص.

تتكرّر دورة التجنيد باستمرار. وعلى الضابط المحرّك أن يعمل على التصديق على كل تجنيد وتحسينه لدى كل فرصة. فما من شيء ساكن. زِدْ

على ذلك أن التجنيد وسيلة من أجل غاية: جمع الاستخبارات وأحياناً تنفيذ عملية خفية. وتتطلب إدارة العملاء المجنَّدين الأجانب تفانياً ومهارة. ويبرع بعض الضباط في هذا الجانب من التجسّس على عكس بعضهم الآخر. يفقد بعض المُجنّدين العملانيين الكبار الاهتمام بعد التجنيد. ولا يمكن أبداً لبعض المديرين العملانيين الضغط على زناد التجنيد. والأفضل هم الذين يمكنهم معاً تجنيد العملاء وإدارتهم وإدارة شبكاتهم. والأفضل أكثر هم الذين يستطيعون إنجاز كل هذه المهمات ودفع الآخرين إلى القيام بالمثل.

الفصل الرابع

جمع المعلومات

جمع المعلومات هو أساس التجسس.
ألن دالاس، حرفة الاستخبارات

صعدنا مجموعات من الأدراج إلى شقة الهدف، والحرّ لا يزال شديداً بالرغم من أننا تجاوزنا منتصف الليل، وقد تشبّعت ثيابنا الداكنة بالعرق. حملنا عتادنا وعدّتنا في حقيبتيْ ظهر من النايلون وأنا ممسك بمصباح يد معدني طويل وثقيل، وقد شبكت إلى خصري سكيناً نصله في قبضته ويفتح بقوة الجاذبية طوله أربعة إنشات ويصلح كأداة. شكّل المصباح سلاح طوارئ أكثر منه مصدراً للضوء؛ وقد بدا أفضل من حمل عصا. انتابني قلق من الكلاب الشاردة وقطاع الطرق ومن الاستخبارات العملانية الخاطئة أو غير المكتملة عن الموقع أكثر من قلقي من جهاز استخبارات معادٍ تكاد تنتفي معه فائدة العصا أو السكين. حملت في جيبي مصباحاً بحجم القلم جاهزاً للإنارة، لكننا حصلنا على ما يكفي من الضوء المحيط لصعودنا الدرج.

سبق لشريكي من جهاز الخدمات التقنية أن نفّذ عشرات مهمات التسلّل للاستحصال على المعلومات، وحافظ على هدوئه وراحته. ولكنها أول عملية اقتحام خفية لي. شعرت بالقلق من اكتشاف أمرنا وبقلق أكبر من ارتكابي عملاً

متهوّراً. والضابط المحرّك الجيّد يدرك مكامن قوته وضعفه. عرفت أن انعدام براعتي التقنية يكاد يكون بلا نهاية أو حدّ.

بيد أن دوري تمثّل في التعامل مع أي تدخّل غير متوقّع أو تبديل في الخطة. عرفت الموقع والمحيط وتولّيت مسؤولية العملية. وسيتعامل شريكي، الذي طار إلى المدينة قبل ذلك بأيام، مع المتطلبات التقنية.

ضم جهاز الخدمات التقنية بعضاً من أشجع الضباط في السي.آي.إيه ممن انتهكوا خفيةً حرمة السفارات والمكاتب والمنازل والمختبرات والمواقع الآمنة للإرهابيين لتركيب أجهزة تنصّت. كما أنهم دسّوا أيضاً أجهزة رقابة سرّية في الهواتف وركّبوا كاميرات خفية، وأمكنهم صنع ما يحتاج إليه ضابط العمليات من جهاز التمويه إلى جهاز البث المتخصّص الخفي.

تمكّن زميلي من قِفل باب الشقة في ثوانٍ وأصبحنا في الداخل. أكّد لنا مصدرنا أن ما من أحد سيشغل الشقة في تلك الليلة، لكننا انتظرنا واسترقنا السمع. أمكننا سماع حركة السير من تحتنا وأبعد وهي تمتد في الليل الأفريقي وتتلاشى في الأفق المحجوب. عم الهدوء الغرفة، وبدا أن سكون الظلام يضاعف كل ضجة صغيرة نحدثها. رشحت أضواء المدينة الخافتة عبر الستائر شبه المغلقة، وكان الجو أكثر حرارة في الشقة المقفلة والموجودة في طابق علوي. أخذنا نتصبّب عرقاً.

سرت في الطليعة وتحرّكت بهدوء في أحد الجوانب المظلمة للمسكن. فاحت في المكان رائحة بول هرّ، من دون ظهور أي هرّ. لم يشر مصدرنا إلى وجود هرّ بل اكتفى بالقول أن المقيمين سيغيبون. يبدو أنهم أخذوا الهرّ معهم، أو أنه ربما كان يختبئ في الخزانة متهيّئاً للانقضاض، أو ربما نفق تحت الأريكة. تساءلت هل أن حساسيتي، الحادة بنوع خاص حيال الهررة، ستشعل موجة من العطس. بدأت أتنفّس من فمي.

ركعت والضابط التقني على ركبنا وزحفنا على بطوننا على الأرض تحت

مستوى حافة النافذة ونحن نتحرّك للوصول إلى حيث يجب. شعرت بالامتنان لأن مهمتي التقنية اقتصرت على الإمساك بالمصباح الصغير وإبقاء ضوئه المحصور موجهاً إلى الهدف. عمل شريكي بسلاسة وهدوء، ونزع الأسلاك وثبّتها بمشابك وربطها، وتأكد من إتقان مكان الإخفاء، ومن عدم وجود أي آثار على التلاعب فيه. انتهى الأمر وقد استغرق كله عشر دقائق، وبات علينا الآن مغادرة الشقة والمبنى.

تأكّدنا مرة أخرى من الأرضية، وعثرنا على مشبك واحد وعلى قطع صغيرة من القماش فالتقطتها وجفّفت عرقي. رفعنا بطنينا وعدنا على أيدينا وركبنا متوجّهين صوب المخرج والعرق يتساقط مني على كل الأرضية. هل يجف لتظهر مكانه بقع صغيرة ملحوظة؟ أشار التقني إلى البقع الرطبة وحدّق بي وكأنه يقول: «تباً، ما هذا؟». أمكنني حتى في الظلال المتنقلة رؤية تعبيره، وأمكنني الشعور به.

استدرت استدارةً كاملةً وأنا لا أزال على يديّ وركبتيّ ووجّهت قفاي صوب الباب ودبيت بشكل معاكس وأنا أمسح عرقي عن الأرضية بمنديلي. لم أتخيّل أبداً مثل هذا الخروج غير المشرّف.

في غضون ذلك، في الخارج، التقى شريكي المكلّف مكافحة المراقبة في الشارع رجل شرطة جوّالاً يقترب من الشقة. وانخرط زميلي المقدام الذي أتشارك معه المكتب في حديث طويل مع رجل الدورية تعزّزه جرعات من زجاجة خمر أخفاها في شكل ملائم في جيبه. تحدّثا عن نوعية الكحول والنساء، وأبقى صديقي الضابط المحرّك الشرطي منشغلاً فيما انسللنا من المجمع السكني الذي تقع فيه الشقة. ولم أعرف إلا في صباح اليوم التالي بهذه الكارثة التي أمكن تجنّبها.

سبق أن أطلقنا العملية قبل ذلك بستة أشهر لالتقاط أحاديث الشخص المستهدف. ولم نحصل طيلة ذلك الوقت أبداً على تقرير استخباراتي واحد أو أي معلومات مفيدة. شكّل الأمر مضيعة للوقت والجهد ومخاطرة.

واستهدفنا بالتالي من دخولنا إلى الشقة أمراً واحداً فقط: وهو استرجاع أداة التنصت كخطوة أخيرة على طريق وضع حد للعملية.

تميّز الهدف بأنه جيّد، بل أكثر من جيد، ومنضبط إلى حد كبير. امتلك استخبارات قيمة لكنه لم يتحدث في أي شيء مع أي من زواره. إنه محترف منضبط.

غطّى عملاؤنا الأجانب الذي ساندوا هذه العملية الجوانب المادية للمبنى وطرق الوصول إليه. واتصفت عملية الدخول الأولى والزرع التقني والبث ومركز الاستماع وعملية النسخ/الترجمة بالمتانة، وكذلك عملية انتزاع جهاز التنصّت. وهذه، وفقاً لبعض القياسات، عملية جيدة، إذا تجاهل المرء القحط في المعلومات الاستخباراتية. غير أن الحصول على استخبارات نوعية خدمة لزبائننا هو الغاية كلّها من وراء العملية. لكننا أخفقنا في إخضاع هدفنا لما يكفي من الدراسة لتقدير حظوظ قيامه بالكشف عن أي معلومات. افترضنا وحسب، وأملنا في أن يتحدث إلى زوجته أو إلى ضيوف شقته.

يسهل إدراك طبيعة الحادثة بعد حصولها. وتتّضح الأمثولة من خلال النظر إلى الوراء. ليس على المرء أن يستخف أبداً بالعامل البشري، لأنه الجزء الأهم في العملية الخفية، وهو أكثر أهمية من التكنولوجيا. لماذا لم نقرّر أن حظوظ النجاح العملانية متدنية جداً؟ وكيف أمكننا التوصل إلى هذا القرار؟ وبأي طريقة أمكننا دراسة الشخص المستهدف لقياس انضباطه الذاتي؟ لم نتوقع أبداً الكشف عن جواهر التاج الاستخباراتية، لكننا خمّنا أنه سيتحدث وسنجمع شيئاً قيّماً بما في ذلك معلومات تخمينية عن الشخص المستهدف. وأمكننا، لو أصبح ذلك في متناول يدنا، وضع مقاربة تجنيد له. أو أمكننا أن نعرف عن أهداف أخرى للتجنيد. لكنه لم يثرثر، بل كاد لا يتكلّم.

توجد عوامل إنسانية أخرى. من عرف شكل دورية الشرطي في حال وجود واحدة؟ ومن عرف أن الشرطي سيستمتع بالكحول؟ ومن عرف بأن للمالك هرّاً؟

هل فكرنا حتى في معرفة ذلك؟ وإلى أي مدى دقّقنا في العميل الذي زوّدنا بالمعلومات عن غياب الهدف عن المنزل؟ ولماذا حملت معي منديلاً ولا فكرة لدي انني سأستخدمه ممسحةً للعرق؟

سأدرس في كل عملية تسجيل صوتي مستقبلية قابلية الهدف للثرثرة. وسأتشاور مع علمائنا النفسيين سعياً للحصول على تقويماتهم. فمن الغباء ركوب المخاطر من دون إدراكٍ أفضل لاحتمالات النجاح. وسأعمل دوماً، من بين أمور كثيرة أخرى، على دراسة الطرق التي تسلكها أجهزة فرض الأمن المحلية، واستعلم عن وجود الحيوانات. وأحمل منديلاً.

شرح لنا مدربونا في «المزرعة» الأنظمة التقنية لجمع المعلومات: استخبارات الإشارة، الاستخبارات المرتكزة إلى الصور، والاستخبارات المتعلّقة بالقياس والأسلوب. واكتسبت استخبارات المصادر المفتوحة دوراً أكبر لاحقاً مع انفجار المعلومات الرقمية. وتتعاضد مجالات جمع المعلومات التقنية مع الاستخبارات البشرية. وفي كل أمثلة عمليات التجنيد في الفصل السابق ساعدتني الاستخبارات المتولدة عن جمع تقني للمعلومات في عملية التقويم الأساسية والتجنيد والتثبّت وتكليف العملاء بالمهمات. واستفاد دوماً، وبدرجات متفاوتة، ما قمت به من عمليات استخبارات بشرية من التنصت على الهاتف والتلكس، ومن اختراق الإنترنت، ومن الأجهزة السمعية، ومن المرشدات اللاسلكية ومن صور الأقمار الصناعية، ومن المجسّات، ومن الطائرات التي تطير من دون طيار. وكادت عملياتي التقنية تعتمد كلّها دائماً، عند مستوى ما، على الاستخبارات البشرية. وما أمكنني القيام باقتحامي السري الأول لولا معلومات أساسية من أحد العملاء. وربما انتهى خروجي من موقع ذلك الهدف بكارثة لولا تدخل زميلي الضابط المسؤول عن المراقبة المضادة. فالاستخبارات البشرية تزوّد العمليات التقنية بالمعلومات وتسمح بحصولها، والعكس بالعكس.

يتطلب جمع الاستخبارات ما هو أكثر بكثير من التجنيد ومن إدارة مصدر

معلومات منتج، غير أن ذلك كاد يشكّل في سنواتي الأولى المسار الوحيد للنجاح في جمع المعلومات حتى في الميدان التقني. فقد وفّرت المصادر الوصول، ولو تقريبياً فقط، إلى الاستغلال التقني. وكلما ساندت مصادر جامعي المعلومات التقنية والبشرية بعضها بعضاً ازدادت القيمة الاستغلالية زيادة كبيرة.

تصوّر الأمثلة التالية كيف أفاد التآزر بين الاستخبارات البشرية وجمع المعلومات التقنية زبائن استخبارات السي.آي.إيه.

تقويمات الزعامة الأجنبية

يمتلك القادة الأميركيون شهية لا تشبع للمعرفة عن أندادهم الأجانب. إنهم يرغبون في معرفة سياستهم وشخصياتهم، ويريدون إدراك طبائعهم. وتكرّس السي.آي.إيه الكثير من الوقت والجهد لخدمة هذه المتطلبات.

يستمتع الزعماء الأجانب بأجنحتهم الكبرى والفخمة في الفنادق، فهي من مستلزمات الوظيفة ومن متطلبات المركز والبروتوكول، ويفضّلون أيضاً أن يقيموا على مقربة من سفاراتهم. ويطرح هذا نمطاً من الفنادق الأغلى داخل منطقة جغرافية محدودة. وأجهزة الاستخبارات تحب القدرة على التوقّع.

زوّدنا عميل قديم العهد، وهو موظف في أحد الفنادق، بلائحة الزعماء الأجانب الوافدين الذين سينزلون في الفندق. اتصلنا بمقر القيادة لتحديد مستوى الاهتمام الذي نحتسب من خلاله المخاطر والاستثمار، وفكّرنا ملياً في كلفة الترجمة والتحليل والدعم اللوجستي في مقابل المكسب الاستخباري المحتمل. ولم أشأ تكرار الإخفاق الاستخباراتي لأول عملية تسلّل قمت بها قبل ذلك بسنوات.

اخترنا الهدف وأعطينا التعليمات لعميلنا الذي سيبدّل بجهاز التحكّم العادي عن بعد في غرفة الهدف جهازاً آخر تم تعديله خصيصاً وصُمّم لالتقاط الصوت وبثه إلى مركز تنصّت مجاور.

اشتملت عملية جمع الاستخبارات أحياناً على أمور ذات قيمة كبرى وبخاصة بالنسبة إلى أولئك الزعماء الأجانب الذين يستقبلون آخرين لإجراء نقاشات سياسية. أحياناً لا تُثمر جهودنا إلا عن أمور ذات قيمة متواضعة، إلا أننا نحصل في العادة على شيء ما. فالسياسيون يحبون الكلام ونحصل على تصوّر مفيد لشخصيات هؤلاء الزعماء الأجانب وأطباعهم.

وثّقنا في إحدى الحالات رأي مسؤول أجنبي في نظيره الأميركي، وهو رأي خالٍ من الثناء لكنه دقيق للغاية من وجهة نظري. أرسلنا هذه الاستخبارات عبر قناة محصورة للغاية لتسليمها للمسؤول الأميركي، وتساءلتُ عن رد فعله لدى قراءته تقريرنا.

وفي حالة أخرى أوجز زعيم أجنبي استراتيجيته حيال دولة مجاورة، هي حليف وثيق للولايات المتحدة، وحوّلنا التقرير إلى مقر القيادة وإلى محطتي السي.آي.إيه في البلدين للاطلاع والتعليق. عزّز التعليق تقويماتنا السابقة وتوسّع فيها مضيفاً إليها تعديلات مهمة جديدة. وسلّمنا الاستخبارات إلى صانعي السياسة في الولايات المتحدة وإلى الجهاز الحليف في البلد المجاور، وزوّدنا حليفنا بدوره بمزيد من المعلومات عن البلد المعني. وفي هذا مثال عظيم على استخبارات أحادية الجانب تؤدي إلى تعزيز التنسيق الاستخباراتي مع الخارج.

جمعنا أحياناً معلومات شخصية أكثر بكثير مما احتجنا إليه أو أردناه. أعطيت التعليمات لمترجمينا باعتماد التحفّظ، لكنهم لم يتمكنوا أحياناً من مقاومة الأمر وأطلعوني على تفاصيل يغفلونها في التقرير النهائي. ولن أنظر بعد ذلك بالطريقة نفسها إلى بعض الزعماء الأجانب. كما أنني لن أنظر بعد ذلك أبداً بالطريقة نفسها إلى أي جهاز للتحكّم عن بعد.

السياسة الخارجية

أمكننا اختراق مبنى إحدى السفارات الأجنبية عبر تقني محلي يمكنه على الأقل،

الولوج إلى المكاتب الخارجية للسفارة. وركّب، بإشراف من السي.آي.إيه، جهازيْ تنصّت بغطيان منطقتين. بيد أن أداتي التمويه حدّتا من حجم البطاريات وجهازي الإرسال، وبالتالي بات مدى البث قصيراً للغاية.

خطّطنا لاستئجار شقة مجاورة لكن الصفقة فشلت. وبحثنا وعاودنا البحث عن بديل لكننا لم نجد مكاناً قريباً كفاية لاستقبال الإشارة. ووجدت في الوضع أمراً عبثياً. لماذا لا يمكننا، نظراً إلى كل موارد السي.آي.إيه بما في ذلك شبكة عملنا المحلي، أن نستأجر أو حتى نشتري شقة قريبة من الموقع؟ وسبق أن ركّبنا جهازيْ الصوت بسبب يقيننا من توفر الشقة. وها قد بدا أن العملية برمّتها معرّضة للخطر، كما سيؤدي فشلنا في إقامة مركز تنصّت إلى ضرب المشروع برمته. بعد المجازفة باختراق السفارة المستهدفة، لم أشأ إرسال تلك البرقية إلى مقر القيادة أشرح فيها أن سوق العقارات الضيقة تفوّق علينا. بدا الأمر أبسط من إمكان القبول به.

ركّبنا في إحدى الليالي جهاز ترداد صغير للإشارة داخل علبة أحد المرافق العامة على مقربة من السفارة المستهدفة. وأعطى الجهاز المزروع دفعةً للإرسال، لكنها لا تكفي لبلوغ أي شقة يمكننا استئجارها.

درسنا المنطقة وأعدنا دراستها، على الخرائط وسيراً على الاقدام. لم نتوصل إلى شيء وازددتُ إحباطاً وأظهرتُ ذلك.

يمكن القول، في إدراك متأخر، أن الجواب النهائي كان واضحاً، ويتمايل على الماء في الميناء المجاور لعلبة المرفق العام التي تضم جهاز الترداد، وهو كناية عن مركب، بل إننا نعرف صاحب أحد الزوارق الخاصة في ذلك الميناء. طلبنا منه المساعدة فوافق ونقل مركبه سريعاً إلى مربط آخر قريب من السفارة المستهدَفة ومن جهاز تردادنا. وضعنا جهاز ترداد ضخماً في مركبه وأمكننا على الفور نقل التردّد من السفارة المستهدفة إلى علبة المرفق العام إلى المركب، ومن هناك مباشرة إلى المحطة. استغرق الأمر بضعة أسابيع ونقطتيْ التقاط وإرسال لكن الصوت بات ينتقل مباشرة إلى مكتب الناسخين.

أضحت عملية جمع الصوت والبث، عبر نقاط الالتقاط والترجمة والإفادة والتوزيع على الزبائن في الحكومة الأميركية ولدى الحلفاء، مسألة يومين. وأمكن تحسين هذه الدورة إلى ساعات بل وحتى إلى دقائق إذا لزم الأمر.

أنتجت العملية على مدى أشهر عدة استخبارات من الباب الأول إلى أن اكتشفت شركة الكهرباء المحلية بطريقة ما جهاز ترداد الإشارة في علبة المرفق العام. ومن حسن الحظ انتفاء أي شيء يمكن أن يربط الجهاز بنا. بل إن الخبر لم يبلغ حتى الصحف المحلية. عرفنا عن التسوية من مصدر أحادي الجانب في الحكومة المضيفة تَصَوّر أننا أصحاب العملية.

أعدنا لم شملنا وعثرنا في النهاية على موقع آخر لجهاز الترداد، واستمرت العملية على مدى سنوات. وتراوحت المعلومات التي سُحبت من واحدة من أكثر سفارات البلد المضيف أهمية بين الجيدة والممتازة، وهي من أفضل عمليات التنصّت التي شاركت فيها.

عميل الاتصالات

تحدّثت وزوجتي سيندي بهدوء عن عطلتنا في نهاية الأسبوع ونحن ننتظر في الصف عند حاجز الجمارك في المطار الصغير. سبق أن اجتزنا مثل هذه الإجراءات مراتٍ لا تُحصى. فالمكان مضجر وحار ورطب، وأمكنني أن أرى عبر الزجاج المتسخ أشجار النخيل تتمايل بلطف مع نسيم البحر، وأن أسمع حركة السير. انتفت أي نسمة هواء داخل قاعات الجمارك المتسخة والدبقة، وفاحت في المكان الرائحة النتنة المنبعثة من الأجسام، لكن الهدوء كان مسيطراً، فالجميع هادئ ولائق. أردنا جميعنا العبور من دون أي مضايقة أو مناوشة ومن دون أن نضطر إلى دفع أي رشوة. ففي وسع أية أجوبة غير مكتملة، أو إشارة عدم احترام لعناصر الجمارك، إعاقة العملية لساعات.

ما إن بلغنا الطاولة حتى عرضنا حقيبتَي الظهر الرثّتين ووعاء التبريد

الألومنيوم المثلّم القديم. لا وجود سوى للمفتشين وغابت أي آلة للفحص بالأشعة السينية. طرحا بعض الأسئلة وفتشا في حقيبتينا ونظرا إلى داخل وعاء التبريد وليس فيه سوى الطعام من دون وجود أي أثر حتى للجعة. ولوّحا لنا بالعبور.

دلّيت حقيبتي من فوق كتفي ورفعت وعاء التبريد إلى التاكسي المنتظر.

لم أتفوّه وسيندي بالكثير ونحن في التاكسي فقد كنا مستمتعين بفرحة نجاحنا. لقد هرّبنا للتو عبر الحدود أجهزة اتصالات للتجسّس. تم الأمر بسهولة نسبية من دون أن يبدو مع ذلك أنه ينتقص من الإثارة. ولا يوجد شعور آخر يشابه هذا الشعور.

المسافة قصيرة إلى بيت الشاطئ الصغير الذي حجزناه. شربنا بعض الماء، ووضعنا عدّتنا في مكان آمن ونزلنا الدرج الشديد الانحدار والمتداعي المؤدي إلى الشاطئ.

ارتطمت المياه بقدميّ اللتين أمكنني رؤيتهما حتى بعدما غمرتني المياه إلى خاصرتي. امتد المحيط الصافي، الهادئ والواهن، على بعد أميال، والتف حول هذه المدينة القديمة الصغيرة. تطلّعنا صوب البرّ من ورائنا إلى أشجار النخيل المنتشرة بين المباني الحجرية القديمة والأسوار. يا له من مكان رائع لمهمة تجسّسية.

استطلعنا المدينة بعد ظهر اليوم التالي، وقضينا ساعات نسير ونتوقف عند المتاجر والباعة في الشوارع وبعض المقاهي المسقوفة بالقش. تفرّجنا على الخرائب والمراكب ورسوم المشاهد الطبيعية والأقمشة والمنحوتات والحلى الرخيصة. التقطت سيندي بعض الصور. وقام زوار آخرون بالأمور نفسها، وهم في معظمهم من الأوروبيين وقلة من الآسيويين وسط السكان السود وذوي الأعراق المختلطة.

واصلنا تجوالنا الذي خططت له سابقاً وأنا أنظر إلى إحدى الخرائط. شكّل كل زقاق وكل محطةٍ توقفٍ جزءاً من الكشف عن أي عملية مراقبة على طريقنا، وهي أكثر فاعلية بوجود شخص آخر يوفر لك سبباً للتوقف والحديث، ما يوفّر المزيد من الفرصة للكشف عن أي مراقبة. ويوفّر وجود زوجين يجولان في مدينة شاطئية المزيد من التفاعل الطبيعي ومن الغطاء.

ما إن بدأ الظلام يلفنا ببطء ودعوة المؤذن للصلاة تتلاشى في الهواء اللطيف الثقيل، حتى شققنا طريقنا عبر جحور من الأزقّة في الجزء القديم من المدينة ونحن لا نزال بمنأى عن المراقبة. استدرنا عند إحدى الزوايا ولاحظنا الباب على بعد أمتار قليلة.

قرعت مرة واحدة، وعلى الفور فتح رجل قصير ومرح الباب، فدخلنا. أمسك بيدي وهزّها بقوة، وربّت على ظهري، وعانق سيندي، ووثب في المكان حماسة. لم نلتقه في السابق إلا مرتين إحداهما في أوروبا ليوم من استخلاص المعلومات. ومع ذلك جمعتنا روابط عميقة، وشدّت المهمة ذات المخاطر العالية هذه الروابط. هو واحد من أنجح جواسيس السي.آي.إيه وأنا الأخير من بين عدة ضباط آخرين في الوكالة ممن عملوا معه على مدى عقود.

هدأ في النهاية من روعه بما يكفي ليعرفنا على زوجته. وهي هادئة ولطيفة بقدر ما هو صاخب وعاصف، وقد رحبت بنا في منزلهما. أخذ يطلق النكات السخيفة. وأنا أنطلّع إليه بأناة ومحبة الشريك المخلص. جال بنا في منزله المكتظ بالتحف والكتب، وعادت هي إلى المطبخ الذي فاحت منه رائحة العشاء الحار الشهي في أرجاء المنزل.

جلسنا إلى الطاولة الصغيرة والتهمنا واحدة من أشهى الوجبات في حياتي. فقد خمّرت مزيجاً مدهشاً من الأعشاب والتوابل نافخةً في الطعام نكهةً من شيء، جزء منه شرقي وآخر عربي وآخر أفريقي. وتغلغل الأرز والعدس والدجاج والخضار والخبز المصنوع في البيت في حواسنا.

أكلنا وتحدّثنا لساعات. وشكّلت تلك وليمة لنا جميعنا، وليمة عالية المخاطر. فهي المرة الأولى التي أغامر فيها بالدخول إلى منزل أحد العملاء. تعرّفنا إلى بعضنا أكثر. ونمّينا فهمنا وثقتنا بعضنا ببعض، غير أن ذلك لم يشكّل إلا جزءاً ثانوياً من السبب الرئيسي للزيارة، وهو الحاجة إلى ترقية وسائل اتصالنا.

أخرجت بعيد منتصف الليل عدَة الاتصال التي حملتها طيلة بعد الظهر في حقيبة ظهري. وهي الجهاز الذي خزّن في مكان خفي خاص في وعاء التبريد الذي مررناه في اليوم السابق عبر الجمارك.

انتشل عميلنا على الفور العدّة مني وشرع في التدقيق فيها. فهو رجل ألمعي، يتقن عدداً من اللغات وضالع في كل من الفلسفة القديمة وتقنيات الاتصال الحديثة، ويعرف عن العدّة أكثر مما أعرف. ناقشنا كيف أنها ستحسّن قدرته على الاتصال بالسي.آي.إيه، واحتاج، وهو جامع المعلومات المثمر وكاتب الاستخبارات الذي يقيم في بلدة نائية وبعيدة، إلى الاتصال اليومي. لم يعد جهازه القديم يعمل بشكل جيد وأراد تقنيّونا إصلاحه، لكنني أقنعتهم بتوفير نظام أفضل يثبت أنه يمكن الاعتماد عليه. لم أرد أن يتحركوا جيئة وذهاباً لإصلاح الجهاز القديم، لأن المزيد من الرحلات يعني المزيد من المخاطر. ونحن نريد جهازاً يدوم.

زحفت والعميل صعوداً على السلّم المسحوب إلى الفتحة على سطحه. وخرجنا وواصلنا الزحف على امتداد الحافة إلى الهوائي القديم المخفي وسط لفيف من خطوط الهاتف القديمة. وصل العميل الأسلاك وأسرعنا عائدين على امتداد السطح. ألقيت نظرة خاطفة من فوق كل المنازل والمشهد الاستوائي إلى البحر، فلمعت الأضواء في بعض البيوت في هذا الوقت المتأخر من الليل. تراقصت ناران إلى جانب الشاطئ ربما استخدمهما أحدهم لشيّ الكركند أو السمك. وغابت حركة السير والضجيج باستثناء الهواء اللطيف المصفّى عبر أشجار النخيل والأزقّة.

«أسرع لنرحل»، قال العميل بلهجة آمرة. ثم نظر من حوله وشاهد المنظر. التفت إلى الوراء ونظر إليّ وابتسم كالمجنون وهزّ برأسه، ثم حشر نفسه في الفتحة، وتبعته.

استغرقه الأمر نصف ساعة من العمل لوصل كل شيء وإذاعة رسالته الأولى من جهازه الجديد. ونجحت المهمة.

بقينا هناك ساعة أخرى نشرب الشاي الساخن ونستمتع برفقتهما. ناقشنا المزيد من السياسة وراجعنا متطلبات جمعه للمعلومات وخطّطنا للقائنا الثاني بعد ذلك ببضعة أشهر.

ألقى نظرة تفقّدية خارج بابه ثم عاد وعانقنا. وسرت وسيندي في الليل المظلم والجميل.

قلت لزوجتي، ونحن عائدان سيراً إلى منزلنا المستأجر على بعد نحو ميلين: «كنتِ رائعة».

قالت: «لا، بل كانا رائعين. وكذلك العشاء! والنكهات! متى نعود؟».

دام رابط الاتصال لسنوات، وكذلك عميلنا.

الفضاء الإلكتروني

تبدو اليوم البساطة النسبية لعملياتي الأولى، قبل نحو خمس وعشرين سنة، شبه جذابة عندما أفكّر بالتنوّع الذي يقطع الأنفاس، وبتعقيد المشاريع التقنية الأحدث التي تحركها النقلات النوعية في التقاط الصور والاتصالات وعلم الإنسان الآلي. بيد أن هذا التقدم الضخم في التكنولوجيا لم يؤدّ بالضرورة إلى تسهيل جمع المعلومات، بل على العكس أصبح جمع المعلومات التقني، بطريقة ما، أكثر صعوبة بسبب الكم الضخم من المعطيات والحاجات الجديدة إلى المهارات والمخاطر العملانية المتنوعة والمنافسة البيروقراطية والقوانين القديمة

والسياسات غير المستندة إلى المعرفة والقواعد الاجتماعية. إلا أن الجمع التقني للمعلومات، وبخاصة عندما يتحد مع عمليات الاستخبارات البشرية الفاعلة، أثبت أحياناً بالرغم من كل هذه العوائق أنه ناجح بشكل جامح. لكن تداعيات هذا التقدّم ضخمة.

يؤثر هذا التقدم بشكل عميق في وكالة الأمن القومي التي أُنشئت في عام ١٩٤٧ وبنت شبكة عالمية من أنظمة جمع المعلومات لالتقاط المعطيات التي تُبث في الجو. وقام آلاف الضباط اللامعين في مقر وكالة الأمن القومي بفك شيفرة النصوص التي تم اعتراضها وترجمتها وتحليلها. أنتجت وكالة الأمن القومي خلال عقود من انتخاب ملايين الرسائل تقارير لا سابق لها كمّاً ونوعاً. إلا أن مجيء الإنترنت شكل تحدّياً لقدرات الوكالة على جمع المعلومات. وكافحت الوكالة، بوجود المزيد من أهداف جمع المعلومات التي تنتج معطيات تُبثّ بمزيد من الوسائل، لإعادة اختراع نفسها وملاحقة استخبارات الإشارة، ليس في الجو وحسب بل أيضاً في كابلات الألياف الزجاجية وقواعد البيانات. وفي استفادة لغوية ماهرة استهدفت توسيع سلطتها، من عملية الاعتراض الفضائية الدينامية إلى عملية جمع المعلومات الأرضية الساكنة، أطلقت وكالة الأمن القومي على هذه المعطيات المستهدفة اسم «استخبارات الإشارة في حالة الاستراحة». وبالطبع، اعتدت الوكالة، باندفاعتها هذه نحو الملاءمة، على مضمار الاستخبارات البشرية في السي.آي.إيه. فالأخيرة عمدت، مستخدمة مصادرها البشرية، إلى سرقة معطيات الحواسيب منذ أن دخلت الأسرار الأجنبية للمرة الأولى الأقراص الصلبة. وشرعت السي.آي.إيه في سرقة الاستخبارات الأجنبية من الإنترنت منذ استهلالها. ولن يحصل على امتداد حياتي المهنية تقاطع بين الجمع التقني والبشري للمعلومات أكبر من التقاطع الحاصل على الإنترنت.

ساور السي.آي.إيه في أواخر عام ١٩٩٥ قلق من أنها قد لا تكون جاهزة لاستغلال التوسع والاستخدام السريعين للتكنولوجيا في المجالات المستهدفة المختلفة. وأنشأت الوكالة فريق المشاريع الخاص لدراسة هذا التحدّي الآخذ في

البروز. وضم الفريق إليه في المراجعة التي قام بها، شركاء أساسيين من مجتمع الاستخبارات ومن الزبائن.

أكّدت الخلاصة الأساسية للدراسة أن السي.آي.إيه ليست جاهزة لاقتناص فرص جمع المعلومات في بيئة التكنولوجيا الرفيعة هذه. وأوصى فريق المشاريع الخاص بإنشاء مكتب جديد لتعهّد هذه الأهداف الجديدة، أُطلق عليه اسم «المكتب السري لتكنولوجيا المعلومات» ويخضع لكل من الجهاز الخفي ومديرية العلوم والتكنولوجيا.

طلبت السي.آي.إيه من الدكتور جايمس غوسلر، عالم الرياضيات المبدع في مختبر سانديا الوطني، أن يصبح المدير الأول للمكتب السري لتكنولوجيا المعلومات، فوافق عن طيب خاطر. وسرعان ما طوّر الدكتور غوسلر موهبة خاصة في العمليات الخفية وتصوّر دوراً حاسماً لضباط خط العمليات من أمثالي. بل إنه تصلّب في شأن التميز في القدرات العملانية التي يمكن تكوينها من خلال الشراكة الفاعلة بين الجهاز الخفي والمكتب السري لتكنولوجيا المعلومات. وشرع غوسلر في جمع الأنصار لوحدته الجديدة في أرجاء الجهاز الخفي. سمعت بالأمر وتصوّرت أنه لا يناسبني، لكنني تلقيت تعليمات بحضور مقرّر تمهيدي صُمّم خصيصاً لضباط العمليات الذين لم يحصلوا على تدريب تقني أو حصلوا على القليل منه. وإذا شكّل الجهل التقني شرطاً مسبقاً، فإنني صاحب المؤهلات الأكبر في دخول هذا الصف.

لم احتجّ على التدريب المباشر. وتصوّرت بعد قليل من التفكير أن بعض النقاط المرجعية الأساسية ستفيدني في جهودي التجسّسية بما إن الأنظمة الرقمية تختزن أسراراً جديرة بالسرقة. لم أتخيّل أبداً ما ستعنيه عمليات الإنترنت هذه للجهاز الخفي ولأمن أمتنا. وحسناً أن غوسلر وغيره تخيّلوا ذلك.

شدّد المقرّر، الذي صمّمه المكتب السري للتكنولوجيا والمعلومات ودرّسه، على التجسّس بوصفه مفتاح الاستخبارات الرقمية. ولاحظ غوسلر في واحدة من

الجلسات أن الناس يشكّلون نقاط الوصول الأولى لأن على شخص ما أن يعرف تركيبة قفل الدخول إلى قاعة المعطيات ومفاتيح الترميز وكلمات المرور وكتيّبات جدار الحماية. والناس هم الذين يكتبون البرامج، ويديرون أنظمة المعطيات. وعلى ضباط العمليات تجنيد قراصنة الحواسيب ومديري الأنظمة وتقنيي الألياف البصرية وحتى الناطور إذا أمكنه، إدخالهم إلى منطقة تخزين المعطيات أو كابلات الألياف البصرية.

سيساعد غوسلر بعمله مع الخبراء في مختلف أنحاء مجتمع الاستخبارات، بما في ذلك وكالة الأمن القومي، في تحديد ما يستحق استهدافه وتقديم النصح في شأنه. وسيوفّر مشغله المساعدة للتقنيين في عملياتهم. بشّر غوسلر، الذي يتصف على غرار القادة الجيدين بالاطلاع والحماسة، بأننا سنصبح روّاد الهجوم الفضائي الإلكتروني على نسق من الأهداف، وستتوسّع عمليات الفضاء الإلكتروني في السي.آي.إيه مع استحصال الخصوم على المعطيات الرقمية واستخدامهم لها ومع انتشار الإنترنت. وسنكون في الطليعة.

شدّد غوسلر، لطمأنتنا، على أنه سيدعمنا بالرغم من أنه حقل جديد علينا، وأن علينا كضباط عمليات أن نركز على العمليات. فنحن لا نحتاج إلى إجازات في علم الكمبيوتر، بل نحتاج فقط إلى فهم العلاقة بين الاستخبارات الخارجية بشكلها الرقمي وبين الطبيعة الإنسانية. وسنستغل هذه العلاقة. وهو أمرٌ أُدركه ويمكنني القيام به.

حلّ التجسّس الفضائي الإلكتروني بشكل شبه فوري. وجاء نموه السريع ووقعه على عملياتنا مذهلاً، بل ثورياً. وتجاوز مدى عملياتي التقنية ومكافآتها كل توقعاتي؛ وبات من الصعب قياس كمية المعطيات التي تمت سرقتها واستغلالها بأية معايير تقليدية. وبتنا نتحدث، بدلاً من الصفحات، عن تيرابايتات من الغنائم الاستخبارية.

مع التحاقي في عام ١٩٩٩ بمركز مكافحة الإرهاب، باتت معظم عملياتنا

التقنية يرتكز إلى الفضاء الإلكتروني. وأضحت عملياتنا التقليدية والرقمية أكثر تضافراً ونحن نتعقّب وننهك ونأسر ونقتل الإرهابيين في أنحاء العالم كافة. وأمكننا تعزيز عملياتنا المكافحة للإرهاب ببرامج تقنية أخرى لجمع المعلومات مثل طائرة «بريداتور» التي تطير من دون طيار، مع تركيزنا المتزايد على دمج المزيد من منابع الاستخبارات للعثور على أهداف محدّدة في كلّ من عالم الفضاء الإلكتروني والعالم الحقيقي.

الفصل الخامس

الارتباط

لا تجلب التحالفات الوثيقة مع الطغاة الأمان للدول الحرّة.
ـ ديموستينوس، الخطاب الفيليبي الثاني

يشكّل الارتباط مع الخارج جزءاً مهمّاً من عمل استخبارات السي.آي.إيه. وتُبنى علاقات الارتباط بوصفها تبادلاً تعاونيّاً ومشاريع عملانية مشتركة. وفي وسع الشركاء الأجانب تحسين مهمات السي.آي.إيه التي تقوم على جمع المعلومات والتحليل والعمل الخفي. ويمكن لهذه الشراكة أن تتخذ أي طابع، من التبادل البسيط للمعلومات الاستخباراتية إلى الجمع الاستخباراتي التقني متعدّد الطبقات الذي يكلّف ملايين الدولارات، وتوفّر فيه السي.آي.إيه التمويل والمعدات، فيما يوفّر الارتباط الخارجي الغطاء والمنفذ والامتداد العملاني. ويتم في بعض الأحيان تبادل المعلومات الحيوية، عن الخصم المشترك، الناتجة عن الاستخبارات المضادة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى التكنولوجيا وتكتيكات الحرفة.

ويمكن لهذه العمليات أن تضم أيضاً ضباطاً وخبراء من الأجهزة الأجنبية. على سبيل المثال، وفّر أحد أجهزة الاستخبارات في الشرق الأوسط الضباط المحرّكين والعملاء لمساعدة السي.آي.إيه في عمليات مكافحة الإرهاب. بيد أنه

يوجد تعاون أعمق مع حلفاء آخرين في تنوّع واسع من برامج التدريب والعمليات التي تتضمّن مهمات استخبارات ذات إشارات مشتركة ضخمة.

لم يعلّمنا مدرّبو «المزرعة» في عام ١٩٨١ الكثير عن التواصل مع الخارج، بل ركّزنا على العمليات الأحادية الجانب. وهي، في نظرة إلى الخلف، ليست بالمقاربة السيئة لأن وكالة التجسّس ليست، في غياب المصادر الأحادية، أكثر من عملية تبادل أخرى للمعلومات. فمهمة وكالة التجسّس الحقيقية هي أولاً وقبل كل شيء التجسّس. ويعني ذلك تجنيد الجواسيس وتشغيلهم. حفر مدرّبو «المزرعة» ذلك فينا، وأجابوا، لدى سؤالهم عن الارتباط، أننا سنتلقى مع الوقت، مهما كان، التدريب ونحن في الخدمة.

لاحظوا أيضاً ان الارتباط موجود لهدف أولي واحد وهو النفاذ إلى هذه الأجهزة الخارجية وتجنيد المصادر من بين صفوفها، ويشكّل ذلك الطريقة الفضلى لمكافحة التجسس. ولا توجد طريقة للإمساك بجاسوس تابع لجهاز معادٍ أفضل من اختراق ذلك الجهاز. وقد تم كشف عدد كبير من الجواسيس في الحكومة الأميركية بفضل مصادر السي.آي.إيه في صفوف كل من أجهزتهم الأجنبية.

توفّر عقيدة «الارتباط في مقابل التجسّس» فرصاً للسي.آي.إيه للتحميل على ظهر عملية جمع المعلومات التي يقوم بها جهاز آخر. فلو أن دولة ما تمتلك شبكات خفية في الشرق الأقصى ولدى السي.آي.إيه مصدر يدير شبكات هذه الدولة في الشرق الأقصى فستنساب التقارير سرّاً إلى السي.آي.إيه. ويصح الأمر نفسه في اختراق خدمة استخبارات الإشارة التابعة لجهاز أجنبي. وتسمح هذه الاختراقات للسي.آي.إيه بالنفاذ إلى مصادر استخبارات بشرية أخرى، وكذلك إلى جمع المعلومات التقني في الجهاز المضيف أو المستهدف. وبهذه الطريقة تستفيد السي.آي.إيه من جانب واحد من مصادر الأجهزة الأجنبية للحصول على تدفّق ضخم من المعطيات لا يتوفّر بغير ذلك عبر قنوات الارتباط العادية.

توجد استثناءات بالطبع لهذا الانحياز إلى الأحادية، إذ لا تحاول السي.

آي.إيه اختراق أجهزة بعض الحلفاء الأساسيين. فالقيمة الشاملة لهذه العلاقات الاستخباراتية الثنائية تفوق بكثير الجانب السلبي المحتمل للإخفاق التجسّسي. وسأدرك ذلك مباشرة في السنوات التي ستلي، وبخاصة في ميدان مكافحة الإرهاب.

ركّز الانحياز الكاسح لدى تدريبنا في «المزرعة» على تجنيد المصادر الأحادية الجانب. ويعني هذا بالنسبة إلى ضابط صغير كُلِف بمهمة خلف الستار الحديدي، خدمة صناديق البريد الميتة وغير ذلك من وسائل الاتصال غير الشخصي، مع فرص قليلة بإدارة عمليات التجنيد. وإذا كُلِّف ضابط صغير بمهمة في أوروبا الغربية، وبخاصة لدى حليف كبير للولايات المتحدة، فإن فرص تكليفه بمهمات الارتباط التي تتغلّب على العمليات الأحادية الجانب تصبح أكبر بكثير مما هي بالنسبة إلى ضابط ذي مرتبة موازية يعمل في المواقع الخلفية المنعزلة في أفريقيا. وشكّل هذا في ذهني السبب الرئيسي لتحاشي التكليف بمهمة في أوروبا أو أي قسم يمتلك محطات كبرى وأعمال ارتباط روتينية كثيفة. سعيت ما أمكنني ذلك، إلى الخدمة بوصفي ضابط عمليات أحادياً متخفّياً.

يحصل الضباط الأحاديون الصغار، مقارنة مع أولئك المكلفين مهمات الارتباط، على غطاء معتبر في الغالب لأنهم يعملون نهاراً في وظائف تغطية ويتفادون العلاقات مع أجهزة الارتباط الأجنبية. ومن الواضح أنهم يمتلكون، بوصفهم ضباطاً صغاراً، خبرات محدودة، وهم أقل عرضة للانكشاف وهذا يعني غطاءً أفضل.

يفسد أحياناً غطاء المجنّد النشط. فالسبيل الوحيد المتاح أمام الضابط لتحاشي كل مخاطر انكشافه يتمثل في عدم قيامه بشيء. وكلما حافظ الضابط على الغطاء ازدادت فرص اقتناص المصادر الأحادية وتحريكها. وشكّلت الموازنة بين حماية التغطية وإدارة عمليات نشطة عملاً قاصراً عن الكمال ومصدر قلق يومي.

جُنّدتُ في المراحل الأولى من حياتي المهنية ضابط عمليات وحرّكت

عشرات المصادر الأحادية والمصادر الثانوية في قارات ثلاث. كتبت المئات من التقارير الاستخباراتية المستقاة من مئات الاجتماعات مع المصادر. عقدنا لقاءات قصيرة في سيارات متنقلة وغرف فنادق فخمة وبيوت آمنة وأكواخ من القش ومراكب ومحلات لبيع الكتب والأزقة والحمامات العامة وظلال الشجر. وتحاشيت على مدى أكثر من عقد من العمل الميداني مسؤوليات الارتباط مع أي حكومات أجنبية.

ولما حان أخيراً وقت تعريفي إلى الارتباط الخارجي حصل الأمر بطريقة ملتوية. لم ألتقِ ممثلاً عن حكومة أجنبية، بل بالأحرى قائداً لجيش من المتمردين.

الارتباط بحرب العصابات

بدا ممر الفندق المظلم العفن وكأنه يمتد إلى مسافة طويلة. سار مرافقاي، واحد من أمامي والآخر من خلفي، بشكل هادف وبصمت. هما رجلان نحيفان مفتولا العضلات من الجليّ أنهما أمضيا سنوات يقاتلان في الأدغال. احترمت لزومهما الصمت، وقلّدت سرعتهما وحركتهما وأبقيت فمي مطبقاً.

وقف حارس وحيد عند باب الجناح. دخلتُ وبقي مرافقاي والحارس في الممشى. كانت الغرفة أكثر ظلمة فضيّقت عينيّ ثم طرفتهما بضع مرات للتركيز على المرأتين النحيلتين الممشوقتين الواقفتين بجانب الباب الداخلي المؤدي إلى الغرفة التالية. تميّزتا بجمال أخّاذ، بطريقة قاسية وحادة، لكنهما كانتا مسترخيتين وشبه متراخيتين، بحيث يمكن اختيارهما لأحد أفلام جيمس بوند. غاب عنهما أي تعبير وبدتا تقفان كما لو أنهما جزء من الديكور. عبرت الباب الداخلي من دون تحديق وهذا ليس بالأمر السهل، فتبعتاني بحركة سلسة وناعمة، ووقفتا إلى جانبي الرجل، وألقت إحداهما بيدها على ظهر كرسيه.

جلس في كرسي كبير منجّد وهو يفرك أعلى رأسه وتوقّف عن ذلك ليصافحني. أشار إليّ بالجلوس، ثم واصل فرك رأسه بحركة بطيئة ونصف دائرية. بدا متعباً،

ربما من كل تلك السنوات التي قضاها في قيادة التمرد في الأدغال، أو ربما جراء إصابته بالملاريا. أو ربما أنهكته صبيّتا جيمس بوند. وربما كل ما سبق.

سبق لرئيس المحطة أن أبلغني أن الفتى من أحذق الأشخاص الذين التقاهم، وهو قد التقى الكثيرين من الأشخاص الحاذقين. وعرفت أنه ليس عليّ أن أقلّل من شأن زعيم حرب العصابات مهما بدا عليه التعب. بل العكس تماماً لأنه نجا من معارك قاسية لسنين وهو آخذ الآن في التقدّم. توقّعت السي.آي.إيه فوزه واحتجنا إلى معرفة المزيد، وإلى بناء علاقة عميقة بتنظيمه.

قلتُ: «شكراً على لقائك بي».

سألني: «ما اسمك؟».

فكذبت قائلاً: «فرانك».

«آه، طبعاً»، أجاب وقد أدرك أنها كذبة، ولا بأس.

أضفت: «يبلغك رئيسي تحياته».

«رئيسك رجل صالح، ويقول إنك جيّد أنت الآخر. آمل أن يكون مصيباً. لدينا الكثير لنناقشه».

خضنا، من دون المزيد من التعليقات التمهيدية، في رؤية الحكومة الأميركية لتنظيمه وأهدافه ومستقبله. طرح أفكاره، وقدّمت أفكاري. وشرح أن للحكومة الأميركية أهمية حاسمة في مستقبل بلاده.

أوجز خططه للأسابيع المقبلة والسنوات. من الواضح أنه طموح، ولكن بطريقة محسوبة وطويلة الأناة. تحدّث عن التمرد، لكنه تطرّق أيضاً إلى القوى الإقليمية ونظرتها إلى جهوده. تحدّثنا عن الليبيين والسوفيات والصينيين، وفصّل خططه لما بعد النصر بالنسبة إلى البنى التحتية في بلاده والتربية والعناية الصحية والتجارة وحقوق المرأة. وتطرّقنا إلى النظرية السياسية.

لم أسجل أي ملاحظات لكنني كافحت لمجاراة كل هذه المعلومات التي سأحولها بعودتي إلى المحطة إلى تقارير استخباراتية. وتساءلت عن قدرتي على مجاراته ذهنياً، كما تساءلت عن حاله وهو مرتاح.

«أريدك أن تلتقي إحداهن وتعمل معها. سأعود قريباً إلى الأدغال، لكن لديها ما تحتاج إليه».

أجبته: «نعم، يا سيدي».

نادى اسمها ومال برأسه صوب جانب الغرفة. ليست السيدة التي قدّمت نفسها واحدة من فتاتي جيمس بوند بل سيدة أكبر سنّاً وممتلئة الجسم، يدها كبيرة وناعمة وواهنة. بدت شخصاً لطيفاً، وربما العمّة المفضلة لأحدهم.

تبادلنا المعلومات حول طرق الاتصال، وعيّنت لها مكاناً يمكننا اللقاء فيه في الأسبوع التالي. ستقف عند زاوية أحد الشوارع في المدينة، وسأقلّها في السيارة.

التقيتها بانتظام على امتداد السنة التالية ليلاً في سيارة متنقلة في أغلب الأحيان. لم تتغيّب عن أي اجتماع، ولم تخفق مرّة في عملها. وزوّدتني بالتفاصيل عما أحرزه التمرد من تقدم وعن التداعيات الجيوسياسية لحربهم.

ناقشنا الدفق المتقلّب في التمويل وسلسلة الإمدادات الملتوية والسياسات القبلية ومعارك الماضي والحاضر والمستقبل. تعلّق القتال بالجغرافيا الطبيعية؛ وطرحت الأنهر بنوع خاص تحديات ضخمة. وتضمن القتال خططاً معقّدة للتخريب، كما تعلّق بقادة التمرّد وبالحكومة المتعثّرة. ما هي خططهم ونواياهم؟ علمتُ أن الزعامة تشكّل بالنسبة إليهم عنصراً أساسياً. ما الذي حفّز هؤلاء الناس على القتال؟ ما الذي يريدون تحقيقه في ما هو أبعد من الانتصار؟ طرحت الكثير من الأسئلة، وستقودني إجاباتها إلى طرح المزيد من الأسئلة. بدا كما لو أنني لا أمتلك ما يكفي من الوقت.

وفيتُ بجانبي من الصفقة، وزوّدتها بالموقف الرسمي للحكومة الأميركية

في مسائل تهم تنظيمها. بل إنني زودتها، بناء على طلبها، بآرائي الشخصية. واستمرت الولايات المتحدة في الاعتراف بالحكومة التي سعى المتمردون إلى إطاحتها وانتفى بالتالي أي دعم صريح أو، في هذه الحال، أي دعم ضمني للمتمردين. بيد أنني قدّمت بوصفي ممثلاً للسي.آي.إيه قناة مباحة وسرية لا يمكن لوزارة الخارجية المخاطرة بإقامتها. وأدركت في مآل الأمر أن علاقة الارتباط الاستخباراتية هذه أدت أيضاً وظيفة دبلوماسية أولية مهمة. فنحن نمهد الطريق أمام العلاقات الدبلوماسية عندما يتحوّل جيش المتمردين المنتصر إلى حكومة دولة معترف بها.

لم أسعَ أبداً إلى تجنيد محاورتي كمصدر أحادي، ولم أحتج إلى ذلك نظراً إلى ما توفر من فيض في المعلومات. كما أنني لم أشأ أن أخاطر بتخريب ما سيتطور ليصبح واحداً من أنجح الارتباطات التي أقامتها السي.آي.إيه في القارة. امتلك رئيس محطتي بعد النظر للاستمرار في هذه العلاقة وخاطر بإعطائي، أنا المبتدئ في الارتباط، هذه الفرصة. أدرت العملية بثقة متزايدة وفاعلية، وقد تمتعت بشركاء جيدين وطويلي الأناة.

أتذكّر بمودّة السيدة القليلة الأناقة بنظارتيها السميكتين وأسلوبها السهل ونبراتها الموزونة والرخيمة. وهي، بقدر ما أمكنني تخيّله، لم تبدُ أشبه كثيراً بمتمردة. ولم يمكنني، بوصفها أول مدرب وشريك في عمليات الارتباط، أن أطلب من هو أفضل.

الارتباط بالحكومات الأجنبية

تعرّفت للمرة الأولى بما يشبه الصدفة إلى جهاز الارتباط بالحكومات الأجنبية من خلال ملاحقة هدف أحادي.

كان هدف التجنيد، امرأة قصيرة القامة وتعوزها الأناقة، تكبرني بعشرين عاماً. أوجزت إضبارتها في السي.آي.إيه، وتُعرف بالملف ٢٠١، تحصيلها

العلمي ومعرفتها بالولايات المتحدة، إلا أن معرفتي ببلادها جاءت في المقابل محدودة. هي مسؤولة رسمية كبيرة نسبياً، وأنا ضابط صغير في السي.آي.إيه. ركّزتْ على العلوم الاقتصادية، وأنا عملت في الغالب في حقل الاستخبارات الجيوسياسية، وبخاصة مكافحة التجسّس والتمرّد. ولم نمتلك سوى القليل من الأمور المشتركة.

واصلت في سياق السنوات الست التالية ملاحقة هدف التجنيد هذا معتمداً على جهازَي ارتباط خارجيين تفصل بينهما آلاف عدة من الأميال. ولم يتم الإعلان عنّي أبداً للجهاز الأول بالرغم من أنه ربما ارتاب في انتمائي. ولم أحتج إلى من يعرّفني إلى الجهاز الثاني.

استُخدم البلد، الذي وُجدت فيه، موقعاً لمؤتمر دولي كبير حضره مئات عدة من المسؤولين الحكوميين من كل أنحاء العالم. وشكّل عدد من هؤلاء المشاركين في المؤتمر أهدافاً رئيسية للتجنيد، لكنهم أبعد من متناول محطات السي.آي.إيه في بلدانهم الأم حيث تراقب الأجهزة الأمنية عن كثب المسؤولين الأميركيين، وبنوع خاص من تشتبه في أنهم ضباط في السي.آي.إيه. كما تراقب هذه الأجهزة الأمنية اتصالات مسؤوليها الحكوميين مع الأجانب. وتندر فرص التجنيد في مثل هذه البيئات العملانية المقيّدة.

إلا أن هذه الأهداف اجتمعت الآن في المقابل في بيئة يتحكّم فيها جهاز الاستخبارات المحلي والسي.آي.إيه. وأراد رجال الاستخبارات المحليون بالطبع إدراك ما أمكن بشأن هذا الحشد من الزوار الأجانب. ولبّت المحطة رغباتهم مرسلة التقارير عن أولئك المسؤولين الأجانب، أو أقله عن التابعين منهم للدول العدوّة، إلى جهاز الاستخبارات المضيف. استخدم شركاؤنا المحليون في الارتباط هذه المعلومات لغاياتهم الخاصة مثل تقديم الإيجازات لقيادتهم السياسية. وساعدت السي.آي.إيه بهذه الطريقة الجهاز المحلي في حماية مصلحة بلاده وترقية علاقته مع أسياده السياسيين.

زوّد الجهاز المحلي الممتن المحطة بمعلومات تكتيكية يومية عن أهداف مختارة مستقاة من المراقبة والجمع التقني للمعلومات والمصادر في المؤتمر. وُجدت مصلحة مشتركة واضحة. فقد عرف الجهاز المحلي أننا نريد استمالة بعض هذه الأهداف، وكان له مطلب واحد: لا لأي شيء يتسبّب بضجة. لم يريدوا أي إحراج أو أي احتجاجات من حكومات أجنبية أو أية عناوين في الصحف. وشرح لنا رئيس المحطة الأمر بعبارات أخرى مفادها «افعلوا ما تشاؤون، ولكن لا تفسدوا الأمر».

احتوت المحطة على مجموعة صغيرة فقط من ضباط العمليات. وكانت لائحة الأهداف أكبر بكثير من أن نتمكّن من معالجتها في بضعة أيام فقط، وكُلّف كل واحد منّا بالتالي بهدف واحد أو هدفين.

درست موجزاً عن ملفها في المكتب الصغير الذي أتشارك فيه مع اثنين آخرين من الضباط الصغار، وعرفنا موقف حكومتها وخلفيتها العائلية والعلمية وقيمتها الاستخبارية المحتملة. عملتُ مع محلّل في المحطة، سبق له أن استشار مقر القيادة، وجمعتُ في ذهني لائحة من المواضيع التي يتضح أنها تهمها، وعلى رأسها العائلة.

جئتُ في اليوم التالي إلى المؤتمر بصفة مراقب والبطاقة التي تحمل اسمي مُلصقة على طيّة صدر سترتي. جلست خلال إحدى الجلسات العامة وأنا أتفحّص الحشد محاولاً مطابقة الأسماء وسِيَر الحياة والصور مع المشاركين. وأُصبت، في ما عدا ذلك، بالضجر التام، بعدما بدا أن المؤتمر يشكل أساساً منتدى لتفاهة تلو أخرى. كرهتُ سأم المراقبة الساكنة وقد زاد في سوئها عدم قدرتي على رؤية الهدف.

عثرت عليها في الصباح الأخير من المؤتمر، في المكان تماماً الذي أفاد عنه صلة الاتصال، وكانت وحيدة تقلّب صفحات بعض مواد القراءة خلال استراحة القهوة.

اقتربت منها، في غياب الوقت وأي خيار آخر، وعرّفت بنفسي وسألتها هل يتوفّر لديها بعض الوقت للحديث عن بلادها. تفحّصتني على مدى ثوانٍ قليلة أشبه بجدة تتفحّص بائعاً متجوّلاً. حوّلت عينيها ولم أدرك كنه تعبيرها فانتظرتُ. ربّما قلقتْ في شأن مجموعتها التي ضمت ضابط أمن تمثّلت مسؤوليته في منع الارتدادات. وقد سبق لي أن لاحظته.

استمرّت في تفحّصي. وأخذت أتساءل إن كانت ستمضي مبتعدةً أو تطلب الأمن أو تصرخ: السي.آي.إيه، السي.آي.إيه!

«آه، بالطبع»، أجابت بإنكليزية ذات لكنة.

سألتها: «أيمكنني أن أقدمّ لك فنجان شاي؟».

وبابتسامة شقية دفعت برأسها في اتجاه المقهى وسرنا إلى أحدى الطاولات.

شكّلت الدقائق الثلاثون التالية فاصلاً مريحاً. بدا أنها أيضاً ضجرت من المؤتمر ورحبّت بفرصة الحديث عن بلدها وعن عائلتها. ربّما ارتابت في انتمائي الاستخباري، لكنها بدت رابطة الجأش، واثقة ومتحمسة في شأن تبادلنا المهذب لوجهات نظرنا السياسية والخاصة. لم أتطرق إلى أي أمور حساسة، بل اكتفيت في الوقت القصير المتوفر لنا بالعمل على بناء درجة من التفهم والإلفة.

كرّرتُ اسمي في النهاية بدلاً من تزويدها ببطاقة زيارة نظراً إلى ما قد يشكّله ذلك من خطر. فهي لا تحتاج، أو لا تريد، أن توجد في حيازتها بطاقة مسؤول رسمي أميركي لدى عودتها إلى الديار. لكنها أعطتني واحدة من بطاقاتها.

لن أراها بعد ذلك لمدة أربع سنوات. وكنت في ذلك الوقت في مهمة أخرى في الخارج. ومرّة أخرى شكّل جهاز ارتباط أجنبي المفتاح. فقد وقع على اسمها في لائحة الزوار المقرر أن يحضروا مؤتمراً دولياً آخر في مدينة في الجانب الآخر من الكرة الأرضية.

دخل رئيس المحطة إلى مكتبي وزوّدني بتعليماته: «وضّب حقائبك».

«بالتأكيد، إلى أين؟».

وضع مغلّفاً على مكتبي، ونبّهني وهو خارج، «الطعام هناك جيّد حقاً».

فتحت المغلف وقرأت البرقية التي يُسمح للشخص الموجهة إليه فقط بالاطلاع عليها. كادت السي.آي.إيه تبدو يائسة لترسلني في مثل هذه السفرة الطويلة سعياً، بعد أربعة أعوام، وراء محادثة أخرى مع الهدف نفسه. ومن الواضح أننا لم نمتلك إلا قلّة من المصادر الخفية، هذا إذا امتلكنا، في ذلك البلد.

انطلقت في اليوم التالي مسرعاً على علو ثلاثين ألف قدم.

بوصولي إلى المطار طلب مني ضابط الهجرة بتهذيب الانتحاء جانباً. وفي غضون ثوانٍ قليلة واكبني مسؤول أمني باللباس المدني إلى ممشى آخر حيث رحّب بي أحد ضباط المحطة. غابت أي تأشيرة دخول على جواز سفري، أو أي سجل عن وجودي في البلاد، أو أي شيء. ولطالما تناهى إليّ أن علاقة وثيقة تربط بين السي.آي.إيه والحكومة المضيفة.

أدركت كذلك، وللمرة الأولى، أنه تم الإعلان رسمياً لحكومة أجنبية عن أنني ضابط في السي.آي.إيه. غاب أي تشريف في ما عدا هزة رأس من ضابط الهجرة.

نزلت في فندق «خمس نجوم» طعامه ممتاز كما توقّع ذلك رئيس محطتي. وأنام في العادة في أسفاري في نزل بسيط آملاً أن يحتوي على مروحة تعمل وناموسية خالية من الثقوب.

بدت المهمة أشبه بالإخفاق، بالرغم من الرفاه غير المتوقع. فقد أفاد الارتباط المحلي بأن «الهدف» لم تصل مع بعثتها. فزرتُ المحطة صباحاً للقراءة ثم مارست الرياضة بعد الظهر في نادي الفندق.

ظهرتْ في اليوم الرابع، ووضعَها الارتباط المحلي تحت المراقبة الساكنة والمتحركة، وكان هذا الجهاز على قدر المهمة. وقد زوّدته السي.آي.إيه

بالتكنولوجيا والآليات والتدريب والتمويل. أحصوا كل حركاتها ووضعوني في موقع مثالي للقاء بالصدفة.

استغرقها الأمر بضع ثوانٍ لتتذكرني، ثم هزّت برأسها وكادت تبتسم.

قدّمت لها عذراً واهياً بشكلٍ سافر لوجودي في المدينة. وأدركتُ ما يحصل، هذا إذا لم تدرك ذلك من قبل. فهي ليست بغبية، ولكن بدا أن فضولها وثقتها بنفسها تغلّبا على أي قلق. قبلت دعوتي إلى كوب من الشاي وانتقلنا إلى مقهى مجاور.

سألتني: «إلى متى ستبقى في المدينة؟».

أجبتها: «يتوقّف ذلك في الحقيقة ... على المدة التي ستبقين فيها؟».

خنقت ضحكتها التي تحوّلت إلى سعال.

أجابت: «يومان فقط»، وهي تلتقط أنفاسها وتمسح عينيها بمنديل. وفكّرتُ أنني أوفّر لها بعضاً من التسلية على الأقل.

تحول الحديث إلى السياسة بعد نقاش وجيز ومهذّب عن العائلات. وتجاوز الكلام الصريح الخمس وأربعين دقيقة التي توقّعها الارتباط المحلي نظراً إلى جدول أعمالها. وبعد نحو ساعة وافقت على تسلّم اسم ورقم هاتف تتصل بهما في المرة التالية التي تسافر فيها إلى خارج بلادها.

لم تتصل أبداً في سياق السنتين التاليتين.

وظهرتْ في بلد آخر حيث لاحظ جهاز الارتباط المحلي اسمها على إحدى لوائح الزوار. وهي ستبقى في المكان حوالى شهرين. بيد أنني، وبدلاً من الطيران إلى هناك، كتبت لها رسالة تعريف بأحد الزملاء، وهو ضابط عمليات ملحق بالمحطة المحلية. وهو سيسعى إلى استئناف التقويم والعمل على هذه المسؤولة الأجنبية الكبيرة الممتعة.

عقد الضابط والهدف لقاء أوليّاً جيّداً عندما سلمها رسالتي. ثم عقدا اجتماعاً آخر، ثم آخر.

لم أعرف أبداً، كما هي الحال في الغالب، نتيجة العملية. ولن أعرف أبداً. ولا أحتاج إلى المعرفة.

ساعدنا على مر السنين ثلاثة أجهزة ارتباط في ثلاث قارات في تقفي أثر ومتابعة هذا الهدف الذي شكّل لولا ذلك هدفاً أحادياً. ربما كانت قد وافقت في النهاية بمساعدة من هذه الأجهزة. أشكّ في أنها فعلت. لكنني آمل ذلك.

مايسون

شدّ ظهره وكتفاه العريضتان نسيج معطفه وهو يستدير لإغلاق باب سيارته. أول ما لاحظته فيه عندما التقيته هو أن صدره يبدو أشبه بصدر ظهير كرة القدم الأميركية. وانتقلت عيناه، وهو يستدير للمصافحة، مني إلى المحيط السكني البهيج. عاود النظر إليّ وطرفت عيناه ببطء. أمسكت يده السميكة بيدي في مصافحة لطيفة، وهزّ برأسه وابتسم. أسنانه صفراء، وبدا أن قصة شعره القصير جداً تبرز رأسه الضخم شبيه الرصاصة.

سيصبح مايسون شريكي الأساسي في الارتباط للسنوات الثلاث التالية.

دعوته إلى مشاركتي فنجان شاي أسود ساخناً في فنائنا المسقوف بالقش والمطل على حديقتنا المنزلية. راجعنا بتهذيب تاريخ علاقة الارتباط بيننا، وهي واحدة من الأكثر إنتاجاً في القارة. وترتكز هذه العلاقة إلى التهديدات المشتركة التي يواجهها بلدانا من إيران وكوريا الشمالية وليبيا وغيرها من الدول. كذلك شكّلت المجموعات الإرهابية العابرة للدول خطراً على مواطني كلا البلدين.

احتاجت السي.آي.إيه والجهاز المحلي أحدهما إلى الآخر. امتلكت السي.آي.إيه موارد واسعة ولهذا الجهاز احتياجات ضخمة. وللسي.آي.إيه امتداد عالمي ولهذا الجهاز معرفة وثيقة بالبلاد والمنطقة.

امتلك الجهاز المحلي كادراً من الضباط الأشداء، الكثيرون منهم من الناجين من حرب عصابات قاسية. هلك من بينهم الأقل براعة وتآلفاً. وها إن الأشد ذكاء وقساوة، الناجين، يديرون البلاد والجهاز. وشكّل مايسون أول مثال.

سألت مايسون، بعد إنجازنا الأجندة الأصلية، عن تاريخه الخاص. فقد شارك في التمرد في سن مبكرة، وعرفت ذلك وأكثر من ملفه، إلا إنني أردت تحسّساً أفضل لاحترامه لذاته. وبدا، على غراري، مرتاحاً وحتى مستمتعاً بنقاشنا.

سألته: «وماذا عن الندب على ذراعك؟».

سبق له أن نزع معطفه وطوى كمّي قميصه كاشفاً عن ذراعين ضخمتين. ووجدت على ذراعه اليسرى كتابة بالأحرف على شاكلة ندب، محزّزة.

نظر إلى ذراعه ورفعها بعض الشيء.

«ذلك اختصار لجيش عصاباتنا».

عرفتُ ذلك.

«لكن ما سبب الندب؟»

زمّ مايسون شفتيه السميكتين ونظر إليّ متسائلاً ربما عن مقدار ما يجب أن يخبرني به.

«افترقتُ عن دوريتي. قُتل بعضنا، وأُسر بعضنا الآخر. وبتُّ وحدي. أردتهم، في حال لم أتمكّن من النجاة، أن يعرفوا. أردتهم أن يعرفوا من أكون».

سألته: «أحفرت ذلك الاختصار بنفسك؟».

«نعم».

«وبالتالي لو أُسرت أو قُتلت فلن يحصل أي شكّ في انتمائك؟»

«نعم».

ما الذي يمكنني قوله حيال ذلك. بدا كل شيء آخر غير ذي صلة. وها إن مايسون الجالس هناك وهويته القتالية محفورة في لحمه ينظر إليّ غير غاضب أو مرتبك بل مسترخياً.

سألته: «أترغب في المزيد من الشاي؟».

«نعم، من فضلك».

قامت محطتنا في السنوات الثلاث التالية بالتعاون مع فريق مايسون بعدة عمليات مراقبة وجمع تقني للمعلومات عن طائفة من الأهداف. زوّدناهم بالعتاد والمال والتدريب الذي تضمّن قسماً إجبارياً يتعلق بحقوق الإنسان. ووفروا لنا الوصول إلى حيث نريد، كما وفّروا الرجال والغطاء السياسي. وأنتجنا معاً المئات من التقارير الاستخبارية.

شاركنا أيضاً في عمليات تجنيد مشتركة لأهداف أجنبية، فكان ضباطهم يقومون أحياناً بعملية الإقناع، ونقوم بها نحن أحياناً أخرى. ولم تمتلك المصادر المجنَّدة أحياناً أي فكرة عن أن معلوماتهم تذهب إلى كل من السي.آي.إيه والجهاز المحلي.

أوفدت دولة راعية للإرهاب في إحدى الحالات بعثة مؤلفة من كبار المسؤولين إلى أنحاء آسيا وأفريقيا. وأصدر مقر القيادة التعليمات إلى محطات عدة بالوصول إلى مبعوث محدّد لدى مروره في هذه العواصم المختلفة، وذلك من ضمن خطة أوسع لتجنيد المصادر وتعطيل نشاطات هذه الدولة العدوة. أطلق هذا التوجيه موجة من البرقيات بين المحطات فيما تسابق كل منها للحصول على رمية على هذا الهدف المتحرك الذي لم يستقر في أي من البلدان إلا لنحو يومين، وبالتالي كانت نافذة الفرص محدودة.

راقبنا، فيما ضيّعت كل محطة على طريقه فرصتها، إلى أن وصل الهدف إلى جزئنا هذا من العالم. وكان شركاؤنا في الارتباط في الانتظار، وأحاطوه بالمراقبة.

وضعنا الخطط وتوقّعنا تحركاته في انتظار المكان المناسب والفرصة المناسبة للقيام بالمقاربة.

أدار جورج، نائب مايسون، فرق المراقبة وأوصى بالموقع. ونظّم ببراعة تفريق الهدف في منطقة عامة عن باقي المبعوثين أشبه بفصل بقرة وحيدة عن القطيع.

واجهتُ الهدف وجورج إلى جانبي على بعد نحو خمس خطوات يتطلّع في اتجاه المبعوثين الآخرين.

«مرحبى، أنا فرانك». قلت ومددت يدي.

تراجع إلى الوراء. استعاد روعه، وتمتم اسمه وتصافحنا.

«أنا مسؤول في استخبارات الولايات المتحدة، ونريد منك التعاون معنا. أنت رجل صالح ولكن لا مستقبل لك مع نظامك الحالي. وأنت تعرف ذلك».

وتلعثم: «من ... من أنت؟».

«تعرف من أنا، وأنت تحتاج إلينا، ومن دوننا ليس لديك شيء. خُذْ هذه الرسالة، اقرأها وتذكّر التعليمات، ثم أتلف الوثيقة. اتصل بنا في المرة التالية التي تصبح فيها خارج البلاد».

أخذ الرسالة. ولم أستطع تصديق الأمر.

سألته: «هل تفهم؟».

«لا أعرفك. أرجوك الابتعاد». ودفع بالرسالة إلى جيبه.

«نعرفك، ونعرف ما تقوم به، ونعرف أصدقاءك. هل تريد أن تشكّل جزءاً من نظام قذر وقاتل تسميه حكومة؟ لديك خيار. خيار حقيقي معنا».

انكمش خوفاً وهزّ برأسه، ربما خوفاً أكثر منه قبولاً، وبات على وشك فقدان أعصابه. ولم يعد لديّ ما يكفي من الوقت، إذ لم يعد في وسع رجال جورج مماطلة المبعوثين الآخرين لوقت أطول. ولم يعد يسعني المضي إلى ما هو أكثر.

«اتصل بنا»، أمرته بحدّة، ثم استدرت مبتعداً.

سارع جورج إلى الانضمام إليّ ونحن نخلي المكان. سمع كل ما دار في اللقاء. فقد مضى علينا الآن نحو عامين نعمل معاً؛ وتميّزت علاقتي معه على الدوام بالتهذيب والمجاملة. ولم يسبق له أن رآني أبداً وأنا أحاصر هدفاً بهذا الشكل.

قال جورج: «يا للهول! فلنخرج من هنا».

نظر إليّ ونحن في السيارة، وهزّ برأسه وأخذ في الضحك.

«أعتقد أنه تغوّط في ثيابه».

«ربما».

وسألني: «هل سيفيد من محاولة الإقناع؟ أو هل سيتصل بكم يا رفاق؟».

«لا أعرف. لكنه ربما كان أكثر ذعراً من إبلاغ أي شخص بالأمر وأشد رعباً من العمل معنا. لكن بات لديه ما يفكّر فيه».

قمت في وقت لاحق من الأسبوع، في خلال واحد من اجتماعاتنا الخاصة، بإبلاغ السفير الأميركي بالمحاولة. لم أكن ملزماً بذلك نظراً إلى عدم وجود حظوظ كبيرة بحصول أي تداعيات سياسية، لكن القيام بالأمر زوّده بمثال جيّد على عمل الارتباط الذي نقوم به، والذي يشكل جزءاً من العلاقة الأكبر مع حكومة الولايات المتحدة.

تطلّب زوج من العمليات، في خلال مدة واجبي، إبلاغ السفير مسبقاً بهما بسبب حساسية الحكومة المضيفة أو بسبب الخطر الكبير على ضباطنا.

وقد أُنعم على سفارتنا بسفير عظيم أصبح صديقاً كبيراً. أبلغته بأكثر مما هو مطلوب مني وربما بأكثر مما أراد، بيد أن توجيهاته ودعمه كانا رائعين. فعمليات السي.آي.إيه تقع ضمن سياق سياسي أكبر بالرغم من أن ضباط الوكالة يميلون

أحياناً إلى نسيان ذلك. فالاستخبارات تخدم غاية سياسية وتساند صانعي السياسة ومنفذيها. وسفارتنا محظوظة لأن سفيرنا فهم عملنا واحترمه واستخدم ما قدّمناه. وهذه ليست الحال على الدوام.

تقود السي.آي.إيه شبكة ضخمة ومتوسّعة من علاقات الارتباط الخارجية مع كل دولة في العالم تقريباً. وبالرغم من أن الجهاز الخفي يشدّد، كما عليه أن يفعل، على المصادر الأحادية، فإن برامج الارتباط هذه تزداد ضرورة نظراً إلى بروز التهديدات العابرة للدول.

يدفع في الأساس إلى التوسّع في عمليات الارتباط نمو الأعداء المتطورين والعالميين، الذين يشكلون أخطاراً أكثر وأشد تعقيداً. فالإرهاب وانتشار أسلحة الدمار الشامل وجرائم المخدرات والمتاجرة بالبشر، بل وحتى المخاطر البيئية تطرح تحديات فريدة على أجهزة الاستخبارات. ولا يسَعْ أي جهاز وحده معالجة هذا كله. وأخذت السي.آي.إيه على عاتقها دوراً قيادياً نظراً إلى وجودها العالمي وقوتها وعمق علاقاتها. وتقدم السي.آي.إيه، من خلال قدرتها على جمع المعلومات وتحليلها وتنسيق الردود مع أجهزة متعددة في الوقت الحقيقي عبر المشهد العالمي، خدمة قيمة كموحّد وكمنسّق الأمر الواقع، وأحياناً كقائد.

بيد أن مثل هذه العلاقات لا تتعلق بالطبع بالتعاون وحده. بل هي أيضاً تنافس هو أكثر حدة من خلال جهود أجهزة الاستخبارات ليخترق بعضها بعضاً. وليست السي.آي.إيه استثناءً، وعليها لقياس مخاطر مكافحة التجسّس أن تدرك خطط الأجهزة الأخرى ونواياها. وليست الطريقة الأفضل للقيام بذلك إلا عبر المصادر الأحادية داخل تلك الأجهزة. ومن الواضح أن طريقة القيام بمثل هذا الجهد وتوقيته يتطلبان الاعتناء في احتساب المخاطر والمكاسب.

ولعل من التبعات الكبرى للأمور السؤال عما تربحه الولايات المتحدة من قوة أو تخسره، بما في ذلك قوة الفضيلة الطبيعية، بالانخراط في مثل علاقات الارتباط هذه؟ وتحظى هذه العلاقات بموافقة صانعي السياسة الأميركية الذين

يديرونها في بعض الأحيان. لكن كيف ستعمل السي.آي.إيه عندما تتبدل الرياح السياسية الدولية؟ هل تتعزّز سمعة الولايات المتحدة أو تتراجع؟

ما من مهمة ستعلّمني أهمية الارتباط أكثر من مكافحة الإرهاب.

الفصل السادس

مكافحة الإرهاب

توجد نزعة في تخطيطنا إلى الخلط بين غير المألوف وغير المحتمل.
ـ توماس شيلنغ، اقتصادي في هارفرد، في إشارة إلى الهجوم الياباني على بيرل هاربور

زوّدني مقر القيادة في ربيع ١٩٩٨ بتوجيهات كي أعود من الخارج للعمل في لجنة لتقييم ضباط من سلّم الرواتب الأرفع، والتوصية بترقيتهم إلى صفوف كبار ضباط الاستخبارات. شكّل هذا قفزة كبيرة لهؤلاء الضباط من رتبة تعادل العقيد في الجيش إلى رتبة عميد. وسبق لي أن رُقيت في السنة السابقة إلى صفوف كبار ضباط الاستخبارات، وأعرف مدى أهمية اللجنة، ليس بالنسبة إلى الضباط فحسب، بل الأهم من ذلك، إلى مستقبل الجهاز الخفي وإلى أمن دولتنا. وسينضم من ينالون الترقية إلى مجموعة صغيرة جداً من القادة المسؤولين عن التجسّس الأميركي والعمل الخفي.

عملت اللجنة على مدى أكثر من شهر. وبعد قراءة عشرات الملفات تقرّر أن يرقّى ستة ضباط فقط. شكّلت اللجنة في حد ذاتها ثقافة ليس في شأن الضباط وحسب، بل أيضاً في شأن الجهاز الخفي نفسه. أدهشني انتشار الجهاز وأداؤه بالرغم من أنني عملت في تشكيلة من العمليات السرية في بلدان في أفريقيا وأوروبا وآسيا. واحتوت الملفات الموضوعة أمامنا على مخاطر العمليات وتعقيدها، من

الغطاء التجاري العميق في الأنظمة الأكثر خطراً في العالم، إلى التأثير الخفي على أعلى مستويات الحكومات الأجنبية. وبلغت بعض العمليات من الحساسية حداً انتفى معه أي سجل مكتوب في ملفات الحياة الشخصية للضباط ما عدا حواشي للجنة تقضي بطلب شروحات شفهية. وسبق للضباط الخاضعين للمراجعة أن جمعوا المعلومات الاستخباراتية وانخرطوا في أعمال خفية ضد الدول وتجار المخدرات ومهربي الأسلحة والإرهابيين، وحتى أهداف لم نعرف أنها موجودة على لائحة الأهداف.

نظرت لجنتنا في المصادر التي تم تجنيدها ونوعية الاستخبارات التي جمعها هؤلاء الضباط أو من يأتمرون بأوامرهم. وسعينا إلى تحديد وقع عملهم ومستوى قيادتهم، وقد انخرطوا، في رتب سلّم الرواتب الأرفع، في عمليات التعاون بين الوكالات وطبعاً في النزاعات البيروقراطية. وتحدّث عمل هؤلاء الضباط عن الغطاء الواقي المعقّد للاستخبارات مع العمليات العسكرية وفرض القانون والدبلوماسية. وشكّلت قدرتهم على الإبحار عبر حقول ألغام ما بين الوكالات قسماً مهماً في مراجعتنا، فيما شكّلت المهارات المطلوبة للعمل مع أجهزة الارتباط الأجنبية القسم الآخر.

اتضح من هم الضباط العشرة بالمئة الأوائل. وقد حلّ نحو ٧٠ بالمئة في مجموعة الجيّد جداً إلى العادي. ولم يُفترض بالعشرين بالمئة في الأسفل أن يُرقّوا إلى مرتبة سلّم الرواتب الأرفع، ونصفهم ربما لا عمل له في السي.آي.إيه. قدّمنا توصياتنا إلى نائب رئيس العمليات جايمس بافيت الذي وافق على معظم ما توصلنا إليه لكنه أسقط اثنين منها لصالح اثنين من المحسوبين عليه. خالفت خياره لكن ذلك كان امتيازه.

طلب مني بافيت زيارته في الطابق السابع حيث يعمل المدير تينيت ونوابه الآخرون. وغالباً ما نشير إلى قيادة السي.آي.إيه بالطابق السابع وحسب. تساءلت هل أن بافيت أراد مناقشة عملنا في لجنة الترقية أو مهمتي التالية. وسبق أن طلبت

تمديد مهمتي الميدانية الراهنة لكن طلبي رُفض. فبعد أربعة عشر من أصل ستة عشر عاماً من العمل السري في الميدان الخارجي حان موعد عودتي إلى مقر القيادة.

رحّب بي بافيت كالعادة بحرارة، ولم يبق جالساً خلف مكتبه بل انتقل إلى طاولة وانضممت إليه. مكتبه كبير ويتّسع لطاولة إضافية وأريكة لا أكثر.

بدا أن بافيت يستمتع بمركزه وهو الذي يرتدي دوماً ثياباً أنيقة مع ربطات عنق ذات ألوان جريئة. وهو على دراية بيئة واشنطن العاصمة، وسبق له في عمله السابق أن ترأس قسم مكافحة انتشار الأسلحة في مقر القيادة. وعُيّن قبل ذلك في مجلس الأمن القومي، وتولّى في مركزه الأخير في الخارج رئاسة محطة أوروبية صغيرة.

فتل خواتمه الكبيرة وقلّب قلم حبره وهو يسألني عن اللجنة وعن طموحاتي المهنية. أبلغته أنني توّاق إلى محاولة أمر مختلف وإلى توسيع آفاقي، كما إنني مهتم حتى بالعودة إلى الدراسة لسنة أو سنتين.

«وماذا عن تعيينك في مقر مكتب التحقيقات الفدرالي؟ ستصبح نائباً في قسمهم المتعلق بعمليات الإرهاب الدولي مع سلطة إصدار الأوامر. ستحلّ محل جيف».

كدت لا أعرف شيئاً عن المنصب لكنني أجبت وأنا أعرف أهمية مكافحة الإرهاب: «سأتولاه. شكراً على الفرصة».

«جيّد. سنقوم بتحقيق ذلك».

سرت خارجاً من المكتب متسائلاً عن مدى جودة قراري الفجائي، وخمّنت أن جيف ربما هو الذي أيّدني. علمت لاحقاً أنه أوصى بالفعل بي كبديل له، وهذه علامة زائدة، كما علمت أن بافيت وغيره اعتقدوا أنني مناسب جدّاً لأن قيادة السي.آي.إيه اعتبرتني، كما قال لي أحد المخلصين، «الفتى الذي يشارك

الآخرين سلّة طعامه». أي أنني، بتعبير آخر، سأنسجم مع العملاء الخاصين الميدانيين في الأف. بي. آي. وتصوّرت في الحقيقة أنهم مصيبون في ذلك.

شهدت السي.آي.إيه دفقاً من تقارير المعلومات الاستخباراتية الحديثة المتعلقة بأسامة بن لادن وبالقاعدة. وسبق للوكالة أن أحبطت مؤامرات عدة للقاعدة وحالت في إحدى المرات دون الهجوم على إحدى منشآت الحكومة الأميركية. بيد أن تهديدات العدو وعملياته استمرت في التوسّع. وقبل ذلك بشهرين تقريباً، في شباط/فبراير ١٩٩٨، أصدر أسامة بن لادن فتوى عامة يعلن فيها الحرب على الغرب. بدا الاتجاه واضحاً، فالقاعدة ستشكل تهديداً متصاعداً للولايات المتحدة ولمصالحنا.

أتاحت لي مشاركتي في لجنة الترقية، وقد زودتني بفهم أفضل لجهودنا في جمع المعلومات، تقدير الحجم الواسع لمهمة مكافحة الإرهاب وتعقيدها، وتصوّرت أنه يتجه إلى الازدياد. وهو، وهذا هو الأهم، ما قدّره أيضاً المدير جورج تينيت الذي أصدر إعلان حرب على القاعدة. بيد إنني لم أمتلك عند هذا الحد فكرة عن أن مكافحة الإرهاب ستسيطر قريباً على أجندتنا الأمنية الوطنية.

عدت إلى مركزنا في الخارج وأنجزت مدة واجبي وعلمت في يوم العودة إلى الديار بالهجومين على سفارتينا في كلّ من نيروبي في كينيا ودار السلام في تنزانيا. حصل ذلك في السابع من آب/أغسطس ١٩٩٨.

وقفتُ وسيندي والأولاد في الممر المطل على فنائنا ننتظر الحافلة التي ستنقلنا إلى المطار. قضينا الكثير من الوقت في هذه الحدائق الواسعة الغنّاء؛ أحب الأولاد وكلبهم الـ«لابرادور» الأشجار والأكمات والصخور وأماكن الاختباء. الطقس كالعادة شبه مثالي. وها إننا عرفنا أننا سنشتاق إلى هذا المكان، سنشتاق إلى أفريقيا. فأنا وزوجتي التقينا على أحد شواطئ أفريقيا، وشرعنا في تربية عائلتنا المؤلفة من ثلاثة صبية في ثلاث دول أفريقية مختلفة. تعلموا العوم

والترحال بحقائب الظهر والرماية والمنافسة في الرياضات المحلية مثل «الركبي». درسوا السواحيلي والفرنسية واللغات القبلية المحلية، ولم يرغبوا في المغادرة.

رنّ الهاتف في المنزل وسرت عائداً إلى الداخل وقد تصوّرت أن المتصل يود إبلاغي مسألة إدارية تتصل بمغادرتنا، إذ يوجد في العادة دوماً خلل كبير واحد على الأقل في أي عملية انتقال.

«نعم»، جاوبت وأنا جاهز للانزعاج.

إنها المحطة. «ضُربت سفارتانا في نيروبي وفي دار السلام. سيارتان مفخّختان. الأمر سيّىء، سيّىء حقاً».

«هل من معلومات عن الإصابات؟ أي توجيهات من مقر القيادة؟». وتساءلت هل يتوجب عليّ البقاء أو التحوّل إلى واحدة من المدينتين لتوفير الدعم. عرفت المدينتين معرفة جيدة. ولدينا أصدقاء، أميركيون وأجانب، يعملون في كلتا السفارتين. حاولت تخيّل المذبحة. وتساءلت عمن قُتل من أصدقائنا.

«لا، لا شيء. لقد حصل الأمر للتو».

«حسناً، سأمضي مع العائلة وسأتصل من نقطة عبورنا في أوروبا».

سرت عائداً إلى الممر حيث كانت الحافلة في الانتظار، وأخبرت العائلة. طرحوا الأسئلة: ما عدد القتلى؟ هل من بينهم أصدقاء لنا؟ هل ستحصل هجمات أخرى؟ لماذا؟ من المسؤول؟

فكّرت في الطريق إلى المطار عن المسؤولين المحتملين. سبق لحزب الله أن قتل مواطنين أميركيين أكثر مما فعل أي تنظيم آخر، لكن القاعدة تعمل في شرق أفريقيا، وبخاصة في الصومال، منذ أوائل التسعينيات. وقد تعقّبت السي.آي.إيه وأحبطت مؤامرات القاعدة في شتى أنحاء العالم بما في ذلك أفريقيا. هل أعادت القاعدة التجمع وقامت بتنفيذ هذين الهجومين؟

اتصلتُ من أمستردام بمقر القيادة واقترحت أن تواصل عائلتي سفرها إلى

الولايات المتحدة وأغيّر طريقي إلى نيروبي. رفضت القيادة اقتراحي وأمرتني بمواصلة سفري إلى الديار والاستعداد لمهمتي في مكتب التحقيقات الفدرالي. فالأف. بي. آي ستنشر فرقاً في ساحتي الجريمتين في ما سيصبح أوسع تحقيق جنائي في الخارج وأكبر نشر لعملائها على الإطلاق. ولم يسبق إلا لقلة قليلة جداً منهم أن زارت كينيا أو تنزانيا، أو حتى أفريقيا.

ها أنا أنطلق الآن في مهمة لمكافحة الإرهاب ستستمر أربع سنوات شاقّة وقاتلة.

الفصل السابع

مكتب التحقيقات الفدرالي

في اللحظة التي يبدأ فيها مكتب التحقيقات الفدرالي التوصية
بما يجب فعله بالمعلومات، يتحوّل إلى «غيستابو».
- ج. إدغار هوفر

جمعتُ التفاصيل المروّعة للهجومين من روايات الصحافة ومن اتصالاتي الهاتفية بمقر قيادة السي.آي.إيه وسرعان ما اتضح أن القاعدة هي المسؤولة.

في صباح السابع من آب/أغسطس ١٩٩٨، حاول عنصران من القاعدة يقودان شاحنتين محملتين بالمتفجرات اختراق الحواجز الأمنية في سفارتينا في دار السلام وفي نيروبي. رفض حارس كيني في نيروبي، برغم تهديده بالسلاح، رفع الحاجز المعدني الذي يسد المدخل إلى موقع المرأب في الطابق السفلي، وهو هدف المفجّر. وحال عمل الحارس البطولي هذا دون وقوع المزيد من الإصابات. وفجّر السائق القنبلة بعدما تم وقفه عند مركز الحارس خلف المبنى. تمزقت الجهة الخلفية وتحطّمت لكن المبنى لم يسقط. قَتَل المفجّر الانتحاري أكثر من مئتي شخص وجرح ما يقارب الأربعمئة، ومن بين الضحايا أصدقاء وزملاء.

كان أحد المسؤولين في السفارة الصديق ستيف نولن من بين الذين تحرّكوا بشجاعة. فسحب الجرحى، بالرغم من تعرّضه هو الآخر للإصابة، إلى خارج

السفارة المحطَّمة وساعد سريعاً في إعادة تشغيل الحضور الدبلوماسي العامل. وسيترقّى نولن في مراتب وزارة الخارجية ويُعين سفيراً ويخدم في أفريقيا، المكان الذي يحبه، لسنوات طويلة أخرى.

في الوقت نفسه تقريباً قاد مفجّر انتحاري آليته إلى مدخل السفارة في دار السلام لكنه صُدّ على يد حارس تنزاني شجاع يعمل على الحاجز. وكذلك فشل المفجّر الانتحاري في الولوج إلى المجمع. وقتل الانفجار الضخم أحد عشر شخصاً وجرح خمسة وثمانين.

جلس مسؤول في السفارة، أعرفه منذ سنوات كثيرة، في كرسيه البلاستيكي الدوار الثقيل والعالي الظهر عند انفجار القنبلة. ضرب عصف الانفجار الجدار الخرساني من ورائه دافعاً بالكرسي وبه من فوق المكتب. نجا بأعجوبة، من دون أن يُصاب بأذى، بعدما امتص الجدار وكرسيه الارتجاج والشظايا. وجمع وباقي مسؤولي السفارة شملهم، وأمّنوا على المواد السرية واحتسبوا جميع عناصرهم وحرّكوا شبكاتهم وأعادوا الاتصالات كلها إلى العمل في مواقع قريبة مؤقتة.

لقد سقط من بين جميع القتلى في هذين التفجيرين أحد عشر أميركياً.

سارعت السي.آي.إيه إلى إرسال الفرق لجمع المعلومات ودعماً لمحققي الأف. بي. آي القادمين. اختار رئيس مركز مكافحة الإرهاب، جوف أوكونل، ضابط العمليات في السي.آي.إيه غاري برنتسن للمجيء إلى دار السلام وأحد عملاء الأف. بي. آي المفصولين إلى مركز مكافحة الإرهاب إلى نيروبي بوصفهما رئيسين للفريقين. أدرك جوف أهمية القيادة واختار لذلك اثنين جيدين ساهما في تمهيد الطريق أمام عملاء الأف. بي. آي الذين وصلوا بأعداد كبيرة.

سيطر تفجيرا شرق أفريقيا على أشهري الأولى في الأف. بي. آي حيث عُينت نائباً لرئيس قسم عمليات الإرهاب الدولي مسؤولاً عن جهود مكافحة الإرهاب في مكتب التحقيقات الفدرالي في داخل الولايات المتحدة وفي خارجها معاً. ووُجد قسم منفصل يتعامل مع الإرهابيين الداخليين أمثال الأمة الآرية ومتطرفي البيئة.

ارتكز عملي في مكتب التحقيقات الفدرالي على مفهوم بسيط لمعالجة تحدّ ضخم التعقيد. تبادلت السي.آي.إيه والأف. بي. آي كبار الضباط للعمل نواباً لرؤساء أقسام مكافحة الإرهاب من أجل تعزيز التفاهم والتعاون بين الكيانين وإعطاء دفعة إلى الأمام لمجمل مهمة الحكومة الأميركية في مكافحة الإرهاب. وحصلت أيضاً مناقلات أخرى بين الوكالات على المستويين العملاني والتقني. بيد أن النكتة التي تم تداولها داخلياً وضعت الأمر في سياق مختلف بعض الشيء فأصبح: عملية تبادل للرهائن.

مهّد أول الخاضعين للتبادل على المستوى الرفيع، الضابط في السي.آي.إيه جوف أوكونل وعميل الأف. بي. آي دايل واتسون، الطريق للبرنامج قبل ذلك بثلاثة أعوام. وقد أصبح جوف رئيس مركز مكافحة الإرهاب في السي.آي.إيه ودايل مساعداً لنائب مدير الأف. بي. آي. ووفّر كلاهما دعماً سياسياً قوياً لبرنامج التبادل إدراكاً منهما لقيمة التلاقح. واستفادا من ترقيات انعكست إيجاباً على التبادل. أدرك ضباط السي.آي.إيه وعملاء الأف. بي. آي أنه يمكن لمثل هذه المناقلة بين الوكالتين أن تعطي دفعاً لسيرتهم المهنية. إلا أن الأهم هو أن المناقلة فتحت باباً جديداً على المعرفة والخبرة.

كانت كوكبة قادة الأف. بي. آي هذه من وجهة نظري ممتازة. فقد ساند المدير لويس فريه بقوة البرنامج ومهمتي. وكذلك فعل نائبه توم بيكارد الذي سبق أن عملت معه قبل سنوات في إحدى قضايا مكافحة التجسّس. أما واتسون، بعد دورة واجبه في مركز مكافحة الإرهاب في السي.آي.إيه، فأصبح الأشد مساندة من بينهم كلهم. وساهم بانتظام في إزالة العوائق البيروقراطية من الطريق.

بات مايك رولينس، رئيس قسم عمليات الإرهاب الدولي، الفتى الجديد في مقر قيادة الأف. بي. آي. وقد أصبح أخيراً في مقر القيادة بعد نحو عقدين أمضاهما في المكاتب الميدانية. هو رئيسي وأنا نائبه.

بدا مايك أشبه بالمدير التنفيذي في الأف. بي. آي: هو متوسط الطول،

مفتول العضلات، وسيم مع ملامح حادة، شعر مثالي، قمصان مفصلة على القياس وأزرار للأكمام. وهو كاثوليكي من عائلة كادحة، حصل على إجازة في الرياضيات ثم انضم إلى المكتب. تميّز بحذاقته وبذاكرة ممتازة للتفاصيل وقدرة على إعادة سرد الوقائع عند الطلب، وقد أتقن الخطابة العامة. استمتع بالوصول إلى الجمهور وأحب كونه عميلاً خاصاً في الأف. بي. آي. والأهم أنه امتلك شغفاً عميقاً بخدمة الأمة.

عاملني مايك كنائب في الخدمة وليس كصلة ارتباط مع السي.آي.إيه. راجعنا المهمات الجديدة سوية، وتعلمنا الاعتماد أحدنا على الآخر، ونَمَت بيننا الصداقة سريعاً. ولا نزال متقاربين اليوم بعد مرور عقد.

اتضحت لي ثقة مايك واحترمتها، وانصعت لأوامره حتى ولو اقتضى مني الأمر القيام بذلك على حساب بيروقراطية السي.آي.إيه. ومثّلت تلك الفرصة الوحيدة لإحداث وقع إيجابي، لأنه يتوجب عليّ العمل للأف. بي. آي إذا أردت منهم الوثوق بي.

شكّلت هذه الثقة والاحترام ضرورة بالطبع لحمل مايك وغيره في القيادة على احترام نصيحتي وتوجيهي. وهذا حاسم أيضاً بالنسبة إلى ما يزيد على مئة عميل ومحلّل للأف. بي. آي يعملون بتوجيه منّا. وأضحى الأمر بمثابة قفزة إدارية إذ لم يسبق لي أن أشرفت على أكثر من دزينتين من الناس. بل إن مهمتي طرحت تحدّياً فكرياً وثقافياً أكبر.

تمثّلت إحدى الوظائف الصعبة في تعلّم الفروقات بين فرض القانون وبين الاستخبارات في ميدان مكافحة الإرهاب، في الوقت الذي أقوم فيه باستكشاف القضية المشتركة وتقديم وجهات نظري إلى مكتب التحقيقات الفدرالي. بل تمثّل الأصعب في التعامل مع الفجوات والتداخل في المهمات والسلطات بين الجهازين.

ظهرت الهوة الرئيسية الأولى بينهما في يومي الأول في أوائل أيلول/سبتمبر

١٩٩٨، عندما وصلتُ إلى مركز المعلومات الاستراتيجية والعمليات لحضور إيجاز الصباح الباكر حول النشر الكبير لعملاء الأف. بي. آي في كينيا وتنزانيا.

كان مركز المعلومات الاستراتيجية والعمليات كناية عن غرفة صغيرة ذات أنظمة هاتفية بدائية وتجهيزات سمعية بصرية. وعجّت بالناس الذين كادوا يجلسون، الكتف إلى الكتف، على كراسٍ مرتبة في نصف دائرة، وأصبح للأكسيجين قيمة عالية. امتلأ المكان بالضجيج ودوّى بالتسميع الشبيه بالآلة لنقاط الإيجاز يتخلّله أسئلة حادّة وتعليقات أكثر حدّة. وضمت المواضيع أدوار مختلف الفرق ومسائل إدارية. شكّل الأمر نقاشاً متكسّراً ومتقلّباً في شأن الدلائل، وتناول في الظاهر كل شيء من رقم هاتف ضائع إلى سجلات سفر أحد المشتبه بهم.

عجّ مركز المعلومات الاستراتيجية والعمليات بما يشبه لائحة ممثلي الفيلم وجميعهم يريدون تقديم إيجاز. حاضر أحد محلّلي الأف. بي. آي عن هرب مشبوهين من شرق أفريقيا. واختصر آخر وضعية فرق الأف. بي. آي، وهذا كلّه تفهمته. ثم قدّم أحد العلماء معلومات حديثة عن العمل الجنائي الشرعي في ساحتي الجريمة، وأوجز آخر استراتيجية الأف. بي. آي الإعلامية، كما تحدّث آخر عن القرارات الاتهامية المنتظرة. عمل المختبر؟ الإعلام؟ توجيه الاتهامات؟

لم أتمكّن عند حدّ ما حتى من فهم المفردات. وغالباً ما استخدم عميل الأف. بي. آي جيم برنزاني في الإيجاز عبارة جديدة لوصف المفجّرين الانتحاريين. وهي كلمة لم آلفها ولم أشأ أن أحرج نفسي بالسؤال عن معناها. واتضح أن آخرين أصيبوا أيضاً بالارتباك، إلى أن صرخ أحدهم في النهاية طالباً الترجمة. وقد حاول برنزاني بلكنة بوسطن العريضة أن يقول «شهيدين». وانفجرنا جميعنا بالضحك.

أوفدت المدّعية العامة، جانيت رينو، فران تاونسند مندوبة عنها في هذه الاجتماعات الصباحية. وتاونسند، العاملة النشطة الصغيرة القامة التي لا تقبل التفاهات، بدأت حياتها المهنية نائبة عامة في نيويورك. وأصبحت الآن، بوصفها

مستشارة السياسة الاستخباراتية، ممثلة المدّعية العامة في تفجيري شرق أفريقيا على ألا يُخلط بينها وبين النائب العام في نيويورك بات فيتزجيرالد المسؤول عن ملاحقة قضيتي التفجير قضائياً. وأوفد مدير الأف. بي. آي نائبه توم بيكارد الرابط الجأش والحاد الذكاء مندوباً عنه. غير أنه بدا أن دايل واتسون يدير استعراض مركز المعلومات الإستراتيجية والعمليات بأوامر يصدرها بصوت عالٍ وبسلسلة من الأسئلة.

جلستُ في المكان أشبه بدخيلٍ على القبيلة مراقباً الثقافة الجديدة فيما كان المشاركون يدلون في الغرفة الصغيرة بالوقائع والأرقام والتقديرات، وغير ذلك من التفاصيل. دوّن الأشخاص ملاحظات قليلة وأشاروا إلى بعض الوثائق الإدارية، إلا أنه لم يوجد، في معظم الوقت، سوى القدر اليسير من التقارير الاستخباراتية العملانية الاستدلالية المكتوبة. أدركت أن دايل وفران ومايك وغيرهم طوروا ذاكرة مدهشة للتفاصيل التي يتم الإدلاء بها شفوياً. إنها قبيلة تقدّر تقليد الأخبار المروية والتاريخ الشفهي، وأنا جئت من قبيلة تثمّن التقرير الاستخباراتي المكتوب.

سأتعلّم في الأسابيع المقبلة تقفّي مسار هذا التحقيق الدولي المتنامي وقد تولّاني شعور بالإعجاب والخيبة في آن. تميّز التحقيق في ما بعد الحادثة بالروعة وبخاصة الظهور الكبير للقوة. وبرهن عملاء الأف. بي. آي مثابرة عظيمة. حقّقوا مع مئات الأشخاص، وفتّشوا عن المواقع الآمنة للقاعدة (بما في ذلك مجاري أحد منازل دار السلام) بحثاً عن الأدلة، وحلّلوا كل جزء من أجزاء موقعي الجريمتين، وعملوا بلا كلل على التعرف إلى هوية عناصر القاعدة وتعقّبهم.

أوقف، بحلول أوائل أيلول/سبتمبر، عنصران من القاعدة ونُقلا إلى نيويورك وحُوّلا إلى المحكمة الفدرالية. أحدهما يمني يدعى محمد راشد داود العوهلي، والآخر فلسطيني يدعى محمد صادق عودة. وبحلول كانون الأول/ ديسمبر وُجّهت التهم إلى خمسة آخرين وقد جاؤوا من شرق أفريقيا والشرق الأوسط وجنوب آسيا وحتى من جزر القمر، الدولة الجزيرة الصغيرة في المحيط الهندي.

عملت الأف. بي. آي والسي.آي.إيه جيّداً معاً وبخاصة في الميدان. وأدى، في العموم، ما تشاركنا فيه من معلومات إلى دليل أفضل لمكتب التحقيقات الفدرالي، واستخبارات أحسن لوكالة الاستخبارات المركزية، وانعكس هذا في التوقيف اللاحق لمرتكبي المؤامرة أو في مقتلهم. واعتقلت الشرطة في جنوب أفريقيا وباكستان وكينيا، بعملها مع الأف. بي. آي والسي.آي.إيه، بعضاً من الهاربين. وقتلت السي.آي.إيه وحلفاؤها المحليون، في السنوات التي تلت، آخرين في أفغانستان وغيرها.

تعلّقت خيبتي بتركيز الأف. بي. آي الحصري على تطبيق القانون وعلى اعتقال ومحاكمة مجرمين محدّدين ارتكبوا جرائم محدّدة. وكادت تغيب كلياً عملية جمع الاستخبارات المتطلعة إلى الأمام والتحليل. فمكتب التحقيق الفدرالي يسعى إلى العدالة وليس إلى الوقاية. وشكّلت معلوماتهم دليلاً محتملاً توجّب عليهم حمايته ليستخدمه المدّعون العامون في المحكمة. ولم يمكن لمعظم العملاء أن يتخيلوا أن يمتلك آخرون، من خارج وزارة العدل، حاجة مشروعة إلى المعلومات المستمدة من الأف. بي. آي. فالمشاركة في الدليل بوصفه استخباراً هو بالنسبة إليهم أمر محرّم.

بل إن المكتب الميداني للأف. بي. آي في نيويورك لن يشارك مقر القيادة في معلوماته، يحفّزه على ذلك التطلّع إلى مقاضاة ناجحة في الحي الجنوبي التابع لوزارة العدل في المدينة. استغربتُ ذلك في البداية وأربكني، لكنني أدركت في النهاية القيود المنهجية العميقة في منظومة فرض القانون عندما يتعلق الأمر بالاستخبارات، وذلك ليس سراً. حتى أن الأف. بي. آي أشارت إلى «الجدار الصيني» الذي بُني لمنع تلطيخ الدليل بمشاركته مع مجتمع الاستخبارات أو مع أحد آخر من خارج مكتب المدّعي العام. أصابني المفهوم برمّته بالجنون، لكنه بدا وكأنه محفور في صخر، ولم أتحرّك لإحداث فجوة في هذا الجدار الذي يعتبر عائقاً مقدّساً لا يجب تحدّيه.

كذلك خيّبني الجانب السياسي لفشله في معالجة إعلان الحرب الواضح من القاعدة. فقد أمر الرئيس كلينتون في ٢٠ آب/أغسطس ١٩٩٨ بغارات بصواريخ «كروز» على ستة مواقع للقاعدة في أفغانستان وعلى معمل للدواء في الخرطوم عاصمة السودان. عانى العدو من بعض الإصابات ومن بعض الضرر في بناه التحتية لا أكثر. ولم تفعل الولايات المتحدة، بمرور الأسابيع، المزيد لممارسة جبروتها العسكري. وباتت القاعدة أكثر ثقة بنفسها من قبل واعتقدت أنه ليس لديها الكثير لتخشاه، وهي في ذلك على حق. لم يحصل ردّ عسكري أميركي ملموس ما عدا ملاحقة عملاء القاعدة المتورطين في التفجيرين وغير ذلك من العمليات الخفية المحدودة. بدا أن البيت الأبيض والكونغرس يعتبران الهجومين على سفارتينا مسألة تتعلق بفرض القانون وليس بإعلان حرب.

ناقشتُ الأمر مع مايك رولينس، فأيّد كليّاً شن الحرب لكنه أعرب عن القلق من طريقة خوض هذا النوع من النزاع. وسجّل وسواه في الأف. بي. آي إحباطهم لغياب الاستنابات القضائية النظيرة أو الدولية في أفغانستان. ولا إمكانية لديهم للوصول إلى البلاد للقيام بعملية التوقيف. صحيح أن لديهم مذكرات توقيف في حق أسامة بن لادن وغيره، ولكن ما النفع؟

كانت هذه المرة الأولى التي أدرك فيها أن الحرب نفسها أخذت تتغير، وأن الحكومة الأميركية ليست جاهزة لفهم العدو وللقتال في هذه البيئة الجديدة. ففرض القانون لوحده ليس الجواب، وكذلك العمل الخفي. والقوة العسكرية التقليدية لوحدها لن تنجح. وليس للعقوبات الاقتصادية سوى تأثير بسيط. كما أن الدبلوماسية مع القاعدة مستحيلة.

ماذا عن دور الاستخبارات؟ يجب أن ينمو. يجب أن يحدّد التهديدات ويدرك قوات العدو ويوجه القوة الأميركية، بما في ذلك في ديارنا.

تبدّدت، بحلول تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٨، صدمتي الأولى الناتجة عن تحوّلي من جاسوس أحادي في السي.آي.إيه إلى مدير تنفيذي في الأف. بي. آي، وطرحت

على أحد محلّلي مكتب التحقيقات الفدرالي سؤالاً بسيطاً: «ما هو وضع تحقيقات الأف. بي. آي في شأن القاعدة في الديار الأميركية؟».

أجاب: «لا أعرف».

سأله: «ومن يعرف؟».

«لست متأكداً من أن أحداً يعرف».

«ولِمَ لا؟».

«لأننا لا نعرف ما الذي تفعله كل المكاتب الميدانية».

«وكيف نعرف؟».

«سأسأل»، أجاب بعد تردّد.

عاد بعد أسبوع وقال: «خمسة، أعتقد أن لدينا خمسة خيوط في الولايات المتحدة، لكنني غير متأكد».

توجّهنا إلى مكتب مايك وأبلغناه بالأمر. استوعب المسألة على الفور وشرعنا على مدى أشهر كثيرة في جهد بطيء وغير مجدٍ لحشد مكاتب الأف. بي. آي الميدانية لجمع المعلومات حول القاعدة ومشاركة مقر قيادة المكتب بها. فشلنا لأسباب عدة، لكن السبب الأساسي هو أن الأف. بي. آي مسخّرة للرد على الجرائم، وهي وكالة تفاعلية. والقاعدة لم ترتكب أي جريمة في الولايات المتحدة، ولا توجد ساحة جريمة أو ضحية أو دليل وبالتالي لا يوجد تحقيق. وفي غياب التحقيق ينتفي السجل المكتوب، أقله ليس ذلك الذي يتم نشاركه مع مقر قيادة الأف. بي. آي، وبالتأكيد ليس مع مجتمع الاستخبارات.

تثمّن الأف. بي. آي، كما اكتشفت ذلك في يومي الأول في مركز المعلومات الاستراتيجية والعمليات، التواصل الشفهي بقدر، أو ربما أكثر، من تثمينها التواصل الكتابي. وتتنوع الأسباب. فقد أضمر العملاء الخاصون ممانعة في كتابة

ما يُعتبر قابلاً للكشف من قبل أي محامي دفاع مستقبلي. ويمتلكون مرونة تحقيقٍ ومجازفةً أقل إذا لم يوضع ما يتوصلون إليه كتابة، أو أقله إذا لم يضعوا مسوّدة رسمية تُرفع إلى منظومة البيانات. فهم لم يُجَنَّدوا أو يتم اختيارهم أو تدريبهم ليكتبوا. فثقافة العميل الخاص هذه تشدّد على التحقيقات والتوقيفات أكثر من الكتابة والتحليل. كما أن هناك عنصراً من الشعور بالرتبة والمرتبة: فالعملاء لا يكتبون لأن هذا من شأن الكَتَبَة والمحلّلين. ويعتبرون الكتابة بشكل عام عملاً رتيباً من الأفضل تركه للآخرين.

وفي المقابل، فإن قلة من ضباط العمليات في السي.آي.إيه يتحاشون كتابة التقارير، فيما يتوجّب على الغالبية الساحقة منهم الكتابة بوفرة وسرعة. فالقضية المقدسة تتمثل في إفادة الرئيس وغيره من كبار صانعي السياسة من التقارير الخفية المكتوبة. ويثمّن ضباط السي.آي.إيه المحتوى المكتوب الواضح وذا الوقع الكبير.

ويتمثل الفارق الكبير الثاني بين الأف. بي. آي والسي.آي.إيه في منظومات معلوماتهما. لم يمتلك مكتب التحقيقات منظومة واحدة، أقله واحدة تعمل. ولا يمكن لمحلّل في الأف. بي. آي أن يستوعب تحقيق ضابط ميداني إلا إذا سافر إلى ذلك المكتب وأمضى أياماً يعمل مع عملائه. وليس لديه من خيار آخر بوجود الحد الأدنى من الإفادة. إلا أنه كيف يمكن للأف. بي. آي، مع هذا القدر اليسير من الإفادة، بناء منظومة معلومات فاعلة؟ وتكتب محطات السي.آي.إيه في المقابل تقارير حول كل شيء تقريباً لأنه لا توجد، من دون تقارير مكتوبة، استخبارات يعمل عليها المحلّلون أو تصل إلى غيرهم من الزبائن. تطلّبت السي. آي.إيه أنظمة معلومات سريعة جداً مع إدارة وتحليل للمعطيات الضخمة، وتخضع هذه الأنظمة للتحديث الدائم.

يتعلّق الفارق الثالث بالحجم. فالأف. بي. آي هائلة الحجم بالمقارنة مع السي.آي.إيه. فاق عدد عناصرها الذين نُشروا للتحقيق في تفجيري شرق أفريقيا

عدد جميع ضباط عمليات السي.آي.إيه في كل القارة الأفريقية. وامتلك المكتب الميداني للأف. بي. آي في نيويورك من العملاء أكثر مما لدى السي.آي.إيه من ضباط ميدانيين في العالم كلّه. وتوفد الأف. بي. آي عميلين على الأقل لأي مهمة تقريباً. وتَناقض مفهوم الشركاء في الإطار العملاني بحدة مع عملي السابق كضابط عمليات وحيد. فضباط السي.آي.إيه يعملون في العادة وحدهم، ويعملون وحدهم بالتأكيد لدى رعاية المصادر وتجنيدها وتحريكها.

تمثّل الفارق الرابع بأهمية المصادر والموقف منها. ففي حين أعطت كل من الأف. بي. آي والسي.آي.إيه قيمة للمصدر الجيد، فإن الأف. بي. آي لا تتابع مصادرها بنشاط بما هو أبعد من إطار التحقيق. وهي تتبع الخيوط وتسعى للحصول على شهود متعاونين أو على مخبرين يُجبرون في الغالب على التعاون وإلا واجهوا العواقب القانونية. ونادراً ما يناقش عملاء الأف. بي. آي المصادر حتى بعبارات عامة. وعندما يفعلون يقومون بذلك بطريقة ازدرائية في الغالب. لكنهم يناقشون المشتبه بهم في شكل مطوّل، فذلك مسعاهم. وأحياناً تصبح المصادر والمشتبه بهم شيئاً واحداً بالنسبة إلى الأف. بي. آي.

ويقوم ضباط السي.آي.إيه من جهتهم روتينياً بتبادل وجهات النظر والعبر التي تعلموها من اكتشاف المصادر وتقويمها وتنميتها وتجنيدها وتحريكها، مع أن ذلك يتم بصياغة لا تكشف عن المصادر المحدّدة. وتعتمد مهمات ضباط العمليات وإحساسهم بالإنجاز، وحتى هويتهم العملية الخاصة، على نجاح المصادر والاستخبارات التي ينتجونها. أما عملاء الأف. بي. آي فيريدون الدليل والشهادة من الشهود بما يؤدي إلى التجريم والمؤتمرات الصحافية.

يتعلّق الفارق الخامس بالمال. وضعت الأف. بي. آي حدوداً قاسية على ما يمكن لعملائها أن يصرفوه وكيف يصرفونه. وتتميز عملية الموافقة على الدفع للمخبر أو على نفقة السفر إلى مكان ما بأنها مجهدة وتستهلك الكثير من الوقت. وأنا، كضابط في السي.آي.إيه، أحمل في جيبي بشكل روتيني آلافاً عدة من

الدولارات النقدية بوصفها حاجة عملانية للترفيه عن أهداف محتملة للتجنيد، وللتعويض على المصادر، ولشراء المعدات، ولاستئجار شاحنة أو طائرة، ولرشوة مسؤولين أجانب لتيسير الأمور. وأحتاج في العادة في كل شهر إلى إعادة تعبئة دوّارة لصندوقي بعد استخدامه بشكل جيد. وعندما أخبرت عملاء الأف. بي. آي بالأمر بدوا مرتابين بإمكان السماح بمثل هذا السلوك أو حتى بكونه قانونياً. واضطررت في الغالب إلى الشرح بأن السي.آي.إيه لا تنتهك أية قوانين أميركية، بل القوانين الأجنبية فقط.

أضمرت الأف. بي. آي في الفارق السادس شعوراً بأنها تمتلك سلطة قانونية أكثر من السي.آي.إيه لمجرّد أنها تعمل تحت سلطة وزارة العدل. وأعرب أيضاً بعض عملائها، بعد بضع كؤوس، عن اعتراضهم الأخلاقي على عمل السي. آي.إيه الخفي، أو على «الخدع القذرة»، في انعكاس ربما لوجهة نظر المجتمع الأميركي. وحاججت بأن العمل الخفي، بتوجيه من الرئيس وموافقة من لجان الإشراف في الكونغرس، قانوني. بيد أن فكرة انتهاك القوانين الأجنبية بدت، بشكل ما، أقل من مثالية بالنسبة إلى بعض زملائي في الأف. بي. آي. وسألت بشكل بلاغي في أحد النقاشات الحامية إذا تضمن قسمي بالدفاع عن الدستور أي قيمة أقل من قيمة قسم العميل الخاص لمكتب التحقيقات الفدرالي.

سابعاً، تحب الأف. بي. آي الصحافة وتعمل جاهدة لكسب تعاطفها. أما الإعلام بالنسبة إلى الجهاز الخفي في السي.آي.إيه فمحرّم. ويكره بعض ضباط السي.آي.إيه الصحافة. واختبر معظمنا حالات أدت فيها التسريبات الصحافية إلى تقويض العمليات. ومات أحياناً مصادر لنا بسبب لعبة الصحافة. وتبدو الصحافة، فوق ذلك كله، وكأنها تضفي صورة سلبية على السي.آي.إيه. ويتفادى ضابط العمليات في السي.آي.إيه الصحافة كالطاعون.

اختلف الأمر كلّياً بالنسبة إلى الأف. بي. آي. فيمكن للصحافة الإيجابية المساعدة في محاربة الجريمة وفي تعزيز الهيبة والمصادر. ويستخدم كل مكتب ميداني للأف. بي. آي الإعلام.

ثامناً، تجمع الأف. بي. آي الأدلة لاستخدامها الخاص، لسوق المجرم إلى القضاء. أما السي.آي.إيه فتجمع الاستخبارات في الأساس من أجل الآخرين، سواء صانعي السياسة منهم أو المقاتلين في حرب أو الدبلوماسيين أو ضباط فرض القانون. وافتقرت الأف. بي. آي بالتالي إلى ثقافة خدمة الزبون بما هو أبعد من وزارة العدل. فلا مهمة للسي.آي.إيه من دون زبون لاستخباراتها.

تاسعاً، تصرّفت مكاتب الأف. بي. آي الميدانية، وبخاصة نيويورك، بوصفها مركز سلطتها الخاص بما في ذلك احتجاز الدلائل والاستخبارات المحتملة، بسبب ارتباطها بالمدعي العام المحلي. ويمتلك النائب العام المحلي وغيره من اللاعبين السياسيين في المدينة تأثيراً كبيراً على التحقيق. بينما يتوجّب على محطة السي.آي.إيه الإفادة بما لديها من استخبارات إلى مقر القيادة، لأن الحافز يأتي من هناك ومما هو أبعد، وبخاصة من البيت الأبيض.

عاشراً، تستغل الأف. بي. آي الكونغرس. ولكل مكتب ميداني تابع لها ممثلون مخصصون لمساندة مندوبي الكونغرس. وللأف. بي. آي سلطة التحقيق في النشاطات غير القانونية لأعضاء الكونغرس. وهي تمسك بالتالي بالعصا والجزرة في تعاطيها مع مجلسي النواب والشيوخ. ولا تمتلك السي.آي.إيه في المقابل، وبخاصة الجهاز الخفي، إلا القليل من النفوذ لدى الكونغرس، فلا يتعاطى معظم ضباط السي.آي.إيه معه إلا عندما يُستدعون إلى الشهادة. وخمّنت أنه ليس من العجب أن تتمتع الأف. بي. آي بمثل هذه القوة السياسية فيما السي. آي.إيه على هذا القدر من الضعف.

تعزّزت هذه الخلاصات، التي توصّلت إليها بشكل عام مع نهاية عام ١٩٩٨، عندما شرعت في السفر إلى مكاتب الأف. بي. آي الميدانية. اضطررت للنزول إلى الميدان للتعلّم من تحقيقاتهم في قضايا إرهابية. ولم تتوفر لي طريقة أخرى بسبب متطلبات الإفادة الدنيا وغياب نظام معلوماتي فاعل.

تتميّز تحقيقات الأف. بي. آي بأنها استعادية ترتبط بنشاطات جرمية حصلت

في الماضي في الولايات المتحدة أو هي في طور الحصول. إلا أنه لا يوجد نقص في العمل حتى مع هذا التركيز الضيق على التحقيق. فحماس جمعت المال عبر المؤسسات الخيرية، واستخدمته في دعم هجماتها على أهداف إسرائيلية. وقام حزب الله بالأمر نفسه. وقد دخلتُ في إحدى ضواحي ديترويت إلى متاجر محلية ذات مستوعبات زجاجية كبيرة مزدانة بشعارات حزب الله وبالصور. وامتلأت الجرار الكبرى بالتقديمات النقدية. ويُقال إن حزب الله يدير عمليات غير قانونية في أنحاء الولايات المتحدة من بيع حليب الرضّع المقلّد إلى تهريب السجائر.

ولم توجد إلا ندرة من المعلومات المجمعة عن القاعدة ما عدا الدلائل التي تُجمع في مكتب نيويورك دعماً لتحقيقه الجنائي. ولم يعرف معظم من التقيتهم في الساحة المحلية من العملاء الخاصين في الأف. بي. آي إلا القليل جداً عن الإرهاب الدولي أو الإطار الجيوسياسي العالمي.

واختلفت نيويورك في جزء من ذلك بسبب مسؤولية المنطقة الجنوبية الأميركية عن ملاحقة القاعدة قضائياً. وتعلّق الجزء الآخر بالعميل الخاص المسؤول جون أونيل. أدرك جون، المعتد اللامع بنفسه حتى النهاية، والمحب للإسراف، التهديد الذي تمثله القاعدة ولاحق العدو بشغف فج. ازدريت بألاعيب جون البيروقراطية وأحببته عندما يصوب قوته الغاشمة إلى العدو. وهذا هو العنصر الحاسم الذي يتمثل في إبقاء جون مصوّباً إلى العدو وليس أي أحد آخر غيره في الحكومة الأميركية.

صرخنا بعضنا على بعض مرّة على الأقل كل أسبوعين وفي الموضوع نفسه في العادة. وبدا الأمر مضحكاً باستثناء الغضب الحقيقي ولو كان عابراً. وهاكم محادثة نموذجية:

زأر جون عبر الهاتف: «أنت يا ابن السي.آي.إيه اللعين تخفي عنّا أدلّة. يجب أن أعتقلك بتهمة عرقلة العدالة».

«أنا أعمل للأف. بي. آي وليس للسي.آي.إيه. فهل تريد أن تعتقلني؟ تعالَ إلى هنا وحاول. سأدفع بشارتك ومسدسك في إستك اللعينة».

«تبّاً لك. أعرف أنك تمتلك مصادر ومادة استخباراتية تتعلق بقضيتي».

«لدى السي.آي.إيه معلومات استخباراتية وقد أرسلتها إليك. ولديك ضباط من الوكالة يعملون معك. فلماذا لا تشاركنا ببعض ما لديك؟ سيولد ذلك تحليلاً مترابطاً ومتطلبات أفضل وربما استخبارات أكثر علاقة بالموضوع وأشد دقة».

«لا أستطيع القيام بذلك. لا يمكنني تقويض الملاحقة القضائية. عليكم أن تساندوني».

«نحن نساندك أيها اللعين الأحمق».

«ليس بما فيه الكفاية».

«جون، لن تحصل أبداً على الكفاية».

«هذا صحيح. ها أنت تدرك الأمر أخيراً».

«أنت فعلاً كالشوكة في الخاصرة».

«نعم، هذا أنا. تعالَ إلى نيويورك وسأدعوك إلى شطيرة لحم. اجلب معك فقط شيئاً مفيداً».

«بشرط أن تعطيني شيئاً».

«نعم، شطيرة لحم جيدة».

«وداعاً يا جون».

امتلكت الأف. بي. آي ملحقين قانونيين في الغالب في المدن الأوروبية الممتعة حيث يمكنهم التعاون مع وكالات فرض القانون ذات التوجّه الغربي. وأدرك واتسون ورولينس الحاجة إلى التوسّع إلى مناطق أخرى. وشجّعتهما على هذا شارحاً أن أفضل استخباراتنا وأفضل دلائلنا تأتي بازدياد من حلفائنا في الشرق الأوسط وأفريقيا. وبرهنت الأجهزة الكينية والتنزانية ذلك في أعقاب انفجارَي عام ١٩٩٨.

سعت الأف. بي. آي إلى شراكات أكبر مع أجهزة فرض القانون الأجنبية لكنها أرادت أيضاً تحريك مصادرها الخاصة في الخارج، أحياناً بشكل سرّي، من دون اعتبار لمتطلبات الحرفة. واستخدمتْ في شكل روتيني خطوط هاتف مفتوحة. وأصر المكتب، إضافة إلى ذلك، على أنه في حال ساند المصدر القضية الجنائية الدائرة فلن يشكّل الأمر عملية استخباراتية ولا يتطلب بالتالي أي تنسيق مع أحد. طرح ذلك المشاكل، وأمضيتُ قدراً كبيراً من الوقت أشق طريقي بصعوبة في هذا العشب الكثيف والموحل.

حصلت أيضاً فجوات مع شركائنا في الخارج. واكتشفتُ ومايك هذا في خلال رحلة إلى إسرائيل في عام ١٩٩٩. قدمنا للإسرائيليين تحديثاً للمعلومات عن التحقيقات في شرق أفريقيا وتقويمنا للتهديد المتزايد الذي تشكله القاعدة، بما في ذلك في المشرق. تغاضى محاورونا الإسرائيليون عن تحذيراتنا من القاعدة. وشددت استخباراتهم العسكرية على التهديد الذي يشكله حزب الله، وهو تهديد حقيقي كما شهدت ومايك على ذلك خلال جولتنا على الحدود الشمالية مع لبنان. وشدّدت الـ«شين بت»، جهاز استخباراتهم الداخلية، على حماس. ولم يعتبر أي منهما أن القاعدة جديرة بالنقاش الجاد.

تميّز البريطانيون بالجودة، لكنهم ليسوا على هذا القدر من الجودة الذي يعتقدونه أو يتصرفون على أساسه. وتمثّلت إحدى المشكلات في عجزهم عن إدراك التهديد الراديكالي المتزايد داخل حدودهم. ولم يعد في إمكاني إحصاء المرات التي حاضر فيّ البريطانيون عن خبرتهم في مكافحة الإرهاب نظراً إلى كل ما حققوه من نجاحات في إيرلندا الشمالية. وجدتُ ومايك، وساندنا في ذلك مكتب الأف. بي. آي الميداني في مدينة نيويورك ومركز مكافحة الإرهاب، أن هدف البريطانيين يقضي بالحصول على الاستخبارات والمحاضرة فينا حول طريقة تنفيذ العمليات، بدلاً من مشاركتنا في المعلومات وتعزيز الجهود المشتركة. وأبلغتُ مايك أن لدى الإنكليز مقرّراً مصمّماً لتحقيق الحد الأقصى من علاقتهم

بالأميركيين، ويستخدمون فيه دراسة حالة من الحربين العالميتين الأولى والثانية حول كيفية نجاح عملياتهم التأثيرية حتى في البيت الأبيض.

أبلغتُ مايك أنني في أي حال أفضّل في العادة العمل مع الأفارقة والعرب واللاتينيين والآسيويين الذين يبدو أنهم أكثر اهتماماً وأكثر مبدئية وهم في معظم الأحيان أكثر تعاوناً. كما إن الطعام عندهم أفضل.

علّمني مايك وغيره في المكتب أكثر مما أمكنني تصوّره، ليس عن فرض القانون فحسب، بل أيضاً عن وكالتي بالذات. فالسي.آي.إيه من وجهة نظر الأف. بي. آي متعجرفة وأحياناً متشامخة. وغالباً ما يفشل ضباط السي.آي.إيه في إدراك أهمية الدليل. وقد حصل أحد رؤساء المحطات في إحدى الحالات على مادة قيمة من جهاز ارتباط محلي فرمى بالطرد في الخزنة حيث بقي لأشهر. واكتشفه محلّل زائر وبعث بنسخة عنه إلى الأف. بي. آي. وسبق أن تمت الإفادة من المعلومة الاستخباراتية وهي قيمة، لكن الدليل كان غير ذي فائدة لعدم وجود سلسلة رعاية واضحة وموثّقة. وعمل رئيس محطة آخر على تقويض مهمة ملحق شرعي للأف. بي. آي في البلد الذي يعمل فيه بدلاً من احتضانه كلاعب آخر في الفريق. وانتقد رئيس محطة آخر الأف. بي. آي أمام أحد عناصر الارتباط الأجنبي ما حفّز على تدخّلي الحاد. لن يُسمح أبداً بتاتاً لأي وكالة حكومية أميركية أن تعارض الأخرى لدى حكومة أجنبية. وشهدت أمثلة كثيرة على ذلك بما فيها لعب أجهزة خارجية على المنافسة بين السي.آي.إيه والأف. بي. آي تحقيقاً لمصلحتها. واستغل البريطانيون والإسرائيليون هذه الزاوية بشكل منتظم.

علّمتني الأف. بي. آي أموراً عدة وعرّفتني على عملية التفاعل بين الوكالات. وغالباً ما مثّلتُ الأف. بي. آي لدى المجموعة الأمنية لمكافحة الإرهاب في مجلس الأمن القومي. وتتألف المجموعة الأمنية لمكافحة الإرهاب من خليط من المديرين التنفيذيين في مجتمع مكافحة الإرهاب، وهي تنسّق السياسات التي يضعها مجلس الأمن القومي وتنفّذها. وترأسها ريتشارد كلارك مستشار

الرئيس لشؤون مكافحة الإرهاب، وقد استوعب التهديد وطالب بتعاون أكبر بين الوكالات، واستأسد على كل من يخذله، وبدا أنه يولّد الاستياء بشكل غير ضروري. ربما تصوّر أن المنظومة لا تستجيب إلا للقوة الغاشمة. وشاركتُه إحباطه نظراً إلى الجهل الأكبر للتهديد وإلى المقاومة البيروقراطية للتغيير.

أخبرتني دورة واجبي في الأف. بي. آي فوق ذلك كله عن بلادي كما تراها أعين فرض القانون والنظام السياسي الأوسع. فسلطة القانون المستمرة مذهلة وكذلك الاحترام الذي كدّسته. ومجتمع فرض القانون، من الأف. بي. آي إلى قوة الشرطة المحلية، يعتمد على المجتمع المدني، وكذلك مجتمع الاستخبارات.

بيد أنني قلقت من الفجوة بين مجتمع الاستخبارات والمجتمع المدني. كما قلقت أيضاً من تصلّب هيكلية أمننا القومي ومقاومتها للتغيير. ويصح هذا بنوع خاص بالنسبة إلى قدرات الاستخبارات في ديارنا. فنحن مكفوفون في داخل حدودنا. هل سنتأقلم بالسرعة الكافية؟ أين سنتعرّض للضرب من جديد؟ هل يمكننا تفادي كارثة إرهابية على الأرض الأميركية؟

أبلغت رولينس، بعد نحو سنة لي في الأف. بي. آي، أنني عائد إلى مركز مكافحة الإرهاب حيث سأخدم بوصفي نائباً لرئيس المركز المقبل كوفر بلاك. وشرحت له أنني سأتولى مسؤولية كل عمليات مكافحة الإرهاب في السي. آي.إيه. لم يسعد رولينس بالخبر لأنه توقع أن أبقى معه لسنة أخرى على الأقل. وشرحت له قيمتي المستقبلية بالنسبة إليه وإلى مهمة مكافحة الإرهاب الأوسع، وشكرته، فهو والأف. بي. آي عاملاني بإنصاف.

قبل بي معظم الزملاء في الأف. بي. آي طوال مدة خدمتي. ودرّبني الكثيرون منهم، فيما استمعوا إلى مشورتي اللجوجة، الناقدة منها والمشجعة.

ودّعوني وداعاً جيداً اكتمل بأوراق اعتمادي في الأف. بي. آي وقد وضعوها في إطار لا أزال أعرضه بفخر إلى اليوم. وقدموا لي كذلك ملصقاً ساخراً كمطلوب

من الأف. بي. آي وقد كُتبت الاتهامات التالية فوق صورتي المبرغلة: «التآمر على تدمير البيروقراطية وقتل الأفكار والسبل التي عفّ عليها الزمن».

وأشار الملصق إلى مهنتي بوصفي «مشاغباً» وإلى شعري بأنه «قصير وكثيف» وإلى عيني بأنهما «مجنونتان». أما الملاحظات التحذيرية الدقيقة فهي: «عرضة لنوبات غضب. لا تطرحوا أبداً، تحت أي ظرف، السؤال نفسه مرتين بعدما تتلقون الإجابة عليه».

أما المكافأة على اعتقالي فبلغت خمسة ملايين روبية باكستانية.

الفصل الثامن

مركز مكافحة الإرهاب

الحاجة أمُّ ركوب المخاطر.
ـ مارك توين، الحياة الخشنة

أصبح مركز مكافحة الإرهاب في السي.آي.إيه، في أواخر التسعينيات وبعد أكثر من عشرة أعوام على وجوده، مركز عمليات مكافحة الإرهاب الأميركية، ولم يكتفِ بجمع الاستخبارات بل تلقّى أيضاً جرعة كبيرة من العمل الخفي. وقد اكتسبتُ خبرة في هذا النوع من العمل، من تدريبي ومن عملي في أفريقيا، حيث خاضت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي الكثير من معارك الحرب الباردة الحامية. إلا إنني لم أمتلك خبرة فيه، ولم أكن ضابط عمليات في المعلومات أو ضابطاً شبه عسكري.

تعلّمتُ بحلول صيف ١٩٩٩ من الأف. بي. آي عن سياسة مكافحة الإرهاب أكثر مما تعلمته في السي.آي.إيه. وازدادت بنوع خاص معرفتي بالاستخبارات وبفرض القانون وبالعمل الخفي في مكافحة الإرهاب من وجهة نظر التعاون بين الوكالات. بيد أن متطلّبات مركز مكافحة الإرهاب ستركّز أكثر على الجانب العملاني وبخاصة عند نقطة ترابط الاستخبارات والعمل الخفي. وقد حضّرت لمهمتي الجديدة بتكثيف دراستي لتاريخ الإرهاب الحديث والعمل الخفي ومركز مكافحة الإرهاب.

في فترة السبعينيات أظهرت المجموعات اليسارية الفلسطينية المدعومة من الليبيين والسوفيات وبعض دول حلف وارسو وحشيتها. فقد خطفت الطائرات وهاجمت المطارات وقتلت المئات. وحصل في بعض الحالات تواطؤ مع مجموعات أوروبية راديكالية ومع الجيش الأحمر الياباني. وخطف عناصرها وقتلوا صناعيين أوروبيين وسياسيين. كما مات أيضاً مواطنون أميركيون على أيدي هذه المجموعات.

اتُّهمت طهران، بعد الثورة الإيرانية في عام ١٩٧٩، بتصدير الإرهاب عبر عملائها ووكلائها، أمثال حزب الله الذي اتّهم في نيسان/أبريل ١٩٨٣ بتفجير السفارة الأميركية في بيروت قاتلاً ٦٠ شخصاً. وجاءت الحصيلة ثقيلة على محطة السي.آي.إيه إذ كادت تقضي على جميع عناصرها. وصدف أن أحد الناجين، وهو رفيق دورتي في «المزرعة»، غادر المبنى للتو في مأمورية. وأذكر جداً روايته لعودته مسرعاً إلى المكتب بحثاً عن الجثث وللتأمين على المواد السرّية. وكذلك نسف حزب الله في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٣ منشأة عسكرية أميركية في لبنان وقتل ٢٤١ جندياً أميركياً بمن فيهم ٢٢٠ من المارينز.

أخذ الإرهاب الدولي يزداد واحتاجت الولايات المتحدة إلى استخبارات أفضل وردّ أحسن. وطالب الرئيس ريغان في عام ١٩٨٥ بالقيام بأمر ما. وأخذ نائب الرئيس جورج هـ. و. بوش، وسبق له أن تولى إدارة السي.آي.إيه، زمام المبادرة.

أنشأ بوش لجنة برئاسته. وسرعان ما حدّدت اللجنة رفيعة المستوى مكامن الضعف في قدرات مجتمع الاستخبارات بما في ذلك الفجوة بين فهم العدو والرد على التهديد. ولم يوجد، فوق ذلك كله، كيان واحد داخل الحكومة مسؤول عن مواجهة الإرهاب. وأوصت اللجنة بإنشاء مركز لجمع المعلومات وتحليل الاستخبارات وحاججت في سبيل ردود أكثر قوة بما في ذلك العمل الخفي.

تصرّفت السي.آي.إيه على أساس هذه النتائج وأنشأت في شباط/فبراير ١٩٨٦ مركز مكافحة الإرهاب الذي سيصبح محور مهمة مكافحة الإرهاب.

ودمج مركز المكافحة هذا المشغّلين والمحلّلين تحت القيادة نفسها من أجل ردم الفجوات الموجودة في فهمنا للتهديد. وسيعملون معاً لتحديد العدو الإرهابي وملاحقته وإلحاق الهزيمة به. وأضحى مركز مكافحة الإرهاب موجوداً في المكان الذي تَدمج فيه السي.آي.إيه ما جُمع من معلومات وتحليل وتصوغ العمل الخفي ونستخدمه. نفّذ المركز هذه العمليات الخفية المصمَّمة تكملةً للسياسة الخارجية الأميركية بالتنسيق مع محطات السي.آي.إيه وفي الغالب مع شركاء الارتباط الخارجيين حول العالم.

قاومت أقسام الجهاز الخفي الجغرافية هذا الكيان الجديد في رد فعل شبيه برد فعل أي بيروقراطية تشعر بالمنافسة على الموارد. لكنها قبلت، بمرور الوقت، بالمركز على مضض، أو أقله بخبرته المتنامية وبأمواله. فسّرتُ، وأنا أخدم في الخارج في ذلك الوقت، الإعلان عن مركز مكافحة الإرهاب بأنه مجرد مكتب جديد في مقر القيادة له مهمة أخرى، ولم يتمتع المركز بأي نفوذ ذي شأن في حقل عملياتي. فالستار الحديدي لن يتهاوى إلا بعد ثلاث سنين. وتغلّبت نزاعات الحرب الباردة بالنسبة إلي، وإلى الكثيرين من ضباط السي.آي.إيه، على الجيش الأحمر أو الثوار الإيرانيين.

بيد أن المجموعات السياسية الساخطة ستتبنى تكتيك الإرهاب على نطاق أكثر اتساعاً في سياق السنوات العدة المقبلة. وتنامى مركز مكافحة الإرهاب لمضاهاة هذا التهديد، وطوّر منهجيات جديدة للتعرف إلى العناصر الإرهابية والعثور عليها. وأخذت الفترة الزمنية للرد تزداد اختصاراً جراء استخدام المعلومات التي تُجمع من كل المصادر في حلقة تغذية راجعة بين جمع المعلومات والتحليل. طوّر المركز العمل الخفي ووسّعه، وتطلب الأمر فرقاً خاصة للمراقبة وخبراء في الاستجابة للأحداث، مثل خبراء القنابل والمتفاوضين مع خاطفي الرهائن وقادة الهجوم التكتيكي.

ادّخر مكتب مكافحة الإرهاب، بفعل تطور التهديد الإرهابي الذي تآلف مع

النجاح الأولي للمكتب الجديد، المزيد من الموارد ونما حجماً ومكانةً. وجنّد المكتب، في ظل قيادات محترمة مثل ونستون وايلي وجوف أوكونل، المزيد من الضباط الأفضل إضافة إلى ضباط فرض القانون ومحامين واختصاصيين في الدعاية ولغويين وأكثر. وشرع المركز في تدريب أجهزة الارتباط الأجنبية لتحسين قدراتها.

تزايدت موازنات مكافحة الإرهاب. واكتسب مركز المكافحة، بفضل سلطته وخبرته المتزايدة وماله، نفوذاً في داخل السي.آي.إيه ودبّر عمليات أكثر عمقاً مع كل الأقسام الجغرافية الميدانية في الجهاز الخفي. وغالباً ما يخدم مركز مكافحة الإرهاب الغرض إذا أراد رئيس المحطة تمويل عملية ما ودعمها، على افتراض وجود هدف إرهابي محقّق.

بيد أن مركز مكافحة الإرهاب والعمل الخفي لم يعالجا إلا جزءاً من التحدي؛ إذ لا يجب على الاستخبارات والعمل الخفي أن يشكلا بديلاً عن السياسة أو عذراً للإخفاق السياسي.

كتب البروفسور روي غودسون في مؤلفه الرائع «الخدع القذرة أو الأوراق الرابحة» Dirty Tricks or Trump Cards: «يعني العمل الخفي التأثير في الظروف وفي السلوك بطريقة لا يمكن نسبها إلى راعيها». وأضاف إن «المبدأ الأساسي للعمل الخفي هو التالي: أن يتمتع بالفاعلية ويشكّل جزءاً من سياسة ذات تنسيق جيّد». ووصف العمل الخفي بأنه «خادم السياسة» وشدّد على أن «العمل الخفي، كونه لا يشكّل بديلاً عن السياسة، يأتي في العادة بنتائج سلبية عندما تستخدمه حكومة لم تقرر بعد ما تريد القيام به، حكومة تتصرّف للقيام بأمر ما وحسب فيما ترفض تكريس الموارد بطريقة مستدامة ومنسقة. كما أن العمل الخفي لا يلعب دور الرصاصة السحرية التي تُستخدم لوحدها بعدما يكاد يفشل كل شيء آخر. بل يجب أن يُنسق مع الإجراءات الدبلوماسية، العسكرية و/أو الاقتصادية ويتلقى الدعم منها».

تنخرط الحكومات في العمل الخفي للتأثير سرّاً في الناس وفي الأحداث

تكملةً لسياسة خارجية أوسع، وليس في هذا أي جديد. ففي القرن الثالث ق.م. نُقل عن الملك فيليب الثاني المقدوني، والد الإسكندر، قوله إنه «في وسع الحمار المحمّل بالذهب عبور الجبال التي لا تستطيع الجيوش اجتيازها».

أدركتُ من خلال دراساتي وخبرتي أنه ليس على العمل الخفي أن يشكّل بديلاً من السياسة أو يعمل بوصفه وكيلاً طويل الأمد. كما يجب عليه ألّا يخل بالسياسة أو يقوّضها، بل عليه أن يعمل بدلاً من ذلك على تعزيزها. ويجب على الزعماء السياسيين وصانعي السياسة والاستراتيجيين ألّا يعتبروا العمل الخفي حلاً لتحدّ تشكله السياسة الخارجية، بل أداة انتقالية متطورة جداً لفن الحكم لا تعمل إلا من خلال التنسيق مع العناصر الأخرى للسياسة الخارجية.

بيد أن الولايات المتحدة بنوع خاص تمتلك تاريخاً من إهمال العمل الخفي في الأوقات الحرجة. ويمكن في حقبات معينة من الأزمة أن تُساء صياغة السياسة الخارجية وتتميز بالضعف والارتباك، وأن يبالغ الزعماء السياسيون في التشديد على العمل الخفي الذي يأتي في العادة بنتائج هزيلة على غرار إخفاق ١٩٦١ في خليج الخنازير في كوبا أو انقلاب ١٩٧٣ على الرئيس اللندي في تشيلي. وفي المقابل أحبط عمل السي.آي.إيه الخفي في الثمانينيات في أميركا الوسطى النفوذين السوفياتي والكوبي، إلا أن تورط البيت الأبيض في عمليات غير شرعية أوقع ضباطاً في السي.آي.إيه في الشرك ما أدى إلى مشاكل قانونية وتغطية صحافية سيئة.

تتولى الاستخبارات والأجهزة الأمنية في العادة القيادة في العمل الخفي. وتتولى السي.آي.إيه في الولايات المتحدة هذه المسؤولية. وتوجد لذلك أسباب عدّة. فالعمل الخفي، أولاً، سرّ بحكم التعريف وهذه الأجهزة مصمّمة للعمل الخفي. ثانياً، يتطلّب العمل الخفي استخبارات محدّدة يتوجب على هذه الأجهزة جمعها. ثالثاً، على هذه الأجهزة تحريك عملاء أجانب موثوق بهم من ذوي التأثير لتنفيذ الأعمال الخفية. رابعاً، يجب على أجهزة الاستخبارات والأمن ألّا تمتلك

جداول أعمال سياسية خارجية (بالرغم من أن بعضها يفعل) لأن الاستخبارات تُخبر السياسة ولا تصنعها. ويمكن لجهاز الاستخبارات، أقلّه من حيث المبدأ، تنفيذ عمل خفي يتناسب مع السياسة.

سأشهد في العقد التالي التاريخ، وقد تم نسيانه، وسأشهد الأمثولات القاسية، وقد تم تعلّمها من جديد. وسيتحمّل دور السي.آي.إيه في العمل الخفي النشط، في صدارة السياسة الأميركية الضعيفة والمتصدعة المناهضة للإرهاب، وطأة المعارك السياسية والقانونية. وستدفع السي.آي.إيه الثمن في البيئة الجيوسياسية التي غالباً ما يقودها أناس لا يفهمون الاستخبارات أو اختاروا التلاعب بها لمصلحة جداول أعمالهم الخاصة التي تصوّروها مسبقاً. وسيأمر الرئيس جورج و. بوش بعمل خفي قضائي، مثل اعتقال مقاتلين إرهابيين، والتقنيات المحسنة في التحقيق، ليوجه من بعده الرئيس أوباما مدعيه العام للتحقيق في احتمال قيام ضباط في السي.آي.إيه بسلوك غير قانوني.

بدأت ثقافتي للتو في حلقة الوصل بين السياسة والعمل الخفي في هذا العالم السفلي المشحون سياسياً. وصلتُ في أيلول/سبتمبر ١٩٩٩ إلى مركز مكافحة الإرهاب بوصفي واحداً من نواب كوفر بلاك الثلاثة. كان المرحوم بن بونك نائبه الرئيسي، وهو باحث وقائد مسؤول عن كل التحليل وعن مجتمع السياسة. أما النائب الآخر فعميل خاص في الأف. بي. آي. ركّز على الارتباط المتعلق بفرض القانون. وهو شخص لانق وصافي النية لكنه لم يساهم أبداً بالطريقة التي ساهم بها دايل واتسون قبل ذلك بنحو عامين. وتولّيتُ مسؤولية كل عمليات السي. آي.إيه العالمية المتعلقة بمكافحة الإرهاب. وأعطاني كوفر توجيهاته بالاستقرار ومراجعة العمليات الراهنة وتقديم انطباعاتي الأولية.

قال: «أمامك أسبوع».

أجبت: «نعم، سيدي». وغالباً ما سأكرر هذا الجواب لكوفر في السنوات الثلاث التالية.

قرأت أمر المدير تينيت القاضي باستراتيجية جديدة وشديدة ضد القاعدة. وهو قد أخذ يدفع، منذ العام السابق بعد تفجيريْ شرق أفريقيا، باتجاه فاعلية أكبر. وتوقَّع، مع وجود كوفر وفريقه القيادي الجديد في مركز مكافحة الإرهاب، المزيد من الضغط على القاعدة.

طلبتُ مجموعة متنوعة من الخرائط بما فيها شبه القارة الآسيوية الجنوبية، ودول مثل السودان، وأحياء محددة في افغانستان، وضواحي بيروت. سجّلت مواقع الجهاز الخفي التابع للسي.آي.إيه حول العالم، ثم رسمت محيط ملاذات القاعدة ومن ينتسبون إليها. لم يظهر وجود أي تلازم، وبدا ما نحتاج إلى القيام به واضحاً. واحتاج مركز مكافحة الإرهاب لجمع الاستخبارات والاشتباك مع العدو إلى العمل في ملاذاته الآمنة هذه. وسجّلتُ ستة مواقع جغرافية أساسية يحتاج مركز مكافحة الإرهاب إلى الاستثمار فيها:

١ ـ جنوب شرق آسيا، وبخاصة عند ملتقى الحدود بين ماليزيا واندونيسيا والفيليبين.

٢ ـ لبنان وغيره من الجيوب في المشرق مثل فلسطين.

٣ ـ قطاعات من المناطق غير المحكومة في أنحاء الساحل وقرن أفريقيا، ولكن بصفة أولية السودان.

٤ ـ منطقة الحدود الثلاثية في الباراغواي والبرازيل والأرجنتين.

٥ ـ شبه الجزيرة العربية، وبخاصة اليمن.

٦ ـ أفغانستان، وهي أهم ملاذ للقاعدة، وأجزاء من باكستان.

قدّمتُ بعد ذلك بخمسة أيام إيجازاً إلى كوفر وبن، واستخدمت لوحاً أبيض وأقلاماً ملونة. المهمة سهلة إذ على مركز مكافحة الإرهاب أن يعمد، بالتعاون مع باقي الجهاز الخفي، إلى اختراق ملاذات العدو الآمنة لفهمه وإدراك خططه ونواياه وتحضير ساحة معركة العمل الخفي. وشكّلت أفغانستان الهدف الأهم والأكثر إلحاحاً.

تولى ريتش، ضابط العمليات ذو القامة المفرطة في الطول، رئاسة الوحدة المسؤولة عن القاعدة في مركز مكافحة الإرهاب وتُعرف باسم «محطة أليك». ويقع مكتبه تحت إمرتي. وقد بدأ ريتش هو الآخر حياته المهنية في أفريقيا وأمضى معظم وقته في مهمات ذات مخاطر عالية. اعتقدتُ أنه صاحب خبرة وكفؤ ولكنه مغرور ومتحفظ ويتملّكه شعور بالأهلية. واعتقدَ أنني كفؤ ولكن متعنّت، ولا أقيم الكثير من الاعتبار للآخرين.

أدركنا، نحن الاثنين، أن المهمة تتجاوز أية انطباعات سلبية نكوّنها واحدنا عن الآخر. وطلب كلانا الكثير من انفسنا وممن يعملون تحت إمرتنا ومن قادتنا. وسنتعلّم، أنا وريتش، في الأشهر والسنوات التي تلت الاتكال واحدنا على الآخر. وأمكنني فهم شغفه الحاد والبطولي بالمهمة وأناسها. وازداد احترامنا المتبادل أحدنا للآخر. وسنصبح أخوة في السلاح.

تحدَثت وريتش، بعد الإيجاز، عن أفغانستان. وتطوّع لأخذ فريق إلى البلاد لإعادة إحياء علاقة الارتباط بيننا وبين أحمد شاه مسعود قائد الجبهة الموحدة والتي تُعرف أيضاً بتحالف الشمال. وحبّذت الحكومة الباكستانية استخدام تعبير تحالف الشمال، الذي سعت إلى تصويره بأنه تنظيم ذو سيطرة طاجكية منعزل في الشمال، وغير قادر على الوصول إلى باقي البلاد. وعمل مسعود، ذو الإثنية الطاجيكية، في الواقع على بسط شبكته في أنحاء افغانستان. أراد إطاحة الطالبان وطرد قادة القاعدة الأجانب الذين أوجدوا الحظوة لأنفسهم في شكل ماكر في ما بينهم.

ناقشت وكوفر وبن خطة ريتش للسفر بعدما قام بالفعل بجمع فريقه. أدرك ريتش أنها الخطوة الأولى الحرجة في مبادرتنا الاستراتيجية لاختراق ملاذات العدو الآمنة، وشكّلت أفغانستان أهم هذه الملاذات باستضافتها التهديد الإرهابي الأهم.

طلب كوفر، نظراً إلى المخاطر السياسية والطبيعية للمهمة، الموافقة من نائب

مدير العمليات والمساندة من العناصر الأخرى داخل الجهاز الخفي. وسينطلق فريق ريتش من طاجكستان برعاية قسم آسيا الوسطى بالرغم من أن أفغانستان تقع بيروقراطياً من ضمن صلاحيات قسم الشرق الأدنى. فقد امتلك مركز مكافحة الإرهاب المهمة والمال، لكن الأقسام الجغرافية امتلكت المضمار.

مضينا، كوفر وريتش وأنا، إلى مكتب نائب مدير العمليات جيم بافيت حيث انضم إليه العامل في قسم الشرق الأدنى غاري شرون الذي سبق أن لعب دوراً أساسياً في توفير الإمدادات لحلفائنا الأفغان إبان الاحتلال السوفياتي، وهو يعرف مسعود والكثيرين من قادة الجبهة الأفغانية الموحدة. استمع بافيت إلى إيجازاتنا. وحاجج، معتمداً على شرون بوصفه شاهده الخبير الداعم، بأن المخاطر مرتفعة جداً بالنسبة إلى مكسب غير مؤكّد.

صاح: «سأقف في قاعة الحضور، تحت، واضطر إلى مواجهة عائلات ضباطي القتلى».

أجابه ريتش: «سأكون، في الحقيقة، من بين القتلى لأنني سأقودهم».

وحصلت لحظة من الصمت المتوتّر.

ملأتُ الفراغ مشدّداً على المخاطر التي سنواجهها إذا لم نذهب. فقد أعلن بن لادن الحرب على الولايات المتحدة، ولم تمضِ سنة على مهاجمة القاعدة سفارتينا في شرق أفريقيا، وتبدو نواياها وقدراتها المتزايدة واضحة. وسنتعرّض لضربة جديدة ما لم نجمع المزيد من الاستخبارات التي تمكننا من تعطيل وإفساد شبكاتها وملاذاتها الآمنة. وحاججت بأنه سيُنظر إلى هذه الهجمات المقبلة، وللأمر ما يبرره، بأنها إخفاق آخر لاستخبارات السي.آي.إيه. وتقصّدتُ صوغ ذريعتي بعبارات المخاطر البيروقراطية لأن ذلك سيجد صداه لدى بافيت.

استفسر بافيت عن قابلية نجاح الاتصال عن بعد مع حلفائنا الأفغان، ما يعني إمكان تفادي انتشار خطر في أفغانستان.

قلتُ مشدّداً: «لا، علينا بالوجود هناك. يجب أن نبرهن شراكتنا، فالأمر يتعلّق بالاحترام. ولا بديل من الجلوس معهم ومشاطرتهم خبزهم. يجب أن نوجد في أرضهم ومعهم».

بدا الأمر أساسياً جداً وواضحاً جدّاً. سبق لي أن خدمت في أفريقيا حيث شهدت على أسس الحياة والموت في شكل مؤلم في كل يوم. لم تشأ المصادر الفخورة والمتمردون المتعاونون الوقوف عند طرف حبل اتصالات السي.آي.إيه في غياب اليسير من التواصل والثقة الذي يتطلب بعضاً من المشاركة في المخاطر. ونحن لا نحتاج إلى مجرّد معطيات عن العدو بل إلى معرفة متجذّرة في فهم مؤكد لحلفائنا. وقد تبيّن لي ذلك في دورة خدمتي الأولى.

استمر بافيت في المقاومة. ولاحظ شرون ما في المهمة من خطر فائق، لكنه تجنّب تقديم أي حجّة أخرى تؤيد انتشار الفريق أو تعارضه.

تطلّع كوفر مباشرة إلى بافيت وأعلن في شكل قاطع: «أنت مخطئ، سيدي، لأن علينا أن نذهب».

لم يعلن صراحة عن مسار العمل الآخر الذي يمكن أن يسلكه، كما لم يشرح، على غرار ما فعلتُ، المخاطر السياسية لعدم التحرك. ولا حاجة به إلى ذلك إذ إنه امتلك، بوصفه رئيس مديري مركز مكافحة الإرهاب، خطاً مباشراً إلى المدير تينيت. كما أن كوفر امتلك شبكاته الخاصة في وسط العاصمة، في كل من البيت الابيض وتلّة الكابيتول. وقد احتفظ كوفر بسمعة عظيمة في ميدان مكافحة الإرهاب. فهو الذي عثر على كارلوس راميريز سانشيز، المعروف بابن آوى، في السودان. كما أنه طرد بن لادن من ذلك البلد. وبوصفه الرئيس الجديد لمركز مكافحة الإرهاب امتلأ خزانه بالوقود العملاني والسياسي فقام بالضغط على دواسة البنزين فحسب. جل ما في الأمر أنه أصدر هديراً وجيزاً وتاماً من القدرة، ثم سكن وانتظر.

استجمع بافيت قواه. طرح بضعة أسئلة أخرى، وأذعن وهو لا يزال غير مسرور.

لم يتمكّن ريتش وهو يسير خارجاً من المكتب عبر الأروقة الهادئة من أن يمنع نفسه من التعبير عن اغتباطه: «كان ذلك رائعاً، أيها الرئيس. عمل عظيم».

توقف كوفر واستدار وصاح بنا: «لا تتوقعوا ذلك من جديد. لا يمكنني قول ذلك لنائب مدير العمليات والإفلات منه. لا يمكن».

لكنه فعل ذلك للتو، في حين امتلكت وريتش ما يكفي من الإدراك للامتناع عن الإشارة إلى ذلك.

سرنا بصمت عائدين إلى مركز مكافحة الإرهاب ونحن نتمعّن في المخاطر في أفغانستان وفي داخل حكومتنا ووكالتنا.

بعد ذلك بعشرة أيام انطلق ريتش وفريقه.

وصلوا إلى دوشنبي، المدينة الصغيرة عاصمة طاجكستان. تشكّل المدينة المتآكلة مثالاً كدراً على الإخفاق الهندسي والسياسي لحقبة ما بعد السوفيات، وهي عرضة للعنف الإجرامي-السياسي الدوري حيث تتقاتل العصابات على السيطرة على تجارة المخدرات وغير ذلك من الحقوق في المشاريع الإجرامية. ولم توجد فيها سفارة أميركية، لأن وجهة نظر واشنطن قضت في أيلول/سبتمبر ١٩٩٩ أن طاجكستان ليست سوى بقعة غير مهمة من الأراضي الجبلية الوعرة عند الخاصرة الشمالية لأفغانستان وغير جديرة بالاعتبار.

قبع ريتش ورجاله الخمسة في بيت آمن رخيص للسي.آي.إيه وانصلوا برجال مسعود الذين امتلكوا مواقعهم الآمنة في المدينة. طرح الطقس القاسي تحديات أمام عملية النقل بالمروحية من فوق هندو كوش. ولم نتأكد كم سيتوجب على ريتش وفريقه الانتظار. لكنهم ركبوا في اليوم التالي متطفلين مروحية سوفياتية هرمة من طراز «مي-١٧» تابعة لمسعود. حلقوا عالياً في اتجاه الجنوب، من فوق ومن حول القمم التي تكاد ارتفاعاتها تصل إلى ثمانية آلاف قدم، تعصف بهم الرياح العنيفة، وعبروا إلى أعالي وادي بنجشير الأفغاني الضيق.

ما إن هبطوا حتى واكبهم الأفغان سريعاً إلى بيت للضيافة، وهو كناية عن مبنى بسيط وقديم، حيطانه من الحجارة عند جانب التل. وهو بالمقاييس الأميركية بدائي، لكنه أفضل منزل في الجوار. فالأفغان يفاخرون بأنهم يحسنون الضيافة، ويتقاسمون كل ما يملكونه.

اهتم الأفغان بحسن حال زوارهم، ولم يريدوا لأي من فتيان السي.آي.إيه التجوال في المكان من دون مواكبة. احتفظوا بذكريات حيّة عن إخلال أميركا بوعودها عندما تخلت الولايات المتحدة والمجتمع الدولي بأسره عنهم في أعقاب الانسحاب السوفياتي. وتدهورت أفغانستان سريعاً، في غياب الدعم الدولي، إلى حرب أهلية مريرة ووحشية تراكمت من فوق الاحتلال الخارجي الوحشي الأخير. وتساءلوا ولا شك عما تريده السي.آي.إيه هذه المرة.

استقبل مسعود ريتش وفريقه بحرارة. وبعد تبادل الفكاهات الأولية شرح ريتش بأن مهمته تتعلق بالقاعدة، وبالقاعدة لوحدها، وبأنه ليس على الجبهة الموحدة أن تتوقع أي مساعدة في الإطاحة بحكم الطالبان. فالرئيس كليتون، كما شرح ريتش، قد أعطى موافقة محدودة وضيقة لجمع الاستخبارات ومواصلة عملية تهدف إلى القبض على بن لادن. وشدّد ريتش على أنه لا يوجد ما هو أكثر من ذلك.

فهم مسعود الأمر مشيراً إلى إمكان متابعة الحديث. فتح ريتش إحدى الخرائط وسأل عن القاعدة. وأمضى مسعود، المولع بالخرائط، الساعة التالية يقدّم استخبارات مفصلة عن العدو. كما وفّر أيضاً شرحاً لقدرات الجبهة الموحدة ونواياها. في إمكانها التمسك بوادي بنجشير الذي يصب في السهول الشمالية، شمال كابول، وهي تنازع على مناطق أخرى مثل جنوب مزار الشريف. وشرح مسعود شبكة مصادرهم التي تمتد إلى مناطق الباشتون. كما أشار أيضاً إلى حدود دعمهم المادي والحرب التي يخوضونها منفردين.

ناقش ريتش ومسعود التغيرات التي طرأت على الظروف ومدى أهمية

التحضير لتحالف أقوى بين السي.آي.إيه والجبهة الموحدة. وعلى كل فريق أن يتخذ موقعاً يسمح له باستغلال الفرص.

سرعان ما أصيب أفراد الفريق بمشاكل صحية مختلفة متوقعة. وشرعوا في تناول أقراص «سيبرو». وأصيب عميل جسيم وشديد بجرثومة في المعدة أقعدته عن العمل. وجل ما أمكنه فعله هو النوم ثم النهوض للتقيؤ وإفراغ أمعائه. أصيب ريتش بالقلق وطلب طبيباً محلياً تم استدعاؤه. وصل الطبيب حاملاً بيده حقيبته الطبية حافي القدمين وعالج ضابطنا.

أدرك ريتش أن بناء قدرات حليفنا سيستغرق أكثر مما اعتقده في البداية. كان شركاؤنا الأفغان بالكاد يمتلكون شيئاً بالمعنى المادي. لكنهم امتلكوا معرفة محلية ومهارات قتالية شُحذت بقوة وحياة قاسية ترتكز إلى الكبرياء والشجاعة.

أمضى ريتش وفريقه أسبوعاً تبادلوا فيه الاستخبارات مع مضيفيهم واستكشفوا معهم الطريقة الأنجع للتعاون. وأعاد الفريق بمهارة، بقيادة ريتش، الحياة إلى العلاقة.

عيّن مسعود المهندس عارف، قائد الاستخبارات، للعمل ممثلاً رئيسياً له في عملية توسيع علاقة الارتباط هذه. وهو وضيع وكثير الكلام وفاسد، ولكنه شريك جيّد ويعوّل عليه.

عمل أمر الله صالح بإمرة عارف. وسيصبح نقطة الاتصال الرئيسية مع ريتش. وهو شاب لامع، صادق، ونذر نفسه لأفغانستان الحرّة. أتقن الإنكليزية وامتلك مهارات تقنية جيدة وملامح القائد الصاعد. وتوسع دوره سريعاً بعدما أعطاه مسعود وعارف المزيد من الصلاحيات. وسرعان ما أقام ريتش وفريقه رابط اتصالات مشفّراً مع أمر الله داخل أفغانستان بحيث يتمكّن من تنسيق جهودنا مع مسعود وعارف وغيرهما.

اكتسبت مهمتنا المتجدّدة ضد القاعدة والطالبان، على مرّ الأشهر التالية، المزيد من الحماسة من طرف مسعود والقادة المؤتمرين بأمره. زوّدتهم السي. آي.إيه بمعدات جمع الاستخبارات والبيانات الأساسية ومتطلبات الاستخبارات والمال. وشرع مسعود والجبهة الموحدة في تزويدنا بالمزيد من الاستخبارات التي تحسّنت باطراد مع نمو الثقة والتواصل.

مهّد هذا الانتشار الطريق أمام المزيد من الفرق والمزيد من التعاون والمزيد من الاستخبارات والعمل الخفي. وسننشر أربع فرق إضافية في الأشهر الثمانية عشر التالية. وسنعقد المزيد من الاجتماعات مع شركائنا الأفغان في البلدان المجاورة.

العمليات العالمية

لم يعمل ريتش وضباطه في مركز مكافحة الإرهاب ضد القاعدة وأتباعها في أفغانستان، فحسب بل حول العالم أيضاً. ولم يتولّ فرع ريتش إلا جزءاً من موارد مركز المكافحة، إن لجهة الرجال أو التمويل. نشرنا، كوفر وبن وأنا، موارد أخرى في فروع تعمل ضد حزب الله وحماس والقوة الثورية المسلحة في كولومبيا وحزب العمال الكردستاني ونمور التاميل وحوالى عشرين تنظيماً مصنّفاً كإرهابي[1].

شهدت الفروع العملانية توترات طبيعية، وأراد كل منها بالطبع المزيد من الموارد. وامتلكت الوحدة المختصة بحزب الله، على سبيل المثال، حجة قوية لأنها تؤكد أن الحزب قتل في الأعوام القليلة الماضية المئات من الدبلوماسيين الأميركيين والمارينز والجنود وسواهم، وأنه شكّل الوكيل الأساسي للنظام الإيراني الراعي الأكبر لإرهاب الدولة في العالم، وداخل الولايات المتحدة. وشنّت القوات الثورية المسلحة في كولومبيا تمرّداً رهيباً في البلاد يرتكز على المخدرات، معرّضة الاستقرار فيها وفي المنطقة للخطر. وشكّل نمور التاميل روّاد استخدام المفجّرين الانتحاريين الذين يرتدون سترات ناسفة والهجمات البحرية الانتحارية. وأدار مركز

(1) [حسب تصنيف الولايات المتحدة الأميركية للمنظمات الإرهابية، بتاريخ ٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٩].

مكافحة الإرهاب أيضاً فرق مهمات خاصة انتشرت في عمليات مراقبة حساسة وفي الردّ على الأحداث وفي التدريب وهي أيضاً تتطلّب موارد.

قضى جزء كبير من عملي بموازنة هذه الوحدات المهمة والمتنافسة والسعي حيثما أمكن إلى بناء التفاعل فيما بينها. وشكّل جمع المعلومات والتحليل أساس كل عمل مركز مكافحة الإرهاب. فلا مهمة لنا إذا لم نتمكن من تحديد العدو والكشف عن خططه ونواياه والعثور عليه ومعرفة البيئة العملانية المحيطة. ولن نحصل على معلومات استخباراتية أو خدمة العمل الخفي لزبائننا.

بوصولي إلى مركز مكافحة الإرهاب كان أقل من نصف الاستخبارات يأتي من مصادر أحادية. وحصلنا على السواد الأعظم من تقاريرنا حول مكافحة الإرهاب من الارتباط الخارجي. واعتمدت بعض المحطات بشكل شبه كامل على هذا الارتباط الأجنبي في استخبارات مكافحة الإرهاب. وهذا مقبول بالنسبة إلى المحطات التي تتعامل مع أقرب حلفائنا إلينا، وليس مع الآخرين، ولا يمكننا الاعتماد على الارتباط الخارجي، واحتاجَ بالتالي مركز مكافحة الإرهاب إلى المزيد من المصادر الأحادية لتوليد المزيد من الاستخبارات.

لاحق ضباط العمليات الكثير من الأهداف حول العالم، ولم تشكل مصادر مكافحة الإرهاب إلا صنفاً واحداً من توجيههم العملاني. أردتُ لضباط من كل الأقسام الجغرافية أن يخترقوا المجموعات الإرهابية. واحتاج مركز مكافحة الإرهاب لهذا الغرض إلى توفير توجيه وحوافز أكبر لهؤلاء الضباط، وقد زودهم المركز ببيانات الاستهداف الممتازة، إلا أنه يوجد في التجنيد ما هو أكثر من مجرّد معرفة الهدف. فالمهم هو كيفية تجنيد الإرهابي، إذ يختلف الأمر عن اصطياد دبلوماسي أجنبي أو مسؤول تجاري، وربما شكّلت المخاطرة الفارق الأكبر. يمكن للدبلوماسي الأجنبي الإفادة عن محاولة الاصطياد ما قد يتسبب بضجة دبلوماسية. غير أنه يمكن للإرهابي أن يرد بطرق مختلفة مثل رمي قنبلة على الضابط المحرّك، وهو ما قد حصل أخيراً. فقد نجا ضابطنا بصعوبة في بيت الدرج لدى انفجار القنبلة من ورائه.

لم يمكن إلا لحفنة صغيرة من ضباط الجهاز الخفي تجنيد إرهابي ما. فالأمر صعب ويتطلب مهارة فريدة وشجاعة، ويتطلب أيضاً توجيهاً وتدريباً أفضل للضباط الذين يتولون مثل هذه المهمة.

واجهنا أيضاً معضلة في توظيف من قتلوا أناساً أو ساندوا من قتلوا، وذلك بالطبع ما يفعله الإرهابيون. وواجهنا دوماً في عملياتنا حدوداً أخلاقية وقانونية وسياسية. لم نجنّد أو ندعم أو نشجع أي عميل على قتل أناس أبرياء، حتى ولو أدى مثل هذا العمل إلى التعجيل في وصول هذا العميل وتأثيره في داخل المجموعة الإرهابية. فذلك خاطئ تماماً. لكن أين نرسم الخط؟ وماذا عن أولئك الإرهابيين الذين قتلوا في الماضي لكنهم يريدون التعاون الآن؟ أمكننا النظر في الأمر على أساس كل حالة بحالتها. وماذا لو كان الضحايا من المواطنين الأميركيين؟ سنبلغ وزارة العدل بالقضية ونطلب منها التوجيه. وماذا لو أن مصدراً محتملاً وفّر الدعم المادي لعملية إرهابية لكنه لم يضغط على الزناد؟ سنعمد، في أكثر الأحيان، إلى تجنيده وتحريكه للحصول على الاستخبارات التي تسمح لنا بوقف الهجوم. لكننا أخفقنا في بعض الأحيان. ماذا لو لعب المصدر دور صلة الوصل مع قاتل خطّط لقتل مسؤول أجنبي؟ قضى واجبنا بتحذير المسؤول الأجنبي، وقد فعلنا ذلك فيما حاولنا الإبقاء على مصدرنا حيّاً وقابلاً للعمل في المستقبل. ولم يكن ذلك ممكناً دائماً. ونحن نستخدم تقارير مصدر مكافحة الإرهاب، إذا كانت جيدة، لوقف الهجمات، الأمر الذي قد يقوّض منفعة المصدر في المستقبل وأمنه. فإذا تميّز تجنيد مصادر مكافحة الإرهاب بالصعوبة فإن الاحتفاظ بالجيدين منهم في العمل أصعب.

لم يسبق، في عام ١٩٩٩، لمعظم ضباط العمليات في السي.آي.إيه أن اختبروا هذه التحديات. لم يقدّروا المخاطر والتناقضات العملانية، ولم يمتلك بعضهم الحافز أو المهارات الضرورية لمعالجة مثل هذه الأهداف الخطرة. وباتت مهمتنا في مركز مكافحة الإرهاب تغيير ذلك.

قضت الخطوة الأولى بتعليم ضباط العمليات كيفية تجنيد الإرهابيين. جمعنا فريقاً من الاختصاصيين ضم علماء نفس ومحلّلين ومُجنّدين. وعرفت، بعد التجربة الأولى أن شيئاً ما ينقصنا. احتجنا إلى خبرة أوسع وتجربة أكبر، وطلبت من جهاز عربي حليف أن يرسل لنا مدرّباً. امتعض بعض من في الجهاز الخفي بما يعكس غروراً في غير مكانه بالنسبة إلى قدراتنا الذاتية. وحاججت بأننا دربنا أجهزة ارتباط في كل أنحاء العالم، فلماذا لا نستفيد من بعض مَنْ درّبناهم؟

تكرّم حليفنا العربي علينا بالموافقة وأوفد واحداً من أكثر ضباط مكافحة الإرهاب خبرة لديه لتعليمنا ومساعدتنا في تطوير منهاجنا. فعلّم مركز مكافحة الإرهاب عشرات ضباط العمليات، من كل أقسام الجهاز الخفي، أن تجنيد الإرهابيين صعب ولكنه ممكن.

أطلقتُ، بعد مناقشة الأمر مع كوفر، مبادرة لبناء كادر قوي من ضباط العمليات سيُفصلون بشكل دائم إلى مركز مكافحة الإرهاب. توظّف ضباط من كل فروع السي.آي.إيه في مركز مكافحة الإرهاب لكنهم امتلكوا فرصاً محدودة بتكليفهم بمهمات في مركز القيادة. وهذا ما استحال على ضباط العمليات الأغرار الذين تخرّجوا حديثاً من «المزرعة». لم يخصص نائب رئيس العمليات أية شواغر في مقر القيادة لضباط العمليات المتخرجين إلى مركز مكافحة الإرهاب. ووفّر المركز في النهاية مجالاً شاغراً واحداً بعد أشهر من التملّق والمحاججة، وأرضاني أن عدداً من الضباط من أوائل المتخرجين تقدموا بطلبات لمنحهم هذه الفرصة. تحدّث الغرّ الذي تم اختياره العربية، وأراد تعلّم المزيد فأرسلناه في دورة إلى الشرق الأوسط لتعميق درايته باللغة. وبدأ في السنة التالية في التجنيد وفي تحريك عمليات اختراق للتنظيمات الإرهابية. وحصلنا في مآل الأمر على المزيد من الشواغر والمزيد من الضباط المتكرّسين لمهمة مكافحة الإرهاب.

دفع كوفر بمبادرة أخرى. سبق وناقشنا كيف أن هناك حدوداً قاسية على

الضباط مثلنا في عمل مكافحة الإرهاب. فأنا وكوفر أيضا البشرة مع قدرة محدودة على تعلّم لغة أجنبية صعبة، فضلاً عن إتقانها. وهناك آخرون مثلنا، من السلالة الأوروبية الواضحة، لكن قلّة منهم مصابة بقصور حاد في تعلّم اللغة.

احتاج مركز مكافحة الإرهاب إلى أناس من ذوي الإثنية العربية والفارسية والباشتو والطاجكية والتركية وغيرها ممن يمتلكون اللغة الأم، وحياة كاملة من المعرفة الثقافية، خصوصاً في ملاذات عدونا الآمنة أو على مقربة منها. واحتجنا بنوع خاص إلى ضباط مسلمين موظفين في السي.آي.إيه يمكنهم الانخراط في مجتمعات لا يمتلك فيها ضباط مثلي أي حظ بالنجاح.

استدعى كوفر، غاري برنتسن، وهو واحد من الضباط القلة في السي.آي.إيه الذين يمكنهم اختراق الجماعات الإرهابية. كان في طور الاستعداد لمهمة خارجية بعد فترة خدمة في المركز عمل فيها في مجال حزب الله، ووافق على تخصيص وقت لمساعدتنا، وهو ذلك النوع من الأشخاص. وأخذ غاري المبادرة وطوّر حملة تجنيد صارمة لاستخدام النوع الذي نحتاجه من الضباط الموظفين الإثنيين.

واجه مكتب الأمن في السي.آي.إيه مشكلة في الأمر لأن لمعظم مرشحينا عائلات واسعة في أفريقيا وآسيا. وبالرغم من أنهم جميعهم مواطنون أميركيون فقد خلق هذا التعقيد العائلي التباساً في عملية الإجازة لهم بالرغم من خضوعهم الناجح لجهاز فحص الكذب. عمل عمّ أحد المرشحين الرائعين في حكومة أجنبية؛ ورُفض في شكل تلقائي. وعلاوة على ذلك، قاوم نظام الموظفين مطالبتنا بسلّم رواتب أعلى لأن ذلك لا يتطابق مع مقاييسه. غضب غاري، لكنه استمر على تصميمه أكثر من ذي قبل واستمرّ في الدفع. وتدخّلنا، كوفر وأنا، في مناسبتين لإزالة عراقيل السي.آي.إيه الداخلية.

حظي مركز مكافحة الإرهاب بقلة قليلة جداً من هؤلاء الضباط الجدد الذين سيحدثون على مر السنين وقعاً. وجنّد أحدهم مصدراً أساسياً التقاه في جامع أصولي. واخترق آخر، ادّعى أنه رجل أعمال، شبكة لوجستية إرهابية. واكتسب آخر ما يكفي من الوصول لكشف عقدة الاتصالات التابعة لإحدى خلايا القاعدة.

لم يقلّل تشديدنا على المصادر الأحادية من أهمية الارتباط الخارجي. وحوّلنا بشكل منتظم إفادات أحادية مختارة إلى الارتباط الخارجي بعد تعديلها، حمايةً للمصدر. وهذا ليس بجديد إذ انخرط مركز مكافحة الإرهاب في مثل هذا الأمر منذ إنشائه.

استحصلت إحدى محطات السي.آي.إيه في الشرق الأوسط مرة، على سبيل المثال، على تقرير من مصدر أحادي يتعلق بسفر إرهابيين إلى بلد أفريقي صغير حيث خططوا لمهاجمة إحدى المنشآت الأميركية بقاذفات الصواريخ والأسلحة الرشاشة. بعثت المحطة بالتقرير، ذي الأولوية الفورية، إلى مقر قيادة السي.آي.إيه والمحطة الموجودة في البلد الأفريقي وإلى كل البلدان التي قد يعبرها الإرهابيون. تحقّق مركز مكافحة الإرهاب من بعض المعلومات من خلال حركة استخبارات الإشارة، وعمل عناصر المركز والمحلّلون سريعاً، بالتنسيق مع المحطات الموجودة في قارتين، للإجابة على بعض الأسئلة الأساسية.

هل يبدّل الإرهابيون هوياتهم وهم في الطريق؟ كلا. هل الإطار الزمني دقيق؟ كلاً، إذ تغيّر أسبوعاً. هل لديهم شبكة دعم في البلد الأفريقي الذي ينتظرهم؟ نعم. هل من دولة راعية متورطة؟ نعم. إذا وُجدت فمن هي؟ تم تحديد الدولة جراء عمل حرفي غير متقن من عناصر قُبِض عليهم في عملية أخرى في بلد آخر كانت لجوازات سفرهم أرقام في تسلسل قريب لأرقام جوازات الفريق الذي تم نشره في وقت أحدث، أي ذلك الذي يستهدف المنشأة الأميركية. هل للدولة الراعية سفارة في البلد الأفريقي؟ نعم. وإذا وُجِدت هل ستساند العملية؟ نعم.

حوّلت محطة السي.آي.إيه الصغيرة هذه التقارير الاستخبارية المتعاقبة إلى الجهاز الأفريقي المحلي. ونتجت عن ذلك عملية مشتركة استهدفت الفريق الإرهابي الآتي. قدّمت المحطة الاستخبارات والمعدات التقنية، وأدار الجهاز المحلي العملية بواسطة عملائه. وبوصول فريق الإرهابيين فرض عليهم الجهاز المحلي رقابة مشددة على مدى ذلك الأسبوع. واستخدم في ذلك المراقبة

المحلية والتنصّت على الهاتف وتغطية صوتية لغرفهم في الفندق. والتقط لهم مئات الصور.

أمسك الجهاز المحلي، بالتنسيق مع ضباط في مركز مكافحة الإرهاب يقتفون أثر عمليات متوازية أخرى حول العالم، الفريق الإرهابي بأكمله بمن فيهم ضابط الدعم المتمركز في سفارة البلد الراعي لهم. صادروا الأسلحة. وتدفق كل ما تلى عملية المداهمة من استخبارات إلى المحطة التي أفادت بها مقر قيادة السي. آي.إيه والمحطات في أنحاء أفريقيا والشرق الاوسط. وأدى هذا إلى المزيد من العمليات وإلى تعطيل المزيد من الهجمات.

عملنا في الغالب، في مظهر آخر من مظاهر مهمة مركز مكافحة الارهاب العالمية ويإذن من الجهاز الأجنبي المصدر، على تمرير استخباراته إلى أجهزة أجنبية أخرى. لم يمتلك معظم الأجهزة الأجنبية علاقات ارتباط أو اتصالات مُرمّزة يُركن إليها مع الأجهزة الأخرى في الجانب الآخر من العالم. كما لم تمتلك هذه الأجهزة الأصغر قاعدة البيانات التي يمتلكها مركز مكافحة الإرهاب أو قدرته التحليلية على مقياس عالمي. ومع ازدياد العمليات الإرهابية عالمياً تصاعد معها دور مركز مكافحة الإرهاب وقيمته. ولعب دور العقدة العالمية لجمع المعلومات والتحليل والنشر ورعاية شبكة واسعة من الأجهزة الأجنبية. ودعم هذا الدور الذي لا يُقدّر بثمن شبكات العمل الخفي العالمية التابعة لمركز مكافحة الإرهاب سواء مع الارتباط أو مع المصادر الأحادية.

شكّل تحقيق الحد الأقصى من كل من الارتباط والشبكات الأحادية، ضرورة حاسمة بالطبع مع كل ما تجلبه هذه العمليات المختلفة والمتداخلة أحياناً من مخاطر معقّدة.

تمثّل أحد المظاهر المهمة للعمل الخفي في ملاحقة المشتبهين بالإرهاب واعتقالهم ونقلهم إلى البلدان التي أصدرت مذكرات التوقيف في حقهم. وشرع مركز مكافحة الإرهاب بهذه الممارسة قبل ذلك بسنة. ولو أن بلداً ما أصدر

مذكرة توقيف بحق مشتبه به فيساعد المركز في تقفي آثار الهارب، عاملاً في الغالب مع أجهزة أجنبية أخرى. تنشأ الاستخبارات حول هذه الأهداف أحياناً عن استخبارات الإشارة لكنها أخذت تنشأ أكثر وأكثر من استغلال مركز المكافحة الخاص للإنترنت. وعندما يحدد المركز مكان الهارب، تتصل المحطة بجهاز الحكومة المضيفة وتشرح الموقف: يوجد إرهابي مطلوب في بلدهم وفي إمكان المحطة، بواسطة موارد مركز مكافحة الإرهاب المساعدة، في التعجيل في اعتقاله ونقله إلى البلد الثالث الذي أصدر مذكرة التوقيف. ويتعاون الجهاز المحلي في معظم الحالات لأن آخر ما يبتغيه هو وجود إرهابي على أرضه. ويريد الاستخبارات المتعلقة بالقضية لكن من دون أن يرتبط بمخاطر احتجاز الفار والتحقيق معه، ويرغب في العادة في تفادي الدعاية التي ستخلقها عملية التسليم. أضِفْ إلى ذلك أنه لا يوجد بين معظم البلدان اتفاقات قائمة لتسليم المطلوبين، وإذا وُجِدت فإن هذه البلدان لا تمتلك وسائل تطبيق مثل هذا النقل.

حاز مركز مكافحة الإرهاب على الوسائل والسلطة. ويقوم الجهاز المحلي ببساطة وهدوء بتسليم الفار إلى مركز مكافحة الإرهاب الذي يعمل نيابة عن الحكومة التي أصدرت مذكرة التوقيف. وبهذا يلعب المركز دور الوسيط العملاني والناقل.

ويقوم المحامون التابعون للمركز، بالتنسيق مع وزارة العدل، بتوضيح أي مسائل قانونية، بما في ذلك تلك المتعلقة باحتمال التعذيب الذي تمارسه الدولة المستقبلة. وينسق المركز من خلال المجموعة الأمنية لمكافحة الإرهاب في مجلس الأمن القومي عمليات التسليم مع البيت الأبيض ومع مجتمع الأمن القومي. وقد اعتقل المركز عشرات الإرهابيين وأحالهم أمام العدالة وأوقف هجمات مريعة عبر العالم من خلال برنامج التسليم هذا.

زرع دور الزعامة الذي لعبه المركز في أنحاء العالم كافة بذور الكثير من العلاقات التعاونية المتقاطعة، وجلب أجهزة فرض القانون والجيش والاستخبارات عبر العالم إلى شبكة تعاونية متنامية. وأردتُ المضي بذلك خطوة إضافية.

أدركتُ أن ملاذات العدو الآمنة تقع في العادة على امتداد الحدود الدولية، فتصوّرت أن المزيد من التعاون الإقليمي أساسي لاستراتيجيتنا القاضية باختراق هذه المناطق. وغالباً ما تكرّسُ أجهزة الاستخبارات في أي منطقة محددة المزيد من الموارد لجيرانها أكثر مما تكرّسه للتهديد الإرهابي. وفي وسع مركز مكافحة الإرهاب أن يعطي المزيد من الدفع للتعاون الإقليمي في مكافحة الإرهاب من خلال مؤتمرات إقليمية تشكل الوسيلة لبناء فهم أفضل وثقة بين شركائنا.

انعقد مؤتمرنا الأول في جنوب شرق آسيا حيث ساعدنا شركاءنا المحليين في تعطيل تهديد متنام من حزب الله، كما انتابنا القلق من روابط القاعدة مع فروع لها في الفيليبين وإندونيسيا وماليزيا وسنغافورة. وقد رعى عضو القاعدة خالد شيخ محمد هجمات في مانيلا. وأخذ فرع للقاعدة في إندونيسيا، هو الجماعة الإسلامية، في التنامي. واستخدمت القاعدة ماليزيا ساحة للتجنيد ومكاناً للقاء، ويصح الأمر نفسه بالنسبة إلى بانكوك في تايلندا. وانتابنا القلق حتى في سنغافورة المدينة ـ الدولة ذات الحكم الجيد.

ترأستُ بعثة مركز مكافحة الإرهاب إلى هذا المؤتمر الأول، وقد أتبعها المركز بالمزيد منها في أفريقيا والشرق الأوسط وأميركا اللاتينية. وما من طريقة أفضل للتعلّم أكثر من قضاء يومين مع شركائنا الأجانب في تركيبة متعددة الأطراف نستمع منهم فيها إلى روايات عن نجاحاتهم وإخفاقاتهم. وطوّرنا، بما هو أكثر من المعطيات والمعلومات، شعوراً متفهّما لمهمتهم. تشاركنا الإحباطات والتطلّعات، وسهّلنا التعاون الإقليمي بين حلفائنا.

مؤامرة الألفية

تلقيت في مركز مكافحة الإرهاب جرعة يومية من الاستخبارات وتقارير الأعمال الخفية سهلت لي اتخاذ قراراتي القيادية عن اطلاع ومعرفة، وشكّل ذلك مزيجاً غنياً من التدريب المكثف في مكان العمل ومن القيادة التنفيذية. استمعت إلى

الضباط الموجودين في مقر مركز مكافحة الإرهاب أو في الخارج وتعلّمت منهم، كما تعلّمت من شركائنا في الارتباط الاجنبي. وأخذ ضباط في السي.آي.إيه في مكانٍ ما في العالم، وبإدارة منا، يعملون ليلاً ونهاراً على جمع الاستخبارات وتنفيذ العمليات الخفية ضد الأهداف الإرهابية.

لم يوجد خلال مدة خدمتي في مركز مكافحة الإرهاب مثال أعظم عن نجاح السي.آي.إيه العالمي ضد القاعدة من مثال تعطيل مؤامرة الألفية. خطّطت القاعدة لعمليات متعددة ومتزامنة لقتل آلاف الأشخاص في بلدان عدة عند مقلب القرن الجديد في الأول من كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠. وأوقفناها، بالتعاون مع شركائنا، قبل أن تتمكّن من التنفيذ.

حصلنا في البداية ، في أواخر صيف ١٩٩٩، على معلومات بالقطّارة عن نوايا القاعدة. جمعت فرق التحليل في المركز بالتعاون مع جامعي المعلومات في شتى أنحاء العالم خيوط الضوء هذه وحولتها إلى حزمات ساطعة أنارت أهدافاً في إسرائيل والأردن وأماكن أخرى في الشرق الأوسط. وحصلنا كذلك على تقارير عن ديارنا أبلغناها إلى الأف. بي. آي، وأطلعنا عليها البيت الأبيض.

انتدب مركز مكافحة الإرهاب، بحلول أواخر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٩، عشرات الأشخاص الإضافيين من مختلف أقسام الجهاز الخفي ومديرية المخابرات للمساعدة في تصنيف رزم الورق. أدهشني، وأنا أجول في المكتب الفسيح الذي استحصلنا عليه لخزن كل التقارير الواردة من وكالة الأمن القومي والسي.آي.إيه. ووكالة استخبارات الدفاع وغيرها، وتصنيفها، مدى بدائية ذلك كلّه. فنحن في عصر المعلومات وفي طليعة تكنولوجيا المعلومات، ولدينا أكوام من الورق منشورة على الأرض. جمعنا صناديق من الاستخبارات الخام مع أناس يكدحون منقبين صفحة فصفحة عبر رزم من الورق.

أخبرتُ كوفر وريتش عن حاجة إدارة معلوماتنا إلى الترقية، وإلى إعادة تحويل معلوماتية، لكن الوقت فات على ذلك الآن. فنحن في وسط أزمة داهمة. وجَمَعَ

الفريق وصنّف وحلّل التقارير الواردة، في عملية تحليل وتنسيق شاقة ومركّزة لا تتوقف.

شنّ مركز مكافحة الإرهاب بحلول أواسط كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩، بالتعاون مع الاستخبارات الخارجية وأجهزة الشرطة، غارات منسقة في أكثر من أربعين بلداً في أربع قارات. تردد بعض حلفائنا لكننا دفعناهم ونخزناهم. وسار حلفاء آخرون، مثل الأردنيين، في الطليعة. ولعب المدير تينيت دوراً مهماً واتصل بمختلف نظرائه لتشجيعهم وشكرهم.

خطّطت القاعدة لقتل المئات في خلال الاحتفالات الدينية في الأردن وعند أحد المعابر الحدودية بينه وبين إسرائيل. وتضمّنت الأهداف فندق «راديسون» في عمان وجبل نبو وهو محجّة للمسيحيين على امتداد نهر الأردن حيث تعمّد المسيح. أوقفت السلطات الأردنية الخلية في الثالث عشر من كانون الأول/ديسمبر. وأُدين في النهاية أكثر من عشرين شخصاً من بينهم رائد حجازي الذي عمل سائقاً للتاكسي في بوسطن.

أُصبنا بالإحباط وبما يقارب الذعر على الديار الأميركية. عرفنا من فتات التقارير بما تنويه القاعدة، لكن متى وأين؟ هل تهاجم واشنطن العاصمة؟ المنشآت الحكومية الأميركية؟ مواقع النقل العام؟ المتاجر الكبرى؟ من هم المشاركون؟ كيف نتعرف إليهم؟

كشف ضباط الهجرة والجمارك في ١٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٩، في بورت أنجلس في واشنطن، جزائرياً يدعى أحمد رسّام عبر إلى البلاد من كندا، وعثروا على مئات الأرطال من المواد الكيماوية والمتفجرات مخبأة في ركن إطار السيارة الاحتياطي. كما اكتشفوا أيضاً أربعة أجهزة توقيت صالحة للعمل. تدرّب رسّام، المجرم المطلوب في كندا، في السنة التي سبقت في قواعد للقاعدة في أفغانستان وخطّط لتجهيز قنبلته الضخمة وتفجيرها في مطار لوس أنجلس. وجاء اعتقاله نتيجة يقظة جهاز فرض القانون وليس نتيجة معلومة استخباراتية.

لم نتمكّن، حتى مع حالات الوقف تلك، من معرفة الحجم الكامل لمؤامرات القاعدة. وجَدّت فرقنا في العمل خلال عيدي الميلاد ورأس السنة أربعاً وعشرين ساعة في اليوم.

تنفسنا جميعنا في مركز مكافحة الإرهاب الصعداء في الأول من كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠. لم يحصل أي هجوم على الإطلاق. لم نعرف عدد الهجمات التي تم إحباطها وكم عدد الناس الذين تم إنقاذهم.

لم أعرف إلا بعد فترة طويلة أن القاعدة حاولت مهاجمة السفينة الحربية الأميركية «ذا سوليفان» في مرفأ عدن في اليمن كجزء من مؤامرة الألفية. فقد غرق قاربهم الذي أسرفوا في تحميله في الميناء وهم يقتربون من الهدف المقصود. وعاودت القاعدة بعد ذلك بعشرة أشهر تنظيم صفوفها وهاجمت السفينة الحربية الأميركية «كول» في ميناء عدن.

قمتُ في أعقاب مؤامرة الألفية ولمعرفتي التامة بضعف استخبارات الأف. بي. آي في الديار، بتشجيع تبادل الموظفين بين مركز مكافحة الإرهاب والأف. بي. آي على مستوى العناصر العاملة. ويعني هذا وضع المزيد من عملاء الأف. بي. آي الخاصين في مكتب ريتش ليتمكنوا من مساعدة مكتب التحقيق الفدرالي في فهم تهديدات القاعدة الموجّهة إلى ديارنا. وفي النهاية عمد حتى مكتب الأف. بي. آي نيويورك إلى وضع أحد عملائه الخاصين في مقر ريتش لهذه الغاية بالذات، لسد الثغرة الموجودة بين الوكالات بين ساحات المعركة الخارجية والمحلية.

غريغ

لم يتعلق نجاح السي.آي.إيه في مكافحة الإرهاب بمركز المكافحة لوحده. فقد ساهم مقدار العمل الضخم الذي قام به مئات المحلّلين والمشغّلين وعناصر الدعم في أنحاء الوكالة والحكومة في المهمة. كذلك سدّت مكونات الجهاز

الخفي، مثل الأقسام الجغرافية، حاجات الضباط والقيادة الميدانية. ويصح هذا بنوع خاص بالنسبة إلى قسم النشاطات الخاصة وهو الذراع شبه العسكرية للسي. آي.إيه.

لا يوجد في ذلك المكوّن مثال على القيادة أعظم من مثال غريغ الذي سيلعب دوراً حاسماً في ما بعد ٩/١١. وسأختاره في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١ قائد فريق في عملية انتشار خطرة داخل أراضي الطالبان. وساعد في تجنيد ميليشيا أفغانية ويقودها في معركة مميزة شكّلت واحداً من أهم الانتصارات في الحرب.

لا ينام غريغ على ضيم، وهو الذي ترعرع في العمق الجنوبي وابن لعائلة لها جذور عميقة في التقليد العسكري ومشبّعة بالروح القتالية، وفي ذلك أمر مشترك بيني وبينه. خدم في المارينز ثم انضم إلى قسم النشاطات الخاصة في السي. آي.إيه حيث خدم لعشرين سنة في أفريقيا والبلقان والشرق الأوسط. وهو أفضل ضابط شبه عسكري في السي.آي.إيه.

غالباً ما تناقشت وغريغ في شأن عملياتنا بوصفي نائباً لرئيس مركز مكافحة الإرهاب المسؤول عن جهودنا الدولية ضد المجموعات الإرهابية. وهو يخدم أيضاً في مقر القيادة، كما إنه واحد من قادة قسم النشاطات الخاصة ومسؤول عن القوى الميدانية. واحتاج المركز إلى علاقة عمل وثيقة مع قسم النشاطات الخاصة بسبب العمليات المشتركة الكثيرة ومشاريع التدريب للارتباط الخارجي. غالباً ما زوّد القسم المركز في مهماته بالقوة البشرية الخبيرة ومن ضمن ذلك ما يجري من نشر لفرقنا في أفغانستان. كما زوّد القسم المركز بالأسلحة وبالتكنولوجيا المتخصصة وبمنشآت التدريب وغير ذلك من وسائل الدعم. وقد استمتعت، على أي حال، بتعليقات غريغ الحارقة والواسعة المخيّلة والدنسة والهزلية في الغالب.

هو متوسط القامة، نحيف كالعود، قاسٍ كالفولاذ، ويغيّر موضة شعر ذقنه، كما أنه يمتلك معيناً لا ينضب من الطاقة. وكلّما أراد أن ينفث عن إحباطاته يعمد إلى الركض لأميال بسرعة وحشية ويفضّل القيام بذلك في حرّ منتصف النهار الحارق.

أصيب مرّة بكسرٍ وثني في رجله لكنه رفض التخلي عن الركض. وقد شُفيت بطريقة من الطرق. وأذكر بشكل خاص واحدة من زياراته لمكتبي في مقر القيادة في تلك الأيام التي سبقت ٩/١١.

«مرحباً أيها الرئيس. أمشغول أنت؟» سألني غريغ وهو يمد برأسه عبر فتحة بابي.

«بالتأكيد أنا مشغول. فنحن نطارد أولئك الأوباش في كل مكان. أودّ وحسب لو أمكننا فعل المزيد».

دخل ورمى بنفسه في الكرسي الوحيد الفائض في مكتبي.

طوى كالعادة كميّ قميصه حتى مرفقيه وبدت عضلات ذراعيه أشبه بالأسلاك المجدولة. وعندما يتكلم تشد عظمة فكه القاسية بقوة على بشرته. وقد جلسنا في مكتبي الضيّق الخالي من النوافذ في الطابق السفلي.

كنّا في أواخر كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠ في أعقاب نجاحنا في إحباط مؤامرة الألفية، وقد أشعرنا عملنا بالفخر، ووصفه مستشار الأمن القومي ساندي برغر بأنه يشكل أنجح عملياتنا المناهضة للإرهاب حتى تاريخه وقدّم لنا الشكر. إلا أنه بدا أن الإدارة والجمهور غفلا عن مدى الجهد الذي بذله عدونا وعن اندفاعنا العالمي لإحباط مؤامراته الإرهابية. وأصابنا فشل الإدارة في استيعاب ضخامة التهديد واستمراره بالخيبة.

ارتبك غريغ بنوع خاص من أن الحكومة الأميركية، وبعد برهان آخر على النوايا الشريرة للقاعدة ومداها، تبدو متراخية. وهو، كقاعدة عامة، لا ينظر بعين الرضى إلى صانعي السياسة.

سألني: «ما الذي يفعله هؤلاء الخصيان؟».

أجبت: «يصعب في الحقيقة علينا القتال عندما لا يدرك زعماؤنا وأمتنا أننا في حرب».

«يقتلون أناسنا في نيروبي وفي دار السلام ثم تأتي مؤامرة الألفية هذه وسيعمدون إلى المزيد من القتل، ونحن نكتفي بالجلوس هنا. يا لهذا الأمر الرئاسي الهرائي بالعثور على بن لادن. ماذا بحق اللعنة يعني هذا؟ لا يمكننا قتله إلا إذا حاولنا اعتقاله؟ لكننا لا نستطيع الحصول على الموارد أو على الضوء الأخضر للقيام بهذا بأنفسنا. وهكذا نعتمد على رجال القبائل الأفغان، لكننا نلقي عليهم بكل هذه الحدود القانونية والعملانية. تباً. فمعظمهم لا يمكنهم القراءة. ونحن لا نسيطر عليهم. ولا يستطيع الزبانية حتى في هذا المبنى إدراك الأمر».

«أنا في هذا المبنى».

«أنت وكوفر تستوعبانه، وكذلك المدير. ولست متيقناً كم من الباقين يستوعبونه. لكن ... لا يعني هذا أنك لست من الزبانية».

«شكراً».

«على الرحب والسعة».

«اسمع، سيحين ذلك الوقت. وسيكون بشعاً. وسيطلب منا الفتية الموجودون في وسط المدينة الرد. وسنرد. ستسيل الدماء على الرمال».

سبق لي أن استخدمت هذا التعبير الميلودرامي مع رؤساء الأقسام في السي. آي.إيه في خلال إيجازاتي لهم وأنا أحثهم على الاستعداد. وربما تصوّر كبار موظفي السي.آي.إيه المسؤولون عن أقسام جغرافية هائلة من العالم أنني داعية حرب أو بيروقراطي متلاعب. ربّما ارتابوا بأني أسعى إلى بناء الأساس المنطقي لمزيد من الموارد لمركز مكافحة الإرهاب، ومن السلطات، بحيث نتمكن من القيام بعملنا. ربما كنت كذلك. ومع ذلك فإن بعضاً من قادة السي.آي.إيه العملانيين الحاذقين والخبيرين بأمور الحياة أصرّوا على أن زمرة من اللاعبين من غير الدول المتمركزين في أفغانستان، التي لا تصل الكهرباء فيها إلا لستة بالمئة فقط من السكان، يشكلون تهديداً جدّياً للقوة العظمى الوحيدة في العالم. نحن

في حرب لكننا، في معظم الحالات، لم ندرك ذلك. لم يسبق لنا قط أن واجهنا مثل هذا الأمر. وهو ببساطة مختلف كلّياً، وغريب جداً على المنظومة لتدركه، فضلاً عن التحرك حياله بطريقة ذات مغزى.

وقلت مزمجراً: «انظر، أنت تعرف هذا أكثر من أي شخص آخر. لا توجد إلا مجموعة من الضباط المستعدين لمحاربة القاعدة. ستُلقى المهمة على كاهلنا. لا يوجد أحد غيرنا. لكن ذلك سيكون صعباً. البعض لا يستوعبون الأمر وحسب. بربّك، إن نائب مدير العمليات يريد وقف التدريب شبه العسكري للضباط الجدد بحجة أن لا حاجة لذلك».

تمتم غريغ: «نعم، سمعت هذا. ثم هناك الدفاع. مخنثو البنتاغون، معظمهم».

أضفت بعد صمت، «لا يسعنا أن نهلك أنفسنا في هذا. فنحن أمة عظيمة، ولدينا في الخدمة رجال عظماء ونساء. سنحظى بفرصتنا. علينا أن نستعد ونُطلع الآخرين ونشجعهم، ولا يمكننا القيام بما هو أكثر. لا يمكننا تخصيص الموارد، ونحن لا نضع السياسة».

كاد يتنهّد، ثم تململ لبضع ثوانٍ انتفض بعدها من كرسيه.

«أنا ذاهب للركض»، قال، وتوجّه صوب الباب.

مسعود

أكدت مؤامرة الألفية على أهمية فهم خطط القاعدة ونواياها وأن يشكل ذلك أولوية في جمع الاستخبارات. ويعني هذا اختراق ملاذها الآمن الأساسي في أفغانستان.

قام مركز مكافحة الإرهاب بعدة عمليات ذات نتيجة حول أفغانستان وفي داخلها. وتضمنت هذه العمليات، الاستخبارات الإنسانية منها والتقنية، كلاً من شبكات المتعاملين الأحادية وأجهزة الارتباط الخارجية. احتجتُ إلى زيارة

المنطقة ولقاء ضباطنا وشركائنا في الارتباط وحليفنا وزعيم الجبهة الموحدة أحمد شاه مسعود. وقد سبق أن أرسلنا في الأشهر الستة السابقة فرقاً إلى أفغانستان لمساندة مسعود والعاملين معه، وها نحن نخطّط لتوسيع هذا التعاون.

سافرت في أوائل عام ٢٠٠٠ مع مايك، الذي يتولى المركز الثاني في قيادة قسم آسيا الوسطى، إلى آسيا الوسطى. التقينا بأجهزة الارتباط وراجعنا معهم برامجنا المشتركة لمكافحة الإرهاب. استطلعنا على مدى يومين الحدود مع أفغانستان واجتمعنا مع المسؤولين الأمنيين المحليين. سرتُ على امتداد نهر أمو داريا وحدّقت النظر إلى الملاذ الأفغاني الآمن للإرهابيين على بعد بضعة أمتار مني فقط. وأردت يائساً إقامة وجود دائم للسي.آي.إيه هناك وعرفت أن الخيار الأفضل لتحقيق ذلك الهدف هو مع الجبهة الموحدة، مع مسعود. احتجنا، مايك وأنا، إلى التقاء مسعود.

قاد ضابط السي.آي.إيه المحلي، وهو وغد ثرثار لا مكان له في الجهاز الخفي، الآلية التي أقلتنا ساعات طويلة برّاً. وسائقنا متهوّر وراء المقود تهوّره في عملياته، مثير للسخط الشديد ويتفوّه بسيل من التفاهات ساعةً بعد ساعة. فكّرت عند حدّ ما بالتخلي عنه في بقعة مهجورة من الطريق، فتدخل مايك بلطف وهو الذي لا يهتز بسهولة. قلت إن أقل ما يتوجّب عليه فعله هو طرد الضابط، فأجابني أن علينا أولاً إنجاز المهمة.

اجتزنا أحد الحدود من دون مشاكل وصعدنا إلى متن طائرة «ياك-٤٠» قديمة عبرت بنا جبال بامير ونقلتنا إلى دوشنبي في طاجكستان. وهي مدينة كَمِدَة وقذرة محاطة بالجبال الرائعة المتشحة بالثلوج المتلألئة. وتشكّل مركزاً مهماً لعبور الجبهة الموحدة ومركز مكافحة الإرهاب إلى أفغانستان.

انتظرنا مسعود في واحد من مراكزه الآمنة. وأبلغتُ مايك أن ما من أحد غيرنا، هو وأنا، سيشارك في الاجتماع.

مسعود مقاتل أفغاني شجاع، مقدام ويتميّز أحياناً بعدم الشفقة. حال طيلة عقود دون دخول السوفيات إلى وادي بنجشير، ومنحته مآثره البطولية لقب «أسد بنجشير». وقد شكّل جزءاً من الحكومة الأفغانية المفكّكة التي تسلمت السلطة بعد انسحاب السوفيات. وسرعان ما تداعت هذه الحكومة وأعقب ذلك حرب أهلية أدت إلى بروز الطالبان، فانكفأ مسعود إلى دياره في وادي بنجشير حيث سعى إلى قيادة المقاومة الأفغانية ضد الطالبان. وسيكون هذا أول لقاء لي معه والأخير، وهو ما جهلته في ذلك الوقت.

انسلت سيارتنا العادية عبر شارع ضيّق تصطف على جانبيه الأشجار إلى ممر عادي خرج منه حراس مسلحون من الخفاء وفتحوا أبوابها. ولجت ومايك إلى المنزل المتواضع عبر المدخل الخلفي حيث كان الجو في الداخل داكناً ودافئاً. سرنا إلى غرفة صغيرة حيث تشتعل كومة قليلة من الحطب في الموقد. وعبقت من حولنا رائحة طيبة بعض الشيء ومدخنة. امتلأت طاولة منخفضة بأوعية خشبية مسطّحة تحتوي على الفاكهة المجفّفة والمكسرات، وبخاصة اللوز، إضافة إلى إبريق للشاي وكومة من فناجين السيراميك الصغيرة.

استقبَلَنا مسعود، الطويل القامة والقوي، ذو الأنف المخدّد البارز وعظمتي الوجنتين المرتفعتين، بابتسامة حارة وهزّة رأس خفيفة. لم تكن مصافحته صلبة ولا لينة، وتحرّك ببطء وحذر وسهولة. كذلك استقبلنا عبدالله عبدالله الذي يعمل وزير خارجية الأمر الواقع للجبهة الموحدة، ومثله أمر الله الذي أدّى دور المترجم. تحدّث مسعود اللغة الطاجكية مع بعض الفرنسية المحدودة.

نقلنا إليه، مايك وأنا، احترامات المدير تينيت. وسأل مسعود عن ريتش، وتبادلنا بعض المزاح.

انخرطنا من ثمّ في نقاش طويل حول الطالبان والديناميات الأفغانية القبلية، والفجوات الاستخباراتية لدى السي.آي.إيه والحاجات التقنية والدسائس

والتخريب والسياسة. تميّز مسعود بأنه مراقب ثاقب النظر للأنظمة السياسية وطرَح أسئلة ممتازة حول السياسة الخارجية الأميركية. سألتُ عن إيران وباكستان وأوزبكستان. وأردتُ أكثر من أي شيء آخر معرفة خطط القاعدة ونواياها. أين ومتى وكيف ستهاجم الولايات المتحدة مصالحنا؟ وكيف يمكننا وقفها؟

تحادثنا نحو ساعتين ونحن نرتشف الشاي ونقضم اللوز جالسين قبالة النار الدافئة، فيما يتساقط في الخارج رذاذ المطر البارد. سألني مسعود، قرابة انتهاء اجتماعنا إذا كان بوسعه، أن يطرح عليّ سؤالاً إضافياً واحداً. طرح، بتهذيب ولطف بالطريقة والنبرة، سؤالاً قاسياً وحاداً بالمحتوى.

«هل تهتم الحكومة الأميركية بقطع دابر القاعدة وقتل بن لادن أكثر من اهتمامها بشعب أفغانستان؟»

حدقت إليه وأجبت بوضوح: «القاعدة».

الجواب بديهي، فمهمة السي.آي.إيه واحدة كما صدرت التوجيهات بذلك من البيت الأبيض. ولا نقاش حول المساعدة الإنسانية أو مستقبل أفغانستان. ولا استطلاع عبر العمل الخفي للتعامل مع مسائل عملانية أوسع، أو مع السياسة الخارجية. سبق لمسعود أن أدرك هذا بالفعل. وإنما أراد اختباري لتحديد هل أمتلكُ نباهة قول الحقيقة. كما أراد، على غرار القادة الجيدين، تلقيني أمثولة مفادها أن علينا القيام بالأمرين؛ علينا الاشتباك مع العدو اللدود بتصميم لا يلين وعزم قاتل، وعلينا في الوقت نفسه فهم الشعب وكسبه إلى جانب قضيتنا. ولا يشكّل هذا اهتماماً إنسانياً مبرراً فحسب، بل أيضاً أولوية سياسية لأي انتصار مستمر.

سأذكر دوماً ردّه على جوابي. هزّ رأسه ببطء وابتسم ابتسامة غطت بالحزن وجهه النحيل المخطّط.

بعد ذلك بنحو ١٨ شهراً، وقبل يومين فقط على ٩/١١، اغتال عناصر من القاعدة مسعود بعدما تنكّروا في زي صحافيين. وقد فجّروا قنبلة مخفية في داخل

كاميرا الفيديو. عرف العدو قيمة مسعود بالنسبة إلينا وأراده ميتاً، وأراد أيضاً أن يصبح حلفاؤنا الأفغان بلا قائد تماماً قبل قيامه بمهاجمة الديار الأميركية.

بيد أن العدو استخفّ كثيراً بأمثولات مسعود المستمرة وبإرثه وشراكتنا.

«البريداتور»

حصلتُ، بالرغم من شكوانا من عدم ردّ حكومتنا الأميركية على القاعدة، مبادرة جديدة مهمة دفعت إليها حاجات صانعي السياسة. أرادت الإدارة معلومات يمكن إثباتها عن وجود أسامة بن لادن في موقع ثابت. وقدّم مركز مكافحة الإرهاب على مر السنين أخباراً دقيقة عدة مصدرها الاستخبارات البشرية عن مكان وجود بن لادن وفّرت المبرر الكافي لعمل قاتل، أو أقله هذا ما اعتقدناه. إلا أن صانعي السياسة شكّكوا في شبكة استخباراتنا البشرية. أرادوا المزيد. أرادوا عيوناً أميركية على الهدف.

أصدر مجلس الأمن القومي في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠ مذكرة تضمّنت تعليمات للسي.آي.إيه بإيجاد وسيلة لتحديد مكان بن لادن وتعيينه وتوثيقه، وستهدف هذه الاستخبارات إلى دعم الضربة العسكرية القاتلة. بدا أن الحل التقني يشكل الوسيلة الوحيدة إذ إن وزارة الدفاع رفضت إرسال جنودها إلى الميدان لأن ذلك سيتطلب عملية بحث وإنقاذ تستدعي رتلاً لوجستياً يتطلب موافقة دبلوماسية ومساندة عملانية من البلدان المجاورة. حاججتُ بأن مركز مكافحة الإرهاب أرسل فرقنا إلى أفغانستان من دون عملية بحث وإنقاذ، وهو ما يمكن بالتالي للجيش القيام به. غير أن رأيي هذا اصطدم بجدار من الآجر العسكري يُعرف بالعقيدة. وأدركت أن العقيدة وموقف الوضع القائم في زمن السلم يوفران للجيش ذريعة سهلة لعدم الدخول في عملية تستدعي الكثير من المخاطرة.

ثم حاججت بأنه يمكننا إقامة قاعدة داخل أفغانستان، في وادي بنجشير،

كمنطلق لإرسال عملائنا في السي.آي.إيه في عمليات استطلاع في العمق بالتوافق مع حلفائنا الأفغان. لكن قادة السي.آي.إيه هم الذين رفضوا هذه المرة هذا المفهوم وقد رأوا أن مثل هذه العملية خطرة جداً ومكلفة جداً.

وأصبح لزاماً علينا استنباط وسيلة أخرى.

اختار مجلس الأمن القومي في مذكرته السي.آي.إيه وبالتحديد مركز مكافحة الإرهاب لأن الاستخبارات ستقود هذه المهمة. أدرك المركز التحدي، أضِفْ إلى ذلك أنه امتلك القدرة على النفاذ والمهارات والسلطة التي توسّعت الآن بفضل المذكرة. وامتلك المركز الفريق العملاني الوحيد المتكرّس بدوام كامل لتعطيل خطط القاعدة. بل إنه في الواقع الكيان الوحيد في كامل الحكومة الأميركية الذي يعمل حصرياً على بن لادن والقاعدة. هذا هو متجر ريتش.

أقمنا، ريتش وأنا، علاقة عمل جيدة. وقد اشتكى دوماً من النقص في الموارد. وطالبته دوماً بأن يصنع المزيد بما هو متوفر لديه في ما يشبه المهمة المستحيلة. وقرّبنا من بعضنا أكثر تكرُّسنا المتبادل لمهمة مركز مكافحة الإرهاب والضغط المتزايد.

ريتش لا يتعب، وهو صادق وذكي ويزداد فطنة كل الوقت وهو يحوّل الفريق القوي إلى فريق أقوى. استجاب مرؤوسوه جيداً لقيادته لكنه أراد المزيد، وقد شجع وجنّد العنيدين والمتمردين والمفكرين الشغوفين الغريبي الأطوار الذين غالباً ما يرفضهم الآخرون بوصفهم يثيرون الكثير من المشاكل. ولم يكتفوا باللحاق به بل تحدوه للقيام بالأفضل. دفعوا به، ساءلوه، وجاهروا بشكل بنّاء ومن دون خوف بمعارضتهم كلما تطلب الأمر ذلك. وهو فعل الأمر نفسه معي، وتلك علامة ذروة المرؤوسين الذين يجعلون من رؤسائهم قادة أفضل.

سيبلغ إعجابي بريتش، في الأشهر التالية، مستويات جديدة بعدما بنى من لا شيء نظام استطلاع سيشكّل ثورة في جمعنا الاستخبارات، وسيشكل في مآل الأمر تحولاً في الأعمال الحربية.

عمل ريتش على معالجة التحديات التقنية وتلك الناشئة في ما بين الوكالات التي طرحتها مذكرة مجلس الأمن القومي، فلجأ أولاً إلى ضابط شاب ذي قدرات فريدة. كان أليك أخصائياً في استخبارات البنتاغون مفصولاً إلى فريق ريتش. تطوّع في الجيش واستحق الترقية إلى ضابط صف وخدم في كوريا. واستخدمته بعد ذلك وكالة استخبارات الدفاع كمحلّل يعمل على الأهداف الإرهابية. شكل رؤساء استخبارات البنتاغون وأركان العمليات بعد تفجير برجي الخبر في ١٩٩٦ خلية استهداف مشتركة، وعمل أليك في هذه الخلية. اتصلت خلية الاستهداف هذه، بعد تفجيري ١٩٩٨ في شرق أفريقيا، بمركز مكافحة الإرهاب. وأرادت وزارة الدفاع ارتباطاً أقوى ونسيجاً استخباراتياً أكثر دقة. طرحت أليك بوصفه الرابط مع المركز، وجاء تماماً بعد وصولنا، ريتش وأنا، في آب/أغسطس ١٩٩٩.

طالبت مذكّرة كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠ بإيجاد حل في غضون تسعة أشهر. بحث ريتش وألك، والمذكرة في أيديهما، عن الجواب. أجريا تجارب على الأجهزة البصرية الثابتة البعيدة المدى وغير ذلك من المجسّات الأرضية. فكّرا في استخدام المناطيد لكن الخبراء أبلغوهما أن الرياح السائدة ستحملها إلى الصين، وهذا ليس بالأمر الجيد. واستكشفا في النهاية الطائرات التي تطير من دون طيار واتفقا على أنها قد تنجح.

دعمت مجموعة قوية بشكل منقطع النظير من المسؤولين العاقدي النية هذه المبادرة وحرّكوها على المستوى السياسي. وتولّى ريتشارد كلارك، الذي أصدر مكتبه في مجلس الأمن القومي المذكرة، دوراً قيادياً حاسماً. ولعب المدير المساعد المسؤول عن جمع الاستخبارات في الوكالة المركزية تشارلي ألن والأميرال سكوت فراي من أركان عمليات البنتاغون دوراً أساسياً في هذا الجهد. ضافرا الجهود مع كلارك لدفع البيروقراطية الممانعة وحتى المتشكّكة بين الوكالات، ومن بينهم الكثيرون في وزارة الدفاع، وبخاصة في سلاح الجو، ممن كرهوا أي هيكل طائرة يحلّق من دون طيار. وفي السي.آي.إيه تفهّم المدير تينيت

الحاجة لكنه لم يكن متيقناً من المخاطر ومن العملية. وقطب بافيت حاجبيه حيال الجهد كله. بيد أنني وكوفر، وكلانا من المتشكّكين تقنياً، تصوّرنا أنه يجب أن نجرّب. علينا القيام بأمر ما، فمؤامرة الألفية شكّلت كارثة أمكن إجهاضها، وستشن القاعدة هجمات أخرى. وخصّص كوفر خمسة ملايين دولار من موازنته لبرنامج الطائرة من دون طيار. وشكّلت تلك قضمة كبيرة مما يحق له إنفاقه تقديرياً.

على الصعيد الداخلي، خلق البحث عن الطائرة المناسبة، التي تعمل من دون طيار، مشكلة مع قسم النشاطات الخاصة الذي امتلك طائرة مماثلة تأديتها محدودة من دون رابط تحكّم بواسطة الأقمار الصناعية. أراد رئيس القسم حماية برنامجه الخاص بهذه الطائرة ورفض البحث عن طائر آخر. وهكذا مضى ريتش وأليك إلى سلاح الجو وعثرا على «البريداتور»، وقد أدت هذه الطائرة عملها في البلقان وبالتالي أمكن التثبت من التكنولوجيا. طار ريتش وأليك إلى إحدى قواعد سلاح الجو لتفقد الطائرة التي تجمّع عليها الغبار في إحدى الحظائر.

«البريداتور» آلة بسيطة أشبه بطائرة شراعية بمحركي زحافتين ثلجيتين يديران مروحة وحيدة. بلغ طول الجناحين ٥٥ قدماً وطولها ٢٧ قدماً وحمولتها ٤٥٠ رطلاً. وهي تطير على ارتفاع أقصى يبلغ ٢٥ ألف قدم بسرعة قصوى تصل إلى ١٣٨ ميلاً في الساعة مع فترة بقاء قصوى في الجو تبلغ أربعين ساعة. تطابقت هذه القدرات كلها مع احتياجاتنا وبخاصة القدرة على التحكّم لساعات على ارتفاع يصعب رصده. وربما كانت بساطتها هي التي تجعلها مأمونة وقوية.

اتّسمت القاعدة نفسها بالبساطة لكن منظومة التحليق بلا طيار معقّدة كلّها. فرابط القيادة/السيطرة يتم عبر القمر الصناعي، وقد سيطرت مسائل استخدام عرض الموجة وسعتها على النقاشات الأولى والعمليات. ولم تكن اللوجستية والمتطلبات الأمنية صغيرة على عكس فريق إطلاق الطائرة واستعادتها إلى الأرض. وسيطرح نشر المنظومة تحديات فريدة للوضع القائم بالنسبة إلى المجال الجوي الدولي والعلاقات الثنائية والمسائل الأساسية المتعلقة بالسيادة الوطنية.

وستثير المنظومة أسئلة تتعلق بطبيعة الحرب نفسها مع التركيب المحتمل لصواريخ «هلفاير» على الطائرة.

احتاج فريق ريتش إلى دمج الطائرة التي تطير بلا طيار في منظومة الطيران ومن ثم إلى دمج المنظومة في المهمة المعقدة القاضية بجمع المعلومات من كل المصادر. احتجنا، بداية، إلى معرفة المكان الذي سننشئ فيه قاعدة لـ «بريداتور»، ومن ثم معرفة المكان الذي سنستخدمها فيه. وفّرت لنا الوسائل البصرية صورة واضحة ومقرّبة من ارتفاعات شاهقة، غير أن مجال الرؤية بقي ضيّقاً. وبدا الأمر أشبه بالنظر إلى الأرض من خلال قشة مشروب الصودا. وسيتوجّب على الاستخبارات من كل المصادر أن تبلغنا بالمكان الذي سنستخدم فيه «البريداتور» وبكيفية توجيهها.

عمل ريتش وفريقه في العام ٢٠٠٠ بلا كلل لبناء منظومة جمع المعلومات هذه. وأرسلوا كل استخبارات السي.آي.إيه البشرية، من كل من مصادرنا الأحادية ومن أجهزة الارتباط، عن زعماء القاعدة في أفغانستان، إلى فريق «البريداتور». وتمت هذه العملية بشكل مباشر نظراً إلى أن ريتش مسؤول عن مهمة جمع المعلومات تلك في مركز مكافحة الإرهاب، ثم ضخ استخبارات الإشارة ذات العلاقة إلى الفريق. وقد سهّل ذلك، إلى حد كبير، ضابط من وكالة الأمن القومي أُعطي على سبيل الإعارة إلى مركز مكافحة الإرهاب، وهو يشرف على مكتب الاستطلاع الوطني لصور الأقمار الاصطناعية. واستخدم المدير المساعد للسي. آي.إيه تشارلز ألن صدقيته الكبيرة وقدرته في مجتمع الاستخبارات لمساعدتنا في كل مرة احتجنا فيها إلى المساعدة. أدرك التهديد ولم يتوانَ عن الدفع بأجندتنا إلى الأمام.

أقام فريق الطائرة بلا طيار التابع لريتش مركزاً للقيادة مع شاشات فيديو عريضة وُضعت في مكان مرتفع على الجدار مع أكوام من محطات الكمبيوتر في صف طويل في وسط الغرفة وبجانب الجدران. وطنّ المكان بالإلكترونات

وبالنشاط الدماغي الخام، وصبّت استخبارات كل المصادر من كل أنحاء العالم في محطات الحواسيب، وشرع فريق ريتش في بناء منظومة الطيران بلا طيار. وسنصبح في وقت قريب على أهبّة الاستعداد لتشرع «البريداتور» في رسم خريطة الأهداف في أفغانستان.

حصلنا على هيكل الطائرة بسهولة نسبية، لأن ما من أحد أرادها. وشكّل تصوّر كيفية بناء وإدارة فريق من مختلف الوكالات للتحليق بالـ «بريداتور» فوق أفغانستان تحدّياً تقنياً وعملانياً وقيادياً ضخماً. قام كلارك وألن وفراي وكوفر بالدفع من القمة. وبالمقارنة مع التنمّر الطنّان لكلارك أدّى نائبه روجر كريسي دوراً مفيداً كمسهّل هادئ للأمور. وفي غضون ذلك، اتصل ريتش وأليك بحلفاء ممن لهم رأي مشابه، في سلّم الرواتب ما تحت الأرفع، ومن مستويات المقدّمين في مختلف أنحاء مجتمع الأمن القومي.

صحيح أن جوهر المهمة والقيادة وقعا على عاتق مركز مكافحة الإرهاب، إلا أن أكثر من دزينة من الوكالات الحكومية أدّت أدواراً أساسية مشكّلة فريق مهمات متخصصاً. ومن اللافت أن ريتش وأليك تدبّرا القيام بهذا من دون مذكرات اتفاق إلا مع سلاح الجو. وصمّما شبكة تحظى بالثقة تتحرّك عبر مؤسسة الاستخبارات والأمن الأميركية. وفّرت الأركان المشتركة الدعم السياسي والتواصل من خلال وزارة الدفاع، وامتلك سلاح الجو التكنولوجيا، وساهمت وكالة استخبارات الدفاع بتوفير المحللين، وساعدت الوكالة الوطنية للتصوير والمساحة بالتحليل الجغرافي المكاني والاستثمار، وقدّمت القيادة المركزية ضابط ارتباط للتنسيق، ووفّرت الوكالات المختلفة مديرين للعمليات، واستجدى مركز مكافحة الإرهاب مديرين لجمع المعلومات من كل أقسام السي.آي.إيه.

شكّلت سعة حزمة القمر الصناعي مسألة معقّدة، فهي نادرة ومرتفعة الثمن وأساسية. بدا أولاً أننا، كوفر وأنا، نصرف وقتاً على هذا الموضوع أكثر من أي موضوع آخر. وتوجّب علينا أيضاً ضمان القاعدة وصيانتها في أوزبكستان. وقاد

ريتش وأليك في غضون ذلك الفريق المنوّع المجموع من كل الوكالات بمن فيهم المتعاقدون.

طوّرنا شبكة ديناميكية في أنحاء أفغانستان وبالتالي باتت استخباراتنا البشرية، تكملها استخبارات الإشارة والاستخبارات المستندة إلى الصور، جيّدة جداً. عرفنا العدو، وعرفنا أين نبحث وأين نرسل «البريداتور». وهذا أمر حاسم بسبب مجال الرؤية الضيق للكاميرا. وجاء تكبير الصور رائعاً. وتمكن محلّلو الوكالة الوطنية للتصوير والمساحة من التعرف على ماركة وطراز الآليات وقياس طول الأشخاص. كانت الصورة واضحة وثابتة. واستجابت العدسات للأوامر فكانت تدور أو تقرّب بحسب التوجيهات. امتلكت الطائرة في معظم الوقت ما يكفي من الهدوء وصغر الحجم والتحليق على مثل هذه الارتفاعات الشاهقة بحيث لا يستطيع الناس على الأرض تمييز حصول أي تطفّل إلا في ظروف استثنائية.

عملت «البريداتور» في غضون أسابيع بما فاق توقعاتنا. وسرعان ما جمعنا ساعات من معطيات الفيديو عن المواقع المستهدفة وأنماط تحرك العدو في داخل أفغانستان. طحنّا تقارير كل المصادر لتصفية كل نقاط جمع المعلومات. وزوّدتْ كل المصادر، وبخاصة الاستخبارات البشرية، محرّكي «البريداتور» بالمعلومات. وساعدت «البريداتور» بدورها في التحقّق من متطلبات المصادر الأخرى بما فيها المصادر البشرية وفي تحسينها.

أثبت هذا التعاون نفسه في أحد أيام الصيف الصافية فوق مزارع ترناك بالقرب من قندهار.

تجمّعنا كلنا حول فريق «البريداتور» التابع لريتش نشاهد بث الفيديو المباشر على الشاشة الكبيرة. سبق لمصادرنا الاستخباراتية البشرية أن أفادت بأن بن لادن سيوجد في الموقع في ذلك الإطار الزمني. أردنا نشر فريق العمل الخفي المحلّي التابع لنا لاعتراض بن لادن وأسره أو قتله، لكن الشكوك القانونية والعملانية استمرّت ولم نتمكّن من ضمان الموافقة من قيادتنا. لكننا

امتلكنا هذه المرة «البريداتور» التي تحلّق دائرياً فوق الموقع والفيديو الذي تبثه يتدفّق إلى شاشاتنا.

عرفنا أنها منشأة تابعة للقاعدة، وانتابنا الأمل الكبير مع اقتراب قافلة صغيرة من الشاحنات من المجمع، وقفز في وجهنا توقيع مفرزتنا الأمنية. توقفت الآلية الرئيسية وخرج منها رجل طويل القامة يرتدي الأبيض. إنه أسامة بن لادن. راقبناه وهو يسير إلى فناء المجمع الكبير. وتدافع عدد من المتوسّلين للترحيب به. انتبه إليهم لبرهة وجيزة لكنه تابع سيره. كانت السماء صافية والصورة ممتازة، وغاب أي وجود لنساء أو اطفال. إنه في متناول يدنا.

قال أحدهم: «يا أم الله القديسة».

«ليس بعد»، أجاب آخر.

وصاح ثالث: «هذا هو. إنه أسامة بن لادن».

بقي في إطار الصورة لعدة ثوان طويلة قبل أن يدخل إلى المبنى الداخلي ذي الجدران السميكة.

اندفع المحلّلون لتنبيه البيت الأبيض ووزارة الدفاع. ستستغرق صواريخ «كروز» المنطلقة من سفن البحرية الأميركية في المحيط الهندي ست ساعات لبلوغ الهدف.

قرر البيت الأبيض أن هذه فترة طويلة جداً. وطلب معرفة هل سيبقى بن لادن في المكان لست ساعات أخرى أو أكثر. لم نكن نعرف. وهذا غير مرضٍ. وبالتالي لا صواريخ «كروز».

لم نستطع التصديق.

أوجز كوفر وريتش الأمر للبيت الابيض. وانزعج كلارك وألن بقدر انزعاجنا، ولكن ما من تغير في توقعات البيت الأبيض. على مركز مكافحة الإرهاب توقّع مكان بن لادن في المستقبل، أو إيجاد طريقة للاشتباك مع الهدف في غضون ثوانٍ لا ساعات.

التقطنا بن لادن بأنظارنا الكهرو-بصرية، لكننا لم نمتلك سياسة واقعية ولا سلطة واضحة ولا موارد مهمة للاشتباك مع الهدف بسرعة ودقة قاتلتين. وهذا كله عبثي بشكل محزن.

كدّ ريتش وفريقه، في عامي ١٩٩٩ - ٢٠٠٠، لإنتاج استخبارات دقيقة ومثبتة عن موقع كبار أهداف القاعدة في أفغانستان بحيث يمكن لصانعي السياسة إعطاؤنا الضوء الأخضر لقتلهم. واستمرت شبكة استخباراتنا البشرية المتوسعة في إنتاج استخبارات جيدة داخل أفغانستان بما في ذلك تبصّر متقطع ولكن دقيق عن موقع بن لادن. توفر نصف دزينة من الفرص لتعيينه بدقة، ولكن لم يتوفّر إثبات مطلق. فاستخباراتنا جاءت من مصادر محلية شكّك البيت الأبيض في صدقيتها، وأدت محاولة وحيدة فاترة قام بها حلفاؤنا المحليون لنصب كمين لبن لادن إلى جدل أكثر مما أدت إلى التشجيع. أرادت قيادتنا في السي.آي.إيه والبيت الأبيض المزيد من الوضوح والتأكيد وضبط الجودة وقلّة المخاطر. والآن وبرغم مثل هذا الوضوح لا تزال إدارة كلينتون لا تقوم بأي عمل. أخذتُ أدرك أن المخاطر تدور حول السياسة أكثر منها حول العمليات.

يمكن للعمل الخفي القاتل، كما يشهد التاريخ على ذلك، أن يجرّ إلى عواقب سياسية بشعة. وأنا أفهم ذلك، لكن يبدو أن هذا التهديد يتجاوز بكثير المخاطر التي ركبناها. وتسبّب بإحباطنا أن أمر البحث الذي أصدره الرئيس للعمل الخفي تضمن تحذيرات كثيرة، مثل أنه يمكننا فقط السعي إلى قتل بن لادن إذا شكّل ذلك جزءاً من عملية الاعتقال. بيد أنه لا توجد مشكلة ظاهرة في قتله بصاروخ «كروز»، وهذا سخيف. فقد أعلن بن لادن الحرب على الولايات المتحدة قولاً وفعلاً. دمّر في آب/أغسطس ١٩٩٨ جزئياً سفارتينا في نيروبي ودار السلام مستخدماً شاحنتين مفخّختين. وهاجم السفينة الحربية «كول» في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠. وخطّط لقتل الآلاف عند مقلب القرن لكن أحبطه مركز مكافحة الإرهاب العامل مع عشرات محطات السي.آي.إيه وشركائنا في أجهزة الاستخبارات الأجنبية. دعم بن لادن مجموعات تنتسب إليه ولديها كلها النوايا الإرهابية والإمكانات. فكم عليه أن يقتل من الناس بعد لنقدّر التهديد؟

تساءلت هل إن الرئيس كلينتون ومستشاريه ينظرون إلى الأمر بسذاجة على أنه مسألة فرض قانون أكثر منه حرب. وتساءلت عن مقدار ما صُمم من لغة مُغْربة في أمر البحث لحماية سمعتهم السياسية بدلاً من حماية الأمة. لم يمتلكني شعور بهذه الدينامية بالنظر إلى عدم خبرتي بواشنطن العاصمة. وقد أبلغني كوفر تكراراً أنه سيهتم بالسياسة فيما عليّ الاهتمام بالعمليات. انصعت لأوامره لكنني بقيت مع ذلك على حيرتي من سباق السياسة الاستراتيجية ومُحبطاً مما ينتج عن ذلك من قيود عملانية. وتملّك ريتش وفريقه، لتركيزهما حصرياً على القاعدة، إحباط أكبر. وشدّد ريتش بشكل شبه يومي على أننا نحتاج إلى القيام بالمزيد.

تحدّثت من جديد مع كوفر عن إرسال فرق العمليات الخاصة الأميركية وكوماندوس السي.آي.إيه إلى عمق أفغانستان للتعامل مع القاعدة. وسيتيح لنا ذلك جمع استخبارات أكثر دقة وإثباتاً واستدامة، وسيعطينا مثل هذا الانتشار بالطبع وسائل العمل مع شركائنا الأفغان لاستهداف أسامة بن لادن بالقوة القاتلة. ويمكن بسهولة توسيع مثل هذه الانتشارات، وهي في الأساس مهمات جمع معلومات استخبارية، وتعزيزها لاشتباك مباشر بين الكوماندوس الأميركيين والعدو. وجادلت بأنه يمكننا الآن تبرير هذا لأن لدينا «البريداتور» والقاعدة الاستخباراتية لدعم المهمة على الأرض.

شرح لي كوفر، بمزيج من السخط والرويّة، أن هذا لن يحصل لغياب الإرادة السياسية الكافية. فالمخاطر مرتفعة جداً من وجهة النظر السياسية العامة. تخيّل مثل هذه العناوين تصدر ما قبل ٩/١١: السي.آي.إيه تغتال مجاهداً سعودياً في أفغانستان. وأخذتُ أدرك ببطء أنه لا توجد ضمانة بضربة قاتلة حتى ولو امتلكنا استخبارات يمكن إثباتها ودقيقة للغاية تتعلّق بموقع بن لادن.

أدركت أن تسليح «البريداتور» ربما يشكّل فرصتنا الوحيدة لإنجاز مهمتنا القاتلة. وقد دفع كلارك وألن وكوفر من أجل هذا بقوة.

تميّزت المعركة البيروقراطية بالرداءة. قاوم الكثيرون فكرة امتلاك السي.آي.إيه

مثل هذه المقدرة القاتلة والسلطة، وعارض بافيت ذلك بعناد اعتقاداً منه أن الخطر السياسي على السي.آي.إيه يفوق المكاسب بكثير. ووجد الكثيرون في الجيش في الأمر تعدياً من السي.آي.إيه على مضمارهم. وتصارع المحامون من البيت الأبيض ووزارة العدل ووزارة الدفاع والسي.آي.إيه حول الكثير من المسائل.

كانت الغلبة في النهاية لكلارك وتينيت وألن وبلاك. وتفرجنا، ريتش وأنا، من موقع مراقبتنا العملاني وشهدنا مباشرة العمل السياسي الخفي في واشنطن. تعلّق الأمر بالمال والسلطة والقوة، كما تعلّق بالمخاطرة: من سيركبها ومن لن يفعل.

واتُّخذ القرار في النهاية، وسنسلّح «البريداتور».

باتت الآن مهمة ريتش وأليك وفريقهما تطوير أداة الحرب الجديدة هذه. فأي نوع من الأسلحة يمكن تحميله على «البريداتور»؟ ما الذي يمكن إطلاقه بدقة؟ كيف يمكننا جمع المجس مع جهاز الإطلاق في منظومة واحدة؟ كيف يمكننا الدمج بين الاستخبارات والحرب؟

جادل أليك من أجل قنبلة تعادل صاروخ «كروز» بالطاقة الحركية لتدمير محاور القيادة والسيطرة والاتصالات التابعة للقاعدة التي حدّدها مركز مكافحة الإرهاب. لكن ذلك غير ممكن تقنياً. هذا بالإضافة إلى أن سلاح الجو لا يمتلك منظومة أسلحة تلبي متطلبات مركز مكافحة الإرهاب بالنسبة إلى «البريداتور».

تشاور ريتش وأليك مع اختصاصيي السي.آي.إيه بمن فيهم سيدة هادئة متقدمة في السن هي ربما جدة لأحدهم. وهي خبيرة أيضاً في سلوك المقذوفات لدى ارتطامها بالهدف. وشرحت بهدوء تأثيرات الضغط الزائد والتشظّي. وأردفت شرحها بعروض على «باوربوينت» تصوّر فيها المدى القاتل لبعض الرؤوس الحربية. وقد أطلق أليك وفريقه على هذه العروض اسم شرائح إبادة الحشرات. ولقبوها، بمودّة، الأرملة السوداء.

تقلّصت خيارات الذخيرة إلى واحد هو صاروخ «هلفاير» الذي طُوّر لاستخدامه في المروحيات العاملة ضد الآليات المصفّحة في الميدان. وقد أثبت الصاروخ نفسه في المعارك في خلال السنوات الخمس عشرة الماضية. وهو يزن أكثر بقليل من مئة رطل ويمكن تعليقه من أسفل كل من جناحي «البريداتور». واعتبر الرأس الحربي الذي يزن عشرين رطلاً مناسباً للأهداف الثابتة مثل غرف محددة وآليات ومهمات مضادة للأشخاص.

لكن «هلفاير» ليس سلاحاً للقوة الجوية، بل إنه ملك للجيش. وخلق هذا الأمر مجموعة أخرى من التحديات.

بحلول ذلك الوقت، في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٠، أدت عواصف الشتاء إلى تقليص أوقات الطيران فاستدعينا طيورنا إلى الولايات المتحدة لإعادة ترتيبها واختبارها مع صواريخ «هلفاير».

ولأن الجيش يمتلك الصاروخ، انتقل ريتش وأليك إلى مقر «ريدستون أرسنال» التابع للجيش حيث اكتشفا مهندساً ميكانيكياً يهوى المتفجرات. وقد جمع تشاك فِـلْز الذي سُمّي عن حق «بوم بوم» بين شغفه وبين ذهن حاد شحذه في جامعة التكنولوجيا في مينيسوتا (أم. آي. تي.) حيث حاز على شهادتيْ ماجستير في الإدارة العلمية وإدارة الأعمال بمنحة من «سلون فيلو».

عمل «بوم بوم» مع سلاح الجو الأميركي وتصوّر بسهولة جذلة واضحة أفضل إعداد لـ «هلفاير». اعتقدت، لما التقيته للمرة الأولى، أنه يمكن توهّم أنه هاوي ميكانيك أو دليل للصيادين نظراً إلى أسلوب الغابة الواضح عنده. فهمنا فوراً أحدنا على الآخر على المستوى الثقافي. لكنه ضيّعني على المستوى التقني بعد دقيقتين، إلا أنه أمكنني تقدير أسس ثقته بنفسه. وما من شك في أن «هلفاير» سيعمل. وغالباً ما أعلن «بوم بوم» أنه «لم يسبق لي أبداً أن واجهت مشكلة لا يمكن حلّها بالكمية المناسبة من المتفجرات».

سبق لسلاح الجو أن برمج لسنتي ٢٠٠٤ ـ ٢٠٠٥ اختبارات لطائرات مسلّحة

تطير من دون طيار، لكنه عجّل في البرنامج بطلب من السي.آي.إيه. وقد لعب الجنرال جون جامبر دور المناصر لهذه التكنولوجيا في سلاح الجو، وأدت رؤياه وقيادته دوراً حاسماً في إعطاء دفعة لبرنامجنا. وفي ١٦ و٢١ شباط/فبراير ٢٠٠١ أصابت طلقاتنا الاختبارية الأولى الهدف في إحدى القواعد السرية التابعة لسلاح الجو.

انتشرت منظومة الطيران بلا طيار في العقد التالي بوصفها أداة لجمع المعلومات وغالباً كمنصة للأسلحة. وبحلول عام ٢٠١١ لاحظ بعض المثقفين في دفاعهم القوي عن استخدام الرئيس أوباما لـ«البريداتور» المسلحة أن الهجمات بهذه الطائرات أصبحت واسطة العقد في سياسة الأمن القومي. وأعلن بعض الخبراء أن «البريداتور» المسلحة هي السلاح الأدق في تاريخ الحرب. ولم نمتلك في عام ٢٠٠١ أي فكرة عما ستصبح عليه الحال. وجلّ ما أردناه التحقّق من استخباراتنا البشرية، وطريقة لاستخدام ما جمعناه من استخبارات، وللقضاء على بن لادن.

لم يستغرق رينش وأليك، ومجموعتهما المؤلفة من المخرّبين البيروقراطيين الذين يحركهم الشعور بالمهمة والعاملين في مؤسسة أمنية أميركية ضخمة ومتاقلة، سوى بضعة أشهر لتصوّر وإنتاج طائرة مسلحة تطير بدون طيار. واعتمد هؤلاء العناصر في نجاحهم أيضاً على القيادة بين الوكالات لجنرال رؤيوي من سلاح الجو، ولقيصر مندفع في مقر مكافحة الإرهاب في البيت الأبيض، ولأميرال مشاكس من البنتاغون، ولمساعد قاسٍ لمدير الاستخبارات المركزية الأميركية، ولرئيس مكافحة الإرهاب في السي.آي.إيه. فقد ركّبوا سلاحاً تابعاً للجيش في قاعدة لسلاح الجو تحت قيادة السي.آي.إيه.

إلا أن المعركة السياسية أضحت على الفور أكثر صعوبة بعدما أدركت وزارة الدفاع وقيادة السي.آي.إيه ما الذي بات في حوزة مركز مكافحة الإرهاب. أرادت وزارة الدفاع السيطرة، وادّعت أن ذلك أصبح أداة حرب ويقع ضمن مجال

اختصاصها. وأراد بعض قادة السي.آي.إيه، مثل بافيت، أن تتولى وزارة الدفاع الطائر المسلح. ولماذا تأخذ السي.آي.إيه على عاتقها مثل هذه المخاطرة؟ وأعلن بافيت في أحد الاجتماعات أن عمله ليس الاغتيال ولا يريد أي علاقة له مع «البريداتور».

حاججنا، ألن وكوفر وريتش وأنا، لمصلحة الإبقاء على منظومة الأسلحة التي تعتمد كلّياً على استخباراتنا. أردنا، بصراحة، أن نكون نحن من يدمّر القاعدة. ذلك هو عملنا، وهو عملٌ بدا أن ما من أحد آخر يريده. ونحتاج إلى كل أداة يمكننا الحصول عليها.

حسم البيت الأبيض الأمر: سيحتفظ مركز مكافحة الإرهاب بالمنظومة. لكن ذلك لم ينهِ المشاحنات اللاذعة في شأن من يمتلك سلطة الضغط على الزناد. امتلكت السي.آي.إيه سلطة قاتلة معينة أناطها بها الرئيس، لكن وزارة الدفاع ردّت بالقول أنها تمتلك سلطة أكبر. وتجادل المحامون. وقرر الزعماء السياسيون في النهاية أنه يتوجب على ضباط أركان السي.آي.إيه، على الأقل، الحصول على هذه المقدرة. وتدرّب أليك، الذي تحوّل عندها إلى ضابط ركن في السي. آي.إيه، وغيره في مركز مكافحة الإرهاب على المنظومة وأتقنوا بروتوكولات الاستهداف. وتضمن التدريب تمارين على الطاولة في قاعة الاجتماعات التابعة للمدير تينيت. تعلموا كيفية تشغيل الذراع التي تطلق صواريخ «هلفاير». وأطلقوا على الذراع اسم مفتاح القرد، لأنه يمكن حتى للقرد أن يشغلها.

استمر النزاع حول السيطرة على مفتاح القرد حتى ٩/١١ عندما أناطه الرئيس بوش بالسي.آي.إيه.

واصلت «البريداتور» دورياتها في سماء أفغانستان في ربيع وصيف ٢٠٠١، لكن من دون أي مشاهدة واضحة أخرى لأسامة بن لادن. وعزّزت «البريداتور»، وقد جُهّزت بمجموعة متنوعة من المجسات، استخباراتنا في شأن القاعدة والطالبان بما في ذلك أمر معركتهم ونظام القيادة والسيطرة والاتصالات التابع

لهم. واستكمل كل هذا الجمع التقني للمعلومات شبكات استخباراتنا البشرية المتوسّعة.

بات لمركز مكافحة الإرهاب، بحلول أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، أكثر من مئة مصدر بشري يعملون في أفغانستان ويوجدون في كل مقاطعة وقبيلة، وتضمن ذلك ما حصل من اختراقات للطالبان ولشبكات الدعم للقاعدة. وامتلكنا طائرات «بريداتور» مسلحة وغير مسلحة في الجو، إضافة إلى أنظمة جمع معلومات تقنية أخرى في المكان. عرفنا الصديق والعدو في أفغانستان، وسنصبح جاهزين مع حجم المصادر التقنية والبشرية وتكاملها.

الحد... من الانتشار

وجّهنا، كوفر وريتش وأنا، منذ أيلول/سبتمبر ١٩٩٩ سلسلة من المهمات إلى وادي بنجشير الأفغاني وهو كناية عن شريط ملتوٍ من الأرض بين خواصر جبال شبه عمودية يحكمه حليفنا أحمد شاه مسعود وتحالف الشمال. وينفتح مصب وادي بنجشير على سهول الشمال الممتدة أربعين ميلاً جنوب كابول. أخذ ريتش الفريق الأول إلى بنجشير. واحتجنا إلى تعميق شبكاتنا وتوسيعها إلى داخل أفغانستان. وصمّمنا كل انتشار ليعزّز مساعدتنا ويبني المزيد من الثقة مع حلفائنا الأفغان وإحراز المزيد من الفهم للقاعدة من خلال عمليات الاستخبارات البشرية واستخبارات الإشارة.

سافرت عبر وسط آسيا على امتداد الحدود الأفغانية من الشمال والشرق لكنني لم أعبر أبداً إلى أفغانستان. وحان وقت العبور للقاء حلفائنا الأفغانيين في مضمارهم لأتمكن من فهم أكبر لمهمتنا ولحاجاتنا الجماعية. وسأصبح ضابط السي.آي.إيه الأرفع مستوى الذي يزور أفغانستان في عقد. أردت لفريغ أن يرافقني بمهارته شبه العسكرية وقيادته العظيمة، وخطّطنا للرحيل في أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٠.

جمعت وغريغ، في أوائل آب/أغسطس، فريقاً من ثمانية لأسبوع من التدريب التكتيكي الإنعاشي الكثيف. وتناولنا جرعة كاملة من الملاحة البرّية ومن الإسعافات الأولية في المعارك ومن التآلف مع الأسلحة الأجنبية ومن القيادة/ الاصطدام ومن الرماية.

شدّد تدريبنا على تفادي النزاع وعلى الدفاع عن النفس في حال تعرّضنا للهجوم أو حوصرنا. وشدّدنا على التخفي وركّزنا عند الفشل على الابتعاد عن المشاكل. تدرّبنا على القوة القاتلة لحماية أنفسنا والسماح لنا بالفرار من منطقة القتل، أي أن نخرج من منطقة الخطر. نحن لا نستعد لشن هجوم كوماندوس بل لمهمة استخباراتية في بيئة خطرة، وإذا تطلب الأمر إطلاق النار للخروج من المأزق فسنفعل. شعارنا: اضرب واهرب.

تدرّبنا على استخدام الآليات سلاحاً وأيضاً وسيلةً للهرب. قدنا وناورنا بسرعات عالية، واخترقنا حواجز طرق تتطلب أحياناً أن نشق طريقنا عبر عوائق ثابتة أو آليات أخرى. ويمكن للسيارة أن تتعرض للقدر الضخم من القوة وتستمر في السير. مزجنا بين القيادة وتكتيكات الأسلحة النارية مستخدمين آلياتنا كغطاء. ووفرت الإطارات وكتلة المحرك الحماية الأفضل من الرصاص الفائق السرعة. دخلنا إلى سياراتنا وخرجنا منها ونحن نسحب أسلحتنا ونطلق النار.

تدرّبنا على أنواع مختلفة من الأسلحة النارية، بما في ذلك النماذج الأجنبية وبخاصة الكلاشنيكوف «أك-٤٧» وبندقية «أس.كا.أس.». واستخدمت فرقنا في أفغانستان الكلاشنيكوف بسبب توفر الذخيرة محلياً وتوافقاً مع المظهر المحلي. فأي رجل يحمل بندقية «أم٤» الأميركية ويطلق النار منها سيُعرف على الفور بأنه ليس من السكان الأصليين. لم نحتج إلى أي تغطية مع أبناء البلد لكننا لم نشأ أن نتباهى بوجودنا أو أن نكشف عن أنفسنا بسهولة للعدو بحمل سلاح مميز.

تدرّبنا كذلك بالطبع على أسلحتنا المفضّلة المخفية. وكان المسدس الذي

حملته في مرات نادرة من فترة عملي في الوكالة من نوع «براونينغ هاي- باور» عيار ٩ ملم، أو مسدسي الخاص وهو أيضاً براونينغ عيار ٠,٣٨٠ وهو أصغر حجماً ويمكن دسّه بسهولة تحت السترة أو الصدرة. جرّبت في خلال هذه الدورة عدة مسدسات جديدة وانتقيت «غلوك» ٩ ملم المصنوع في النمسا بمعظمه من المواد المركبة. ولا يوجد فيه الكثير من المعدن سوى السبطانة. أطلقت منه ألفي رصاصة في خمسة أيام من دون إخفاق في الإطلاق أو استعصاء.

أمكنني القيادة وإطلاق النار بمهارة وثقة، وهذا ليس مفاجئاً لأنني دأبت على فعل الاثنين منذ فتوتي. وأستطيع قراءة الخريطة بسهولة نادرة. أما مهاراتي الأخرى فبدائية ولهذا أحمل معي دوماً الكثير من الشريط اللاصق الأسود الذي يمكنه إصلاح كل شيء تقريباً، من سترة ممزقة إلى التسرّب في أنبوب المشعاع أو طرفٍ دام.

خدمت الدورة الإنعاشية غايتها إلا إنه لازمني الارتباك حيال البيئة التدريبية، وهي كناية عن حرج صنوبري في شرق الولايات المتحدة. ولماذا لم يمكننا التدرب في أعالي صحراء «روكي ماونتنز»، في مكان يشبه أفغانستان ويشعرنا بها؟ وليس لهذا المكان غير الواقعي الكثير من المعنى إلا لأمر يتعلّق بالسهولة أو بالموازنة.

أبلغت كوفر بالأمر، ووافق معي على أن موقع التدريب غير مناسب. ثم طلب مني الكف عن الشكوى.

ألغى بافيت المهمة في أواخر آب/أغسطس. وقرّر، ردّاً على عملية تفتيش تقنية راهنة شكّكت في جدارة مروحيات «مي-١٧» التابعة لتحالف الشمال الأفغاني، أن المخاطرة مرتفعة جداً، وهو محق. فالمروحية القديمة المتهالكة بمثابة فخ مميت، وإنها لمعجزة أن ريتش وفريقه ومن تبعوهم لم يتحطموا. لكن توجّب علينا استخدام أي وسيلة نقل أمكننا استخدامها في ذلك الوقت.

وها أنا الآن أسعى إلى خيارات أخرى. اعترضت قائلاً إنه يمكننا استخدام

أي من وسائلنا الجوية بدلاً من الاعتماد على تحالف الشمال. وردّ بافيت بأننا لا نريد إظهار يد الولايات المتحدة. فحاججت بالتغلغل برّاً، ونحن في فصل الصيف والممرات الجبلية المرتفعة ستبقى مفتوحة لبضعة أسابيع أخرى. وشرحت بأن المنظمات غير الحكومية، مثل أطباء بلا حدود، تستخدم الطريق الترابي الذي يمتد من طاجكستان إلى بنجشير. شرحت على الخريطة الطوبوغرافية كيف يمكننا التوغل، وأشرت إلى المخاطر على المصالح الأميركية وإلى مسؤوليتنا عن حماية أمتنا. وشدّدت على أن زملاءنا الأفغان يتوقعون قدومنا وعلينا الالتزام بكلامنا. لكن حججي لم تنفع، ولا سماح بالذهاب. شارفتُ في حججي حدود التمرد لكنني استعدت توازني وأديت التحية.

غير أننا تساءلنا، كوفر وريتش وغريغ وأنا، في نقاشاتنا الخاصة كيف يمتلك عمال الإغاثة غير المسلّحين جرأة أكثر من السي.آي.إيه.

شكّل عدم قدرتنا على السفر إلى أفغانستان أمراً غير مقبول، وأقنعتُ كوفر في نهاية المطاف بشراء مروحية «مي-١٧». وسنحصل بطائرتنا التي سنصونها ونتحكم فيها على الوسيلة والمرونة للقيام بمهماتنا. صعب علينا أكثر إقناع «طابقنا السابع»، لكننا نجحنا.

لم يصعب شراء الـ «مي-١٧»، ولكن الغطاء والتدابير اللوجستية التي أعقبت تسليم المروحية إلى المسرح استغرقت عدة أشهر. ولما هاجمت القاعدة ديارنا في أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، كانت الـ «مي-١٧» جاهزة، ووضعنا رقماً جديداً على ذيلها: ٩/١١. هذه المروحية ستنقل فريق تكسير الرؤوس الأول إلى أفغانستان.

السفينة الحربية «كول»

بعد شهرين على إلغاء نائب مدير العمليات رحلتنا إلى أفغانستان، هاجمت القاعدة السفينة الحربية الأميركية «كول» في ميناء عدن، في اليمن، وكادت تغرقها. حصل ذلك في ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠. ففي ذلك اليوم المشرق

شقّ عنصران من القاعدة المياه الهادئة بقارب ذي محرّك خارجي ووجّهاه صوب هدفهما. اتخذ الإرهابيان وضعية التأهب فيما انفجر قاربهما المحمل بالمتفجرات عند هيكل المدمّرة. كادا يصيبانها في وسطها تماماً وفتحا فيها ثغرة بعمق أربعين قدماً على ارتفاع إنشات فقط من سطح الماء. قتل العصف والشظايا سبعة عشر بحاراً وجُرح تسعة وثلاثون.

سرت إلى مكتب كوفر ما إن عرفت بالهجوم. وقلت: «سآخذ فريقاً إلى اليمن». فأجاب: «حسناً، خُذْ كل ما تحتاج إليه».

جمعنا في مركز مكافحة الإرهاب فريق رد صغيراً مؤلفاً من أخصائيي السي. آي.إيه بمن فيهم فرد من قوة العمليات الخاصة التابعة للبحرية موجود عندنا على سبيل الإعارة. وسيعمل، إضافة إلى مهماته الأخرى، حارساً شخصياً متمكناً لي. وضم الفريق اثنين من الضباط المحرّكين يتحدّثان العربية، الأول عربي الإثنية يمتلك مهارات رائعة في العلاقة مع الأشخاص، والآخر ضابط لامع عمل فترات خدمة متعددة وتعلّم العربية في أقل من سنة، وسيترقّى بعد ذلك بسنين ليصبح مساعد قائد الجهاز الخفي. كما ضم فريقنا ضابطين تقنيين متخصّصين في الرد على الأزمات.

أبلغني كوفر أن جون أونيل سيقود فريقاً كبيراً من الأف. بي. آي. وسيوفد مدعي عام المنطقة الجنوبية من نيويورك نائباً عاماً. وألحقت القيادة الأميركية الوسطى بنا الجنرال غاري هاريل الذي قاد فرقة «دلتا» في خلال تدخل عام ٢٠٠٣ في الصومال.

تقع السفارة الأميركية في صنعاء. ولا توجد قنصلية أو أي منشأة أخرى للحكومة الأميركية في عدن، وهي كناية عن مدينة وعرة ذات مرفأ عند الرأس الجنوبي لشبه الجزيرة العربية التي تمتد إلى خليج عدن. وسارعت وزارة الخارجية إلى إقامة مركز للقيادة في فندق محلي. وكانت السفيرة الأميركية في صنعاء باربرا بودين دبلوماسية مخضرمة.

كدنا نصل جميعنا في وقت واحد إلى صنعاء واحتللنا طابقين من طوابق الفندق. وساد الارتباك مع قيام كل وكالة أميركية بمتابعة أجندتها الخاصة وسط مزيج من القادة العنيدين الذين ألقي بهم معاً. أضف إلى ذلك أنه بدا أن بعض السلطات اليمنية منشغلة بمئات محققي الأف. بي. آي المسلحين أكثر من انشغالها بالقاعدة. أمرتُ تقنيينا بمسح الفندق وغيره من المنشآت التي تأوي جيش الأف. بي. آي الصغير. ولم يستغرقهم الأمر طويلاً ليكتشفوا أن اليمنيين دسوا أجهزة تنصت في مربع الأف. بي. آي. أبلغت أونيل الذي شعر بشكل متناوب بالإحراج والحنق، فطلبت منه الهدوء ملاحظاً أن الأف. بي. آي ستقوم بالأمر نفسه أو ما هو أسوأ لفريق من اليمنيين المسلحين في نيويورك.

اشتبكت السفيرة أودين مع أونيل في معركة سياسية دميمة حول السلطات العملانية. وشرحتُ لأونيل أن هذه ليست نيويورك ولا يمكنه التصرّف كما لو أنها كذلك، فالسفيرة تخدم بوصفها ممثلة للرئيس ويمكنها طردنا جميعاً من البلاد. وانفجر الخلاف أخيراً في العلن وأحبت الصحافة ذلك. حدّت السفيرة بودين في النهاية من دور الأف. بي. آي في اليمن.

سرعان ما تضافرت الفرق العملانية بالرغم من هذا المناخ السياسي الرديء، وتقدم التحقيق جراء العمل أربعاً وعشرين ساعة في اليوم. زوّدنا اليمنيون ببعض المعلومات الحاسمة إذ أدرك عدة مسؤولين رسميين أن القيام بذلك يصب في مصلحة بلادهم. لم يريدوا وجود القاعدة على أرضهم، وكان آخرون على تضارب، ما تطلّب مشاورات هادئة والمزيج المناسب من المنافع والتهديدات. أدار المتحدثون لدينا باللغة العربية، بمن فيهم عميل خاص في الأف. بي. آي، العلاقة بفاعلية صبورة. جمعنا سجلات السفر وملفات الوافدين وروايات شهود العيان، وشرعنا في التعرف على المرتكبين وربطناهم بأفغانستان.

وجدنا، في مسحنا للمنطقة مركز المراقبة الذي صوّرت منه القاعدة فيديو الهجوم. فتشنا الموقع وهو كناية عن منزل غير مكتمل مؤلف من عدة طبقات،

مبني من حجارة الباطون الخشنة وقد نتأت منها قضبان حديد التسليح. نام الأعداء وتناولوا الطعام هنا في الطابق العلوي، ورموا النفايات على الأرض. بوّلوا في إحدى زوايا المنزل غير المنجز، وأمكنني شم الرائحة. الرؤية من السطح ممتازة. راقب الأعداء من هذا المكان، الذي لا يُحجب ويطل على المرفأ، رفيقيهم وهما يقتلان بحارتنا.

وقفت بعد ذلك بيومين مع القبطان كيرك ليبولد على السطح الأسفل لسفينته. وحدّدنا النظر من خلال الفجوة المحزّزة عند خط طفو السفينة على المياه الجميلة الزرقاء. وشرح القبطان ليبولد كيف استجاب طاقمه ببطولة وعمل على إنقاذ الجرحى ومعالجتهم وعلى رفع الجثث. منع طاقمه السفينة من الغرق ولكن بشق النفس، وأعادوا التوازن إلى هيكل السفينة. شطفوا الدماء وما تخثّر منها وقد تطايرت على الفواصل. وتم وضع حراس مسلّحين بالأسلحة الأوتوماتيكية على طول سياج السطح الأعلى.

لم يوضع حراس في يوم الهجوم لغياب أي تحذير أو أية استخبارات محددة. ولم توضع قواعد اشتباك واضحة للتعامل مع اقتراب قارب يقوده اثنان من السكان المحليين بدا انهما غير مسلحين. لم يبدُ مثل هذا الهجوم، بالنسبة إلى البحرية، مستبعداً وحسب بل مستحيل أيضاً.

فهم العدو لعبة الحرب غير المتناظرة. ونحن لم نفهمها.

خمّنت، وأنا أقف في الفجوة المنفجرة في بطن السفينة «كول»، أن مثل هذا العمل السافر من أعمال الحرب سيجبرنا على الرد بالقوة المناسبة. فقد فشلت الحكومة الأميركية في الردّ بأي طريقة ذات مغزى على هجمات القاعدة الأخرى مثل تفجيري سفارتينا في كينيا وتنزانيا قبل ذلك بعامين. ولم يؤدّ أمر الرئيس كلينتون بإطلاق بضعة صواريخ «كروز» على أفغانستان والسودان إلى وقع يُذكر. وإذا أدّى هذا الرد الضعيف إلى شيء فهو أنه شجّع العدو. وماذا عن عمليات القاعدة الأخرى الكثيرة تلك التي أحبطتها الولايات المتحدة وحليفاتها؟ لم تخفَ

نوايا العدو؛ بل أضحت الآن أكثر وضوحاً. من المؤكد أن موازنة الاستخبارات قد ارتفعت، وأجاز الرئيس بعض إجراءات العمل الخفي المحدودة، إلا أن الحكومة بدت ضعيفة ومرتبكة على المستوى السياسي. ولم يعرف زعماؤنا ما العمل. اعتقدت أنها الحرب وقد أعلنها جورج تينيت كذلك في مذكرة أصدرها في عام ١٩٩٨. واعتقدت أن الأمر سيختلف هذه المرة. ستشن الولايات المتحدة هجوماً مضاداً، وسنلاحق القاعدة الآن إلى ملاذها الآمن، أفغانستان.

عدتُ في وقت لاحق من تلك الأمسية إلى مركز القيادة المؤقت في عدن وحضَرتُ برقية إلى مقر قيادة السي.آي.إيه. امتلكت، بوصفي ضابطاً كبيراً، مسؤولية تتجاوز تقديم الدعم الاستخباري لوزارة الخارجية والأف. بي. آي والجيش الأميركي، وكتبت بالتالي مباشرة إلى بافيت وكوفر حول العواقب السياسية لهذا العمل الإرهابي. إنها الحرب. وما من خيار أمام الحكومة إلا مطاردة العدو، وعلى السي.آي.إيه الاستعداد لمساندة الرئيس والجيش ونحن نستعد للهجوم المضاد.

لم يمكنني أن أكون أكثر خطأً. لم نفعل ما هو أبعد من اتهام حفنة من عناصر القاعدة التي بقيت في أفغانستان من دون أن تُخدش أو تُمس.

إدارة بوش

تسلّمت إدارة بوش السلطة في كانون الثاني/يناير ٢٠٠١ وركّزت على التهديدات التي تمثلها الدول القومية ممارسةً ما بدا أنه يشبه أسلوب دبلوماسية الحرب الباردة، بدلاً من الاشتباك مع لاعبين من غير الدول من أمثال القاعدة. شدّدتْ على الدفاع الصاروخي وغير ذلك من منظومات الدفاع ذات الاعتبار بدلاً من المكافحة الحازمة للإرهاب. وأمكنني القول من موقعي أنه لا يوجد فارق كبير في ذلك عن إدارة كلينتون، وفي حال وجود فارق فإنه يتمثل في أن فريق البيت الأبيض الجديد يمتلك اهتماماً أقل بالقاعدة.

أعلن المسؤولون أنهم سيراجعون استراتيجيتنا ضد القاعدة، لكن يبدو أنها تتخذ أولوية أقل من الكثير من المسائل الأخرى. لم يطلب أحد رأيي في شكل الاستراتيجية الجديدة. وتعلّق استفسار البيت الأبيض المحدد الوحيد الذي أمكنني تذكّره عن القاعدة بالعلاقة بينها وبين العراق. وهو ما ذكرته لي محلّلة في مركز مكافحة الإرهاب في ربيع ٢٠٠١.

قالت: «يريد مكتب نائب الرئيس أن يعرف عن التحالف بين أسامة بن لادن وصدام حسين».

وسألتها: «أي تحالف؟».

«سأل نائب الرئيس عن التحالف بين القاعدة والعراق. هل من تعاون بينهما، وكيف يجري في حال حصوله؟»

«ذلك أغبى سؤال لعين سمعته طيلة الأسبوع».

«أتريدني إبلاغ نائب الرئيس ذلك؟»

«آه... ربما لا».

في ذلك الصيف، وبعد ثلاثة أعوام من العمل في مكافحة الإرهاب في الأف. بي. آي بداية ومن ثم في مركز مكافحة الإرهاب، وقد سئمت من سياسات واشنطن وتشوّقت للعمليات الميدانية، وافقت على تكليف خارجي برئاسة واحدة من أفضل محطات الـسي.آي.إيه في العالم. والتحق غريغ بعمل في جنوب أفريقيا. وبقي كوفر وبن وريتش في مركز مكافحة الإرهاب.

الفصل التاسع

الاستراتيجية الأفغانية

في كل أعمال القتال يمكن استخدام الأساليب المباشرة للانخراط في المعركة،
لكن الأمر سيحتاج إلى أساليب غير مباشرة لضمان النصر.
ـ صن ـ تزو، فن الحرب

فاقت مهمتي الجديدة كل توقعاتي بشأن عملي وعائلتي.

انتقلنا للتو من الشقة المؤقتة إلى منزلنا الجديد الذي يقع على بعد مجمّعي أبنية من مدرسة أبنائنا. ويكاد يكون مثالياً بمساحته الواسعة المفتوحة وبالكثير من الضوء. أحاطت الحديقة الجميلة بالبركة الصغيرة. واستوعب المطبخ الواسع والعصري أبناءنا وأصدقاءهم الجدد، الذين اكتشفوا سريعاً حسنة الطعام في مكان قريب، بالإضافة إلى كلبيّ اللابرادور المحبوبين.

أحضرنا الكلبين من مأوى الكلاب بعدما أمضيا فيه أربعين يوماً إجبارية من الحجز. وقد دفعت قبل ذلك بستة أعوام لمزارع أفريقي خمسة وعشرين دولاراً ثمناً لكلّ منهما. وأنفقنا منذ عملية الشراء تلك بضعة آلاف من الدولارات ثمن تذاكر سفرهما ونحن ننقلهما في شتى أنحاء العالم. واستحقا كل سنت أنفقناه عليهما، وقد شغفا صبيّتنا حباً.

وصلت حاجاتنا المنزلية قبل ذلك بيومين، وانتشرت الصناديق حول المنزل وبعضها لم يفرغ إلا جزئياً. ويُتوقّع أن تصل سياراتنا في الأسبوع المقبل. وها نحن نستقر لفترة خدمتي التي تمتد لأربع سنوات.

كنت نائماً عندما اتصل بي شقيق زوجتي من مدينة نيويورك.

قال آمراً: «اشعل التلفاز».

«نعم، حسناً. هل أنت بخير؟» سألته وأنا أتحسّس جهاز التحكّم عن بعد. ووقفتْ سيندي إلى جانبي.

«لست متأكداً. يبدو الأمر سيئاً. هل التقطته؟» سألني.

«نعم. سأتصل بك لاحقاً».

سألتني سيندي: «ما الأمر؟».

«اتصل شقيقك. انظري». وأشرت إلى التلفاز.

شاهدنا الدخان يتصاعد من فتحة أحد برجي مركز التجارة العالمية. وها نحن جالسين على طرف السرير على بعد خطوات من الشاشة. وبعد ذلك بثوانٍ ضربت الطائرة الثانية.

«آه، لا، لا»، قالت.

أجبتها: «القاعدة».

شاهدنا ونحن متسمّران. ورأينا، بعد دقائق طويلة لاحقة، البرجين ينهاران.

حاولت احتساب عدد الناس في المبنيين، وكم مات منهم. تساءلت عن صديقي جون أونيل المدير المساعد المسؤول عن نيويورك المتقاعد حديثاً من الأف. بي. آي وقد بدأ العمل رئيساً للأمن في البرجين التوأمين التابعين لسلطات المرفأ. وسأعلم لاحقاً أنه أشرف على عملية الإخلاء وهرع لإنقاذ المزيد ليلقى حتفه مع انهيار المبنى.

واصل التلفاز بث تقارير إخبارية متفرقة عن الهجوم على البنتاغون وعن الطائرة المخطوفة التي تحطمت في ريف بنسلفانيا.

كيف نفّذت القاعدة هذه العملية؟ متى وأين ستنفّذ هجومها التالي؟

أدركتُ زوجتي وقد اختبرت معي دورات الواجب الكثيرة في الخارج والكثير من الالتباسات أن هذا يختلف اختلافاً كبيراً. فقد اهتزّ مشهد الخطر كلّه بعنف تتموّج عواقبه التي تحبس الأنفاس في شتى أنحاء العالم. والأمر أكثر من زلزال وحيد، بل إنه تحوّل في الصفائح الجيوسياسية التكتونية. وسألتني سيندي: «ما الذي سنفعله؟»

لم يستمع رؤساؤنا السياسيون إلى سنوات من التحذيرات الاستراتيجية التي أطلقتها السي.آي.إيه. ولم يعد أمام الحكومة الأميركية من خيار الآن سوى الرد. ومركز زلزال القاعدة واضح.

أجبت: «سنذهب إلى أفغانستان».

ارتديت ملابسي وتفقّدت الأولاد الذين غطّوا في نوم عميق. تحرّك الكلبان، فداعبت رأسيهما بلطف وعادا يقبعان في سريريهما المؤلفين من وسادتين كبيرتين.

قدت السيارة إلى المحطة وشرعت في قراءة التقارير التي بدأت تتوارد بالتنقيط، لتتحوّل في غضون نحو ساعتين إلى دفق من تقارير المصادر كلّها. فقد كلف مركز مكافحة الإرهاب كل محطة بالمهمة. وأخذنا ندفع بمتطلباتنا إلى شركائنا في الارتباط الذين حرّكوا شبكاتهم. وشكّل الأمر تدافعاً عالمياً للحصول على الاستخبارات جراء عدم معرفة أين ستحصل الضربة التالية، وجهل من يمتلك الأجزاء الناقصة من هذه المؤامرة الرهيبة.

جاءني في الصباح التالي إلى مكتبي السفير الأميركي الجديد الذي تسلّم منصبه بعد أيام قليلة وحسب على وصولي.

سألني: «من وراء هذا؟».

«القاعدة. يريد بن لادن التحريض على رد أميركي على المسلمين. يريد توريطنا. يريد جرّنا إلى حربه ضد الأنظمة الإسلامية التي يعتبرها فاسدة، والكثير منها كذلك. يريد إقامة خلافة إسلامية تمتد من المغرب إلى أندونيسيا وربما أبعد وحكمها».

سألني: «كيف تساعده مهاجمتنا على بلوغ ذلك الهدف؟».

«حصل جدال بين القاعدة والمتفرعين منها، وبخاصة الجهاد الإسلامي في مصر، في شأن مهاجمة «العدو القريب»، أي الأنظمة الاسلامية الفاسدة والعاجزة، أو مهاجمة «العدو البعيد»، أي الغرب والولايات المتحدة بنوع خاص، كوسيلة لتوليد عنف أكبر، قوة جرّ أعظم، عن طريق استفزازنا. يريد أن تخوض الولايات المتحدة الحرب في أرض المسلمين بحيث تعتبرنا الأمة، أي جماهير المسلمين، غزاة متحالفين مع الأنظمة الإسلامية الفاسدة. ويعتقد أسامة بن لادن أن هذا سيجعل الشعب المسلم يلتف من حوله فيتمتع بدعم شعبي أكبر ضد الغرب وضد حكومات السعودية واليمن ومصر وغيرها. يعتمد استراتيجية كلاسيكية: تركيب عدو خارجي لبناء قوة سياسية داخلية».

لم يسعني إلا متابعة المحاضرة وقد عبأتني ثلاثة أعوام من الإحباط: «يجب أن نتصدى لاستراتيجيته. يجب أن ينصب تركيزنا على القاعدة وتابعيها، ويجب أن نعرّف عن عدونا بعبارات محددة جداً وضيقة. ليست هذه حرباً نشنّها على الإسلام، بل إنها العكس تماماً، فحلفاؤنا المسلمون هم أهم حلفاء لدينا. يجب أن نمد يد الألفة إليهم ونطمئنهم ونمكّنهم ونبني التحالفات عبر الدين الإسلامي الحقيقي؛ يجب ألّا يقتصر الأمر على الحكومات الإسلامية وحسب، بل أيضاً على المؤسسات الإسلامية والقادة من كل القطاعات. فالنزاع يتعلّق بالقاعدة وهي لاعب غير حكومي. يجب أن نبني التحالفات مع لاعبين آخرين غير حكوميين. علينا وعلى حلفائنا المسلمين أن نهزم القاعدة معاً».

سأل: «هل يشمل ذلك رجال الدين المسلمين؟».

«نعم يا سيدي وغيرهم من زعماء المسلمين الحكوميين منهم وغير الحكوميين. نحتاج إليهم كما إنهم يحتاجون إلينا».

جلسنا في المكان صامتين لنحو دقيقتين.

وأضفت: «لقد هوجم وطننا. لقد انتُهكنا. لكن الأمر لا يتعلّق بنا وحدنا، ولا يمكننا القيام بذلك وحدنا».

علمت، خلال السنوات التي عملت فيها في مكافحة الإرهاب، أن جمعنا للاستخبارات وعملنا الخفي متوقفان على حلفائنا المسلمين وعملائنا، وإن عملياتنا الأحادية شكلت تكملة حاسمة لذلك. وليس الأمر هذا أو ذاك، بل إنه مزيج متعدّد الاطراف وثنائي وأحادي من جمع المعلومات والعمل. ومن الضروري إيجاد المزيج الصحيح لهذا النوع من الحرب.

جلس السفير جامداً. وتبع ذلك المزيد من الصمت. ألقى نظرة حول المكتب الضئيل المخصّص لي، ثم عاد ونظر إلي. وتساءلت إذا فهم وجهة نظري.

قال كما لو أنه يقرأ أفكاري: «استوعبت ذلك. شكراً».

«نعم سيدي».

اجتمع السفير، في غضون اليومين التاليين مع زعماء مسلمين رئيسيين في البلد المضيف، وتحدّث في حشد كثيف من السياسيين الوطنيين، وأدار علاقة أمننا القومي مع حليفنا بتألّق، وارتقى بها إلى مستوى جديد.

جيّش حليفنا في أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ كل موارده للمساعدة: استخبارات الإشارة، شبكات المصادر البشرية، علاقات الارتباط الخارجية وجيشه بما في ذلك القوات الخاصة التي ستحارب ببسالة في أفغانستان. ولعب رئيس الاستخبارات دوراً قيادياً حاسماً، كما أنه زودني بالتوجيه وأصبح صديقاً عزيزاً.

جاءت مشاعر الجمهور المحلي غامرة. وغُطّي الحاجز الأمامي لحرم السفارة بالأكاليل وبالزهور التي جلبها المواطنون الحلفاء الذين قدّموا التعازي.

تساءلتُ على مدى الأيام العدة التالية، وأنا اعمل مع الارتباط، هل سيطلب مقر القيادة المساعدة مني. وفكّرت في التطوع بالعودة إلى المقر أو الذهاب إلى أفغانستان، لكنني قررت أن في الأمر غطرسة. فقد وصلت للتو إلى محطتي في بداية فترة خدمة مهمة لإدارة الشراكة الاستخباراتية مع واحد من أهم حلفائنا وأكثرهم قيمة. ومكان مهمتي المكلف بها هنا، وسفيري رئيس جيّد.

أملت مع ذلك أن يتّصل كوفر بي. وتصوّرت المدير تينيت في وسط الجدال السياسي ويتلقى المساندة من مركز مكافحة الإرهاب. لأن المركز يعرف عن القاعدة أكثر مما يعرفه أي كيان آخر في الحكومة، وله دور حاسم.

وردني الاتصال ليلاً وأنا في المنزل.

كان إنريكي برادو، الذي حلّ مكاني في مركز مكافحة الإرهاب، على الطرف الآخر من الخط. جاء في ١٩٥٧ من كوبا إلى الولايات المتحدة وهو في السادسة. انضم، بعد فترة عمل محدودة في سلاح الجو الأميركي، إلى جهاز السي.آي.إيه الخفي وخدم بشجاعة في الحروب السرّية التي خاضتها الوكالة في الثمانينيات في أميركا الوسطى، وشرع في ١٩٩٦ في العمل ضد القاعدة. وهو غير أناني ومتكرّس لمهمته وخدم بلاده بشغف حارق.

قال: «أنا ريك. اذهب إلى المكتب واتصل بي على الخط المأمون».

استغرقني الأمر خمس دقائق للوصول إلى هناك بالسيارة، وخمس دقائق لعبور مركز الحراسة وبلوغ رحاب المحطة. تميّز الاتصال المأمون بالوضوح.

«طلب مني كوفر الاتصال. هذا ليس أمراً بل طلباً. سنذهب إلى أفغانستان. يريدك أن تنظّم الحرب وتقودها، وقد حظي ذلك بموافقة المدير تينيت. لا أريد جواباً على الفور، وإنما في وقت قريب. فكّر في الأمر». طرح ريك الأمر بطريقته المقتضبة، الواضحة والموجزة. وتحدّث تماماً كما يدير عملياته بتركيز وانضباط.

«متى تريدني أن أعود؟».

«يمكنك التفكير في الأمر».

«لقد فعلت. متى؟».

«حسناً. عد إلى هنا بأسرع ما يمكنك، لكن اهتم بعائلتك أولاً».

«حسناً. سأحجز رحلتي وأعلمك بالأمر. بلّغ كوفر شكري».

«نعم. يا هانك ... عرفنا جميعنا هنا ماذا سيكون عليه ردّك».

أحكمت إقفال المكتب وسرت خارجاً من المبنى. صفعني الصقيع في وجهي، وكانت الريح تعصف. نظرت إلى راية بلادنا الكبيرة تتطاير وهي مرفوعة إلى نصف السارية وتخفق بقوة في النسيم وقد أضاءتها الأنوار الساطعة للمصابيح الكشافة. أشحت بنظري عن الراية وتفحّصت السماء وهي صافية، والنجوم تتلألأ. حدّقت في الكون المتوسّع الذي أصبح فجأة أكبر حجماً.

عاودت النظر إلى الراية وصلّيت بقوة موجعة وعيناي مفتوحتان ملء حدقتيّ.

«أيها الرب العزيز، بارك الضحايا الذين قضوا في هذه المأساة. مدّني، رجاء، بالقوة والحكمة. فأنا أحتاجك. كُنْ مرشدي. ارعَ عائلتي. ارعَ الرجال الذين سأقودهم إلى الحرب. ساعدنا في القضاء على هذا العدو الشرير. آمين».

الأمر الوحيد الذي عادل إيماني في تلك اللحظة هو كرهي للقاعدة. أردت قتلهم جميعاً.

ستوفّر السي.آي.إيه والرئيس تلك الفرصة والشرف والامتياز في خدمة أمتنا والقضاء على أعدائنا بما يفوق كثيراً أجرأ أحلام فتوّتي.

مقر القيادة

هبطت بعد أيام قليلة في المساء الباكر في مطار دالاس. استأجرت سيارة وتوجّهت مباشرة إلى مقر القيادة. وركنتها، بعد المرور عبر بوابة الأمن الرئيسية، في مكان مخصّص لشخص آخر وعرّفت عن نفسي عند المدخل الرئيسي، وتوجّهت إلى مركز مكافحة الإرهاب.

كان مركز قيادة السي.آي.إيه الأول لحرب أفغانستان كناية عن غرفة صغيرة بلا نوافذ، وملأى بالخرائط والصور والكتب وأكداس الورق. بدت أشبه بمكتب معاون أستاذ في مدرسة صغيرة للفنون المتحررة، ولا تتلقى التمويل الكافي، أكثر منها قاعة حرب للعمل الخفي. انكب أربعة منّا على خارطة لأفغانستان: فرانك الاستراتيجي وجاك المحلّل وجون النائب وأنا.

سبق لي في الأسبوع الماضي أن اخترت جون ماسي نائباً لي. وشكّل هذا واحداً من أفضل قراراتي في الحرب.

طلبت من برادو، وأنا لا أزال في الخارج، لائحة بالنواب المحتملين. وأشار إلى أن جون ماسي قد يكون متوفّراً.

وسألت برادو عبر الاتصال المأمون، «أعرف جون وهو فتى رائع. أوَلَمْ يتقاعد؟».

«بدّل رأيه في ٩/١١. وتجاهل الأمر بإخلاء مقر القيادة، وجاء بدلاً من ذلك إلى مركز مكافحة الإرهاب للمساعدة. وهو راهناً في نيويورك يفتّش في الركام».

أمر المدير الجميع فور الهجمات بإخلاء مقر القيادة. تحدّى كوفر الأمر وأبلغ المدير بأن مركز مكافحة الإرهاب مُستثنى. سيبقى جميع من في المركز في مواقعهم. وتجاهل جون كذلك أمر المدير، وعمد بدلاً من ذلك إلى تعليق تقاعده وتقدّم من مركز مكافحة الإرهاب متطوّعاً.

سبق لي ولجون أن تحادثنا في وقت سابق من تلك السنة في ردهة مقر قيادة السي.آي.إيه. أخبرني عن خططه لما بعد العمل في الحكومة. سينتقل وزوجته ليندا إلى الجنوب الغربي لشراء مزرعة مَضافة وإدارتها، وهو الذي عمل في فتوته حارس أحراج في جهاز المتنزّهات الأميركي. وزوجته فارسة بارعة وهذا حلمهما. أرادا كسب عيشهما على ظهر جواد.

ردّدت: «يفتّش في الركام؟».

وسألني برادو: «أتريده؟».

تصفحّتُ سريعاً ملف جون الموجود في ذهني. فهو خريج الكلية البحرية، ورياضي عظيم شارك كعدّاء في منافسات الرابطة الوطنية لرياضة الجامعات، وضابط بحري، ومهندس نووي بارع. حاز لاحقاً على شهادة الماجستير في إدارة الأعمال. عمل سابقاً في القطاع الخاص، وانضم إلى السي.آي.إيه في وقت لاحق من حياته، لكنه تميّز سريعاً. وقد اخترق مجموعات قبلية في بحثه عن الإرهابيين، ولاحق بصفة خاصة أحد القتلة الإرهابيين ونجح. ونفّذ بعدها عملية خفية أخرى اجتازت العالم واستحق ميدالية المدير على إنجازه. وجون هو في الواقع الضابط الحائز على أعلى الميداليات في السي.آي.إيه إلا أن نجاحه كاد يمر من دون أن يعرف به أحد. وتضمن العدد الكبير من أفعاله عمليات منفردة وغير متصلة وقد غُلفت بطابع شديد من السرّية بسبب حساسيتها البالغة حيث لم يعرف بإنجازاته إلا عدد قليل جداً من الضباط الأرفع رتبة.

ترّقى جون في الرتبة ليتولّى مواقع ميدانية قيادية. وهو كناية عن كتلة صغيرة من العضلات المفتولة السريعة الانتفاض، ومن التألق الذهني والبراعة الإدارية والسلوك الذي لا تشوبه شائبة، والقوة الأخلاقية. وهو المهندس الدقيق الذي يهوى كل تفصيل. لا ينسى شيئاً أبداً، ويندر أن يفقد أعصابه، ويهتم بالجميع، وتتوفّر فيه أمور كثيرة لا تتوفّر فيّ. إنه التكملة المثالية والنائب المثالي.

«هذا الفتى فحل. نعم، أريده».

وأجاب برادو: «حسناً، لقد حصلت عليه».

جرت المحادثة الهاتفية في الأسبوع الماضي فقط.

وها أنا أنظر إلى جون وهو يحدّق إلى الخريطة. واسترقت النظر إلى جاك الأكاديمي الهادئ الذي نُقل من مهمة في مكافحة المخدرات لمساعدتنا. وهو يفهم بالشبكات وبالعملية التحليلية؛ كما إنه كناية عن رجل فطن، خجول، لطيف، ويعمل بلا كلل.

نظرت إلى فرانك المربوع والممتلئ، يتعرّق بغزارة وذهنه يعمل بأقصى طاقته. يعرف عن العمل الخفي وعن الاستراتيجية بقدر ما يعرفه أي شخص آخر في الوكالة. وهو كتابة عن تناقض: يفتقر إلى الكياسة، وفظ الأسلوب، إلا أنه صاحب ذهن حاد الفطنة وأنيق الفوارق ومشحوذ بصرامة أكاديمية حادة. يتفاخر بفرح بطفولته الجانحة لكنه يرفض مناقشة أفعاله المهنية البطولية. أنقذ نفسه وهو شاب بالتطوع في سلاح المارينز. وأنقذ وهو ضابط في السي.آي.إيه في أفريقيا مدينةً بالتفاوض على استسلام جيش فاسد لقوة متمرّدة غازية. واستحق فرانك تنويهاً هادئاً من الجهاز الخفي على أعماله البطولية.

بنى فرانك على هذه التجربة وعلى برامج الأعمال الخفية الأكثر تعقيداً بكثير والأشد تركيباً، التي قام بها في التسعينيات. واستكشف الصلة بين الاستخبارات والسياسة في العمل الخفي. اختبر ودرس النتائج. وكتب، وهو طالب في الكلية الحربية، دراسة عن تاريخ العمل الخفي الأميركي وفاز بجائزة أكاديمية. اشتهر بأنه استراتيجي حاذق.

تبادلت وفرانك الملاحظات حول الاستخبارات والعمل الخفي والحرب كلما التقت طريقانا، إلا أننا لم نعمل أبداً معاً حتى الآن. وها هو مستشاري الاستراتيجي ومرشد العمل الخفي ومدير كل عمليات معلوماتنا في أفغانستان ما بعد ٩/١١.

سألتُ فرانك: «ما هي أهدافنا الاستراتيجية؟».

أجاب: «هناك ثلاثة: يقضي أولها بتدمير زعامة القاعدة، والثاني بمنعهم من الحصول على ملاذ آمن، وعلينا ثالثاً ضرب الظروف السياسية ـ الاجتماعية ـ الاقتصادية التي يستغلها العدو». وهذا نموذجي. فقد اختصر مسائل معقّدة وخططاً في جمل تقريرية قليلة بسيطة.

سألت وأنا أشير إلى الخريطة: «أين حلفاؤنا؟» امتلكت فكرة جيدة لأنني عملت على هذه المشكلة طيلة الأعوام الثلاثة الماضية، إلا إنني احتجت إلى

إحداثيات دقيقة. أردت معرفة أين نُسقط فرقنا وأين نبدأ، ومن ثم إلى أين نذهب. أردت معرفة خطط حلفائنا الأفغان التي ستكون بالتأكيد مجزأة وغير مكتملة نظراً إلى افتقارهم للموارد وإلى عدم قدرتهم، وأحياناً إلى عدم استعدادهم للتواصل والتعاون بعضهم مع بعض.

«هنا»، قال فرانك وهو يدل إلى وادي بنجشير. «وهنا، جنوب مزار الشريف. وربما هنا في شرق هيرات. وربما أمسك الشيعة الهزارة في مقاطعة باميان، غرب كابول، ببقعة من المضمار، وهم يكرهون الطالبان كرهاً فعلياً».

«الجنوب سيىء، أليس كذلك؟» وأشرت إلى قندهار والمساحة المحيطة بها وهي قلب منطقة الطالبان.

«نعم، لكن غريغ يتحدث مع كرزاي الذي يتحدّر من هناك»، لاحظ جون وهو يدل إلى مدينة تارين كوت التي تقع شمال قندهار.

عرفت أن غريغ سيكون في المعمعة، وتساءلت عن علاقته بكرزاي الزعيم القبلي الباشتوني الذي قتل الطالبان والده وسيلعب دوراً حاسماً في استراتيجية الجنوب. ولم أعرف أن غريغ وكرزاي أخذا يضعان بالفعل تفاصيل خطط انتشارهما.

«ربما امتلك حلفاؤنا ما يكفي من السيطرة في الشمال، لكننا نحتاج إلى الجنوب. لا يمكننا السماح بوجود ملاذ آمن للقاعدة في الجنوب أو في أي مكان. ويجب أن نتفادى الحرب الأهلية الأفغانية التي يقف فيها الطالبان الباشتون ضد الباقين، أي النزاع بين الشمال والجنوب».

قدّرت أن حلفاءنا يسيطرون على أقل من عشرة بالمئة من البلاد. وربما امتلكوا نفوذاً ووصولاً إلى عشرة بالمئة أخرى. وربما امتلكوا وصولاً عَرَضياً إلى عشرة بالمئة أخرى أيضاً. إلا أن الطالبان وحلفاءهم من القبليين يحوزون كل شيء آخر. ركّزت على حلفائنا الأفغان وقد علمت أنهم سيشكلون مفتاح النصر. فوحدهم

يعرفون طبيعة الأرض، ووحدهم يمكنهم تجنيد أفغان آخرين للانضمام إلينا، ووحدهم يستطيعون اختراق الطالبان على كل المستويات، ووحدهم يستطيعون التحرّك على الفور. فالجيش الأميركي لا يعرف سوى القليل عن أفغانستان لأنها لم تشكّل تهديداً تقليدياً، وجيشنا تقليدي بشكل ساحق. ويحتاجون أشهراً عدة لتحريك قوة لا بأس بها. ولم يعدَ الفيلق شبه العسكري في السي.آي.إيه سوى دزينات قليلة، وليسوا جميعهم مناسبين لهذه المهمة. توجّب علينا التحرك سريعاً نظراً إلى التهديد بحصول هجوم آخر في الوطن، واعتمدت قدرتنا على التحرّك السريع على نجاح حلفنا الأفغاني.

سألتُ: «أصبح شرون وفريق تكسير الرؤوس التابع له في بنجشير بالفعل فما الذي يحتاجونه؟».

قال جون: «نعم، لقد وصلوا للتو. وهم على ما يرام الآن، لكنه سيحتاجون قريباً إلى المزيد من المال والذخيرة والرجال، المزيد من كل شيء. وعلينا أن ننشئ، هنا في مقر القيادة، فريقاً للإدارة والدعم وقسماً للاستهداف وعدة فرق عمليات يتم نشرها».

«قم بذلك، إذاً. فأنا وأنت يا جون نوافق على كل قائد فريق وكل نائب قائد فريق في الميدان أو في مقر القيادة. يجب أن يتكاملوا. يجب أن يتمكّنوا سريعاً من اتخاذ القرارات، القرارات الصائبة. الأمر يتعلّق بالقادة، كما يتعلّق بالسرعة والدقة. يجب على هذه الشبكة أن تكون مستوية وديناميكية».

عرفت أن الفرق ستفشل إذا لم نختر الضباط المناسبين، أو أنها ربما ستهلك.

تلك كانت الليلة الأولى. وصرت في الصباح التالي، بعد نحو ساعتين من النوم، في مكتب كوفر. بدا ضخماً، حجماً وأسلوباً، وتحدّث بقوّة محرّكاً يديه الضخمتين في الهواء تأكيداً على فكرة ما. وخبط بيديه بضع مرات على الطاولة.

روى كيف أنه وريتش أبلغا مستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس في تموز/

يوليو عن تهديد وشيك من القاعدة من دون الحصول على أي رد منها أو من الآخرين في البيت الأبيض. وأشار إلى مقالة صدرت في الإيجاز اليومي للرئيس بتاريخ ٨ آب/أغسطس ٢٠٠١ بعنوان «بن لادن مصمّم على الضرب في الولايات المتحدة» كتبها مركز مكافحة الإرهاب وسلمها إلى البيت الأبيض. وشكّلت مثالاً ملحوظاً على التحذير الاستراتيجي الذي يشير صراحة إلى هجوم ١٩٩٣ على مركز التجارة العالمية كنموذج على تصميم بن لادن على أن «تنقل القاعدة الحرب إلى أميركا». حتى إن التحذير أشار إلى نية بن لادن ضرب واشنطن. تمعّنت لاحقاً في الوثيقة وتساءلت عما قد يفعله الرئيس فرانكلين روزفلت لو أنه تلقى مثل هذا التقويم في شأن الخطط اليابانية لمهاجمة بيرل هاربور قبل شهر كامل من ٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤١.

وصف كوفر، من ثم، كيف أنه قدّم وتينيت قبل أيام فقط وتماماً بعد ٩/١١ إيجازاً للرئيس ولمجلس الأمن القومي، أي عندما تقدم بطلبه الشهير من الرئيس بوش أن تقود السي.آي.إيه الرد [لتأتي برأس بن لادن] «والذباب يحوم على مقلتَي عينيه»، ورمى بكومة من الورق على الأرض في استعراض درامي. وشجع الرئيس وفريق أمنه القومي بأكمله، بل وتحدّاهم باحترام، على مهاجمة العدو وجهاً لوجه. وأكد لهم أن السي.آي.إيه تعرف كيف تشن هذا الهجوم. أراد كوفر وتينيت، كلاهما، السلطة والموارد لشن الحرب. ومنحهما الرئيس ذلك.

شرح لي كوفر أنه «لم يفكّر أحد آخر بأفغانستان. لم يمتلك أي من الموجودين حول الطاولة أي فكرة لعينة عنها. لم يوجد أحد سوانا».

أمكنني فهم ذلك، لكنه لا يشرح ما تطلبه ذلك من شجاعة ليتقدم كوفر، بدعم من المدير تينيت، ويتحمّل مثل هذه المسؤولية. شدّد كلاوسفيتز في كتابه الكلاسيكي «عن الحرب» على شجاعة تحمل المسؤولية فوق كل أشكال الشجاعة الأخرى، وعلى أن لا وجود للزعامة وللنصر من دون هذا النوع من

البـالة. وها إن المثال الأفضل على ذلك الذي لم تسبق لي مشاهدته يقف في مواجهتي. وقد شرّفني أنني أعمل له من جديد.

والحقيقة هي أن ردنا الأمني القومي جاء استثنائياً. لجأ البيت الأبيض إلى ضابط عمليات في السي.آي.إيه طلباً للتوجيه والقيادة في اسوأ أزمة وطنية منذ بيرل هاربور. وتأمّلتُ في كيفية تطور الحرب وكيف أن النزاع غير المتناسق مع لاعبين من غير الدول عبر ساحة المعركة في العالم يقلب مفهوم الولايات المتحدة للحرب رأساً على عقب. فلا وجود لجيش وطني يحاربه البنتاغون، ولا وجود لمؤسسة إجرامية في المتناول يمكن للأف. بي. آي أن توقفها، ولا توجد وزارة خارجية أو ما يعادلها يمكن لوزارة الخارجية الأميركية أن تتصل بها، ولا يوجد جهاز دولي يمتلك السلطة والقوة أو الإدراك لمواجهة هذا التحدي، بل توجد فقط حفنة من ضباط السي.آي.إيه تلوك هذه المشكلة لسنين. وتقدّم كوفر لتولي الدور القيادي في غياب أي متطوعين آخرين لهذا العمل.

سألته: «هل يدركون فعلاً، يا كوفر، ما نواجهه؟».

«لست متأكداً من ذلك. ربما الرئيس، وهو أذكى مما يعتقده معظمهم ويريد الهجوم الآن. أما رامسفلد فهو أحمق يهتم بسلطته الخاصة أكثر من أي شيء آخر. لكننا بخير طالما التزم الرئيس بالوقوف إلى جانبنا. وليس لديه الآن أحد آخر سوانا».

«شكراً على استدعائك لي. كنت أنتظر ذلك»، قلت معترفاً.

حدّق إليّ كوفر بقسوة وزمّ شفتيه. «سمعتك في العامين الماضيين وأنت تشتكي من ملاذ العدو الآمن في أفغانستان. وها قد باتت لديك مهمة. نُزعت القفازات. أبلغت شرون أنني أريد رأس بن لادن. أريد رأس ابن الزنى هذا في علبة. علينا أن ندمّر القاعدة».

أبلغته بخططنا التحضيرية الأولى التي عملنا عليها في الليلة السابقة. وقد

استند الكثير منها بالفعل إلى عملنا السابق وبخاصة الجهود التي بذلها ريتش وفريقه في «محطة أليك».

وقلت محذّراً: «علينا بالمضي سريعاً. وسنخسر الرجال، الكثيرين منهم».

«يمكنك المراهنة على ذلك. أوَتعرف ماذا؟ امضِ قدماً واستمرّ. لا تتوقف أبداً كرمى لأي شخص أو أي شيء. هل تفهم؟ أمستعد أنت لذلك؟».

لم يكن يطرح الأسئلة حقاً بل إنها مجرّد إعلانات بلاغية. وعرفت أنه ليست عليّ مقاطعته.

«سأعطيك كل ما تريده، أو كل ما لدينا. وعليك أن تركزّ على الحرب وعلى رجالنا. أنت تمضي إلى وادي الموت ومعك حفنة فقط من الضباط. انسَ أمر كل شيء آخر. ركزّ على العدو. أقتل منهم ما أمكنك ذلك. أبلغت شرون أنني أريد رأس بن لادن في علبة. أتفهم؟ امحهم من الوجود وسأهتم بأمور السياسة». ولم أكلّف نفسي أن أقول له إنه يكرّر نفسه.

«ولا تدخل في هراء الأسماء الرمزية ورايات الحرب أو الاحتفال بأي شيء. ابقِ الأمر بسيطاً. هل تفهم؟».

بدا كما لو أنه يصيح، لكنه لم يفعل. بدا وجهه بأكمله ملتوياً، أحمرَ ومفعماً بالحيوية المستحيلة. أمكنه أن يصيح ويهدر ويزمجر ويقذف في آن، وتساءلت كيف يفعل ذلك، لكنني لم أتساءل أبداً عن غايته الحقيقية. تعلّمت، بعد أن عملت معه، أن استمع باهتمام شديد. فإدراكاته الحسية السياسية الحدسية الجامحة حادة. وقد نما لديه مزيج نادر من الحذر والجسارة. فهو في لحظة يتفادى النزاع، وفي الأخرى يندفع صوب الأسوار.

«نعم سيدي، أفهم».

صمت، وكاد يتنهّد.

«أخبرني إذا احتجت أي شيء».

«يمكنك المراهنة على ذلك».

وتركته هناك في مكتبه وحيداً.

سحبت، بعودتي إلى مكتبي، إحدى الخرائط وشرعت في دراسة أفغانستان. خشيت أن تضربنا القاعدة من جديد، ربما في ديارنا وفي أي وقت. وعلينا أن نتحرّك بأسرع ما أمكننا لمهاجمة العدو وتعطيله. ذلك هو دفاعنا الأفضل: أن نتحرّك ضدّهم بسرعة كبرى ولكن بطريقة تحشد ما أمكن من الأفغان ضد القاعدة والطالبان. سنجّند ونخرّب ونعبر من خلال الطالبان أو من حولهم للوصول إلى القاعدة.

إلا أننا لن نصبح غزاة لأن هذا لن ينجح أبداً. بل سنصبح بدلاً من ذلك العامل المسرّع الذي يساعد في إشعال التمرّد. وسنمتلك بتلك الطريقة الفرصة الأفضل لتدمير مركز القيادة والسيطرة للقاعدة وحرمانهم من ملاذهم الآمن في أفغانستان. سنصبح متمرّدين نساند المتمردين الأفغان وهدفنا النهائي هو زعامة القاعدة وبن لادن خاصة.

جاء ماسي، وأخبرته نسخة مختزلة عن حديثي مع كوفر. أطلعني على المستجدات، وتلا بسرعة أسماء مقرونة بالمهمات المناطة بحامليها.

سألته: «هل هم النوع الصحيح من الناس؟».

«آه سنحصل على الناس، لكن ربما على ما لا يكفي من النوع الصحيح».

«ماذا تعني؟»

«هناك الكثيرون من المتطوعين. يوجد في الواقع أكثر مما نستطيع استيعابه. لكن معظمهم لا يمتلك المهارات المطلوبة. يمكننا أن نجمع معاً التركيبة المناسبة من المواهب لإنجاح الأمر. فكما تعرف توجد قلة قليلة جداً من الضباط الذين يمتلكون المهارات المطلوبة لمهمة من هذا النوع. هناك على أي حال قلة صغيرة جدّا منهم في أي مكان».

وهو محق إلا باستثناء استراتيجي كبير واحد. فمن الذي يتكلّم اللغات الأفغانية ويفهم طبيعة الأرض ويكره القاعدة ويهوى القتال؟ إنهم الافغانيون طبعاً.

«ذلك هو سبب قيام حلفائنا الأفغان بمساعدتنا في بلوغ هدفنا النهائي. يعرفون أن اللحظة لحظتهم بعد مقتل مسعود ومن بعده ٩/١١. أفاد شرون بذلك. وهو ما قاله لنا عبدالله عبدالله والمهندس عارف وأمر الله. نريد ضباطاً قادة، يستطيعون تمكين الأفغان وتشجيعهم بوجود الاستراتيجية المناسبة التي تُنسّق في ما بينهم في الوقت المناسب. ولديهم الدافع بالفعل. نحتاج إلى مساعدتهم فحسب».

وهزّ جون برأسه لكنه لم يغادر.

سألته: «هل من شيء آخر؟».

«قد يشكل بعض فرق الأنساق مشكلة. يدعمنا المدير تينيت وكذلك رئيس الموارد البشرية روب ريتشر، لكن فرق الأنساق لن تتخلّى عن أفضل أناسها. يتصل بنا رؤساء محطات من كل أنحاء العالم وغيرهم من الضباط الرائعين. ولا يمكنهم جميعهم مغادرة مراكزهم».

«خذ منهم أفضل من يناسب حاجاتنا. اعمل مع روب. وأعلمني في حال وجود مشكلة كبيرة تتعلق بمن نحتاجه فعلاً وسأناقش الأمر مع كوفر».

ورمقني ماسي بنظرة شكّ.

«جون، اسمع، سنحصل على من نريد. سنستغل المنظومة، باحترام، لكن لمرة واحدة فقط. وإذا عجزت المنظومة عن التقدم فسنعمل على التقاطهم».

قال جون، بمسحة من الذهول والتوقّع في صوته: «ستثير حنق بعض الناس».

«الحقيقة أنني أجيد ذلك».

«نعم، أنت كذلك».

كامب ديفيد

في صباح يوم سبت من أواخر أيلول/سبتمبر استقليت السيارة السوداء المصفحة ذات الدفع الرباعي مع المدير تينيت متوجّهين إلى كامب ديفيد. لم يسبق لي قط أن ذهبت إلى هناك او التقيت الرئيس بوش الذي لم يمضِ عليه في السلطة سوى ثمانية أشهر.

استقبلنا الرئيس بوش بحرارة وظهر بلياقته البدنية ومرتاحاً بالثياب العادية. شرع والمدير تينيت بالمزاح وهي عطية مجبولة بشخصية المدير، واستفهم مني أندي كارد بتهذيب عن خلفيتي. حضرت أيضاً مستشارة الأمن القومي رايس وهي تضفي درع حماية هادئة من حول الرئيس. وصافحني نائب الرئيس تشيني بقوة ومنحني ابتسامة صارمة وجانبية. وهذه أول مرة التقي فيها أياً منهم.

تميّزوا جميعهم بالتهذيب واللطف مع الفتى الجديد الذي لا يمتلك أي وزن سياسي ولكنه يمتلك توجهاً عملانياً إلى السياسة، وعكس قبولهم بي الثقة التي يولونها لتينيت. برهنتُ على مر السنين كفاءة في العمليات الاستخباراتية، إن في جمع المعلومات أو في العمل الخفي، لكن هذا عالم جديد بالنسبة إلي. قفزتُ عبر الحدود الفاصلة بين العمليات والسياسة لاكتشف بعد فترة قريبة أنه لا يوجد خط واضح بين الاثنين. توجد أرضية مشتركة واسعة تتداخل فيها العمليات والسياسة حيث يمكن انتقال خطوط الحدود الضبابية، بل إنها تتبخر أحياناً.

اتخذ الأمر طابع النقاش بين المشاركين أكثر من كونه إيجازاً رسمياً. شرحت، مستعيناً بخرائط متعددة، خطتنا الراهنة لأفغانستان، وطرح الرئيس بوش معظم الأسئلة، في حين استفسر الجميع عن الإطار الزمني. لم امتلك أي فكرة عما ستؤول إليه الحرب في أفغانستان من سرعة أو بطء باستثناء أن فرق السي.آي.إيه إما أنها أصبحت في الميدان وإما أنها في الطريق إليه، فالسرعة حاسمة. وشرحت أيضاً أن في وسعنا، مع استخبارات أفضل تنتج عن الفرق، أن نكوّن صورة أكثر

شمولاً. وسيوفر ذلك معلومات للقرارات التي تتحكَّم في العمل الخفي والضربات العسكرية المكشوفة والسياسة.

ثم شرع إميل نخله، وهو واحد من أفضل محلّلي السي.آي.إيه، بشرح الوقع الإيديولوجي للقاعدة في العالم الإسلامي. ترعرع إميل في فلسطين وحاز الدكتوراه في العلوم السياسية وأضحى واحداً من المراجع الأولى في الإسلام السياسي. استمعت باهتمام دائم إلى إيجازاته، وكذلك فعل الرئيس.

فاجأني غياب مساهمة وزارة الدفاع في الاجتماع. لم نحصل على أي شيء من البنتاغون يتعلّق بخططه. وتساءلت عما يخبره الوزير رامسفلد وغيره للرئيس نظراً إلى ما يبدو أنه افتقار البنتاغون إلى خطة. كوفر محق، فنحن نمضي إلى الحرب والسي.آي.إيه في موقع القيادة.

بعد الاجتماع واكَبَنا الرئيس، جورج وأنا، إلى سيارة الدفع الرباعي، وسبقنا جورج ببضع خطوات. وضع الرئيس يده لبرهة وجيزة على ظهري وقال بهدوء: «امضِ ونَلْ منهم».

«نعم سيدي».

شكّلت هذه الإيماءة البسيطة والتعليق بالنسبة إليّ الجزء الأهم الأكثر استحقاقاً للذكر في الاجتماع. وجه إليّ رئيس الولايات المتحدة أمراً مباشراً وواضحاً بأسلوب خاص وشخصي، وهذا أشبه نوعاً ما بالخيال. فهذه الإيماءة هي أكثر مما يمكن لضابط عمليات أن يريده أو يحتاجه أو يستحقه. شعرت بالتميّز وبالتواضع وبالتصميم الشرس.

لم أتمكّن من التخلص من شعوري المتعلق بهذا اللقاء بأنني أعيش خيالاً وبالحرب المقبلة التي أخذت في التكشّف أمامنا.

بدأ جورج بالفعل، ونحن في السيارة، في علك سيجار مشوّه ورطب.

قال مدمدماً: «كان ذلك جيداً».

وسألت مستفسراً: «ليس لديهم الكثير سوانا، أليس كذلك؟»، وتساءلت عمّا يفوتني. ربما توجد خطة موازية قيد العمل، وبقيت أجد صعوبة في القبول بأن السي.آي.إيه تحظى بالدور الأول، وبأنني أمتلك دوراً قيادياً.

«بلى، ذلك صحيح»، قال جورج. «كوفر وأنت وفتياننا..».

حدّق إليّ، رفع حاجبيه، وهزّ برأسه. سبق لي في العام الماضي أن سافرت مع المدير في رحلة طويلة عبر البحار وتعلّمت استيعاب تعابيره الكثيرة. وهذه تقول: «لا تكن غبيّاً. نحن لها. قُمْ بالأمر».

كاد سيجاره يصبح نتفاً صغيرة، لكنه بقي في شكل من الأشكال متماسكاً. وتصوّرت أنه اللعاب ولا شك.

قلت: «نعم سيدي».

إلا إنني شرعت في الحقيقة في التفكير. يقع دور القيادة هذا على عاتق كوفر وعاتقي، ونحن لا نملك أي خبرة عسكرية ولم نقم سوى بزيارات قليلة إلى جنوب آسيا ولم نقم بزيارة أفغانستان. هل تمزح؟ لكن كوفر وأنت والرئيس الآن تقولون اذهبوا فنذهب. فهمت الأمر. امضوا بما أمكنكم من القوة والسرعة.

سبق أن تملّكني السخط بالفعل جراء الهجمات على وطننا، وها إنني الآن متمكن وواثق بشكل غريب ومطلق بالمهمة. بقي الاحتراس يساورني من السياسة والحدود الفاصلة بين العمليات الاستخباراتية والسياسة. وسيتزايد تصميمي واحتراسي.

تصوّرت بعد أيام قليلة أنه يجدر بي التحدث مع كوفر. فالمجازفة السياسية أمر أبعد من متناولي واحتجت إلى الحصول على وجهة نظره، كما احتجت إلى تحذيره.

دخلت إلى مكتبه. أغلقت الباب وجلست على الكرسي الموجود أمام طاولته مباشرة، فبقي جامداً ومنتظراً.

«أدركت يا كوفر أنك معنا، ولا أحد معك. ستحمي ظهورنا وما من أحد يحمي ظهرك».

لم أحتج إلى الشرح بأنني أشير إلى المجازفة السياسية أو أنني لا أقوم بأي تلميح يقلل من احترام المدير تينيت. لأن المدير، وعلى العكس من ذلك، أعطى كوفر الضوء الاخضر وقدّم الدعم غير المحدود. لكنني وكوفر عرفنا أن مسؤوليات أخرى تقع على عاتق تينيت الموظف السابق في الكونغرس والذي يمتلك قدرات سياسية استثنائية. وعليه أن يحمي الوكالة ومهمتها في بيئة سياسية قاسية. انتدابه مختلف، وهو مختلف. لم يعمل أبداً متخفّياً ولم يشغّل أبداً أي عميل.

تابعت: «أنا لا اشتكي يا كوفر، وأنا على أتم الاستعداد. جميعنا على أتم الاستعداد. أعرف وحسب أن رأسك على المحك، وإلى حد كبير جداً».

نظر إليّ بتعبير غير معهود، بتعبير مشفق.

وقال بلطف: «تعرف أنه قد انتهى أمرنا».

لم أتيقّن إلى أين يريد أن يذهب، فاكتفيت بالجلوس بهدوء. انتَظَرَ. لكنني استمريت في عدم قول أي شيء. وأمكن لتعابيره أن تتغير فوراً. وها إنه ينظر إلي كما لو أنني أحمق.

«انتهى أمرنا تماماً. إذا خسرنا سنُلام على كل شيء. وإذا ربحنا كرهنا جميع من في هذا المبنى وسيُقضى علينا. سيطلقون النار على رؤوسنا من الوراء. وقد كرَهنا بعضُهم بالفعل لأننا نمتلك الموارد والسلطة. أراد قسم الشرق الأدنى القيادة والسيطرة على هذه الحرب لكن المدير تمسّك بنا. وعليك بالتالي أن تودّع أي مستقبل مهني».

أجبت بحدّة: «هل تعتقد أنني أبالي بمستقبل مهني؟ لدينا آلاف القتلى. جل ما أريده هو المهمة. أنت عهدت بها إليّ، وأنا ممتن لذلك».

قال بعد إحماء: «الأمر أشبه بالاتحاد السوفياتي في الحرب العالمية الثانية. أعدم المفوّضون السياسيون الجنرالات الذين خسروا، وأعدموا الجنرالات الذي ربحوا. فالمفوضون السياسيون دائمو الانتظار بمسدساتهم المحشوة، والأمر هنا سيّان. فستلقى في أي من الحالتين رصاصة في الرأس». وها هو يقف مدّعياً أن يده اليمنى مسدس وأطلق بها النار بين عيني. فهو يعرف كيف يثبت وجهة نظره.

«يمكنك أن تنسى أي مستقبل لك في الجهاز الخفي. وإذا أمكنك بطريقة ما النجاة بنفسك في هذا المبنى، فإن السياسيين في قلب العاصمة سيجهزون عليك. أتفهم ذلك؟ انتهى أمرك!»

وافقتُ معه: «نعم، أدرك الأمر. انتهى أمري». فهمت فكرته، وهي كناية عن نصيحة جيّدة وقاسية كالعادة. عليكَ أن تعتبر نفسك وقد قُضي عليك مهنياً وسياسياً. وليس من شيء آخر غير المهمة. اعتقدتُ أن الأمر هو بالفعل على هذا المنوال، ولكن من الأفضل أن أسمع كوفر يصف الأمر بطريقته الفريدة النابضة بالحياة.

التقط كوفر أنفاسه وتنهّد.

«أبلغتُ نائبك ماسي أن عليه أن يكون جيّداً كما سمعت عنه وإلا سيرحل». فأكّدت له: «إنه جيّد جداً».

«حسناً، آمل ذلك. والآن أرجو منك العودة إلى العمل».

غرفة الأزمات

بعد ذلك بأيام قليلة حضرتُ وتينيت إلى غرفة الأزمات في البيت الأبيض. ترأستْ مستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس الاجتماع الذي حضره رامسفلد وكارد ووزير الخارجية كولن باول ونائب وزير الدفاع بول ولفوفيتز ورئيس الأركان المشتركة الجنرال مايرز وسواهم. وُجدت ربما دزينة من المسؤولين في الغرفة الصغيرة ذات السقف المعقود. جلستُ، وهي المرة الأولى لي فيها،

بجانب الجنرال واين داونينغ المسؤول في البيت الأبيض عن مكافحة الإرهاب. ويجسد الجنرال داونينغ القوات الخاصة الأميركية التي قادها على مدى سنوات. وسأجلس في كل اجتماع أحضره على مر الأشهر العدة التالية بجانب الجنرال داونينغ. تشاركنا، بالرغم من أنه عسكري وأنا لست كذلك، رابطاً مهنياً بوصفنا عميلين خفيين. ولدينا إرث مشترك جذوره في «أو. أس. أس.» خلال الحرب العالمية الثانية، وهو الذي نشأت عنه السي.آي.إيه والقوات الخاصة الأميركية. أدركت بداهة أنه يمكنني الوثوق به وشرعنا أكثر فأكثر في ائتمان أحدنا الآخر. إنه من صخر.

طلبت رايس من تينيت تقديم تحديث للمعلومات وتبعه الجنرال تومي فرانك الذي تحدث عبر بث فيديو مأمون من مقر القيادة المركزي في تامبا. وأضاف آخرون وجهات نظرهم. طُرحت بعض الأسئلة عن أفغانستان وأعطيتُ بعض الإجابات الوجيزة عنها. اعتمدتُ الحذر في إجاباتي لعدم معرفتي بهذه البيئة.

كان للأمر معناه. فقد التزم كل الأشخاص هنا بأدوارهم كما تخيّلتهم. فجميعهم هادئون ومؤدبون وعقلانيون.

ثم أصبح الأمر شاذاً.

من دون مقدمة أو حث أو نقطة مرجعية أمكنني سبر غورها انطلق ولفوفيتز في مناجاة.

«العراق. يجب أن نركز على العراق. لا بد من أن دولة ما رعت ٩/١١. العراق مركزي في استراتيجيتنا لمكافحة الإرهاب». تحدّث بحدّة، ثم توقف لبرهة من دون أن يحصل على جواب. ولذا حاضر في هذا الموضوع حوالى دقيقتين أخريين. ثم توقف فجأة كما بدأ.

وحلَّ صمت ثقيل حول الطاولة.

نظرت حول الغرفة. ولكن لم يقل أحد شيئاً.

وتساءلت ما الذي يدخّنه؟

لم يوجد في ما جمعناه من استخبارات أو تحليل ما يورّط العراق في هجمات ٩/١١. بل إن صدام حسين، على العكس من ذلك، طاغية علماني لا يأنس أبداً إيديولوجية القاعدة أو يعتبرها حليف مصلحة. وبالرغم من أن صدام إرهابي ويدعم مجموعات إرهابية، وبخاصة تلك التابعة للشبكات الراديكالية الفلسطينية، فإنه رأى في القاعدة تهديداً أكثر مما رأى فيها حليفاً. أضف إلى ذلك أن القاعدة نظّمت ودرّبت وخطّطت لهجمات ٩/١١ من أفغانستان وليس من العراق.

جلست صامتاً، إذ بدا الأمر أغرب من أن يستدعي ردّاً، وبخاصة مني أنا الفتى الجديد والغرّ السياسي والشبح الميداني. بيد أنه لم يعترض أحد على ولفوفيتز. وصرفت النظر عن التعليق بوصفه منطقاً ملتوياً مؤقتاً وانحرافاً لدى رجل هو في ما عدا ذلك زعيم سياسي مسؤول. ولم أمتلك أي فكرة عما ستتكشف عنه السنتان المقبلتان.

يوجد أمر لفتني في ذلك الاجتماع إلى جانب انجراف ولفوفيتز إلى العراق، وهو ضرورة لقاء الجنرال تومي فرانكس. فهو المقاتل في الحرب. وقد احتجتُ إلى خدمة صانعي السياسة والزعامة السياسية في واشنطن، لكنني احتجت أيضاً إلى شريك عسكري تماماً كما تحتاج فرقي في أفغانستان إلى القوات الخاصة وإلى القوة المتضافرة للقوات المسلحة الأميركية وبخاصة منها سلاح الجو. فالذراع شبه العسكرية للسي.آي.إيه صغيرة وضعيفة بعبارات قوة النيران الحركية الخام. عرفتُ أن مهمتنا ستفشل من دون شركاء عسكريين على كل من المستوى الاستراتيجي في الولايات المتحدة والمستوى العملاني في أفغانستان. ويتوجب على القيادة المركزية أن تكون هي الشريك في الولايات المتحدة وليس البنتاغون.

طلبت من فريقي، بعد عودتي إلى مكتبي، أن يأخذ لي موعداً مع الجنرال

فرانكس في تامبا. وكلما بكّرنا في ذلك كان أفضل. وسآخذ معي العقيد بن كلارك مستشاري العسكري من القيادة المركزية.

حفرة الأرانب

توسّع في غضون أيام كياننا الجديد الذي سُمي مركز مكافحة الإرهاب/العمليات الخاصة إلى أكثر من خمسين ضابطاً متكرّساً تماماً. وهناك خمسون آخرون في خدمة «البريداتور» التي انتقلت إلى إمرتي. لم نتشدّق ونهذي في شأن ما سنقدم عليه من انتقام. حتى أننا لم نناقش دوافعنا. فلا حاجة بنا إلى ذلك.

توسّع مجالنا من مكتب صغير وحيد إلى حفرة أرانب مؤلّفة من مكاتب ذات أسقف منخفضة في قبو مقر القيادة. واكتظت الممرات الصغيرة والمكاتب بمحطات الحواسيب الطرفية، وبأسلاك التمديد وآلات النسخ وعتاد الطقس البارد وبعض المعدات التقنية التي لم يمكنني التعرف عليها. وألصقنا الخرائط على ما توفر من مساحات الجدران.

علّقتُ في مكتبي نسخة عن بيان استخدمه المستكشف البريطاني الكبير أرنست شاكلتون خلال حملة التجنيد في ١٩١٤ لبعثة القطب الجنوبي: «مطلوب ضباط لرحلة محفوفة بالخطر. معاشات ضئيلة. برد قارس. أشهر طويلة من الظلمة التامة. خطر مستمر. عودة سالمة غير مضمونة. تكريم وتقدير في حال النجاح».

تصوّرت أنه لا يوجد ما هو أفضل من الدعاية الصادقة خصوصاً إذا أردنا اجتذاب الأفضل.

شدّد ماسي، الخبير في التنظيم، على نوعية جماعتنا ورفاهها. أجريت وإياه معاً مقابلات مع قادة الفرق، وعرفنا أنهم مفتاح النجاح. وتألفت الفرق العملانية من قائد للفريق ومن ضابط عمليات محنّك يمتلك الخبرة المطلوبة واللغات، ونائب للقائد وهو في العادة ضابط شبه عسكري من قسم النشاطات الخاصة. وضم كل فريق ضابط اتصالات وطبيباً وخبيراً تكتيكياً أو اثنين. وغالباً ما يطعّم

الفريق بضابط مشغَل يمتلك مهارات فريدة في اللغات وفي مكافحة الإرهاب. ولم يزد عدد أي فريق عن الثمانية.

كبر هؤلاء الأشخاص على القتال إذ تجاوز معدل أعمارهم الأربعين بكثير. وقد بلغ قائد فريق مكسّري الرؤوس، غاري شرون الذي بات في وادي بنجشير، الستين وهو في منطقة الانتشار. إلا أن مهمتهم ليست القتال، ولو حصل بعضه، بل تتعلق بالأحرى بجمع المعلومات وقيادة العمل الخفي. بيد أننا ركزنا في معايير الانتقاء على الخبرة القوية في مكافحة الإرهاب والقدرة المثبتة على القيادة. وهكذا كان قادة الفرق من الرتب العالية، وتعادل رتبة معظمهم رتبة عقيد في الجيش. وشكّل شرون نسخة السي.آي.إيه لجنرال بثلاث نجوم يقود فرقة كوماندوس، وهذا ما يستحيل في الجيش ولا يمكن التفكير فيه.

قضت الخطة بأن يتخذ قادة الفرق القرارات العملانية التي تطلبها التطورات، وأكّدنا على انحياز ميداني مشدّدين على مطاردة للعدو لا ترحم. قضت مهمتي بصياغة الاستراتيجية وبدعم الفرق في كل شيء، من التوجيه السياسي إلى علف الحصان، وطالبت قادة الفرق باتخاذ القرارات العملانية. أردت أن تتخذ القرارات الميدانية بسرعة وبدقة وبدينامية، وطالبت بالخبرة ولكن بالقيادة غير التقليدية. أردت نخبة موارد السي.آي.إيه، الواحد من بين مئة.

امتلك أحد قادة الفرق، وهو ضابط سابق في الجيش وعميل قديم في السي.آي.إيه يتحدث الفارسية والداري (اللهجة الأفغانية للفارسية)، خبرة في أفغانستان. وهو شخص طويل القامة، ضخمها، ومتخصص أكاديمياً في علم الإنسان، وقد سألني عن مهمته.

سرت إلى الخريطة وأشرت إلى خمسة أقاليم في الجزء الشمالي من البلاد.

«هذه لك. سيتم إنزالك جنوب مزار. توجّه شمالاً واحتل مزار وامضِ شمالاً حتى الحدود مع أوزبكستان. نريد الوصول إلى «جسر الصداقة» الذي يربط

أفغانستان بباقي آسيا الوسطى؛ وسيوفّر لنا هذا طريقاً للإمداد عبر البر. ستقطع فرق أخرى الطريق جنوب كابول، عند نفق سالانغ، بحيث يعزل ذلك ما تبقى من العدو في جيب هناك، في قندوز. وقد نشر شرون بالفعل شخصين شمالاً في المرتفعات شرق قندوز. وسيكتسح حلفاؤنا الأفغان من هناك نزولاً عبر الجبال على امتداد سهل نهر أمو داريا فيتصلون بقواتك في شمال قندوز وجنوبها محكمين الطوق. وسبق لحلفائنا الأفغان، في ١٩٩٧ ، أن أوقعوا الطالبان في الشرك في هذه البقعة بالذات وبالطريقة نفسها، لكنهم لم يتمكنوا من إنهاء العمل. إلا أننا هذه المرة سنفعل».

أجاب: «نعم، سيدي».

استمر المثقفون جميعهم، بمن فيهم بعض من هم في مركز قيادة السي. آي.إيه، في العزف على نغمة الكارثة البريطانية في ١٨٤٢ وانسحاب السوفيات المخزي في ١٩٨٩.

إلا أننا لن نغزو، إنما نحن ندعم ونمكّن تمرداً ضعيفاً ومنقسماً. وبالتالي فإن التاريخ المحلي المعاصر القبلي والعسكري هو الذي ينطبق على حالتنا وليس دروس غزوات الاستعمار.

وأضفت: «حاول أن تمنع أصدقاءنا الأفغان من قتل بعضهم بعضاً». سيتعامل فريقه مع ثلاثي من القادة: عبد الرشيد دستم، وهو أوزباكستاني؛ ومحمد محقّق، من الهزارة الشيعة؛ وأستاذ عطا محمد، وهو طاجكستاني. ويقودون مجموعات منفصلة من المحاربين القبليين الذين يقاتلون معاً في تحالف هشّ.

أدرك كل قائد فريق، ويإمرته حفنة صغيرة من الرجال، أن هدفنا يقضي بصياغة انتصار أفغاني على الغزاة الأجانب: العرب والشيشان والباكستانيين وغيرهم ممن يشكلون صفوف القاعدة. وقد اختطفوا حكومة الطالبان لغاياتهم الخاصة. وهذا أساسي للنجاح: على الأفغان أن ينظروا إلى القاعدة بوصفها

الأجنبي الدخيل وليس نحن. يجب أن نقنع الأفغان بقضيتنا المشتركة ضد أولئك الأعداء الأجانب، ويجب أن نساعد الحلفاء الأفغان على التجنيد وأن نشجع ونقود زعماء القبائل الآخرين ليصطفوا معنا.

نظرت إلى قائد الفريق، وهو واحد من خبرائنا القلّة في شؤون أفغانستان. وبقي على اتصال، لسنوات، مع الأصدقاء الأفغان. أحبهم وأحب بلادهم، وسيعمل فريقه والفرق الأخرى كجامعي معلومات ومنفذين للأعمال الخفية ومستشارين سياسيين ووسطاء وقادة شبه عسكريين. وسيصبح قادة الفرق هؤلاء المحفّز للحملة، وكل شيء يتوقف عليهم.

«اجمعوا الاستخبارات، واعملوا عن كثب مع جيشنا وادعموا الحلفاء الأفغان وأرشدوهم. جنّدوا المزيد من الحلفاء الأفغان. نحتاج إلى المزيد من الرجال تحت السلاح، ونحتاج إلى تجنيد الجيوش. دمّروا القاعدة. خرّبوا الطالبان. إذا أراد هؤلاء الحمقى الانضمام إلينا في مطاردة عدونا القاعدة فحسناً. وإلا فالخطأ خطأهم».

سأل: «متى تنضم إلينا القوات الخاصة؟».

«لا أملك أي فكرة. سيلحقون بنا متى أمكنهم ذلك. نحتاج إليهم لكن لا يسعنا انتظارهم. لا يمكننا انتظار أحد. كل ما نعرفه أن القاعدة ستشن غداً هجوماً آخر على أرضنا أكبر حتى من ٩/١١. لا يسعنا الانتظار. هل من أسئلة؟»

«كلا، سيدي».

«حسناً إذاً. الفريق ألفا لك. حظاً سعيداً».

شكّل ذلك حواراً نموذجياً. زوّدنا في دقائق قليلة قادة الفرق بأوامر المهمة الاستراتيجية، وعليهم تصوّر الباقي وتنفيذه من دقيقة إلى أخرى. وهو ما لا يمكننا القيام به ونحن قابعون في مقر قيادة السي.آي.إيه على بعد ستة آلاف ميل منهم.

قمت لاحقاً بدراسة خرائطنا، الأمر الذي أفعله مرات عدة في اليوم. ويمكن

للجغرافيا الطبيعية، المؤثرة والمهيبة، أن تغمر المرء إذا نُظر إليها بوصفها حاجزاً. أما إذا نُظر إليها بعين التمرد، وهو ما نحن عليه، فإنها تقدم أفضلية عظيمة. وقد حددت التضاريس الطوبوغرافية القاسية والإحداثيات الجغرافية لحلفائنا، وهي مؤكدة ومحتملة في آن، استراتيجيتنا الجغرافية.

سننزل فرقنا في الأمكنة التي أنشأ فيها حلفاؤنا الأفغان مناطق عمليات شبه مأمونة بما فيه الكفاية. والسبب في ذلك بسيط وهو أنه لا توجد مواقع أخرى ممكنة ينزل فيها رجالنا الذين سيتصلون بزعماء القبائل؛ ونحن أقمنا بالفعل اتصالاً مع معظمهم.

أصبح فريق تكسير الرؤوس بالفعل في بنجشير. وستهاجم القوة الحليفة المشتركة، بالعمل مع الجنرال محمد فهيم، من حصونها في وادي بنجشير الذي يفتح على التلال الشمالية التي تحد السهول الشمالية. وسينطلقون كالعاصفة عبر هذه السهول إلى كابول. ويقطعون الطريق من كابول إلى قندوز. وينطلقون من معاقلهم الجبلية أبعد إلى الشمال ويتقدمون صوب مدينتي طالقان وقندوز.

وسينتشر فريق «ألفا»، الذي سيتوسع ويتطور إلى فريقي «ألفا» و«برافو»، جنوب مزار الشريف ويتقدم شمالاً.

سيلتقي فريق «تشارلي» مع إسمعيل خان وقواته. وسيهاجمون من قاعدتهم في وسط غرب أفغانستان مستهدفين هيرات، الواقعة إلى الغرب، على مقربة من الحدود الإيرانية. ويقطعون الطريق الدائري شمال هيرات وجنوبها. وسيمنع هذا التدخل أي تعزيزات للطالبان من بلوغ الشمال.

سينزل الفريق «دلتا» في مقاطعة باميان في وسط أفغانستان غرب كابول. وقد تاق زعيم الهزارة الشيعة كريم الخليلي بنوع خاص إلى وصول فريقنا. فقد تعرض الهزارة لاضطهاد لا يرحم من الطالبان وباتوا يسعون يائسين إلى مساعدتنا لهم.

بدا أن استراتيجيتنا في النصف الشمالي من أفغانستان والتي صُممت لتعزيز الميول العسكرية لحلفائنا الأفغان، هي خيارنا الوحيد إذا أردنا ردّ الضربة بسرعة. أراد فهيم السيطرة على كابول؛ ودستم على مزار الشريف؛ وخان على هيرات؛ والخليلي على باميان. وقضت مهمتنا بدعمهم فيما نحيك أهدافهم الفردية ونحولها إلى حملة متماسكة ومنسقة، ونقوم بذلك كله ونحن نتابع أولويتنا الأولى القاضية بتدمير القاعدة. فانتداب الرئيس لنا واضح، وحملتنا الأفغانية وسيلة للوصول إلى الغاية وهي الدفاع عن الولايات المتحدة من خلال القضاء على القاعدة. وشكّل تحالفنا الأفغاني المتمادي الطريقة الأفعل والأسرع لتحقيق هذه الغاية.

تميز أساس هذا التحالف بالبساطة. أرادت السي.آي.إيه القاعدة وأراد حلفاؤنا الأفغان استعادة بلادهم.

بيد أن صياغة الخطة وتنفيذها غاية في التعقيد. فأفغانستان ليست دولة قومية بقدر ما هي أرض التحالفات القبلية الدائمة التغيّر إلى درجة تكاد تستعصي على الفهم، ناهيك بالتنسيق والقيادة. ووُجدت بدلاً من نقطة دخول واحدة نقاط عدة منتشرة في كل أنحاء البلاد وفي كل طبقة من طبقات المجتمع. ويصح هذا بنوع خاص في الجزء الجنوبي من أفغانستان الذي هو موطن الطالبان.

أخذ بعض من في السي.آي.إيه جانب جهاز الاستخبارات الباكستاني أملاً في الدفع إلى صفقة ما مع الطالبان، وأراد تينيت منح الباكستانيين بعض الوقت لمعالجة المسألة الجنوبية. عارضتُ الأمر لكن اعتراضي أُسقط. عرفت أن الباكستانيين لن يتمكنوا من معالجة الأمر لأن ذلك ليس في مصلحتهم، فهم الذين أوجدوا الطالبان. أراد الزعماء الباكستانيون أفغانستان طيّعة تمنحهم عمقاً استراتيجياً ضد الهند. فباكستان بلد ضيّق، وهجوم هندي ساحق عبر سهل البنجاب يشكل خطراً وجودياً على حلفائنا الباكستانيين. إلا أننا، وباستثناء تينيت ومكتبنا في إسلام أباد، عرفنا أن الاستخبارات الباكستانية ليست الجواب، وبالتأكيد ليس

عندما يكون وطننا على المحك. وغالباً ما تشابهت مصالح الولايات المتحدة وباكستان لكنها لا تتطابق باستمرار.

أدرك نائب وزير الخارجية ريتشارد أرميتاج هذا. وسلم الرئيس الباكستاني برواز مشرف رسالة قاسية وواضحة ردّ عليها الأخير بدعم علاني وسياسي لجهودنا ضد القاعدة. إلا أن الاستخبارات الباكستانية وسواها استمرت في عدم القبول بنيتنا إطاحة زعماء الطالبان إذا لم ينقلبوا على القاعدة، وهو ما لم يقبل به أيضاً بعضٌ من يعانون حالة من الزبائنية[1] في الـسي.آي.إيه. واستمرّيت في الدفع في مواجهة هذه المقاومة وأنا أعلم علم اليقين أن الاستخبارات الباكستانية لن تقوم بالأمر وعندها سنمضي قدماً. ولم يستغرق الأمر طويلاً.

زرت البنتاغون في الأول من تشرين الأول/أكتوبر حيث التقيت رامسفلد وولفوفيتز والرئيس الجديد للأركان المشتركة الجنرال مايرز. وشهدنا اتصالاً جماعياً بالفيديو ضم الجنرال فرانكس في تامبا وممثلين عن الحكومة الأميركية في إسلام أباد. أعرب المسؤولون الأميركيون، كما هو متوقع منهم، عن الآمال الباكستانية بأنه يمكن، ما إن تبدأ حملة القصف، الضغط على الطالبان لتسليم زعامة القاعدة. ولم يستبعد تينيت ذلك. إلا أنني شعرت بالاستياء لما بدا لي أنه إضاعة كلية للوقت. وتحدث مسؤولونا في باكستان عن احتمال حرب أهلية بين الشمال والجنوب في أفغانستان يحارب فيها الطاجك والأوزبك وغيرهم ضد الباشتون، الذين يستمد الطالبان الدعم منهم. وهذا بالتأكيد إمكان حقيقي ويبرز الحاجة إلى إقناع قبائل الباشتون بالقتال ضد الطالبان. إلا أن التهديد بالحرب الأهلية الأفغانية لا يشكل مبرّراً لانتظار الاستخبارات الباكستانية لجر الطالبان إلى طاولة المفاوضات والأمل في أن يسلموا القاعدة. فهذا لن يحصل.

قال رامسفلد إن الباكستانيين لن يستطيعوا إقناع الطالبان بتسليم القاعدة. ومال ولفوفيتز إلى الموافقة معه. ولم يتفوّه مايرز بالكثير.

(١) [الذين يعتبرون أن من يتعاملون معهم زبائن].

سألني رامسفلد على أثر الاتصال الجماعي بالفيديو عن رأيي، فقلت له إنه على حق وإن الممثلين الأميركيين في إسلام اباد على خطأ، وبدا أن رامسفلد سُرّ بذلك. وتساءلت عما سيفعله حيال ذلك التنافر الداخلي في السي.آي.إيه.

وأبلغت كذلك فريق قيادة وزارة الدفاع أنني سأسافر إلى تامبا في غضون يومين للقاء الجنرال فرانكس. إلا أن الأمر الأول الذي فعلته في الصباح التالي هو الاتصال هاتفياً بصديق لي في الخارج.

كرزاي

تميز الاتصال بالوضوح من مقر قيادة السي.آي.إيه وصولاً إلى المركز الأمامي الصغير في باكستان على مقربة من الحدود الأفغانية.

«ماذا تفعل يا غريغ، بحق الجحيم؟»

«أنتظر أن تصحّح الأمور في واشنطن وتدعني أدخل إلى أفغانستان. ما الذي يؤخركم إلى هذا الحد؟»

«رئيسك، جزئياً»، أجبته وأضفت بعض التفاصيل.

تولّى ممثلونا في إسلام أباد مسؤولية كل عمليات السي.آي.إيه والعناصر في البلاد ومن بينهم غريغ. وجاء اتصالي الهاتفي بغريغ من دون التنسيق معهم أحمق في أفضل الحالات، فقيادته الميدانية في قسم الشرق الأدنى تقطب حاجبيها حيال أي التفاف حول سلطاتها.

لم أستفض في مسألة سلسلة قيادة غريغ الذي أدرك ذلك من دون اضطراري إلى إيجاز النزاع الداخلي. أردت أن يعرف فحسب أنه أساسي لخطتنا في الجنوب، وهي أساسية لاستراتيجيتنا بكاملها.

«سأدخلك إلى أفغانستان. وما عليك الآن إلا أن تبقى في مكانك. ما هو الموضوع مع كرزاي؟»

قدّم لي غريغ إيجازاً مختصراً وواضحاً. احتاج كرزاي إلى كل من دعمنا

السياسي والمادي، وأبلغته بأن يوفَر لكرزاي ما يريده. وسأشرع في وضع الأسس للمدير تينيت ولصانعي السياسة عندنا، ونحن نسعى إلى توافقهم على خطط غريغ.

تولّى والد حميد كرزاي زعامة فرع بوبلزاي في القبيلة الباشتونية، وأعدمه الطالبان منذ أعوام عدة. أراد كرزاي يائساً، وهو الخليفة المثقف لموقع والده السياسي، الانتقام من الطالبان وتحرير بلاده. أدرك في أعقاب ٩/١١ أن على الولايات المتحدة أن تشن هجوماً مضاداً، وعرف الفرصة المتاحة. وطلب غريغ، بتوجيه مني، وجهة نظر كرزاي التي وفَرت المعلومات لخططنا. كما أوجز غريغ له حملتنا وبرهن التزامنا حياله وحيال قبيلته بمبلغ وافر من المال.

بعد ذلك بأيام قليلة، في أوائل تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، تسلّل كرزاي وفي حقيبته نحو مليوني دولار من باكستان إلى جنوب أفغانستان مستخدماً دراجة نارية. اجتاز المسافة من دون مواكبة متفادياً حواجز الطرق التي نصبها الطالبان، مستخدماً مهارته وشجاعته في بلوغ بلدته تارين كوت.

استخدم التمويل الأميركي وقيادته المقْنعة للشروع في تجنيد رجال قبيلته وتشكيل ميليشيا، ووعدهم بالدعم الأميركي. وقد كره رجال قبيلته الطالبان، لكن حافزهم بقي غير كافٍ من دون امتلاك وسائل شن الحرب.

واصل غريغ الإلحاح عليّ. أراد الانضمام إلى كرزاي ليبرهن أن الولايات المتحدة تقدم ما هو أكثر من المال والوعود، وأدرك كلّ منا أن الأفغان لن يثقوا بنا إلا إذا شاركناهم في القتال، جنباً إلى جنب. طلبت منه الانتظار شارحاً بأن البيت الأبيض يريد فهم خطتنا التي لا نزال في طور وضعها ساعة بساعة.

أجملنا، مدير السي.آي.إيه جورج تينيت وأنا، الوضع السياسي في اجتماع آخر في «غرفة الأزمات» في البيت الأبيض ترأسها الرئيس جورج و. بوش. وشرحتُ للرئيس ولكبار مسؤولي مجلس الأمن القومي أن كرزاي يحظى بتأييد زعماء التحالف الشمالي، وقد عرفتُ ذلك لأنني طرحت عليهم السؤال بشكل

مباشر. واتفق الأوزبك والطاجك والتركمان والهزارة على أن كرزاي هو الزعيم السياسي الوحيد الذي يمكنه أن يجمع معاً مناطق الباشتون وغير الباشتون في البلاد. وإذا لم يستولِ كرزاي ورجاله على قندهار، حصن الطالبان المديني، فستصبح حظوظنا في أفغانستان موحدة ضد الطالبان أمراً مستبعداً. لم يسبق للرئيس وللآخرين طبعاً أن سمعوا بكرزاي، فطرحوا الأسئلة وأجبت عليها وعملوا بنصيحتنا.

هرعت والمدير تينيت عائدين في موكب سياراته إلى مقر قيادة السي. آي.إيه واتفقنا على أننا حصلنا على ما نحتاجه. أبلغت المدير أنني سأفلت غريغ من عقاله. واكتفى تينيت، بسيجاره المقضوم غير المشتعل المثبت بين أسنانه، بالهمهمة.

عدت في غضون ساعة على اجتماع البيت الأبيض إلى مكتبي في مقر القيادة. وأرسلت برقية إلى غريغ مخصّصة له فقط ولا يمكن لأي أحد سواه الاطلاع عليها. أردت بياناً مكتوباً جاء بشكل رسالة بسيطة: «رئيس الولايات المتحدة موافق. أرجو المباشرة».

لم يحتج غريغ إلى أمر عمليات مفصّل، ولم يحتج إلى فريق تخطيط. سبق لي أن أطلعته على مهمته، أو أنه ـ لمزيد من الدقة ـ أوجز مهمته المقترحة ووافقتُ عليها. أراد هدفاً واضحاً وما يحتاجه من موارد لبلوغه، وأراد أيضاً أن أدعمه وكوفر في مقر القيادة وفي واشنطن من دون أن يطلب منا ذلك. عرف أن ذلك واجبنا.

برنتسن وبتسي

طلبت من غاري برنتسن أن يقود عملية تنظيم الفرق ودعمها من مقر القيادة، وقد سبق لغاري أن عمل معي في مركز مكافحة الإرهاب. أرسلته في آذار/ مارس ٢٠٠٠ إلى أفغانستان في مهمة عالية المخاطر، وهو يعرف بالتالي حلفاءنا

ويعرفونه. يتحدث لهجة الداري الفارسية، وهو أيضاً عميل شرس يمتلك مقاربة غير تقليدية، وأحيانا عديمة الرحمة، لمكافحة الإرهاب. وقد أحببت الفتى.

اقتحم مكتبي وفتحتا أنفه تتوسّعان وتنغلقان أشبه بثور يبحث عما ينطحه. وقد غادر عمله كرئيس محطة في الخارج لينضم إلينا بعد أن تدخلتُ وكوفر لدى رئيس قسمه الممانع.

«مرحى يا غاري. اجلس».

أجبر نفسه على الجلوس. انحنى إلى الامام وذراعاه الضخمتان على ركبتيه.

«هل سبق أن تحدّثت مع ماسي؟».

«نعم، سيدي».

«جيّد. أنت تعرف إذاً. اهتم بكل الفرق الميدانية، وأعطهم كل ما يحتاجونه. يقضي عملنا في مقر القيادة بدعم الميدان، ثم ستحل بعد بضعة أسابيع محل شرون في بنجشير. أنا مسرور لوجودك هنا، ونحن نحتاج إليك».

«لك ذلك». ووقف في ما يشبه وضع الاستعداد. تجعّد جبينه، وأطبق فكّه. انتفخ عنقه الضخم، واندفع رأسه إلى الأمام. ثم هتف بصوت مرتفع بلكنة لونغ آيلند: «أشكرك على إتاحتك الفرصة لي للخدمة تحت إمرتك سيدي. سنقضي على أولئك أبناء الزنى».

أردنا، جون وأنا، أن يُكلّف الضباط الذين يوفرون دعم مقر القيادة للميدان، هم أيضاً، بالعمل الميداني في مآل الأمر. وتقصّدنا تصميم منظومة العناصر في شكل يوفّر الخدمة القصوى للميدان، فيساند فتيان عملياتنا في مقر القيادة فتيان عملياتنا في الميدان، وسرعان ما سيتم تبادل الأدوار. أردنا خلق حوافز متقاطعة على المستويات الأكثر أساسية لكل من المهمة والسلامة الفردية.

شكلت الاستخبارات أساساً لكل ما قمنا به، وعملت بتسي صلة وصل لكل متطلباتنا الاستخبارية وجمع المعلومات ونشرها. هي ضابطة تقارير في الجهاز الخفي لا تقبل بالهراء، وأمضت عشرين عاماً في العمل، وجمعت معاً خليطاً

متنوعاً من الضباط قضت مهمتهم بالتأكد من المتطلبات الاستخباراتية وتسويغها. وقد تراوحت الأسئلة التي طرحوها بين التكتيكية والاستراتيجية.

أين يوجد العدو في وادٍ محدّد؟ ما هو نظام معركته؟ أسلحته؟ وضع تحالفاته مع القبائل الأفغانية المحلية؟ أي من زعماء القبائل الأفغانية الذين تحالفوا مع الطالبان لأسباب تتعلق بالحاجة أو بالمصلحة السياسية سينتقلون إلى طرفنا؟ ما هي خطط حلفائنا الأفغان ونواياهم؟ ما هو وضع جمعهم للاستخبارات وقدراتهم العسكرية؟ كيف يمكن للتوتّر بين القبائل الأفغانية أن يعرقل جهودنا ضد القاعدة أو يساعدها؟ أين تقع الجوامع والمستشفيات والمدارس وغيرها من المباني التي يفترض عدم ضربها؟ أي رجال أعمال أفغان يمكن أن يصبحوا شركاء فاعلين في إرسال المساعدة الإنسانية لإضفاء تأثير على العمل الخفي؟ ماذا بالنسبة إلى وجهات النظر الثيوقراطية لرجال الدين المحليين؟ ما هو وقع ما تطلقه «البريداتور» من صواريخ «هلفاير» على العدو؟ ما هي الأسئلة اللوجستية التي يريد الجيش الأميركي أجوبة عليها؟ ماذا تفعل مجموعة الحرس الثوري الإيراني في أفغانستان؟ ماذا بالنسبة إلى جهاز الاستخبارات الباكستاني؟ ما هو الوقع الاستراتيجي في داخل المنطقة للنزاع الوشيك في أفغانستان؟

وجّهت بتسي أيضاً عملية جمع المعلومات في الميدان طارحة على الفرق السؤال تلو السؤال. ولم تكتفِ بتوفير المتطلبات بل عملت وفريقها على تزويد الميدان بالتحليل وبالتوجيه السياسي. فهمت أن الفرق الميدانية تدرك الأولويات العملانية أفضل من أي شخص آخر، إلا أن الفريق الوحيد المعزول في أحد الوديان يحتاج إلى الحصول على منظور أوسع، نظراً إلى التفويض الموكل إلى قيادته بشكل خاص. ووفّرت لهم بتسي هذا المنظور.

احتجنا، حتى بوجود فرق برنتسن وبتسي إلى ما هو أكثر من الدفق التقليدي للنصوص وللاستخبارات المصوّرة. احتجنا إلى مستوى جديد من الاستخبارات الجغرافية المكانية لنتمكن من استهداف العدو بدقة لا سابق لها. احتجنا إلى

تجنيد أشخاص أفغان إلى جانبنا وسلخهم عن القاعدة والطالبان. وتوجب أن نبرهن اهتمامنا بالأفغان باستهدافنا العدو فقط بالقتل: القاعدة والقوات الأجنبية ومن يرفض الوقوف في صفنا من الطالبان. وسيكون قتل المدنيين الأفغان مداناً أخلاقياً وأحمق استراتيجياً، ولا يمكننا قصف المساجد والمستشفيات. علينا بالدقة في جمعنا للمعلومات وفي استخدامنا للقوة القاتلة.

الصندوق السحري

اتفقتُ وجون على الشروع في إنشاء وحدة استهداف منفصلة ومتخصّصة، وطلبنا المساعدة من عناصر الموارد البشرية في الجهاز الخفي فأرسلوا لنا محامياً.

«لا أريد محامياً. أريد عبقرياً محللاً/عملانياً صلباً. شخصاً يعرف الاستهداف، يعرف التكنولوجيا. أريد شخصاً يمكنه بناء نظام جغرافي مكاني لنتمكن من إصابة الأهداف الصحيحة. لا أريد محامياً يعرب كل كلمة ويتردّد في كل قرار». أخذت أذرع الغرفة ثلاث خطوات جيئة وثلاثاً أخرى ذهاباً. ربما كنت أبحث عن شخص لا وجود له.

نصحني جون بهدوء: «حسناً، دعنا نقابل الفتى».

يكون جون في بعض الأحيان على درجة كبيرة من التعقّل والمسؤولية بحيث يصيبني بغيظ أكبر، لكنني أتجاوز الأمر في العادة.

«حسناً، حسناً. اللعنة.. اذهب وآتِ به».

دخل دان إلى الغرفة. هو شخص متوسط القامة، مرتّب، أنيق ومتبختر، بدا أشبه بمحام ناجح أو مستثمر مصرفي. اعترف بأنه محام، لكنه أيضاً ضابط عمليات بارع. شرحنا له، جون وأنا، ما نحتاج إليه. فلسنا متيقنين من شكل المنظومة أو من طريقة عملها. وعرفنا أن المهمة تتطلب مساعدة جغرافية مكانية.

أجاب جون: «أمهلاني يومين».

لم نمتلك أي خيار آخر. فالفتى يتمتع بثقة بالنفس ولا نمتلك ما يكفي من الوقت لاصطياد شخص آخر.

«حسناً. عُدْ إليّ»، أمرته وأنا أفكّر في أننا لا نمتلك يومين إضافيين.

«بالتأكيد»، أجاب دان صاحب الابتسامة السهلة. أملت أن يتصرّف بأسلوب لطيف ومرتاح جداً، وأملت أنه أدرك ما نحتاج إليه.

المشكلة تثير الغيظ، وقد احتجنا إلى الآلاف من الإحداثيات الجغرافية المكانية العينية نظراً إلى الصورة الدائمة التغيّر والمعقّدة لمجال المعركة الذي بدأ يظهر. احتجنا إلى خريطة ولكن ليس أي خريطة. احتجنا إلى واحدة يمكننا تحديثها باستمرار. وأردت صورة ديناميّة مصمّمة على الطلب وتعكس المتغيرات الكثيرة في أي تركيبة وفي أي لحظة. وتتضمن المتغيرات إحداثيات الصديق والعدو وما هو أكثر بكثير: الطرق، المطارات، الجوامع، المتاجر، المدارس، المستشفيات، الجبال، الأنهر، النباتات، الحدود السياسية، المناطق القبلية، وربما كل شيء. أردت تعقّب فرقنا ومصادرنا في الوقت الحقيقي. فهم سينتشرون في أنحاء البلاد وربما يختلطون مع القوى المعادية. أردت أن تتغذى هذه الخريطة ببث صور من كل مواقع جمع المعلومات.

تعلّمت، وأنا فتى، ومارست الاستخبار الجغرافي المكاني، إلا أن التسمية ضاعت مني في ذلك الوقت. وكانت الخرائط أساسية في مساعدة والدي وطاقمه في مسح الأراضي وفي وضع جردة بأشجار المستنقعات وفي التجوال في تلال بيدمونت. أمكنني تعيين المواقع على الخرائط ورسمها، كما استطعت قراءة الخرائط الطوبوغرافية والصور الجوية. وقد حفظت ولايات الاتحاد عن ظهر قلب بالرغم من أنني خلطت في أحد الاختبارات بين فيرمونت ونيوهامشاير. أثار الخطأ سخطي وتعلّمت، ردّاً على ذلك، تحديد بلدان العالم على خريطة بلا أسماء ألصقتها على جدار غرفة نومي. تابعت الموضوع بعد ذلك بسنوات في جامعة نيو مكسيكو وبرعت في مقرّر حول تفسير الصور الجوية. أمضيت معظم

أحد فصول الصيف الحارة أجول في وادي ريو غراندي جنوب ألبوكرك مقارناً اكتشافاتي بالصور الجوية وغيرها من الخرائط. وشكّلت صور الرؤية المكانية بالنسبة إليّ أكثر من مجرد أداة. فالخرائط تعكس طريقتي في التفكير، وها أنا أريد الآن خريطة تتضمن ما أمكن من المعطيات.

عاد دان كما وعد ومعه الجواب.

قال شارحاً: «لا معرفة لدي في هذا النوع من التكنولوجيا التي تريدها، لكنني عثرت على فتى».

«أي فتى؟».

«فتى يمتلك صندوقاً سحرياً».

«الحقيقة أنه يمكنني استخدام بعض السحر. فما الذي يفعله هذا الفتى وصندوقه؟».

«إنه يتعامل بنظام المعلومات الجغرافي، وهو كناية عن برنامج حاسوب يجمع كل معلومات الإحداثيات الجغرافية التي يمكن عرضها على الخريطة. ويمكن إدارة كل هذه المعلومات وتحليلها من خلال تركيبات عرض مختلفة وفقاً لما تحتاجه».

سألته: «هل يعمل أم أنه في طور الاختبار؟».

«يعمل. ويُستخدم كل الوقت».

«حسناً، أرني إياه».

أمال دان برأسه بعض الشيء وهزّه لي بتهذيب وهرول خارجاً. وجاء بعد بضع دقائق بفتى طويل القامة قوي اسمه كِنْ.

سبق لدان أن شرح لِكِنْ أن مركز مكافحة الإرهاب/العمليات الخاصة يجمع المعلومات في كل أنحاء أفغانستان عن كل من الصديق والعدو. وهو سرعان

ما سيمتلك «موسوعة القصف» التابعة للقيادة المركزية لسلاح الجو الأميركي، وتضم لوائح الأهداف العسكرية هذه الموقع الجغرافي ومنظومة القصف والذخيرة. واعتقد كِنْ، بعدما عرف صيغة كل مجموعة معطيات وكيف تم التزوّد بها، أن في وسعه وضع نظام معلومات جغرافي يستوعب المعطيات ويرسم خريطة كل المتغيرات بما في ذلك الأهداف الممنوعة من القصف التي تواجه خطر الإصابة في خلال طلعة قصف محدّدة. ويمكن لِكِنْ الاستفادة من مركز الخرائط في السي.آي.إيه للحصول على كل أنواع الخرائط. وسيعتمد على مركز مكافحة الإرهاب/العمليات الخاصة لملء النظام بمعطيات أفغانستان.

عندما سأل كِنْ عن انتقاله من عمله الراهن إلى مركز مكافحة الإرهاب/العمليات الخاصة كتب له دان رقم هاتف وقال: «ستعمل لهانك كرامبتون. ويمكن لرئيسك، إذا راودته أية أسئلة، الاتصال بهذا الرقم. أراك بعد عشر دقائق».

ها إن دان وكِنْ في مكتبي الآن. ارتدى كِنْ ملابس غير رسمية، وكانت الطاقة تطفح منه وتكاد عيناه تجمحان توقّعاً بما يتعارض بشكل حاد مع دان البارد. شرح كِنْ خطته لنظام المعلومات الجغرافي. ولم أفهم كيفية عمله لكنني استوعبت الجوهر والأهم من ذلك أن كِنْ بدا عارفاً ما نحتاج إليه. أمكن تحسّس ثقته بنفسه وحماسته، فطلبت منه الشروع في العمل واطلاع دان على أي مشاكل يواجهها.

في غضون أربع ساعات جهّز كِنْ حواسيبه وتراخيص برامجها وشرع في إدخال المعطيات لعملياتنا.

أمكننا بعد حوالى يومين تكييف خرائط كِنْ بشكل فوري. وبات بإمكانه، رداً على الأسئلة وببضع نقرات على المفاتيح، عرض مواقع العدو مع طبقة تظهر كل الطرق في مقاطعة محدّدة، تتبعها طبقة أخرى للإحداثيات الدقيقة لمصادرنا مع طبقة أخرى للخريطة الطوبوغرافية. وبلغت تركيبات الطبقات العشرات. وتمكن كِنْ وفريقه في مآل الأمر من احتساب وعرض مئات التركيبات، وكل ذلك يتوقف على المعلومات التي نغذي بها النظام وعلى ما نريده.

ساعدنا النظام على إدارة المعطيات ووفر لنا قدرة على المشاهدة في الوقت الفعلي. وبات في وسعنا إلقاء نظرة على الخريطة الإلكترونية لنعرف الوضع على الفور، ما جعل اتخاذ القرارات القيادية أكثر سهولة. شرعت في تفحّص الخريطة في وقت مبكر من كل يوم، وفي الغالب في سياق النهار والليل.

كان الصندوق السحري، كما بدأنا نسميه، أفضل مما أمكنني تصوّره.

بدأت حملة القصف يوم الأحد في السابع من تشرين الأول/أكتوبر ووُضع النظام في الاختبار الأقصى. ولم تحصل أي حادثة في الحملة أدت إلى مقتل أحد الأخوة. ونجا الجميع بالرغم من الحالات الكثيرة التي وُجدت فيها فرقنا أو عملاؤنا الأفغان في المناطق المستهدفة أو على مقربة منها في اللحظة التي سبقت الغارات الجوية.

اقتربت طائرة «بي-٢» في إحدى المرات من هدفها الأولي في وقت فقدنا فيه الاتصال بمصدرنا الأفغاني ولم نتمكن من التأكيد بأنه غادر المنطقة. أدار الجنرال في سلاح الجو مايك «باز» موسلي وفريقه الذي ضم ممثلاً عن السي.آي.إيه الحملة الجوية من مركز قيادتهم في إحدى بلدان الخليج الفارسي. نبّهنا قيادة الجنرال موسلي إلى مشكلتنا وطلبنا إلغاء المهمة فحوّل فريقه على الفور مسار الـ «بي-٢». أدى «باز» وفريقه، وأخص منهم الطيارين، عملاً رائعاً. دكّوا الأهداف العدوة بدقة، وتحاشوا بالدقة نفسها المناطق التي يُحظر قصفها. وشكّلوا زبائن مسؤولين ومتطلبين للاستخبارات وشركاء تواقين للقتال.

في مناسبة أخرى، وفيما كان دان وكِنْ يشاركان في أحد الاتصالات المتعددة الأطراف بالفيديو التي تحصل مرتين في اليوم مع القيادة المركزية للجيش، استعلم شركاؤنا العسكريون إن كان لدينا فريق من السي.آي.إيه على الطريق الواقع جنوب بغلان وكان كِنْ يأخذ دوماً حاسوبه المحمول إلى هذه الاتصالات. أظهر آخر المعطيات عدم وجود أي فرق أو عملاء أو حلفاء في أي مكان في تلك المنطقة، وأبلغتُ القيادة المركزية، التي ضمت قيادة الجنرال موسلي، أن طائرات

«أف-١٦» تلاحق قافلة محتملة للعدو. أبلغهم كِنْ ودان أن كل شيء على ما يرام، فشنّت طائرات الـ «أف-١٦» هجومها.

قبل أيام من أول عملية عسكرية أميركية في الجنوب، على مقربة من قندهار في ١٩ ـ ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر، طلب ضابط الارتباط في قوة العمليات الخاصة الملحق بمركز مكافحة الإرهاب/العمليات الخاصة من كِنْ معلومات عن تلك المنطقة. وقد استحصل جهاز الخرائط في السي.آي.إيه للتو على بعض معطيات نظام المعلومات الجغرافي عن حقول الألغام في أفغانستان. اتصل كِنْ بالمكتب والتقط المعطيات على صندوقنا السحري وزود بها زبوننا العسكري. وبات في جعبة الكوماندوس الأميركيين خرائط تحتوي على أحدث المعطيات عن حقول الألغام.

طلبتُ من دان وكِنْ تقديم إيجاز للمدير تينيت. وهو إيجاز افتُرض أن يستغرق عشر دقائق لكنه استمر لساعة. وأعطى كِنْ، مستخدماً حاسوبه المحمول، مثالاً بعد مثال على طريقة عمل النظام.

طالب قادة الجيش والكونغرس في الأسابيع التي تلت بإيجازات عن الصندوق السحري، حتى أنني سأستخدم خرائط مطبوعة من النظام لإطلاع الرئيس وغيره على عملياتنا.

ازدادت العمليات حجماً وتعقيداً وتوسّع معها الفريق العامل في شعبة الاستهداف التابعة لنا. وتوسّع النظام من حاسوبَيْ مكتب مع الحاسوب المحمول الذي يستخدمه كِنْ وثلاثة ضباط آخرين إلى شبكة من حواسيب المكتب وطابعة وآلة رسم خرائط وشاشة مسطحة للإيجازات الجماعية تُظهر آخر المستجدات من الليلة السابقة ومواقع فرقنا والعمليات العسكرية ومواقع العدو الأساسية. وأعطيت التوجيهات ببث معطيات الخرائط الإلكترونية إلى القيادة المركزية للجيش ليتمكنوا من الحصول على المعلومات الجغرافية التي لدينا.

عمل دان وكِنْ على دمج مجتمع الاستخبارات في عملياتنا الاستهدافية.

فعلى سبيل المثال قامت وكالة الأمن القومي يومياً بتزويد مركز مكافحة الإرهاب/ العمليات الخاصة بإحداثيات جغرافية محددة للأهداف، إلا أن فريق كِنْ أمضى ساعات في إعادة صياغة المعطيات لاستخدامها في نظام المعلومات الجغرافي خاصتنا. وابتدع أحد ضباط كِنْ برنامجاً نصّياً يمكنه سحب المعطيات من التقارير بشرط أن تغيّر وكالة الأمن القومي صيغتها. ودعا كِنْ فريق الوكالة إلى المركز للتعريف، وشرح للزوار كيف نستخدم معطياتهم وكيف نجهد لتضمينها نظامنا، واقترح أن تعيد وكالة الأمن القومي صوغ تقاريرها بما يتناسب مع حاجاتنا. أعطى إداريو الوكالة الزائرون ومحلّلوها موافقتهم على الفور، وفي اليوم التالي ضمّن فريق كِنْ معطيات الوكالة التي أعاد نظامنا صوغها في دقائق بدلاً من الساعات.

أنشأ مركز مكافحة الإرهاب/العمليات الخاصة أيضاً نظاماً لمشاركة الميدان بمعطياته، بل إنه أوجد نسخة طبق الأصل عن خريطتنا الإلكترونية في محطة كابول. ومع تزايد الطلب على ما يجمعه انتشارنا من استخبارات سافر كِنْ في عام ٢٠٠٢ إلى أفغانستان لتركيب نظام المعلومات الجغرافي نفسه لزبائننا في الجيش.

سينتهي الأمر بكِنْ وفريقه في تعليم أفراد من ضباط الميدان كيفية استخدام الحواسيب المحمولة لنظام المعلومات الجغرافي الموضوعة في الخدمة. حمّل مركز مكافحة الإرهاب/العمليات خاصة كلَّ حاسوب محمول بطبقة كبيرة من ملفات المعطيات وسيبثّ طبقات معطيات محدثة مع كل تغيير في المعلومات. أتاحت هذه المعطيات لكل قاعدة وفريق، بل ولكل ضابط فردي، الحصول على الرؤية نفسها لساحة المعركة التي لمقر القيادة، ما يجعل التخطيط العملاني أكثر تماسكاً وتفاعلاً بكثير.

سيعثر دان وكِنْ لاحقاً على برنامج رسوم بيانية ثلاثية الأبعاد يعرض التضاريس الأفغانية على الشاشة. وسنقوم بطيران افتراضي إلى مجال المعركة

هذا، نلفّ وندور ونحن نراقب كل مسار ومنفذ وحافة. كانت التجربة غريبة حقّاً ومفيدة للغاية.

سوّغت هذه الصورة الدينامية، مقرونة بالصورة الدقيقة، منظوراً جديداً للحرب لكل من السي.آي.إيه والجيش وصانعي السياسة. ابتدعنا الصندوق السحري لاستخدامنا الخاص ولاستخدام زبائننا.

هذا الوعي الحاد لحاجات الزبون هو الذي يجعل السي.آي.إيه تختلف عن باقي وكالات الاستخبارات التي تجمع المعلومات لمهماتها وحسب؛ فالأف. بي. آي تعمل للحصول على الدليل للمقاضاة؛ وتسعى وكالة استخبارات الدفاع لتلبية متطلبات الجيش؛ وتجمع السي.آي.إيه من جهة أخرى المعلومات وتحلّلها لطائفة من الزبائن، من الرئيس إلى الدبلوماسي إلى الجندي.

أجبر الواجب المتمثل بخدمة الزبائن، مقروناً بمزيج من الموهبة المستوحاة على غرار موهبة دان وكِنْ، مركز مكافحة الإرهاب/العمليات الخاصة على التجربة والابتكار. ولن يبقى جمع المعلومات الجغرافية المكانية والتحليل والتوزيع كما كان، وكذلك الحرب.

القيادة المتشابكة

تميّزت حملتنا في أفغانستان مع ذلك بأنها غير اعتيادية. وقد لعبنا فيها معاً دور جامع المعلومات الرئيسي والزبون الرئيسي. استهلكت الفرق، بفعل دورها الضخم في العمل الخفي، الاستخبارات لاستخدامها الخاص. ولم يسبق قط للسي.آي.إيه أن تصدّرت عملية جمع المعلومات وتحليل المنتوج ووضع استراتيجية، ومن ثم تطبيق العمل الخفي عند الطرف الحاد لفن الحكم والحرب.

أدركنا أن دعم مدى انتشار الفرق لا يتطلّب المساندة المادية والسياسية فحسب، بل الاستخباراتية أيضاً. دفعنا إليهم بما أمكننا من المعلومات وشجعناهم على تقاسمها بعضهم مع بعض. وتمكنت الفرق في الغالب، بفضل دينامية

التواصل الفرعية هذه، من الرد بسرعة أكبر وفاعلية، بل أحياناً قبل أن نتمكّن في مقر القيادة من معرفة الإجراء الذي يقومون به. وهذا أكثر من حسن، وهو ما أردتُه تماماً. برهن القادة الميدانيون قيام تعاون استخباري تام ومتشابك وعمل خفي في أفضل حالاته.

وفي أحد الأمثلة على ذلك أن قائد الفريق «ألفا» على مقربة من مزار الشريف اتصل ليستعلم عن عدم قدرة مقر القيادة على إلحاق فريق بقبائل الهزارة في وسط أفغانستان. فاتصالنا الوحيد بهؤلاء الحلفاء الأفغان يصل عبر اتصالات هاتفية من خلال محوّل في أوزبكستان. تمثّلت المشكلة الكبيرة في عدم معرفتنا بمناطق هبوط محتملة في مقاطعة باميان، ولم نعرف أين يمكننا إلحاق فريقنا، كما لم نمتلك ثقة كبيرة بقدرة الهزارة على صد الطالبان ونحن ننزل الفريق في وسطهم. كنا عالقين.

بيد أن قائد فريق «ألفا» تطوّع لنشر اثنين من رجاله برّاً في شاحنة عبر الريف الأصعب في أفغانستان في رحلة ستستغرق ٣٦ ساعة.

طلبت منه القيام بذلك. ومن الواضح أنه كان على اتصال مع قادة الفرق الآخرين، وأدرك حاجتنا الاستراتيجية إلى وضع فريق هناك في باميان، غرب كابول، لنتمكن من تجنيد الحلفاء المحليين والتحرّك صوب العاصمة، فيما يشق فريق تكسير الرؤوس طريقه عبر السهول الشمالية ويهاجم كابول من الشمال. فهم قائد الفريق هذه الحاجة الكبيرة واستجاب لأننا أخذنا نتقاسم الاستخبارات ومقصدنا الاستراتيجي.

أوفد ضابطين، أحدهما مايك سبان الذي سيُقتل في المعركة بعد ذلك بأسابيع قليلة. اتصل الرجلان بقائد الهزارة الخليلي بعد رحلة متعرّجة بالشاحنة عبر الجبال الوسطى، شقّا طريقهما فيها وسط خليط غير متجانس من التحالفات القبلية. رحّب بهما بحرارة وزودهما بفرق أمن واستطلاع لمساعدتهما، واستكشف الضابطان منطقة الهبوط وأقاما نظاماً دفاعياً لعملية الالتحاق. بعد ذلك بأيام

هبط فريق السي.آي.إيه/القوات الخاصة المشترك واحتل موطئ قدم في وسط أفغانستان ووسّع بذلك عملية جمعنا للاستخبارات.

تكشّفت بوادر النصر الأولي بأسرع مما توقعه أي منا ومرد ذلك إلى سلسلة القيادة الممددة وتصميم الشبكات والقادة الاستثنائيين الذين انتقيناهم ومنحناهم السلطة. كما أننا بنينا علاقة وثيقة للغاية مع الجيش الأميركي، وبخاصة مع القيادة المركزية ومع قيادة العمليات الخاصة. احترمْنا حلفاءنا الأفغان لكننا لم نتردد في التحرك في شكل أحادي متى احتاج الأمر إلى ذلك، أي في الغالب. لكن الأهمية الأكبر تقع في أن جورج تينيت بنى علاقة ثقة مع رئيسنا الجديد، الذي استمع إلى نصائح المدير تينيت وكوفر بلاك. أعطى الرئيس بوش السي.آي.إيه سلطة ضرب العدو حسبما تريد فيما أبلغنا في أغلب الأحيان بمقصده الاستراتيجي، وقام في بعض الأوقات بإبلاغي ذلك شخصياً. وأعطيت بدوري التعليمات لقادة فرقنا، في غضون ساعة في الغالب، للتحرك وفقاً لذلك، من التعامل مع حلفائنا إلى المساعدة في نهاية الأمر على تشكيل حكومة في كابول.

غير أن موارد السي.آي.إيه وسلطتها احتاجت إلى التداخل مع جيشنا ومحاربينا ومع الجنرال فرانكس.

القيادة المركزية

طرت في الثالث من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١ إلى تامبا للقاء الجنرال تومي فرانكس في مقر القيادة المركزية.

رافقني العقيد في القوات الخاصة بن كلارك، وهو تابع للعمليات الخاصة في القيادة المركزية، وأعطي على سبيل الإعارة إلى السي.آي.إيه. عرف في أواخر أيلول/سبتمبر بفريقنا الجديد وبمهمتنا فتطوّع للعمل مستشاراً عسكرياً لي وضابط ارتباط مع القيادة المركزية. تميّز بتهذيب فائق بطباعه التي تتحاشى لفت الأنظار،

تبرزها طريقته الجنوبية اللطيفة بمدّ الكلام. وهو يشع بصدق، متصلّب ولكن حذر، وهو فطن ومتوازن وواضح في طريقة طرحه الأسئلة والمسائل والمشاكل بنوع خاص. تخرّج من الـ«سيتادل» (الكلية الحربية في كارولينا الجنوبية) وأمضى بعد بلوغه حياته كلها في الجيش الأميركي. رفيع كالعود، متين كالصوّان ولا يتعب. أعجبني منذ اجتماعنا الأول ووافقت شاكراً على عرضه المساعدة. أشركتُه في كل قرار أساسي نتخذه، وشكّل ذلك قراراً شخصياً حاسماً، إلا أنني لم أدرك في ذلك الوقت إلى أي مدى هو كذلك.

واكبَنا أحد المساعدين إلى مكتب الجنرال فرانكس المتخم بالصور والجوائز والهدايا من بلدان كثيرة. وهو شخص طويل القامة هزيل البنية قاسي الوجه مع تجاعيد حفرتها عميقاً سنوات أمضاها تحت الشمس القاسية الحارقة. استقبلني بترحيب عامر ومصافحة حارّة.

حضر ممثل السي.آي.إيه لدى القيادة المركزية وهو ضابط قام بدورات واجب عدة في الخارج، وهو كفؤ ونافع. وحضر أيضاً الأميرال برت كالاند قائد العمليات الخاصة في القيادة المركزية والمسؤول العسكري عن بن كلارك. وانضم إلينا الجنرال جين رينوارد رئيس الشعبة الثالثة (العمليات) في القيادة المركزية، والجنرال غاري هاريل المسؤول عن أمن القيادة المركزية. تولى غاري قيادة قوة «دلتا» في الصومال إبان مهمة «إسقاط طائرة بلاك هوك»، وخدم كلانا في اليمن بعد الهجوم الذي تعرضت له السفينة الحربية «كول». صافحت الجميع إلا غاري الذي عانقني بقوة وكاد يسحقني بجسمه الممتلئ وعضلاته وقوته الجسدية الهائلة.

تميّز الجنرال فرانكس بالصخب والبذاءة وعدم الاحترام وأظهر هذه المزايا المحبّبة في الدقيقة الأولى من اجتماعنا. «ما الذي يحصل في واشنطن بحق الجحيم؟ أين هو ابن الزنى هذا أسامة بن لادن؟ بحق السماء ماذا نفعلون من أجل بلادكم؟».

قلت: «هذا ما نفعله يا جنرال»، وفلشت خرائطي على منضدته المنخفضة. أظهرت له أفضل تقديراتنا لترتيبات العدو، ثم شرحت له إحداثيات فرقنا وأهدافها التي يحدّدها حلفاؤنا الأفغان في الأساس.

«لا يمكننا، يا جنرال، الفوز بهذا إلا مع حلفائنا الأفغان. يمكننا تنسيق جهودهم ودمجها، فهم يعرفون البلاد والعدو. ويعرف حلفاؤنا كيف يقاتلون. سنستخدمهم بوصفهم قواتنا البرية لكنهم يحتاجون إلى دعمنا الجوي واستخباراتنا ومساعدتنا المادية. وتحتاج فرقي في السي.آي.إيه إلى رجالك معنا وكلما بكّرنا في ذلك كان أحسن».

سألني فرانكس: «أخبرني عن هؤلاء الأفغان».

«نعرفهم. ونحن منذ العامين الماضيين نرسل فرقنا إلى أفغانستان. يجب عليك معرفة حلفائنا وقدراتهم كما عليك أن تعرف أعداءنا. سنزودك بكل شيء بما في ذلك هويات المتعاونين معنا. إنهم مفتاح هزيمة القاعدة. نحن في ذلك معاً، وسنفشل من دون ذلك».

وعدت بتقاسم استخباراتنا بما فيها تلك التي نحصل عليها من «البريداتور» التي تطير من دون طيار، ومن نظام المعلومات الجغرافي الذي يصور الصديق والعدو وغير ذلك من العناصر الموجودة على الأرض في أفغانستان. كما أن هناك تحديثاً مستمراً لخرائط صندوقنا السحري الإلكترونية، وهي تكنولوجيا ستوفر فرصة فريدة لا سابق لها من الدعم الاستخباري للجيش. فهي أولاً وأخيراً مهمة جمع استخبارات. وستنهار، من دون ذلك، كل جهودنا: العمل الخفي، الغارات العسكرية، الدبلوماسية، فرض القانون والسياسة. الاستخبارات تدعم كل أدوات فن الحكم.

تحدثنا حوالى ساعتين. خطّطنا وصمّمنا، وتعاهدنا على اعتماد الشفافية.

على وشك الهجوم

قال بن كلارك بعد الاجتماع أننا أبلينا جيداً، وهو ما أردتُ سماعه. طرتُ على

الفور عائداً إلى مقر قيادة الـسي.آي.إيه وأنا أعرف بأن الحملة الجوية ضد القاعدة والطالبان ستبدأ في غضون أيام.

عملنا، في أفغانستان، على مدار الساعة في تحديد الأهداف. يجب أن نقوم بالأمر على الوجه الصحيح لأن كل شيء يتعلّق بالمعلومات التي نجمعها.

أطلعت المدير تينيت وكوفر بلاك والعميد في القوات الأميركية الخاصة غاري مايك جونز على فحوى الاجتماع مع فرانكس. جونز موجود في مركز مكافحة الإرهاب على سبيل الإعارة بوصفه مستشاراً؛ وأثبت توجيهه الواضح الذي لا يقبل التفاهات قيمته المتزايدة في خلال حملتنا. وأوجزت كذلك خطط القيادة المركزية/الـسي.آي.إيه في اجتماع الساعة ١٧٠٠ اليومي في الطابق السابع من مقر قيادة الوكالة. ترأس المدير تينيت هذا الإيجاز الذي جمع إلى مركز مكافحة الإرهاب/العمليات الخاصة الفروع الأخرى لمركز مكافحة الإرهاب التي تركّز على القاعدة عالمياً. غطى ريتش وفريقه هذه الصورة الأكبر، وقدّمتُ آخر تحديثات للمعلومات حول سعي العدو إلى الحصول على أسلحة دمار شامل. أخذ رولف موات ـ لارسون زمام المبادرة في ذلك الموضوع، وأوجز تشارلي ألن جهود جمع المعلومات من كل المصادر في مجتمع الاستخبارات. وكان هناك مشارك آخر مهم في هذه الاجتماعات هو الجنرال في سلاح الجو جون هـ. «سوب» كامبل المدير المساعد في الـسي.آي.إيه المسؤول عن الدعم العسكري. قدّم النصيحة الرائعة والدعم لجهود مركز مكافحة الإرهاب/العمليات الخاصة وبخاصة في ما يتعلق بعمليات «البريداتور».

كان رئيس مركز مكافحة الإرهاب كوفر بلاك دائم الحضور جالساً على الطرف البعيد لطاولة الاجتماعات الطويلة. جلس بهدوء تاركاً لضباطه تقديم الإيجازات، وراقب الأمور بحدة متابعاً الديناميات السياسية إضافة إلى النقاشات الموضوعية. وحضر كذلك رؤساء أقسام أخرى ممثلين الشرق الأدنى وآسيا الوسطى والنشاطات الخاصة إلى جانب واجهة مكتب الجهاز الخفي. حصل رضوخ صامت لمركز

مكافحة الإرهاب لأن المدير كلّف هذا القسم تولي القيادة، إلا أن مستوى الدعم من الأقسام الأخرى تراوح بين الرائع والفاتر. تدفقت الموارد الهائلة والسلطات على مركز مكافحة الإرهاب، وحصل، كما في كل تنظيم تنافسي، بعض الاستياء كما توقّع ذلك كوفر تماماً.

شكّل نائب مدير الوكالة تشارلي ألن مصدراً ثابتاً من الدعم والتشجيع. هل تحتاج إلى تغير موقع قمر اصطناعي ما للحصول على تغطية تصويرية مختلفة؟ سيفعل تشارلي ذلك. هل تحتاج إلى المساعدة في الضغط من أجل مساندة تحليلية؟ تشارلي فَتّاك. أحب تشارلي أن يسمع أخبار نجاح عمل خفي ما، من التخريب إلى الدعاية إلى العمل القاتل. وعندما أخبرته عن حملة القصف الوشيكة التي ستُنسّق مع هجمات القوات البرية الأفغانية على المدن الرئيسية أمسك بذراعي وقال بصوته الخفيض: «الآن، الآن سنعطيهم ما يستحقون».

جلست دوماً إلى جانب تشارلي في إيجازات الساعة ١٧٠٠.

بعد نحو يومين أعقبا زيارتي الجنرال فرانكس أبلغتنا القيادة المركزية أن حملة القصف المخطط لها لا تزال على السكة. جلست إلى طاولتي في مكتبي الصغير وناقشت خطتنا مع ماسي. أدركنا أننا على وشك الهجوم.

خطّيت أمراً على ورقة دفتر ملاحظات أعطيتها لسكرتيرتي لتطبعها وتبثها، وهي كناية عن توجيه من ثلاث صفحات لفرقنا في الميدان بعنوان «استراتيجية عسكرية». وقد تضمن النقاط الأساسية التالية:

١ ـ إعطاء التعليمات لكل القبائل الحليفة بإنزال كل طائراتها وتعريفها على الفور.

٢ ـ إعطاء التعليمات لكل القبائل بوقف كل تحرّك عسكري كبير وبالتزام أماكنها.

٣ ـ إبلاغ كل القوات البرية التابعة للقبائل الحليفة بالاستعداد للهجمات على أهدافها، والطلب منها مرة أخرى التزام أماكنها.

٤ ـ إعطاء التعليمات لكل العملاء في البلاد للشروع بالتخريب وغير ذلك من العمليات المحددة على الفور وأينما أمكن ذلك. [يتضمن ذلك استهداف قادة العدو بالقتل في أول تعبير منسق ومركّز للقوة الأميركية القاتلة في حرب ما بعد ٩/١١].

٥ ـ أخذ العلم بأن عمليات الاختراق التي تقوم بها السي.آي.إيه والعمليات الخاصة والغارات ستتواصل بتسارع أكبر في الجنوب بالتنسيق مع غارات جوية محدّدة.

٦ ـ التحديث المستمر للمناطق التي يجب ألّا يطاولها القصف. [وتضمن هذا مواقعنا ومواقع العملاء الأحاديين والمستشفيات والجوامع وغيرها من المناطق الحساسة. كما أننا أسقطنا في أنحاء أفغانستان المناشير بالباشتو والداري والإنكليزية جاء فيها: «يستخدم الطالبان مناطق مدنية لتخبئة معداتهم ما يعرّض كل من في المنطقة. غادروا أي منطقة توجد فيها تجهيزات عسكرية أو عناصر».

٧ ـ على كل القبائل الحليفة تحديد أهدافها الأولية والثانوية لهجماتها الأرضية المخططة.

٨ ـ على جميع العملاء تحديد طرق الهروب المحتملة من أفغانستان التي يمكن لأسامة بن لادن وغيره من زعماء القاعدة سلوكها، على أن يعقب ذلك استطلاع الطرق لمنعهم من ذلك. [عرفنا تاريخياً أن حظوظ قتل أو أسر قادة العدو في حرب غير نظامية ليست كبيرة ولذا أردنا تحضير خطط طارئة].

٩ ـ التحضير لاستجواب السجناء واستغلالهم.

١٠ ـ تقويم الحاجات الإنسانية.

وكتبتُ في الختام: «نحن نقاتل في سبيل أهداف مكافحة الإرهاب في المسرح

الأفغاني. وبالرغم من أن هذا يحدد أهدافاً عالية في أرض غامضة جداً ومتغيرة، فإننا نحارب أيضاً من أجل مستقبل حرب مكافحة الإرهاب الموحدة التي تخوضها السي.آي.إيه/وزارة الدفاع حول العالم. وبالرغم من أننا سنرتكب الأخطاء ونحن نستكشف مجالاً جديداً ومنهجاً، فإن أهدافنا واضحة ومفهومنا للشراكة سليم».

وأعطيت التعليمات لضابط ارتباطنا في تامبا لاطلاع الجنرال فرانكس وفريقه على الرسالة كاملة.

عملت، منذ البداية، بغضب صعب احتواؤه. وأخذت أنفجر في كل مرة يفشل أحدهم فيها في تلبية توقعاتي. طردت عدة أشخاص من مركز مكافحة الإرهاب/العمليات الخاصة بمن فيهم ضابط عمليات قديم في السي.آي.إيه وضابط ارتباط مع القيادة المركزية للجيش. وأنّبت عند حد ما الجميع تقريباً في السر وفي العلن.

كان غضبي مدفوعاً بالخوف والشرف والفخر. خشيت من هجوم كبير آخر على وطننا، وخفت أن يتعرض رجالنا للذبح. إلا أنني خشيت أكثر ما يكون من فشل المهمة.

غير أن الحاجة الحارقة إلى إنزال العقاب المتجذِّرة في شعور من الانتهاك المخزي هي التي تغلّبت على الخوف. اخترقتْ القاعدة شواطئنا وقتلت الآلاف من شعبنا في نيويورك، وقصفتْ مقر جيش أمتنا وسعت إلى مهاجمة عاصمة بلادنا، ولم يحبطها في ذلك سوى الركاب الشجعان للرحلة ٩٣ لشركة «يونايتد إيرلاينز». وتمثل طموح حياتي في حماية مواطنينا وتقديم مصالح أمتنا؛ والآن هذا؟

إلا أن الوقت والفرصة الآن، وبما هو أبعد من أساس العقاب، هما لاستعادة كرامة وعزّة بلدنا ووكالتنا. قلت لعناصر فرقنا قبل رحيلهم بأنهم طليعة الرد الذي ستعتمده بلادنا. وقد مُنحوا شرف السعي إلى إنزال العقاب واستعادة كرامتنا وحماية مواطنينا من هجمات أخرى. فبلادنا تحتاج إليهم الآن أكثر من أي وقت مضى.

افتخرتُ بهم كثيراً. افتخرت بالمنتشرين منهم في المواقع والموجودين في مقر القيادة، من ديك هولم الأكبر سناً إلى ويل هورد الأصغر. ديك مستشار كبير قاد تحالف القبائل مع السي.آي.إيه في خلال حرب فيتنام. وقد أصيب بحروق رهيبة في تحطم هليكوبتر في الكونغو لكنه شق طريقه بعد ذلك بأيام كثيرة خارجاً من الأدغال وأمضى الثلاثين سنة التالية يترقى في صفوف الجهاز الخفي. تقاعد، لكنه عاد الآن ليعمل بالتعاقد مستشاراً رئيساً في مركز مكافحة الإرهاب/العمليات الخاصة.

ويل هورد فتى أفريقي أميركي في الثانية والعشرين من سان أنطونيو، انضم للتو إلى السي.آي.إيه كمكافح للإرهاب. ظهر في الأيام الأولى لإنشاء مركز مكافحة الإرهاب/العمليات الخاصة، ولم أعرف من أين جاء أو كيف وصل. جعلنا منه ساعياً وخادماً، وامتلك مناعة ضد استغلالنا له وضد الحاجة إلى النوم. وسيعمل، بعد مهمته في مركز مكافحة الإرهاب/العمليات الخاصة، على مدى عقد في الجهاز الخفي مديراً لعمليات مكافحة الإرهاب والإنترنت في جنوب آسيا.

امتلك ردنا الانفعالي الجماعي الموجّه والمنضبط أهمية تعادل بأهميتها الاستراتيجية التي صغناها، فالاستراتيجية تصبح محل جدل في غياب الإرادة بالفوز. أدركنا جميعنا ذلك بداهة، وهذا المفهوم ليس طبعاً بالأمر الجديد. فقد شدد ثوسيديديس قبل أكثر من ألفي عام على الأهمية القصوى لفهم وكبح انفعالات الرجال في الحرب.

نحن في صباح يوم الأحد السابع من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، ولدينا نحو ساعتين من الانتظار قبل البدء بالحملة الجوية، وفرقنا على أتم الاستعداد. عمل عناصرنا في مكتب مقر القيادة بأقصى سرعتهم يرسلون الاستخبارات والصور دعماً لفرقنا ولشركائنا العسكريين ولحلفائنا الأفغان. والأمر كناية عن صخب منظّم ومصمّم.

انتحى بي ماسي جانباً وسألني: «هل أنت مرتاح لهذا؟».

أنا مرتاح لهذا؟ ماذا يعتقد؟ انتظرت سنوات للقيام بهذا، حان الوقت الآن وليس لدينا وقت نضيّعه بنقاش فلسفي متوتّر ما.

قلت بفظاظة: «أنا أكثر من مرتاح يا جون».

أمسك بذراعي وابتسم. «أنا لا أسأل عن العدو، بل عنك. هل جهّزت نفسك لواقع أننا سنتحمل مسؤولية موت الآلاف؟».

قلت بفحيح: «يستحقون الموت».

«نعم، أعرف مهمتنا. وسأشعر مثلك بالرضى عندما ننتصر. لكنك لا تدرك أن هناك ضرورات أخلاقية لا يمكنك تجاهلها. يجب أن تفكّر بروحك الخالدة. سبق أن قمنا بعمليات كثيرة فقد أناس حياتهم في بعضٍ منها، لكن ما من شيء كهذا. يجب أن تتوقف لبرهة وتتأمل وتصلي. وهو ما يحتاج إليه رجالك. جميعنا نحتاج إلى ذلك».

دع الأمر لجون ليعطي مثل هذا التوجيه الأساسي، الشخصي والسخي عندما تدعو الحاجة الماسة إلى ذلك ولا ندركه إلا قليلاً. وهو نائبي وصديقي وأيضاً بوصلتي الأخلاقية.

«نعم. أنت على حق».

أقفلنا الباب وصلّينا لبضع دقائق. هناك حرب بانتظارنا، لكن ذلك يشكّل فترة فاصلة حاسمة إذا أردنا أن يقف الله إلى جانبنا، وإذا توقف على ذلك خلاصنا. فنحن على وشك إرسال الآلاف من الأعداء إلى الجحيم مباشرة ولا أريد أبداً اللقاء بهم هناك.

قدمتْ مداخلة جون نقطة مرجعية للتدريس سأستخدمها في السنوات اللاحقة وأنا أحاضر في طلاب الجامعة أو في متدربي السي.آي.إيه أو في العاملين العسكريين. وهي ليست وجهة نظر لاهوتية بل بالأحرى أمثولة مستمرة في أعمال

الحرب: عليك معرفة نفسك. وكلما عرفت نفسك وفريقك وبلادك أفضل، أمكنك أن تحدد بطريقة أفضل الصديق والعدو في الساحة الإنسانية للمعركة. وقد علّم صن ـ تزو هذا.

فهمت أكثر من ذي قبل تلك الأمثولات الانفعالية التي تعتصر المعدة، والمطبوعة في ذهني، والملتصقة بي أفضل بكثير من المحاضرات في قاعات الصف أو من الكلمات الموجودة في الصفحة. اكتسبتْ تعاليم القدامى معنى أكبر لدى تطبيقها في أمثولاتي التي تعلّمتها بالطريقة الصعبة. وأنا على وشك تعلّم المزيد.

كنت في المكتب أنتظر عندما أطل العقيد كلارك برأسه من الباب ورفع إبهامه إلى الأعلى. اجتازت الموجة الأولى من القاذفات الأميركية المجال الجوي الأفغاني. وسيعمد الطيارون بدقة لا سابق لها، وبتوجيه من استخباراتنا، إلى إطلاق ذخيرتهم على عدو جاهل، وغير مستعد، ومتعجرف وشرير.

الفصل العاشر

العمليات في أفغانستان

لا يفترض بعشرة من كل مئة رجل ترسلونهم إلينا أن يكونوا هنا. ثمّة ثمانون لن يشكّلوا إلا أهدافاً، وتسعة مقاتلين حقيقيين من حسن حظنا أنهم معنا لأنهم خُلقوا للمعركة. آه، لكن ماذا عن الواحد المتبقي؟ إنه محارب، وهو الذي سيعيد الآخرين.
ـ قول لمجهول، نُسب خطأً إلى هيرقليطس

جاء الهجوم الجوي مدمّراً. قضى الطيارون الأميركيون في غضون ثلاثة أيام، بدءاً من السابع من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، على معظم الأهداف الثابتة للقاعدة/الطالبان بما في ذلك منظومة الدفاع الجوي القديمة. وتحوّلت ثكنات العدو ومراكز القيادة والسيطرة والمستودعات والحصون إلى أنقاض متفحمة. أبيد الكثير من وحدات الخطوط الأمامية العملانية للعدو. وركّزنا على مراكز القيادة والسيطرة والمقاتلين الأجانب، وقد قاسوا المعاناة الكبرى.

أخذ البنتاغون يشتكي لنا بحلول اليوم الرابع من عدم توفر مواقع للقصف. طالبوا بمزيد من الاستخبارات عن المزيد من الأهداف التقليدية الثابتة. وشرحنا لهم بأن ذلك غير ممكن، فقد دُمّرت كلها. وأبرز هذا التراشق بالكلام الفجوة الضخمة بين الطريقة التي أرادت فيها وزارة الدفاع القتال وبين الطريقة التي احتجنا فيها إلى القتال. وفيما شرعت القيادة المركزية والقيادة المشتركة للعمليات

الخاصة في التكيّف، تمسّك بعض قادة البنتاغون بنموذجهم التقليدي للحرب بين دولة ودولة: نظروا إلى الانتصار بعبارات تدمير الأهداف الثابتة والجيوش القائمة، وفتشوا عن مركز الثقل الجغرافي في ساحة القتال ولم يدركوا أن مركز الثقل موجود في أذهان الأفغان.

وُجدت أربعة أسباب لمثل هذه الحملة الجوية السريعة والشاملة. أولها محدودية عدد هذه الأهداف التقليدية، فأفغانستان أحد أكثر بلدان العالم تخلّفاً، وهي تمتلك أيضاً أحد الأنظمة الدفاعية الأقل تطوراً. ووفّرت البلاد من المنظور التقليدي شحّاً في أهداف البنى التحتية الكبرى التي يتوجب تدميرها. وثانيها، أن نظام الدفاع الجوي القديم والمتهالك للعدو مثير للشفقة ولا يطرح إلا تهديداً محدوداً لسلاح الجو الأحدث في العالم. وثالثها، أن الغارات الأميركية كانت الأدق في تاريخ الحروب بفعل ما تحقق من تقدم في التكنولوجيا وفي المهارات. ورابعها، أن الطيارين عرفوا بدقة الأمكنة التي يجب ضربها بفضل الاستخبارات الرائعة في دقتها، المستقاة من المصادر كافة. رسمنا، مستخدمين الخريطة السحرية لنظام المعلومات الجغرافي، الأهداف التي تراوحت بين تشكيلات العدو في الخطوط الأمامية على امتداد السهول الشمالية، ومجمعات الطالبان في عمق مدينة قندهار. وتضمنت الاستخبارات عملية استهداف قامت به الفرق في الميدان بالوقت الفعلي وقد تم تعيينها بالليزر. ونقل ذلك كله فاعلية الاستهداف الجو-أرضي إلى مستوى جديد.

قدّم حلفاؤنا القبليون الأفغان وعملاؤنا الأحاديون المساهمة الأكبر في جهد الاستهداف هذا، وامتلكوا قدرة فريدة على الولوج إلى مختلف أنحاء البلاد وغالباً إلى داخل معسكرات العدو. حصل بعض الخلل الفني في جهود جمع الاستخبارات هذه. واشتكت فرقنا الموجودة في الميدان من أن أنظمة تحديد المواقع العالمية المحمولة باليد كثيرة التعقيد على مصادرنا الأفغانية الذين يعودون من مهماتهم الاستطلاعية بخليط من الإحداثيات وغيرها من المعطيات غير الضرورية التي أدخلوها على ما معهم من أنظمة تحديد المواقع. لجأنا إلى

تقنيـا الذين عدّلوا الأنظمة بحيث لم يعد على عميلنا أن يضغط إلا على زرّ واحد. وما إن يضغط على هذا الزر حتى يحدد النظام الإحداثيات الجغرافية لذلك المكان ويسجلها، أي موقع العدو الذي يتوجب قصفه. ونجح ذلك. وشرع العميل يتسلّل إلى موقع العدو ويضغط على زر واحد يسجل الإحداثيات الجغرافية ثم يتسلل خارجاً من المنطقة إلى نقطة اللقاء مع ضباط السي.آي.إيه الذين يبثون معطيات نظام تحديد المواقع إلى زبائننا، أي إلى طياري القاذفات.

استخدمت القوات الخاصة التي انضمت إلى فرق السي.آي.إيه خاصتنا، مؤشرات الليزر للإضاءة على الأهداف على طول خطوط الجبهة. وامتلك المراقبون الجويون المتقدّمون الملحقون بفرق القوات الخاصة اتصالاً مباشراً بالطيارين موجّهين الغارة تلو الغارة. كذلك حدّدت «البريداتور» المزوّدة بأنظمة الليزر الخاصة بها الأهداف وأضاءت عليها للقاذفات الأميركية والحليفة. كما صوّرت القصف بالفيديو الذي دمجناه بالإفادات الأخرى التي أرسلناها في بثنا الاستخباراتي إلى حيّز واسع من الزبائن التواقين كالكواسر إلى المزيد من الاستخبارات. أراد الجميع، من الرئيس إلى الجندي القريب من هيرات إلى السفير الأميركي في إسلام أباد، المزيد من الاستخبارات من غارة تكتيكية محددة إلى لعبة سياسة الاستراتيجية الصغرى.

أدت «البريداتور» دوراً مكملاً وثورياً في هذا الهجوم المركّب ومردّ ذلك في الغالب إلى أننا طورنا تكتيكات الطائرة التي تطير من دون طيار بحسب ما تقتضيه الحاجة الفورية. فقد شهدنا من مركز قيادتنا، قبل أيام قليلة على بدء الحملة الجوية، «البريداتور» وهي تدخل في مجال أحد الرادارات السوفياتية الصنع، وهو نظام بدائي يعود إلى السبعينيات ومن بين قلة من الرادارات التي يشغلها الطالبان.

كنتُ وماسي مع فريق «البريداتور» في مركز القيادة نشاهد الشاشة الكبرى المضيئة. وأحاط بنا حوالى ٢٥ شخصاً استعرنا بعضهم من وكالات حكومية

أخرى وتحلّقوا حول الأطراف. ركّزوا على أي دفق من الاستخبارات يساهم في هذه المهمة. وغربلوا وحلّلوا ودمجوا ونسّقوا سيلاً من الإفادات الواردة من كل المصادر وزوّدوا بها قادة فريق «البريداتور». راقبتُ وجون الأمر، وتعلمنا ونحن نبحث عن فرص جديدة.

راقبنا الرادار وهو يدور.

علّق أحد المحلّلين: «إنه يتفاعل، ويصوب على طيرنا».

قال أحد قادة الفرق آمراً: «سيطيحون بنا. يجب أن نتملّص».

قلت: «لا. تابعوا».

«سيدي، هناك ميغ تأخذ موقعها في المطار المجاور، وهي تقلع».

كرّرت القول: «تابعوا».

راقبنا الميغ وهي تقلع وتزيد بسرعة من ارتفاعها.

سأل أحدهم: «ماذا لو أسقطونا؟».

وأعطيت تعليماتي: «للاستخبارات قيمة أكبر من كلفة طائرتنا التي تطير من دون طيار. طيروا إلى فوقهم مباشرة».

راقبنا الرادار وهو لا يزال يدور ويبعث بالنبضات الصوتية على «البريداتور» المقتربة. مضى الطيار العدو بسرعة أكبر من أن تسمح له باعتراض طائرتنا. حاول من جديد وأخطأ، ولم يتمكن من تعقب الطائرة البطيئة المتثاقلة التي تحرّكها المروحة. راقبنا عدونا المحبط وهو يكافح للرد، وسجلنا كل الفيديو الذي يسجّل من «البريداتور»، الرادار ومركز القيادة وطيار الميغ. وهذه استخبارات رائعة.

قلت: «أحسنتم العمل. أرسلوا بكل شيء، الآن، إلى زبائننا العسكر».

قال ماسي لاحقاً: «تعرف أنه ما كان أي طيار ليجرب هذا بأي منصة تعمل بطيار أو من دون طيار».

سأله: «يجرّب ماذا؟».

«سبر الرادار. المخاطرة بالطائرة».

«هذه في الحقيقة فائدة قيامنا بأمر للمرة الأولى. فنحن لا نعرف أفضل من ذلك».

إنها المرة الأولى التي تُستخدم فيها طائرة من دون طيار لاستثارة ردّ من منظومة مضادة للطيران وتسجيله. ولم يتم التخطيط لأي من هذا، ولم نفكّر فيه قط. أدركنا وحسب ضرورة جمع الاستخبارات واستغللنا الفرصة.

أمكننا، بفضل حلّ مدمج بـ «البريداتور» يعتمد على الطاقة الحركية، القيام بما هو أكثر من جمع المعلومات واستثارة ردود العدو. فقد سُلّحت إحدى الطائرتين بصاروخي «هلفاير». والرأس الحربي لهذا النوع من الصواريخ صغير نسبياً، ما وفّر لنا نوع المقذوفات الذي يحتاج إليه الاستهداف الدقيق. ويمتاز طيارونا بالدقة إذ يمكنهم من ارتفاعات شاهقة ومن على بعد أميال إطلاق صاروخ «هلفاير» عبر نافذة ما أو إصابة شاحنة «بيك-أب» أو التصويب على مقاتل عدو وحيد. وأدت «بريداتور» أخرى غير مسلحة دور قاعدة حصرية لجمع الاستخبارات. طيّرناهما بأكبر قدر ممكن، وصَلّينا طلقات «هلفاير» في الليل وفي النهار.

مساء العشرين من تشرين الأول/أكتوبر حلقت طائرتنا «البريداتور» غير المسلحة في طيران دائري فوق مهبط معبّد طويل في جنوب أفغانستان. راقبت الطائرة التي تطير من دون طيار المنطقة في حين هبط مئتا رجل من فوج المغاوير الخامس والسبعين بالمظلات في الموقع وأمّنوا المكان. شكّلت إقامة قاعدة لوجستية في قلب منطقة الطالبان خطوة جريئة، وكانت المقاومة طفيفة. وشاهدت القيادة المركزية للجيش الفيديو نفسه الذي شاهدناه.

انطلق، في شكل متزامن، فريق من القيادة المشتركة للعمليات الخاصة على

متن طائرات هليكوبتر «تشينوك سي إتش ٤٧» طارت شمالاً من على متن حاملة الطائرات «كيتي هوك» في المحيط الهندي وعبرت الصحراء في اتجاه قندهار. تصرّفتْ القيادة المشتركة للعمليات الخاصة بوصفها الذراع الأحادية الخفية، أو ذراع العمليات السوداء، لقيادة العمليات الخاصة. وقد استهدفت مقر زعيم الطالبان الملاّ عمر. أشارت استخباراتنا إلى عدم وجود عمر في المكان الذي قد يوجد فيه زعماء آخرون للطالبان وسيشكّل الأمر في حدّه الأدنى ضربة لعدونا تتمثل في مهاجمة مثل هذا الموقع الرمزي في قلب منطقته.

طارت «البريداتور» المسلّحة تسبق طائرات «تشينوك» التي تحمل الكوماندوس. ولمح أحد المحلّلين في مركز قيادتنا مدفعاً مضاداً للطائرات من طراز «زي يو-٢٣» في مكان مرتفع على حافة جبلية يشرف على خط طيران المهاجمين التابعين للقيادة المشتركة للعمليات الخاصة. شكّل هذا المدفع تهديداً حقيقياً وهو من صنع سوفياتي، متحرّك، تلقائي ذو فوهتين، قادر على إطلاق النار بسرعة، وفاعل جداً ضد الطائرات التي تطير على علو منخفض. نقلنا هذه المعلومات إلى القيادة المشتركة للعمليات الخاصة وفريق الكوماندوس لا يبعد عن المكان سوى مسافة دقائق قليلة.

«اقضوا عليه»، جاء الرد من ضابط ارتباطنا مع القيادة المشتركة.

نجهّمتُ وأنا واقف قبالة شاشة الفيديو الكبيرة فيما ارتطم صاروخ «هلفاير» الأول بالجدار الصخري فوق الهدف تماماً. وهذه رمية خاطئة نادرة فيما احتجنا إلى الإصابة أكثر من أي وقت مضى.

«تبّاً»، تمتم أحدهم. ثم عمّ الصمت المطبق القاعة. إذا لم يتم القضاء على سلاح العدو فسيتربص الموت بالمسار الجوي للمهاجمين التابعين للقيادة المشتركة للعمليات الخاصة. عرف ذلك كل من شاهد الشاشة الكبيرة. وأمكن للمهاجمين تحويل مسار طيرانهم، لكن ذلك يمكن أن يضعهم في مواجهة خطر آخر، ويعيق توقيتهم.

شاهدت صورة الفيديو التي تبثها «البريداتور» وهي تضع بلطف المدفع المضاد للطائرات في مرماها فيما أصاب صاروخ «هلفاير» الثاني هدفه. اتبع الانفجار الأول على الفور بسلسلة من الانفجارات الثانوية الصغيرة. لقد اشتعلت ذخيرة الـ٢٣ ملم.

إنها المرة الأولى التي توفر فيها طائرة من دون طيار إسناداً من الجو إلى الأرض بالنار لغارة يشنها كوماندوس مجوقل أو، بمقتضى الحال، أي نوع من أنواع الهجوم. تميّزت «البريداتور» بالروعة في هذه الاشتباكات التكتيكية المحددة، والأهم من تلك التكنولوجيا هو فريق الاستخبارات الذي بنى هذه المنصة وأدارها. ولولاهم لبقيت الطائرة التي تطير بلا طيار كومة من المعدن والأسلاك والبصريات والذخيرة.

جلت بنظري حول القاعة الملأى بالعاملين والتقنيين والمحلّلين المتحمسين، وهم مزيج من الرجال والنساء المدنيين والعسكريين الذين يغيّرون فن الحرب.

نقلنا الخبر السار إلى القيادة المشتركة للعمليات الخاصة. بعد ذلك بدقائق اندفع المهاجمون من أمام بقايا المدفع المضاد للطيران المحترق في اتجاه مجمّع الملا عمر. لم يواجهوا في المكان مقاومة تُذكر، ولم يعثروا على استخبارات ذات قيمة. لكن العدو اهتزّ للفيديو الذي بُثّ في مختلف أنحاء العالم مُظهراً الكوماندوس الأميركيين وقد شقوا طريقهم إلى قندهار وتجوّلوا في مقر الملا عمر. غطّت استخباراتنا البشرية صدمة الطالبان واستياءهم لتمكّن الجنود الأميركيين من اختراق قلب ملجئهم الآمن بهذا القدر من العمق والسرعة. وأخذ الطالبان يتساءلون: ما الذي فعله بهم حلفاؤهم في القاعدة؟ ما الذي ستفعله الولايات المتحدة تالياً؟ ومتى وأين؟

ولمخاوف العدو ما يبررها مع تزايد الدعم الذي تقدمه استخباراتنا وعملنا الخفي للقيادة المشتركة للعمليات الخاصة. وسرعان ما عمل كوماندوس العمليات الخاصة في البلاد من دون تهديد.

علمنا أيضاً من تقارير مصادرنا الاستخباراتية البشرية أن الكثير من الأفغان رحبوا بالهجمات الدقيقة على المقاتلين الأجانب، من دون وقوع أي أضرار جانبية تُذكر، وأيدوا القوة الأميركية. وهذه ليست بصدمة القوة الغاشمة التي شهدها الأفغان في الفترة القريبة جداً جراء الاحتلال السوفياتي الذي أعقبه حربهم الأهلية الرهيبة. بل إنهم شهدوا الآن غارات جراحية تمت بسرعة وخفاء. وشرع الكثير من الأفغان، بفعل هذا القصف الدقيق وغارات الكوماندوس، يرون في الولايات المتحدة حليفاً موثوقاً وفاعلاً. فنحن نقضي على الأجانب الموجودين في وسطهم إلى جانب حلفائهم القساة من الطالبان في حين نتفادى الإصابات في صفوف المدنيين الأفغان. لم يعرف الأفغان طبعاً بطائرات «البريداتور» التي تطير من دون طيار ولا بـ «الجدام» (نظام توجيه يضاف إلى القنابل) أو بالذخيرة الموجهة بالليزر. أدركوا أنه كلما أرادت الولايات المتحدة ستنفجر فجأة شاحنة ملأى بمقاتلي القاعدة.

جاهدنا للتحسين عند كل مقلب. وأدركنا بعد تحليل عدة غارات بصواريخ «هلفاير» على المقاتلين الأعداء في شاحنات الـ «بيك أب» أن بعضهم ينجو من الضربة. أمكننا مشاهدتهم وهم جرحى ويبتعدون متعثرين، وهذا غير مقبول. أردنا المزيد من التشظّي في نقطة الإصابة.

طلبنا المساعدة من المتعاقدين معنا وبنوع خاص من تشاك «بوم-بوم» فنلز. استوعب على الفور مشكلتنا، وعاد سريعاً ومعه رسم تخطيطي. كان التصميم أنيقاً وبسيطاً. سيصنّع غطاء معدنياً مخرّقاً بثقوب بحجم الربع دولار يُزلق من فوق الرأس الحربي. سيحصل هذا التعديل بسرعة وسهولة. وشرح «بوم-بوم» أن هذا سيزيد من عملية التشظّي بما لا يقل عن ٢٥ بالمئة ويوسع شعاع المجال القاتل ربما ٢٥ بالمئة أخرى.

وأمكننا في غضون أسبوع وضع أغطية التشظّي حول الرؤوس الحربية. حلّلنا عدة ضربات. وتبين أن تقديرات «بوم-بوم» محافظة، إذ لم يخرج أحد حياً.

تميّزت أسلحتنا الثورية بأنها قليلة الكلفة والخطر، ولا تلفت الأنظار. لكنها أنتجت قوة صدم كبيرة وبخاصة كلما عثرت الاستخبارات على أهداف ثابتة ذات قيمة كبرى. فالحرب لن تبقى كما في سابق عهدها.

في مجال الانتشار

أما وقد سارت الحملة الجوية على سكتها الصحيحة وأخذت العمليات الميدانية المنسقة تكتسب زخمها ببطء، احتجت إلى زيارة أفغانستان والتشاور مع حلفائنا الأفغان.

مضت ستة أسابيع على شرون في بنجشير وهو يضع أسس الهجوم على كابول والمناطق المحيطة بها، والذي تشارك فيه أيضاً قوات الجبهة الموحدة في الشمال الأقصى المستعدة لاكتساح قندوز من الجبال في الشرق. وقد مهّد فريقه، الذي يُطلَق عليه لقب «محطِّم الرؤوس»، الطريق أمام فريق النخبة في القوات الخاصة الأميركية ورقمه ٥٥٥ ويُعرف أيضاً باسم «النكلات الثلاث» Triple Nickel وقد انتشر أفراده من الفريق الخامس المتمركز في قاعدة كارشيخان أباد في أوزبكستان. وهم يقيمون الآن مع محطمي الرؤوس في مجموعة البيوت نفسها في عمق بنجشير. شرع محطِّمو الرؤوس و«النكلات الثلاث» في توسيع مجال تغطيتهم، وقد ركّزوا فرق استطلاع في الأطراف الشمالية للسهول الشمالية.

احتاج فريق محطمي الرؤوس إلى تعزيزات من السي.آي.إيه وإلى تغيير في القيادة. شكّل شرون، ضابط العمليات الخبير في جنوب آسيا، الخيار المثالي ليصبح أول من يدخل أفغانستان بعد ٩/١١. وساعدنا في فهم الطريقة التي ستكشف فيها الحملة وبخاصة في شمال شرق أفغانستان. مدّ قيادة السي.آي.إيه، وأنا منها، بالثقة بتوقعاته الصريحة بانهيار الطالبان ما إن نستخدم القوة الجوية المركّزة والمنسّقة مع قوات الجبهة الموحّدة البرية. وقد شجع شرون حلفاءنا الأفغان.

كذلك فقد عمل على معالجة مخاوفهم. ومن قبيل المثال، طالب فهيم وغيره من قادة الجبهة الموحدة بأن تأتي كل فرق السي.آي.إيه والقوات الخاصة التي دخلت أفغانستان إلى بنجشير أولاً، كما لو أن الجبهة الموحدة تتصرف ككيان سيادي يمثل كل الدولة القومية وتريد الموافقة على كل دخول. أرادوا تحويل مراكزهم المتقدمة في بنجشير إلى ما يشبه نقطة عبور جمركية وحدودية لكل عمليات انتشارنا، وهذه محاولة صارخة وسخيفة منهم لتثبيت سلطة الأمر الواقع.

أخبرني شرون بالأمر في سياق اتصال مأمون، وأبلغته أن لا مجال لذلك. فلا معنى عملاني أو لوجستي أو سياسي لهذا المفهوم. أدرك شرون ذلك لكنه عرف أنه لن يسعد حلفاءنا، بيد أنه شكّل موضوعاً للجدل. فما الذي سيفعلونه؟ هل يطلبون منا عدم المجيء؟ هل يحاولون وقفنا؟ إنهم يحاربون الطالبان منذ سنين وقد باتت لديهم معنا الآن الفرصة المثالية للنصر. عرفتُ أن حلفاءنا، على غرار غيرهم، سيسعون إلى كسب الأفضلية أينما استطاعوا، لكن هذا السعي يدل على غباء غير معقول. شاركتُ شرون وجهة نظري، وقام بدوره بشرحها لحلفائنا بعبارات أكثر احتراماً، على ما أفترض.

ها نحن بحاجة إلى برنتسن بما يتميز به من روحية الكلب المسعور المقاتل، فهو سيتولى قيادة محطمي الرؤوس. أردته أن يقودنا إلى كابول وإلى ما هو أبعد. وما إن يصبح برنتسن وسط حلفائنا الأفغان فلن يتوقف أبداً طالما بقي لديه نَفَس.

بات فريق «ألفا» جنوب مزار الشريف، واحتاج إلى بضعة ضباط من السي. آي.إيه آخرين، إضافة إلى فريق القوات الخاصة الذي أعاقه الطقس السيئ في الأسابيع القليلة الأخيرة. وأثار هذا الأمر جنون رامسفلد، فرجال السي.آي.إيه في الميدان دون رجاله، وقد عرفت ذلك من أصدقاء في البنتاغون وفي تامبا. حتى إن رامسفلد اتصل بقائد المجموعة الخامسة في القوات الخاصة في أوزبكستان

والشريك الرائع العقيد جون مولهولند ليوبّخه، كما لو أنه مذنب ومسؤول عن حالة الطقس.

احتجتُ، بعد شهر من وجودي في مقر قيادة السي.آي.إيه، إلى استطلاع سريع لمجال الانتشار. احتجت إلى الاجتماع بالحلفاء الأفغان هناك، وإلى رؤية رجالنا، والأرض التي ما فتئت أفكّر فيها في الأعوام الثلاثة الأخيرة، وإلى رؤية كيف سندمّر القاعدة في أفغانستان.

خطّط الجنرال فرانكس لرحلة يلتقي فيها زعامة الجبهة الموحدة وبخاصة الجنرال محمد فهيم في دوشانبي، بطاجكستان. وقد ناقشنا معاً الطريقة الفضلى لتحقيق أهدافنا مع حلفائنا الأفغان، وأبلغته أنني احتاج إلى الدخول إلى أفغانستان، فاتفقنا على أن أنضم إليه في الاجتماع مع فهيم قبل أن أواصل تقدمي. وأبلغته كذلك أننا سنجلب الاستخبارات والمال والمترجم إلى الاجتماع، على أن تجلب القيادة المركزية كل شيء آخر، بما في ذلك وسيلة نقلي إلى أفغانستان.

دعوت الجنرال فرانكس إلى إيفاد أحد كبار أركانه للانضمام إليّ في أفغانستان، واقترحت عليه الجنرال غاري هاريل الذي سبق أن عملت معه في العام الماضي في اليمن. واختار فرانكس الأميرال برت كالاند وهو واحد من أعلى مغاوير البحرية رتبة؛ لم ألتقِه إلا مرة واحدة من قبل لدى زيارتي تامبا، وأثبت أنه خيار جيّد.

احتجنا إلى نشر برنتسن والتعزيزات إلى محطمي الرؤوس والفريق «ألفا» بأقرب ما يمكن. والطريقة الأسرع هي استخدام طائرة «غولفستريم» التي سأستقلها إلى دوشانبي. وتصوّر الفتيان اللوجستيون لدينا أنه في وسعنا جميعاً حشر أنفسنا إلى جانب أسلحتنا ومعداتنا في الطائرة. سيضيق بنا المكان.

قادت بي سيندي السيارة إلى المطار، إلى المكان الذي رُكنت فيه الطائرة الخاصة. غابت الدموع ولم يكن ثمة تعبير عن القلق، بل مجرّد عناق وقبلة، وقلت لها إنني سأعود في غضون أسبوعين. سبق أن أخبرنا الصّبيّة أنني ذاهب

إلى أفغانستان، وقد عادوا جميعهم الآن إلى المدرسة بعد الانتقال السريع من مركزنا في الخارج. انتفت الحاجة عند هذا الحد إلى إخفاء مثل هذا الواقع المبين، وهم في النهاية أذكياء، وقد شاهدوني أوضّب حاجاتي لبعثة في الجبال العالية وليس لرحلة رسمية عامة. سيتوجّب على سيندي في غيابي أن تجيب عن تساؤلاتهم وتتعامل مع مشاكلهم، وهي ستتمسك فوق ذلك كله أمام الجيران وأمام بعض أفراد عائلتنا بالرواية الضعيفة التي اعتمدناها للتغطية في شأن إعادة تعييننا مشيرة إلى «دواعٍ أمنية وأولويات حكومية جديدة». شاهدتها تسير مبتعدة عائدة صوب حظيرة الطائرات، وفكرت في مدى قوتها وكم أنا معجب بها وأحبها.

استدرت نحو رجالنا في السي.آي.إيه المتجمّعين على المدرج بقرب طائرتنا الصقيلة البيضاء. وُضّب كل شيء، بيد أن الاضطراب بدا على اثنين من الفتية. أحدهما صرّ فكّه بقوة، وبدا الانهيار على الآخر. وهذا شيء غير عادي لأن فتيان القوة شبه العسكرية التابعة للسي.آي.إيه يفاخرون باحتفاظهم بمسلك باردٍ لامبالٍ.

سألتهما: «ما المشكلة؟».

«طبيبنا، وهو مفصول من وزارة الدفاع إلى السي.آي.إيه وننتظر تلقيه التصريح للانضمام إلينا».

«أي تصريح؟ إنه مع السي.آي.إيه. فلنذهب».

«كلا، سيدي. الأمر ليس سهلاً. على الوزير الموافقة على هذا».

«الوزير؟ وزير الدفاع؟» سألتُ وقد صعقني الأمر.

«نعم سيدي، أو على الأقل موافقة مكتبه».

«إذن اتصلوا بهم».

«لقد فعلنا، سيدي. ونحن نعمل على الأمر منذ حوالى أسبوعين».

رنّ هاتف خلوي وحصل نقاش وجيز، غير مفرح.

«سيدي، لم نحصل على الموافقة».

«لا بد أنكما تسخران منّي».

«كلا سيدي. لقد رفض مكتب الوزير منحه التصريح بالانضمام إلينا».

وسألتُ: «لماذا؟».

«لا أعلم، سيدي».

أُصيب الجميع بالارتباك وبخاصة الطبيب. ذُهلتُ وسخطتُ ولم يسعني القيام بشيء. علينا ركوب الطائرة والمغادرة الآن. وتركنا الطبيب وراءنا.

جلستُ في مقعدي وربطت نفسي بالحزام، وقد بدأت الطائرة بالتحرّك على المدرج. وتساءلت كيف يسعنا، باسم الخالق، كسب هذه الحرب بوزارة دفاع على هذا القدر من الخلل. والأسوأ من ذلك أن هؤلاء الأغبياء مهتمون بامتيازاتهم الإدارية أكثر من اهتمامهم بحياة رجالنا في ساحة المعركة. والنتيجة نفسها بغض النظر عن السبب أو الدافع: سنحتاج إلى طبيب.

ارتفع القبطان بالطائرة بعد الظهر في الهواء الصافي لفرجينيا واستدار شرقاً صوب طاجكستان. وتصوّرت أنه كلما ابتعدنا عن واشنطن سهلت الأمور، حتى في أفغانستان. تشوّقت للقاء الجنرال فرانكس وأصدقائنا الأفغان ورجالنا في الميدان.

تطلعت حواليّ في المقصورة الضيقة التي تعج بالجواسيس المحاربين المفتولي العضلات والملتحين، أصحاب الكثير من المهارات العملانية والتجارب. تحدّث بعضهم لغات عدة بإتقان أبناء البلاد بمن فيهم عنصران غرّان من ضباط العمليات المسلمين. وامتلك بعضهم خبرة في العمل الخفي، وشهد بعضهم معارك دون بعضهم الآخر.

ارتدوا «جينزات» رثّة أو سراويل عمل، ووضعوا في أرجلهم جزمات قاسية باهظة الثمن، كما ارتدوا سترات واقية من الصوف الاصطناعي «غور-تكس»، ولاحظت أنني ارتدي ثياباً مماثلة. بدوْنا أشبه بطغمة من الأربعينيين الوضيعين المنهكين الذين أُسيء اختيارهم في دعاية لأحد منتجات الملابس.

شرعوا في مناقشة مهمتهم بهدوء وبقليل من المزاح. غطّ أحدهم بالفعل في النوم، فأزيز الطائرة المنسابة على علو أربعين ألف قدم يبعث على الاسترخاء. لا هواتف ترن ولا إيجازات ولا سياسة.

تميزت الرحلة المباشرة بالسلاسة، فأرخيت بجسمي إلى الوراء وغفوت أكثر مما فعلت في أسابيع عدة.

وحين هبطنا التقانا رون، رجلنا في دوشانبي الشاب الكفوْ الذي يتقن الروسية، والذي واكبنا إلى مكتبه، وهو كناية عن ترتيب صغير بدائي لا تستوعب مساحته إلا عدداً قليلاً منا. يحظى المكتب بحراسة جيدة وبحواجز تقنية، بما في ذلك درع وقاية لكل اتصالاتنا، وهو يعمل على جمع المعلومات ويؤدّي دور الرابط اللوجستي الأساسي بين محطِّمي الرؤوس وفرقنا الأخرى في شمال أفغانستان.

غاب في المرة الأخيرة التي زرت فيها دوشانبي، أي منذ حوالى ١٨ شهراً، أي أثر لوجود حكومي أميركي. أوصينا، كوفر وبن وريتش وأنا، بمزيد من الالتزام في المنطقة ومَوّلناه، فمن شبه المستحيل خوض الحرب من دون موطئ قدم في دوشانبي وطشقند في أوزبكستان.

تحدّثت مع شرون باللاسلكي وأبلغته أننا سنريحه في غضون يومين بعد الاجتماع مع فرانكس وفهيم. وأبلغَنا شرون بآخر المستجدات. القصف تباطأ، وبات الآن متفرّقاً وغير فاعل، وأخذ شركاؤنا الأفغان يفقدون صبرهم بسبب النقص في رمي الذخائر على الأهداف. أرادت جيوش القبائل الأفغانية ان تنطلق، وأرادت القتال ولكن ليس من دون تغطية جوية كبيرة.

لم تتغير دوشانبي وبقيت تجمعاً من الأبنية السكنية والمكتبية الكئيبة والرمادية على الطراز السوفياتي، يسكنها أناس يائسون يستغلهم المسؤولون الفاسدون ورجال عصابات المخدرات الذين يتقاتلون فيما بينهم. اجتزنا عدة كتل سكنية إلى أحد المقاهي حيث تناولنا بعض الخبز والشاي الساخن المحلّي. وحدّق إلينا السكان المحليون من دون أن يقولوا شيئاً.

انسحبنا إلى مقرنا، فآخر شيء نريده مشادة ذات تداعيات سياسية لا علاقة لها البتة بمهمتنا. يدور الكثير جداً من المخاطر في عمل الاستخبارات حول أمور بسيطة، دنيوية ويومية في البيئات غير المألوفة. وأي مخاطرة بالوجود في المكان الخاطئ في التوقيت الخاطئ من دون أي فائدة عملانية هي عمل أحمق. سنبقى بعيداً من شوارع دوشانبي.

تجمّعنا في تلك الليلة داخل طائرة الجنرال فرانكس الـ «سي-١٧» المتوقفة على مدرج مطار دوشانبي. صافحت الجنرال فهيم الذي لم يسبق لي أن التقيته أبداً، وعانقت المهندس عارف رئيس استخبارات الجبهة الموحّدة، وقد عملنا معاً على مدار العامين الماضيين وتواصلنا بانتظام.

حييت الجنرال فرانكس والعميد كيمونز (من الاستخبارات العسكرية) والأميرال كالاند والعقيد مولهولاند وعرّفتهم إلى برنتسن، وحميد الذي سيتولى الترجمة، وهو واحد من ضباطنا العملانيين الجدد.

أمسك الجنرال فرانكس على الطاولة بزمام الأمور.

وضعنا عليها خريطة، ودلّ الجنرال إلى حيث يمكنه توجيه القوة الجوية شارحاً بأن على فهيم أن يزوّده بأولوياته. أين يريدنا أن نضرب أولاً؟ بدا أن فهيم يريد تركيز القوة الجوية في كل مكان، وهذا مستحيل. تواصل هذا الأخذ والردّ، وشرح الجنرال فرانكس بأن علينا دعم النجاح حيثما نحن الأقوى على الأرض وحيثما يمكننا تحقيق الاختراق الأول. أفي مزار الشريف؟ أم في السهول الشمالية؟ أم في طالقان؟

قال فهيم حينذاك إن كابول هي المركز لكنه عجز عن توفير الجدول الزمني الذي تصبح فيه قواته جاهزة للهجوم جنوباً، عبر السهول الشمالية، على كابول. وجادل بطريقة غريبة ومتناقضة مع موقفه إذ استمر في الشكوى من افتقار جنوده إلى العتاد. أراد في وقت واحد الإمدادات والمال والقوة الجوية. وأراد تحقيق القدر نفسه من الكسب السياسي والعسكري من هذا النقاش الذي أخذ يتحول إلى مفاوضات.

ترجم حميد بسلاسة وثقة. وفي غضون ذلك أخذنا، برنتسن وأنا، نصاب بالتعاسة بل حتى بالحرج لأن حلفاءنا الأفغان شرعوا في المساومة والتوسّل. وسبق أن أخبرتُ فرانكس أن فهيم وعارف سيسعيان إلى بعض نقاط النفوذ، لكنهما لا يملكان أياً منها. وتصورّت أنهما سيذعنان في وقت أسرع من هذا.

وها إن فهيم يشدد الآن على أهمية كابول. أما فرانكس الذي فهم أهمية مزار الشريف وطريق الإمداد البري اللاحق من أوزبكستان فشدّد أكثر على الشمال الأقصى.

تدخّلتُ بالقول إن علينا تنسيق الضربات البرية والجوية، وأبلغت فهيم أن ليس لقواته، في غياب القوة الجوية، الحظ الكبير بالنجاح. يواجه فهيم في السهول الشمالية ما يصل ربما إلى خمسين ألفاً من الأعداء، ولا يملك في صفوفه سوى أقل من ربع ذلك العدد. واحتمالاتنا في مزار الشريف وغيرها مشابهة. فعدد الأعداء يفوق أعداد حلفائنا الأفغان كثيراً وفي مختلف أنحاء البلاد.

لم يمتلك فهيم أي خيار حقاً، وأدرك ذلك في النهاية. وسيركز الجنرال فرانكس على مساندة الهجوم البري على مزار الشريف إلى أن يتبعه سريعاً بدعم الهجوم على طالقان والسهول الشمالية.

أدرك فهيم ذلك ووافق. ثم انتقل بالنقاش إلى مستوى متدنّ جديد مطالباً بمبلغ كبير من النقود كدفعات شهرية. وحل صمت مزعج على المجموعة الصغيرة.

صاح فرانكس: «هراء»، وسار مبتعداً عن الطاولة.

قطب فهيم جبينه، وبدا مرتبكاً. تطلّع إلى عارف الذي فهم الشتيمة وتجهّم وأخذت جفونه تطرف. لقد أدرك ما حصل.

زمجر برتسن لهما شيئاً بالداري.

حدّقت بفهيم وعارف.

وها إن الجميع عادوا إلى الصمت من جديد. خرج الجنرال فرانكس ليدخن سيجارة، ووقفت أنا أيضاً وسرت مبتعداً عن الطاولة.

عدنا بعد فاصل من عدة دقائق واجتمعنا. أبلغت فهيم وعارف أننا سنوفّر راتباً شهرياً، ولكن لحاجاتٍ محدّدة وتجهيزات فحسب، إضافة إلى تمويل إضافي للمساعدة في تجنيد الهاربين من الطالبان. وجاء رقمي أقل بكثير من الذي طلباه، لكنه كان كافياً. ولا مجال لنا بالطبع لتعليل تقديم كل الأموال لكنه ثمن صغير ينقذ فيه حلفاؤنا ماء الوجه وندفع نحن فيه بالنقاش قدماً. وهذا بالتأكيد أفضل من صرف مليارات الدولارات على القوات البرية الأميركية بكامل قوتها، ما يوفّر للعدو المزيد من الأهداف الأميركية، ويهدر الوقت في عملية الحشد التقليدية، ويصبح أقل فاعلية مع الوقت.

استعرضنا حينذاك مواقع الحليف والعدو وناقشنا الخيارات المتنوعة في هجماتنا المنسقة. خضنا في تفاصيل انتشار القوات الخاصة، وشرح العقيد مولهولاند الطريقة التي سيساهم فيها رجاله.

وعد الجنرال فرانكس في نهاية الاجتماع بلقاء فهيم في أفغانستان بحلول عيد الميلاد، وتحدث إليه عن المستقبل المشرق لتحالفنا. لقد كان حلفاؤنا يحتاجون إلى جرعة منشطة بعد المفاوضات المتوترة.

برع الجنرال فرانكس في دوره الذي اعتمد فيه على تقويمات الشخصية التي زودناه بها واستراتيجية التفاوض التي ناقشناها. ولا يوجد مثال أفضل على إفادة

زبون فطن عن حلفاء أساسيين وعن العمل الخفي الآخذ في الاندماج بالحملة العسكرية.

أبلغت فهيم وعارف أنني سألتقي بهما في بنجشير في غضون ٤٨ ساعة إذا سمحت الأحوال الجوية بذلك، وسيرافقني الأميرال كالاند. واتفقت وفهيم على مواصلة نقاشاتنا هناك.

تواصلنا في اليوم التالي، برنتسن وأنا، عبر راديو الأقمار الصناعية مع فريق «ألفا» في جنوب مزار الشريف. كان الفريق يتقدّم، في حين احتلت قوات دستم قرية يسيطر عليها الطالبان، وأمكننا سماع ما تبقى من القتال في خلفية الاتصال بالراديو. بدا فتياننا أقوياء وواثقين من أنفسهم، لكنهم احتاجوا إلى المزيد من الإسناد الجوي القريب ويريدونه الآن.

تحدثنا كذلك مع شرون ابن الستين الذي يعاني من تمرّد شامل في جهازه المعوي. وهو يعاني من نتائج عقود من الطعام الخشن في الأماكن القاسية.

والأسوأ من ذلك أنه أفادنا بأن صحة جندي مريض من القوات الخاصة ٥٥٥ لم تتحسّن. ويبدو أنه أُصيب بالتهاب في السحايا وهو في حالة خطرة. وقد أُرسلت مروحيّتان لنقله: هبطت الأولى اضطرارياً في أرض عدوة، والتقطت الأخرى المرافقة الطاقم المحاصر بعدما عطّل الطائرة المعطوبة. وأجهزت طائرة «أف-١٦» على المروحيّة العديمة النفع حتى لا يتمكن العدو من استغلالها. فالتحليق في جبال أفغانستان الشاهقة ليس بالأمر السهل وبخاصة مع اقتراب الشتاء.

عدنا في تلك الليلة إلى المطار بعدما عبرنا حاجزين مسلحين، وهو أمر شائع في دوشانبي. شاهدنا مروحيّتَيْ «سي أتش-٤٧» تهبطان. وما إن لمستا الأرض ومراوحهما لا تزال تدور حتى حمّل برنتسن ورجاله كل الأسلحة والذخائر وقطع الغيار وغير ذلك من العتاد. شكرت رون، الذي سيبقى في دوشانبي يعمل كواحد من حبال نجاتنا، على ما وفره من دعم. وسيترقّى رون لاحقاً في تراتبية الجهاز الخفي ليصبح رئيس قسم.

راقبت كل ما يدور من حركة من حول الطائرتين بمراوحهما التي تدور واتّبعت تعليمات الطاقم. كما أنني قلّدت حركات الأميرال كالاند وهو يسير إلى المروحيّة ويصعد إليها. وهو الذي طار مرات لا تُحصى على متن «سي أتش-٤٧» وغيرها من المروحيّات.

شكّل الأمر بالنسبة إليّ مغامرة جديدة. فهذا أول طيران لي في «سي أتش-٤٧»، أو في الواقع في أي مروحيّة.

صعدت من دون أن أتعرض للإصابة الجسدية أو للحرج، وحشرت نفسي، ومعي مسدسي الـ «غلوك» عيار ٩ ملم وعدة نجاتي الموجودة في حقيبة ظهر صغيرة، في أحد المقاعد وأحكمت إقفال حزام الأمان. أعدت التدقيق في كل شيء، وتغلّبت الحاجة التكتيكية الفورية على أي أفكار تتعلق بالتخطيط الاستراتيجي. ستتطلب هذه المهمة مزيجاً فاعلاً من الاثنين، مع الانضباط الآيل إلى معرفة متى يتم التركيز على ماذا وكيف.

تطلّعت صوب برت الجالس بقربي. بدا أشبه برجل دعاية دواليب «ميشلن» وقد التف بطبقات منتفخة من الملابس. سخرت من لباسه الذي يبدو سخيفاً. واكتفى ،رداً علي، بالابتسام. فُتحت أبواب الجوانب والذيل لإتاحة مجال الرؤية الواضح والرمي لمشغّلي المدافع الرشاشة، وعصفت الريح بالهيكل ونحن نرتفع وننعطف جنوباً. اندفعنا صوب أفغانستان على ارتفاع نحو مئتي قدم فقط عن الأرض، وانسللنا بعد حوالى ثلاثين دقيقة عبر الحدود.

تنفّست بعمق وأنا أعي مسؤوليتنا تماماً. فكرت في الهجمات المريعة في ٩/١١، وفي السفينة «كول» وفي سفارتينا في دار السلام ونيروبي.

يا له من امتياز أن أقود مثل هؤلاء الرجال إلى وسط منطقة القاعدة والطالبان. لم أشعر قط من قبل بمثل هذا الامتنان لبلادي وقيادتي على توفيرهما مثل هذه الفرصة للخدمة. ولم يسبق لي أن شعرت في أي مهمة من قبل بمثل هذه الثقة والقصد.

شرعنا في الارتفاع ونحن نقترب من الجانب الشمالي لسلسة جبال هندو كوش. وسرعان ما سأشعر ببرد لم يسبق لي أن شعرت به من قبل.

أسرفنا في تحميل المروحيّة التي أخذت تجهد الآن لاجتياز الممر الجبلي الشاهق. أخذت البراغي تطير من هيكل الطائرة. وشرع الطيار في الدوران على علو ١٦ ألف قدم وفي إسقاط الفيول للتخفيف من وزننا. نظرت من الكوة الصغيرة وشاهدت المروحيّة الأخرى التي تحمل برنتسن والآخرين. انتزع برت سماعة رأسه وقلب عينيه، فلم يرد أن يسمع المزيد من الشروح عن مشاكل الطائرة. وفكّرت بأنه يشعر بالدفء على الأقل وأنا لم ارتدِ ما يكفي من طبقات الثياب. وقد بلغت الحرارة عشر درجات تحت الصفر بمقياس فهرنهايت (حوالى ٢٣ درجة مئوية تحت الصفر). وأدى صقيع الهواء الذي يندفع عبر الأبواب المفتوحة إلى زيادة أشد في برودة الجو. تكوّمتُ ما أمكن على المقعد وركبتاي على صدري للحفاظ على لب حرارتي. واستمرينا في الدوران وفي التخلّص من الوقود.

فكّرت في نفسي: يا للروعة. لن تحصل القاعدة على فرصة قتلي لأنني سأتجمّد حتى الموت. ولن يسعد كوفر بذلك.

أخذنا في النهاية نرتفع، أعلى فأعلى، ومن ثم عبرنا وباشرنا في الانحدار الشديد. نظرت من النافذة لأجد أن جدران الجبل لا تبعد عنا سوى بضع أقدام. ناور الطيار بمهارة نزولاً وعبر الوديان الشديدة الانحدار إلى وادي بنجشير.

هبطنا، في حوالى الساعة ٠٣٠٠، في مجرى نهر صخري جاف حيث استقبلنا مسلّحون أفغان. وكذلك فعلت امرأة هرعت صوبي ويداها مبسوطتان تريد صدقة على ما يبدو، فدفعها واحد من الرجال الأفغان إلى الوراء وجرّها من شعرها. استمرت المراوح تدور، وبدأنا في إفراغ حاجياتنا. وصل شرون وجزء من فريقه، فصافحتهم في الظلمة والضجيج وهم يصعدون إلى المروحيّة. وكان بينهم جندي القوات الخاصة المربوط إلى الحمالة والذي سينجو.

بقيت المروحيّتان على الأرض لبضع دقائق وحسب، ثم انطلقتا في رحلة

العودة إلى دوشانبي في حين تدافعنا إلى الشاحنات. سلكنا طريقاً ترابياً إلى المنزل الآمن وهو بناء حجري قديم عند جانب الوادي السحيق. حيينا مضيفينا الأفغان ورجالنا، وعاودت التدقيق مع برنتسن في مسائل تتعلق بأمننا، ثم اتصلنا لاسلكياً بمقر القيادة وبدوشانبي للإبلاغ عن وصولنا. وجدتُ وسادةً وحراماً على الأرض فنمت كالقتيل.

استيقظنا بعد ذلك بأربع ساعات. سرت إلى الخارج، فشاهدت ضوء الصباح، وتنشقت الهواء البارد النقي وسرّحت نظري في وادي بنجشير الضيق. تبعثرت بعض المنازل في الوادي على جانبي النهر الصافي المتجمد الذي ينساب من هندوكوش إلى السهول الشمالية. ها أنا أخيراً في أفغانستان.

بدأ برنتسن العمل بالفعل. وأخذ يحصي الملايين النقدية، ويشتري الآليات، ويرسل فرق الاستطلاع، ويحضّر الاجتماعات مع كبار حلفائنا الأفغان، ويصوغ روابط أعمق مع «النكلات الثلاث»، ويخطط لكيفية إنقاذ ثمانية مبشرين من «شلتر ناو إنترناشونال» بينهم امرأتان أميركيتان يمسك بهم الطالبان. وقد اخترقت خلية عارف الاستخباراتية قوة الحراسة التابعة لطالبان التي تحمي الرهائن، وأخذنا نحصل على تقارير يومية، ونسعى إلى إخراجهم بالرشوة قبل بدء الهجوم على كابول.

أمضيت الصباح مع فريقنا ومع حلفائنا الأفغان نراجع الاستخبارات والخطط العسكرية. اجتمعنا مع المقدم في القوات الخاصة مايكل هاس. وتجمّعنا لاحقاً عند جانب إحدى التلال لالتقاط صورة جماعية.

واصل برنتسن المساومة مع عارف وغيره، على المال والأولويات الاستخباراتية ورهائن «شلتر ناو إنترناشونال». وتوجهتُ مع برت وحميد وسواهما في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم بالسيارة إلى مركز المراقبة والقيادة المحصّن التابع لبسم الله خان الذي يتولى قيادة الميليشيا الأفغانية المكلّفة بالهجوم على كابول.

جنم مركز قيادته عند الحرف المكشوف على الريح والمشرف على الزاوية

الشمالية الغربية لسهول الشمال. أحاطت أسوار كبيرة من الحجارة بمبنى حجري قديم في مكان مرتفع من جبل يطل على آخر الأرض. أشرفت الشمس على المغيب من وراء غيوم تلف كالدوامة، ودار طائر كاسر أسود كبير عند مستوى النظر يبحث بكسل عن وجبته التالية على سفوح التلال من تحته. تسكّع محاربون مسلحون يرتدون لباساً منوّعاً وأسلحة مختلفة حول الحصن الصغير. ولولا الأسلحة لأمكن وضع المشهد في رواية كونان البربري.

رحّب بنا خان ونحن ندخل القاعة الواسعة التي تمتعت بدفء مفاجئ، فالجدران السميكة تمنع الريح وتحفظ حرارة الشمس، واستند السقف من فوقنا على عوارض خشبية ثقيلة محفورة باليد. تحول النهار إلى ليل مع أخذنا مقاعدنا. وجلس خان، بعينيه الغارقتين وأنفه البارز المخدّد، إلى رأس الطاولة وبدأ النقاش.

طرح علينا حلفاؤنا الأفغان، وربما بلغوا دزينة، الكثير من الأسئلة عن استخباراتنا وقدراتنا العسكرية، واستفسرتُ عن رؤيتهم لأفغانستان. رووا قصة الاحتلال السوفياتي والحرب الأهلية وكيف أن أفغانستان تحتاج إلى زعامة، وسألت عن أفضل من يمكنه تولي الرئاسة، فاتفقوا جميعهم على أنه يجب أن يكون من الباشتون، إذ لا يمكن بغير ذلك حمل الجنوب على المشاركة في الحكومة ولا سبيل لقيام دولة قومية. أعطى واقع أن هؤلاء في معظمهم من القادة الطاجك الذين يوصون برئيس من الباشتون وزناً كبيراً لوجهة نظرهم بالنسبة إليّ. وقد سبق لي أن طرحت السؤال نفسه على عبدالله عبدالله، وهو نصف طاجك ونصف باشتون. فأجابني بشكلٍ أكثر تحديداً: كرزاي هو الخيار الوحيد لأنه باشتوني ويعتنق مفهوم الهوية القومية. سيصبح عبدالله عبدالله لاحقاً وزيراً للخارجية في عهد كرزاي، وسيستقيل احتجاجاً ثم يترشح ضده للرئاسة، لكنه سيخسر انتخابات ٢٠٠٩ المزوّرة.

دخلوا في صلب الموضوع بعد ساعة أو ما يقاربها. وجاء السؤال فظّاً بالرغم من أنه صيغ بطريقة مهذبة: هل يمكنهم الاعتماد على الولايات المتحدة للوفاء

بوعدها؟ شرحوا كيف أنهم قاتلوا السوفيات مقتنعين بأن الولايات المتحدة والمجتمع الدولي سيساعدانهم في إعادة بناء بلادهم وإقامة حكومة وحدة وطنية، وهو ما لم يحصل بالرغم من الوعود. كذبت الولايات المتحدة. وسألوا: ما الذي سيتغير هذه المرة؟

تحدّثتُ عن فظائع ٩/١١ وكيف مات مسيحيون ويهود ومسلمون على أيدي القاعدة، وشرحتُ الواجب الذي يفرضه رباط الدم بالانتقام لهم والتأكد من ألا تمتلك القاعدة من جديد ملجأً آمناً في أفغانستان. قلت إن مصلحة الولايات المتحدة الحيوية وجود أفغانستان مستقرة حيث لا يمكن لأعدائنا تأسيس أنفسهم لمهاجمة وطننا، وتعلّقت حجتي بالانتقام وبالعدالة وبحماية وطننا ومجتمعاتنا وعائلاتنا، وهي العوامل نفسها التي تحفزهم، وبعبارات أخرى فإن مصالحنا متوافقة. أغفلت الجزء المتعلق بالالتزام الأخلاقي، لأنهم شهدوا على مرّ العقدين الماضيين الكثير جداً من الإخلال الأميركي بالوعود ليسمعوني أبشّر بالأخلاق.

اعتذرنا قرابة منتصف الليل طالبين المغادرة وتمكّنا بطريقة ما من شق طريقنا نزولاً عبر الطريق الجبلي المتعرّج والعودة إلى الشمال عبر وادي بنجشير إلى قاعدتنا. تحقّقت وبرنتسن من الاتصالات من مقر القيادة والمحطات المحيطة والقواعد: لا مشاكل رئيسية. ثم غفوت كالقتيل.

تناولتُ وبرت عند الفجر فطوراً مؤلفاً من الشاي والخبز الساخن، واجتمعنا من بعدها مع أمر الله. تكوّمنا جميعنا، إلى جانب حميد والآخرين، في ثلاث سيارات دفع رباعي من صنع روسي وتنطّطنا لأكثر من ساعة جنوباً عبر الطريق الضيّق المحاذي للضفة الغربية للنهر وعبر القرى إلى الحافة الشمالية لوادي بنجشير. رحّب بنا الجنرال بسم الله خان بحرارة وجال بنا على الخطوط الأمامية.

المشهد شبيه بساحة معركة الحرب العالمية الأولى في يوم خريفي صافٍ، والجنود على الجانبين يأخذون استراحة. امتدت الخنادق والدشم من الشرق إلى الغرب وقد اتخذ الطرفان وضعية القتال استعداداً لمعركة يعرفون جميعهم أنها

ستحصل قريباً. أمكننا أن نرى بوضوح، على مسافة بضع مئات من الياردات، أفراداً من جنود العدو ينتقلون على مهلٍ من مكانٍ إلى مكان. راقبت بمنظاري تحصيناتهم التي دُمّرت بمعظمها، على الأقل المباني التي فوق الأرض، إذ لا يزال بعض الأنفاق والخنادق سليماً بحسب خان.

علمت، من خلال استخلاص المعلومات من أمر الله وبسم الله خان، أن بعض خطوط الجبهة هذه قابلة للتسريب. وقد تدفق الزائرون للاطمئنان على عائلاتهم جيئةً وذهاباً، ومن بينهم المتسلّلون والجواسيس. وشرح لي أمر الله شبكاتهم على طول خط الجبهة وصولاً إلى كابول. ويمكن القول أنهم، من وجهة النظر الاستخباراتية، قد أمّنوا تغطية المكان.

وصف خان جيشه بفخر. لديه أكثر من عشرة آلاف رجل تحت السلاح بما في ذلك بعض المدرعات والمدفعية. وشرح كيف سيشن هجومه مستخدماً عناصر على مستوى الفوج لتوفير السرعة القصوى والقدرة على المناورة. وستوفر المدفعية الدعم بالنيران، وبعضها من المرتفعات التي يسيطر عليها في الخاصرة الغربية. أدار بعد ذلك بيومين مناورة بالذخيرة الحية، مكتملة بالمشاة وبالمدفعية، في مرأى تام من الطالبان. وكان لها مثله وقع في النفس. إلا أنه احتاج يائساً إلى قوتنا الجوية في مواجهة تفاوت في العدد نسبته أربعة أو ربما خمسة إلى واحد.

سافرنا بعد اجتماعنا بخان شرقاً، بموازاة الجبهة، إلى مطار باغرام، وتوقفنا مرتين لتناول الشاي مع قادة الميليشيات المحلية الذي استقبلونا بحفاوة. جلسنا على سجادات بالية ومغبرة وجميلة في مبانٍ من الطين تعرّضت للقصف، وأخذنا نقارن الملاحظات التي تشرح أدوارهم ومسؤولياتهم. أجابوا بطول أناة على أسئلتي الكثيرة حول قدراتهم وقدرات العدو وتطلعاتهم السياسية. وصف حلفاؤنا الأفغان مواقع العدو بالتفصيل الدقيق، بل إنهم عرفوا قادة الطالبان بأسمائهم وتواصلوا معهم أحياناً، وبعثوا بشكلٍ روتيني بفرق الاستطلاع عبر الخطوط.

امتلك هؤلاء المحاربون الذين غزاهم الشيب، ومعظمهم من الأميين، تحكّماً مطلقاً في بيئتهم الاستخباراتية، وبدوا واثقين من دون تكلّف بقدراتهم.

بلغنا مطار باغرام بعدما انسللنا من وراء صحافيين منتصبين على الأسطح المجاورة. ومازحني أمر الله بأنه يمكن للصحافيين أن يشكلوا خطراً علينا أكثر من الطالبان، فقلت له إن الأمر ليس سوى نصف مزحة. وأمكنني أن أتخيّل نفسي أشرح لكوفر والمدير تينيت عن سبب ظهور صورة فريقنا في صحيفة ما، بسبب التراخي في تطبيق الحرفة.

كان مطار باغرام شبه مدمّر باستثناء هيكل برج المراقبة الذي بقي قائماً بشكلٍ من الأشكال. شكّلت الجدران الخارجية المنخورة بالرصاص دليلاً على نيران القنص، وغطّت قطع الخشب والباطون والزجاج الأرض، وتبعثرت شظايا القنابل في المنطقة المحيطة بالبرج. تسلّقنا السلم المعدنية إلى الطابق العلوي الذي لم يتبقّ فيه بالطبع أي نوافذ، وأمعنّا النظر جنوباً وراقبنا العدو.

وصف أمر الله طلعات القصف الأميركية وما عاناه منها العدو، ومن الواضح له أنها لا تكفي. أراد حلفاؤنا الأفغان معرفة سبب توقفنا عن مزيد من القصف، ولماذا لا نقصف الآن. وعزّزت السماء الصافية والعدو الظاهر على بعد مئات الياردات منا فقط وجهة نظرهم.

رقدنا ليلاً على الأرض في منزل كُسيت جدرانه الدافئة بالطين. عاد برت في اليوم التالي إلى بنجشير إذ احتاج إلى التواصل مع القيادة المركزية للجيش، وتابعت وأمر الله، وبمعيتنا اثنان من رجالنا، شرقاً إلى أقصى نقطة على خطوط الجبهة. اتجهت بنا السيارة في طريق شديد الانحدار، ضيّق، ملتوٍ وصخري إلى مركز مراقبة متقدم ومحصّن على ارتفاع حوالى ألف قدم فوق الوادي.

المنظر رائع. وقد تمكّنت بالنظر جنوباً وغرباً من رؤية النصف الشمالي للسهول الشمالية وما هو أبعد إلى سلسلة الجبال الصغيرة الواقعة بيننا وبين كابول على بعد ثلاثين ميلاً فقط. أمضينا حوالى ساعتين في المكان ننظر ونتحدث.

سألتُ أمر الله عن الانتصار النهائي فأجاب: «حافظوا على وعدكم وسننتصر. أما إذا فشلتم في ذلك فسنواصل القتال. ليس لدينا خيار آخر».

أثّر فيّ بقوة مزيج الثقة والقدرية لديه. وهو محق في أنه ليس لديهم خيار، وكذلك نحن من وجهة نظري الجديدة.

غادرت أفغانستان بعد أيام قليلة لاحقة بطائرة ذات جناح ثابت ومحرك مروحي توربيني، أقلعت من مدرج ترابي على مقربة من قرية شاريكار المستكينة عند سفح الركن الشمالي الغربي للسهل الشمالي. وهذا أول إقلاع أو هبوط منذ سنين لطائرة ذات جناح ثابت. انتشر الخبر، ومع هبوط الليل كانت قيمة العملة المحلية قد ارتفعت عدة أضعاف. أخبرني أمر الله ذلك لاحقاً للتشديد على ثقة الأفغان المتزايدة بشراكتنا. أدركوا جميعهم الآن أن الأميركيين قادمون، وعادت سوق القطع تفتح حتى في أفغانستان التي مزّقتها الحرب.

الجدال العقيم

بعد يومين على عودتي، حضرت والمدير تينيت إلى «غرفة الأزمات» في البيت الأبيض. جلس الرئيس بوش إلى رأس الطاولة ورافقه نائبه تشيني ومستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس ووزير الدفاع رامسفلد ورئيس هيئة الأركان المشتركة مايرز ونائب وزير الخارجية ريتشارد أرميتاج وسواهم. وجلستُ كالعادة عند الجدار بجانب الجنرال واين داونينغ.

قدّم المسؤولون الكبار إيجازاتهم للرئيس، وأعربوا عن إحباطهم حيال ما يبدو من فقدان للزخم. تذمّر رامسفلد من عدم تيقّنه ممن يتولى المسؤولية بالرغم من التأكيدات بأن وزارة الدفاع هي التي تخوض الحرب، وسبق لي أن استمعت في الشهر السابق، وفي الغرفة نفسها، إلى رامسفلد يشتكي من اضطراره إلى تنفيذ استراتيجية السي.آي.إيه. يبدو أن كل حساب بشكل بالنسبة إليه مجموعاً صفرياً. وأعلن أرميتاج في تلك المناسبة السابقة أن الاجتماع بكامله كناية عن جدال

عقيم. فقد حصل جدال ساخن حول اعتمادنا على حلفائنا الأفغان وحول صحة استراتيجيتنا. استمع الرئيس بوش ورايس إلى المسؤولين الكبار يتراشقون، حول الغرفة، بمزيد من الأسئلة والتصريحات والآراء. وسبق لرامسفلد أن وزّع تقويماً استخباراتياً لوزارة الدفاع يستبعد بشدة حظوظ احتلال كابول أو مزار الشريف مع حلول الشتاء. لم أعرف هل كان رامسفلد يصدّق هذا أو كان يريد تغطية رهاناته السياسية فحسب. فلو صحّ التقويم سيمكنه الإعلان: «قلت لكم ذلك»، وإذا لم يصح فسيتم نسيانه، في حين ينسب إلى نفسه الفضل في النجاح العسكري.

وها هم المسؤولون الكبار في مجلس الأمن القومي يجرون بعد ذلك بنحو شهر، الجدال العقيم نفسه.

قاطعهم تينيت في النهاية معرباً عن الثقة بخطتنا. ودعاني إلى الكلام بعدما لاحظ أنني عدت للتو من أفغانستان. قدّمت تحديثاً للمعلومات واصفاً شبكاتنا الاستخباراتية ونجاحنا المتزايد في إفساد قادة الطالبان، وخلصت إلى القول «إذا وفّرنا القوة الجوية فسيقدم حلفاؤنا الأفغان القوة البرية. سيهاجمون، ويمكننا الفوز».

هزّ الرئيس برأسه موافقاً، ولم يتأثّر نائب الرئيس تشيني، وقطب رامسفلد حاجبيه.

لم تحصل في مناخ الشك هذا أي إشارة إلى عواقب الانتصار أو نقاش حول التزاماتنا غير العسكرية تجاه حلفائنا الأفغان أو تفكير في كيفية كسب السلام. فلا نزال نركّز على القاعدة وعلى الهجوم المحتمل المقبل على موطننا.

غير أنه فاتني أن رامسفلد وولفوفيتز وغيرهما قد أعطوا التعليمات بالفعل للجنرال فرانكس بالتحضير لغزو العراق.

بعودتي إلى مقر القيادة أطلعت كوفر وماسي على اجتماع البيت الأبيض. امتلكنا ثقة بخطتنا أكثر من قادتنا في وسط المدينة، باستثناء الرئيس الذي لم يبد

عليه التردّد. ربما فعل ذلك في السر، لكنني لم ألاحظ عنده أية شكوك كالتي رأيتها لدى الآخرين.

في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة، في السادس من تشرين الثاني/نوفمبر، استولت القوات الأفغانية الحليفة يواكبها فريقا «ألفا» و«برافو» والقوات الخاصة الأميركية على مزار الشريف. استقبل سكان المدينة قواتنا بالهتاف. وبعد ذلك بيوم استولت قوات إسماعيل خان وفريق صغير من السي.آي.إيه والقوات الخاصة على هيرات. واندفع جيش باسم الله خان، بدعم من القوة الجوية الأميركية، عبر السهول الشمالية تماماً كما سبق وأوجز لنا ذلك. استولوا على كابول، ثم باميان، فيما اندفعت ميليشيا الهزارة الشيعية التابعة للخليلي إلى بلدتهم.

ارتفعت خسائر الطالبان والقاعدة. قضى الآلاف من العدو وملأوا ساحات القتال في أنحاء شمال أفغانستان، وفرّ من تبقى طلباً للنجاة.

عدت في ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر إلى «غرفة الأوضاع» في البيت الأبيض، وقدّمت تحديثاً لم يستغرق وقتاً طويلاً إلى كبار مسؤولي مجلس الأمن القومي. فقد حصل انهيار القوات المعادية في أفغانستان كما تم شرحه قبل ذلك بأسابيع في الخرائط والإيجازات التي قدمتُها والمدير تينيت. شرحت عن الاستخبارات البشرية والتغطية التي وفرتها «البريداتور» والقوات الخاصة وعملاء السي. آي.إيه الذين امتطوا الأحصنة، وسقوط كابول وما هو أكثر. وأريتهم الصور.

طوّق حلفاؤنا الأفغان في الأيام القليلة التالية مجموعة كبيرة من مقاتلي الأعداء في جيب قندوز. تلقيتُ بعودتي إلى مقر القيادة اتصالاً من ضابط الشؤون العامة بيل هارلو.

قال: «لديّ طلب».

«حسناً».

«يوجد صحافيان تابعان لصحيفة أميركية كبرى عالقان، وربما ضائعان، على مقربة من قندوز. وتكاد بطارية هاتفهما المتصل بالأقمار الصناعية تفرغ».

«تريد منا العثور عليهما؟ إنقاذهما؟»

«نعم».

«زوّدني بموقعهما، إذا كنت تعرفه، وبرقم هاتفهما».

انتقلت إلى مقر ماسي وأخبرته، بما في ذلك اسم الصحيفة التي يهاجم ناشروها وصحافيوها السي.آي.إيه بشكل روتيني.

وسألني جون: «تريد هذه الصحيفة أن نساعدها؟»، وكاد يضحك.

«نعم».

«الحقيقة إن في الأمر ما يدعو إلى السخرية».

«نعم».

«حسناً. سنعمل على الأمر».

في غضون ساعات حدّد فريق من السي.آي.إيه والكوماندوس الأفغاني موقع الصحافيين وانتشلوهما.

عاود هارلو الاتصال في اليوم التالي.

«إنهم ممتنون جداً. وأرادوا مني أن أشكركم».

«سأوصل ذلك لرجالنا».

وفي الوقت نفسه تقريباً أفاد عميل أفغاني للسي.آي.إيه أن فرقة الطالبان العسكرية الممسكة برهائن «شلتر ناو إنترناشونال» هربت من جنوب كابول. واقتفى أثرهم من دون توقف إلى أن عثر أخيراً على مجموعة الرهائن وقد تخلّى عنها الطالبان وهي تهرب الآن صوب الحدود الباكستانية. بعثت السي.آي.إيه

بالمعلومات الاستخبارية إلى شركائنا العسكريين في القيادة المشتركة للعمليات الخاصة الذين انطلقوا مسرعين بطوافاتهم لإنقاذ جميع الرهائن السابقين الثمانية، الذين عادوا بعد يومين واجتمعوا مع عائلاتهم.

قلعة جانجي

تسبّب السجناء بمشكلة لنا في أعقاب الهجمات الجوية والبرية المنسّقة وسقوط المدن الأفغانية الرئيسية في الشمال في أيدي القوات الأميركية والأفغانية. أسر حلفاؤنا الأفغانُ المئات من العدو لكنهم افتقروا إلى منظومة سجون لفرزهم واحتوائهم. ولم تضع الولايات المتحدة أية بروتوكولات تتعلق بأسرى الحرب أو تخصّص موارد للتعامل مع الأسرى من العدو. ولما كانت السي.آي.إيه لا تملك في ذلك الوقت أي تفويض يتعلق بالأسرى (ولم تطلب أحداً) ومع وجود هذا العدد القليل جداً من الجنود الأميركيين على الأرض، وقع الخيار حكماً على حلفائنا الأفغان الذين كانوا ارتجاليين، كما هو شأنهم دائماً.

استلمت المجموعة الأكبر من مقاتلي الأعداء في جيب قندوز حيث طُوّقوا وهوجموا من كل الجهات فيما تم دكّهم من الجو. وتولى أحد قادة حلفائنا في تلك المنطقة، الجنرال دستم، مسؤولية بضع مئات من السجناء هم مزيج من الطالبان الأفغان والمقاتلين الأجانب بمن فيهم الخائن الأميركي جون ووكر ليند، وقد نقلهم دستم إلى قلعة جانجي الأثرية على بعد بضعة أميال من مزار الشريف. تشابهت الجدران الضخمة والمجمعات المسوّرة مع بعض أوجه السجن، لكن المنشأة لم تُصمّم لفرز السجناء والسيطرة عليهم. أضف إلى ذلك أن رجال دستم لم يمتلكوا أي خبرة في عمليات المعاقبة، فهم جنود من الخيالة القبليين وليسوا حراس سجون، فأخفقوا في تفتيش السجناء كما يجب.

تمرّد السجناء في ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١ خلال عملية تحقيق أولية وفرز في إحدى الباحات، واستخدموا أسلحة مخبأة في هجوم منسق وتغلّبوا سريعاً

على الحرس الأفغان وهاجموا ضابطين في السي.آي.إيه. غُلب أحد رجالنا، مايك سبان، على الفور، وسقط. وشق الضابط الآخر، ديفيد، طريقه قتالاً عبر الباحة إلى بيت درج داخلي. صعد الدرج الشديد الانحدار خلفياً بحيث يمكنه مواجهة العدو وهو يفرغ رشاشه الكلاشنيكوف «أك-٤٧» في مطارديه، وقتل عدداً منهم. وما إن بلغ قمة الجدار حتى وجد غطاء. عند هذا الحد تجمع الحراس من الحلفاء الأفغان عند الحاجز ومنعوا أي اختراق. لكن الصخب استمر، وكان القتال شديداً.

اندفع ديفيد إلى مكان آمن والتقى فريقاً إخبارياً ألمانياً استعار هاتفهم الذي يعمل بواسطة الأقمار الصناعية ليتصل بالسي.آي.إيه في طشقند التي أبلغت بدورها فريق «ألفا» بالوضع. وكان الفريق لا يزال منتشراً، جزئياً، في منطقة قندوز. وأفاد ديفيد بسقوط مايك.

تلقيت في غضون ساعة الاتصال في المنزل، بعد ظهر يوم أحد، وهرعت إلى المكتب في لانغلي على مسافة أقل من عشرين دقيقة. ترك التقرير الأولي، على غرار معظم التقارير المماثلة، الكثير من الأسئلة من دون إجابة. هل مايك حي أو ميت؟ هل هو جريح أم فاقد للوعي وحسب؟ هل أُسر أم تمكّن من الإفلات من الاعتداء وهو يختبئ الآن في مكانٍ ما في المجمع الضخم؟

لم أعرف مايك جيداً، لكنه كان صاحب سمعة قوية، وهو تابع لقسم النشاطات الخاصة. جاء منذ عامين فقط من المارينز وانضم إلى السي.آي.إيه. هو شاب، صلب، واسع الحيلة وجميل الطلعة، محترف لا يحب لفت الأنظار، وهادئ ومتواضع. تزوج منذ فترة قريبة من شانون وهي أيضاً ضابط في السي.آي.إيه تعرّف إليها خلال التدريب. وقد عرفتُ شانون وهي في فترة تدربها عندما خدمتُ في السنة السابقة لفترة مؤقتة في مركز مكافحة الإرهاب وكنت لا أزال فيه. أمضت النهار في أثري كجزء من البرنامج التمهيدي الذي أنشأتُه للمتدربين في المركز. وهي أستاذة في القانون انضمت إلى السي.آي.إيه وقد عقدت العزم

على المساهمة في مهمتنا المكافحة للإرهاب. هي حسنة المظهر، ذكية، موزونة وضابطة ممتازة، وقد شكّلت ومايك ثنائياً رائعاً. لمايك ابنتان من زواج سابق، وله من شانون صبي مولود جديد اسمه جاك.

سألتُ شانون في الشهر السابق، تماماً قبل مغادرتي إلى افغانستان، هل تريدني أن أحمل أي شيء لمايك، فأعطتني صورة جديدة لجاك. لم أقابل مايك وأنا في أفغانستان، لكنني سلمته الصورة بواسطة ضابط آخر. وهي آخر صورة سيراها مايك لابنه.

تداولتُ مع بلاك وماسي في كيفية إيصال الخبر إلى شانون. وأمر كوفر نائبه، بن بونك، بالطيران إلى كاليفورنيا حيث تزور شانون عائلتها. وأوفدتُ ماسي إلى ألاباما حيث يقيم أهل مايك. قلقنا من احتمال تسرّب خبر ضابط السي.آي.إيه المفقود في المعركة إلى الصحافة فاتصلنا بعائلة كل ضابط من السي.آي.إيه منتشر في أفغانستان لإبلاغها بأن أبناءهم وأزواجهم بخير.

جلست في غضون ذلك وتينيت في مكتبي الصغير. لم نعرف ما نقوله أحدنا للآخر. جلسنا فترة طويلة، وتلقيت اتصالاً هاتفياً من الميدان حمل تحديثات غير مكتملة. بدا الأمر سيئاً، وقلت ذلك لتينيت. انتظرنا مزيداً من الأخبار.

سبق أن خسرتُ ضباطاً من الرفاق في السي.آي.إيه، بعضهم في عنف مقصود وبعضهم في حوادث، كما فقدت بعضهم الآخر بسبب المرض. رافقت قبل ذلك بسنوات رفات أحد الضباط وأرملته من مركز في الخارج إلى قلب أميركا حيث قابلت عائلة المتوفى، وهو لم يتجاوز الثلاثينات ومات فجأة متأثراً بنوبة قلبية. ساعدت في تحميل جثته في النعش في مشرحة في مدينة تبعد نصف العالم عن بلدته. قطعت خصلة من شعره لأرملته، ودقّقت مرتين مع شركات الطيران في كل محطات الترانزيت. كان رجلاً طيباً خدم بلاده بشرف.

وهكذا كان مايك. لكن الظروف تختلف بشدة. فمايك تحت إمرتي ونحن في حرب.

نقلت وسائل الإعلام في اليوم التالي بعضاً من القصة: سقوط أول أميركي في المعركة بعد ٩/١١، لكنها لم تمتلك أية تفاصيل. وقد وصل ماسي عند هذا الحد إلى ألاباما وأبلغ أهل مايك، فيما كان بونك لا يزال في الطريق إلى كاليفورنيا. أصدر البنتاغون بياناً صحافياً يفيد بأن من سقط غير تابع لوزارة الدفاع، ولم يتم تنسيق البيان مع السي.آي.إيه.

اتصل بي ضابط الشؤون العامة في السي.آي.إيه بيل هارلو وأبلغني الخبر، فاستبد بي الغضب الشديد. ألم يمكنهم، بحق الله، الانتظار لساعات قليلة أخرى لنتمكن من إبلاغ شانون؟ ما الذي كسبه البنتاغون؟ ربما تمكّن بونك من بلوغ كاليفورنيا قبل أن تسمع شانون الخبر.

كانت شانون تقود السيارة وتستمع إلى الراديو. سمعت الإعلان وتوقفت عند جانب الطريق واتصلت بي.

«سمعت خبراً للتو على الراديو عن سقوط أحد الضباط. يقول البنتاغون إنه ليس واحداً منهم، ويجب بالتالي أن يكون واحداً منا. إنه مايك، أليس كذلك؟»

«نعم، يا شانون، لقد سقط وهو يقاتل. لا نستطيع التأكيد بأنه مات، لكن ذلك مرجّح. غُلب في تمرد في سجن وهو يستجوب السجناء. أنا آسف».

«عرفت ذلك»، قالت.

حاولت تخيّلها عند جانب أحد طرق كاليفورنيا تحمل الهاتف الخلوي بيدها فيما تمر السيارات بسرعة من قربها. وها قد أضحت أرملة شابة مع ثلاثة أولاد.

«بن بونك في الطريق إليكِ، وسيصل في غضون ساعتين. سنزوّده بالتفاصيل فور حصولنا عليها. نحن لا نعرف الكثير بعد. هناك فريق في الموقع يحاول العثور عليه، لكن المعارك لا تزال مستمرة».

«أفهم ذلك، شكراً لك».

وضعتُ السماعة بلطف. كرهت القاعدة والطالبان، ولم تبلغ نظرتي إلى حثالة إعلام البنتاغون ما هو أرفع بكثير.

مرّت خمسة أيام أخرى قبل قمع الانتفاضة. وتطلّب الأمر غارات جوية وهجوماً منسّقاً شنّه رجال دستم والسي.آي.إيه والقوات الخاصة الأميركية وجهاز القوات البحرية الخاصة البريطاني. نجا أقل من مئة سجين معادٍ، وعُثر بعد ذلك على جثة مايك في المكان الذي سقط فيه وقد أُطلقت عليه النار.

بعد ذلك بأسابيع، على أثر حفل التأبين والدفن في مقابر أرلينغتون، جاءت شانون لزيارتي في مكتبي. شددت أعصابي متوقعاً أنها ستحتاج إلى التعزية والتشجيع. وستحتاج إلى معرفة أن مايكل مات بطلاً خادماً في مهمة اعتنقها. وحضّرت لها علبة من المناديل الورقية.

كانت حسنة الملبس ورابطة الجأش تجلس ويداها في حضنها. قدّمتُ لها التعازي من جديد، وتقبّلتْ مشاعري بتهذيب ثم انطلقتْ في مناجاة فردية هادئة.

«قضى مايك وهو يقاتل. مات وهو يقوم تماماً بما أراد فعله، وأنا فخورة للغاية به. وهذه المهمة على درجة كبرى من الأهمية. لا يمكنك التردّد. يجب أن تنجز العمل. لا يجب أن تذعن. لن يريد مايك ذلك».

حضّرت نفسي لكل شيء إلا لهذا. واستمرّت في تشجيعي بسكينة وقوة لم يسبق لي أن اختبرت مثلهما من قبل. كيف أمكنها أن تكون على هذا القدر من القوة؟ كاد يغمرني حبها لمايك وللمهمة وللبلاد. بدا المكتب أصغر بكثير من احتواء مثل هذه القوة الطبيعية. كانت جميلة بشكل مؤلم وحزينة وملتزمة ورائعة.

وعدتها بأننا سنواصل القتال بالفعل، وزودّتها بآخر مستجدات التقدم في أفغانستان. كانت قندهار عند ذاك الحد قد سقطت. ودُحرت قيادة الطالبان والقاعدة وهي تفرّ إلى باكستان.

شكرتني على تزويدها بالمستجدات. شكرتني على قيادتي، ثم غادرت من

دون أن تذرف أي دمعة أو تتلعثم في تسليم رسالتها. لم تأتِ لأعزيها بل جاءت بالأحرى لتشجّعني.

جلستُ وحدي فترةً طويلة. لقد حطّت من كبريائي كما لم يفعل بي ذلك أحد في حياتي المهنية. شككتُ في قدرتي على مضاهاة قوتها إلا أنه يمكنني التعلّم منها. أستطيع أن أحب الأمثولة، وأشرّف ميزتها التي تقطع القلب بقبول تشجيعها وبمتابعة مهمتنا.

سيحب ماسي أن يعرف ما جرى أثناء زيارة شانون. أخبرته ثم أخبرت كوفر وتينيت.

الانتقام

لم تضاهِ جهودنا في الجنوب بعد تلك التي قمنا بها في الشمال. وحدّد شركاؤنا في الجبهة الموحدة كرزاي تكراراً بوصفه الفرصة الأفضل، وربما الوحيدة، للزعامة الوطنية. يجب أن يعود المركز الأعلى إلى واحد من الباشتون، وقد عرفنا ذلك منذ البداية. وعلمنا أيضاً أن الأمل الأفضل لنجاح كرزاي مناط بغريغ الذي طور على مدى السنة الماضية علاقة وثيقة معه.

تعلّقت الحملة التي تقودها السي.آي.إيه في أفغانستان أيضاً بالاستخبارات وبالتجنيد. تعامل بعض العملاء مع السي.آي.إيه من أجل المال أو العقيدة أو التسوية أو إثبات الذات، وشكل الانتقام دافعاً للآخرين.

راقبت من مركز قيادتنا التوغّل الليلي لغريغ وفريقه، واسمه الرمزي «إيكو»، في بث حي عبر فيديو «البريداتور». وهو فريق مشترك مؤلف من السي.آي.إيه ووحدة من سبعة رجال من القوات الخاصة.

عبرت مروحيّتا «سي إتش-٤٧» مسرعتين على علو منخفض فوق التلال تنفثان الغبار الذي حجب الرؤية أمام الطيارين، وانحرفت إحدى الطائرتين إلى أحد الجوانب وبدا أن الطيار يفتش عن الأفق. اندفعت قذيفة «أر. بي. جي.»

أطلقها الطالبان بقرب الهليكوبتر الثانية وأخطأتها بقليل. راعتني نقاوة نار العدو على الشاشة الكبيرة، وبدت واضحة بشكل هائل.

فكّرت بأن «فتياننا قد ينتهون حتى قبل أن يهبطوا»، ولم نمتلك طريقة موثوقة لإخراجهم ولا سبيلاً لتعزيزهم. فكيف يمكننا استبدالهم؟

كان هذا أفضل فريق شبه عسكري أمكنني تخيّله، تركيبة شبه مثالية مع عملاء السي.آي.إيه والقيادة المشتركة للعمليات الخاصة. سبق لغريغ أن خدم في قوة الاستطلاع في المارينز قبل أن يبدأ بحوالى عقدين من الخدمة في قسم النشاطات الخاصة. وكان جيمي، الفتى الصغير الحسن المظهر والمعسول اللسان، رقيباً أولَ في قوة «دلتا» قبل أن ينضم إلى السي.آي.إيه كمتعاقد. التقيته للمرة الأولى منذ فترة طويلة في حقل الرماية، وسبق له قبل ذلك بسنوات أن فاز بمسابقة دولية مرهقة متعددة الأحداث تمتد على أيام عدة، دارت بين القوات الخاصة التابعة لحلف شمال الأطلسي. وقد أثبت نفسه كأفضل عميل في الحلف الأطلسي بكامله من ضمن فريق مؤثر من المتنافسين.

ناور الطياران بالمروحيّتين في اتجاهين مختلفين، وقفز الفريقان من الأبواب. لوى أحد عملاء السي.آي.إيه كاحله لكنه واصل عمله ـ لأسابيع ـ من دون الإفادة عن إصابته. تركت الطائرتان الرجال الذين انفصلوا إلى مجموعتين تسعيان للعثور إحداهما على الأخرى وعلى رجال كرزاي، فيما تتفاديان الطالبان. تحرك الفريقان في النهاية من منطقة الهبوط واتصلا أحدهما بالآخر وانسلّا عبر خطوط العدو ووجدا ملجأ لهما مع حلفائهما المحليين.

لقد هبطا في حقل للحلفاء من السوسن وسط بحر من الطالبان. وحده كرزاي تمكن، بفضل قوة زعامته، من ضمان تعاون قبيلته الأولي في تلك المنطقة. وقد رحبوا بفريق السي.آي.إيه/القوات الخاصة الصغير هذا ووفروا له الحماية. احتاج كرزاي يائساً إلى المساعدة، فقبيلته لا تزال متردّدة في شأن التزامها الطويل الأمد. وطلب كرزاي من غريغ التحدث في مجلس القبيلة، ويُدعى «الجيرغا»، في قرية تارين كوت الصغيرة المنعزلة.

تساوى أصوات جميع المشاركين في «الجيرغا»، إلا أنه لا يمكن سوى سماع صوت الرجال لأن النساء مستبعدات. واحتاج المحاربون القبليون، المُلزمون ثقافياً بحماية المدعوين من زوارهم، بمن فيهم فريق «إيكو»، إلى معرفة ما الذي يريده هؤلاء الأصدقاء الأجانب. سبق لكرزاي أن قدّم شرحه، لكن ما الذي سيقوله الأجانب؟ هل يمكن ائتماننا على حياتهم وحياة عائلاتهم؟ فالطالبان وحلفاؤهم الأجانب في القاعدة يفوقونهم عدداً. ومع ذلك ألا تقضي الخطة بقتالهم حتى قندهار؟ وفي ذلك أكثر من ستين ميلاً خطرة إلى الجنوب. والاستيلاء من ثم على المدينة؟ كيف سيحصل هذا؟

جلس المشاركون في «الجيرغا» بلحاهم الكثيفة، وقد لوّحتهم الشمس وتجعّدت وجوههم وتكلّلت رؤوسهم بأوشحة متنوعة، وبعضهم فقدوا أسنانهم، وجميعهم مسلحون. استمعوا بهدوء إلى كرزاي وهو يقدم غريغ. تفحص غريغ المقاتل الأعجف بلحيته الكثة الكاملة الغرفة. شعر، وقد تشرّب بشعور من القدر الموروث ومفخرة المقاتل، بأنه واحد منهم ولو أنه جاء من الجانب الآخر من العالم. وانطلق غريغ في عملية الإقناع التجنيدية. شكر مضيفيه بتشدّقه الجنوبي في الكلام الذي تُرجم إلى الباشتو، وسلّم بشجاعة كرزاي وزعامته. وشرح كيف أن القاعدة، بدعم من خدامها الطالبان الأفغان، خطّطت ونفذت هجوماً قاتلاً على الأرض الأميركية. ووصف الموت الرهيب للرجال والنساء والأطفال، وأكّد بأن شرف الولايات المتحدة يُلزمها بالسعي إلى الانتقام. قال إن على المحاربين الأفغان الفعليين السعي أيضاً إلى قبض ضريبة الدم لأن القاعدة قتلت زعامات أفغانية بطلة. فقد تمزّق أحمد شاه مسعود إلى أشلاء بانفجار قنبلة أخفاها متسلّلون من القاعدة ادّعوا أنهم صحافيون في كاميرتهم الفيديو. وأسر الطالبان عبد الحق الذي حارب أيضاً السوفيات ببطولة وعذبوه وأعدموه قبل ذلك بأسابيع فقط. ألن يقدّر المحاربون الأفغان شهداءهم من خلال فعل الحرب المقدسة؟ وماذا عن الشعب الأفغاني الذي عانى في ظل هذا النظام الغاشم؟ على الأفغان أن يقاتلوا القاعدة. أليست هذه مسؤولية المحارب وواجبه وشرفه؟ هل يسمح الرجال

الأفغان الحقيقيون للدخلاء العرب والشيشان والأوزبك والباكستانيين العاملين تحت لواء القاعدة بتحديد مستقبل أفغانستان؟ وكيف يمكنهم ألا ينضموا إلى «إيكو» والولايات المتحدة ضد هذا العدو المشترك؟ فالقاعدة غازٍ أجنبي اختطف بلادهم، وقد حان وقت القتال. حان وقت الانتقام.

اهتزّت «الجيرغا» ودرس غريغ التجهّمات وتقطيب الوجوه وهزات الرأس وتساءل عما سينكشّف عنه الأمر. لم يمتلك خيارات أخرى، وتمثّل حظه الوحيد في عمق الداخل الأفغاني الجنوبي، في قلب أرض الطالبان، في تجنيد هذا الجيش الخاص وإلحاق الهزيمة بالعدو واحتلال قندهار والإبقاء على كرزاي حياً. تلك هي المهمة.

طرحت «الجيرغا» الأسئلة. كيف يمكن لقلّتهم محاربة هذا العدد الكبير من الطالبان والقاعدة؟ وماذا بالنسبة إلى الأسلحة؟ والدعم الجوي؟ وماذا يحدث لو فشلوا؟

أجاب غريغ وكرزاي، وعاودا حثّهم. أطلق غريغ تحدّياً تجنيدياً بارعاً مقدّماً هدية الانتقام ملفوفة بشرفهم ورجولتهم وهويتهم المحاربة.

بيد أن ذلك بقي غير كافٍ. ووجد رسول عند الساعة ٠٢:٠٠ غريغ متكوّماً على الأرض وهو غارق في النوم. فلكزه بلطف.

«حميد، حميد»، قال الرسول.

اهتزّ غريغ وفكّر، ما الذي يريده كرزاي الآن؟

تبع الرسول إلى مقر كرزاي المرتجل وهو مبنى مقصوف لجيش الطالبان في تارين كوت. جلس كرزاي في إحدى الزوايا وقد لف نفسه بوشاح وأُصيب بسعال. بدا متعباً وكالحاً وهو يرمق غريغ بنظره ثم يراقب عشرات شيوخ القبائل المجتمعين في الغرفة الباردة والمعتمة. واستداروا جميعهم صوب غريغ.

قال كرزاي: «يريدون أن يعرفوا هل ستتفاوض الولايات المتحدة مع الملّا عمر».

صحا غريغ عند هذا الحد تماماً. ونظر إلى الحشد الصامت من المحاربين.

أجاب: «قال رئيسي: إما أن تكونوا معنا وإما أن تكونوا ضدنا. فكيف يمكننا التفاوض مع الملّا عمر وهو لم يجلب لكم سوى الموت والمشقة؟ لن نفاوض هذا القاتل. سنحارب معكم حتى النصر».

وتولّى كرزاي الترجمة.

شرع الرجال في هز رؤوسهم موافقين ثم انتشر بينهم كورس خفيض من الـ «أوف، أوف، أوف» في إشارة إلى موافقتهم الجماعية. فهموا وسيحاربون. لقد جند كرزاي وغريغ جيشهما للتو. شكر كرزاي غريغ بتهذيب وأذن له بالمغادرة. وفكّر غريغ بعودته إلى فراشه على الأرض بما قد رشح حينئذٍ. فهو في سلّم الراتب الأعلى وقد تحدّث للتو باسم رئيس الولايات المتحدة لمجموعة من زعماء القبائل الأفغان. قدم لهم تعهّداً باسم الولايات المتحدة، ووضعوا قدرهم بين يديه. فهل تفوّه بالصواب؟ هل تجاوز حدود صلاحياته؟ لم يمتلك الوقت للاستفسار مع مقر القيادة وتوجب عليه أن يقرر في الوقت ذاته وفي المكان ذاته.

قال في سرّه: اللعنة! هذا هو سبب انضمامي إلى السي.آي.إيه، وقد أمضيت حياتي أُحضّر لهذا، وربما أُرسل في الغد برقية إلى فرانك. ثم غفا.

في الثامن عشر من تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١، على بعد أميال قليلة جنوب تارين كوت على الطريق إلى قندهار، تواجه «إيكو» وحلفاؤهم الأفغان مع قوات الطالبان والقاعدة. أرسل العدو قافلة من قندهار، وتردّد بعض رجال ميليشيا كرزاي أمام هذه الأعداد الساحقة وهربوا. أمسك غريغ بياقات البعض منهم صائحاً ودافعاً بهم إلى الأمام. وطلب من رجال «إيكو» فعل الأمر نفسه. فإذا لم يثبت تجنيده لهذه الميليشيا وإذا لم يتمكن من حشدهم فعلاً فمن المحتمل أن يواجهوا جميعهم الموت العنيف، بل الأسوأ هو أنهم سيخفقون في مهمتهم. وإذا احتفظت القاعدة بملاذها الآمن في جنوب أفغانستان فستبقى الديار الأميركية في خطر. وفي غياب انتصار بقيادة كرزاي للسيطرة على قندهار، وبالتالي تكييف مصلحة

الباشتون القبلية مع الأفغان غير الباشتون، تتضاءل حظوظ تحوّل أفغانستان إلى دولة قومية. وهذه نقطة تحوّل ضخمة في الحرب.

حارب «إيكو» وحلفاؤهم الأفغان الذين أعادوا تجمعهم. ووجه المراقب المتقدم في سلاح الجو الأميركي المفصول مع «إيكو» القاذفات الأميركية بدقة ساحقة. دكّت قنابل زنة خمسمئة رطل القافلة المعادية فيما صلى «إيكو» والأفغان خطوط العدو بنيران الأسلحة الرشاشة. وفي غضون دقائق تحوّلت قافلة الطالبان إلى خط من أكوام الخردة المتفحمة والملتوية. ومات الكثير من الأعداء في القصف.

أخمد «إيكو» والأفغان الهجوم المعادي، وهرب من تبقى من مقاتلي القاعدة والطالبان إلى قندهار. لم يسبق لهم أن واجهوا عمليات حربية كهذه.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الحلفاء الأفغان. جاءت سرعة القصف الأميركي ودقته مرعبتين، وشكّلت مهارة كرزاي وفريق «إيكو» وجسارتهما وقيادتهما مصدر إيحاء لهم. لم يسبق لهم أن اختبروا مثل هذا الانتصار السريع والدقيق، والأهم من ذلك كله أن الأميركيين وفوا بوعدهم.

لقد جنّد كرزاي وغريغ جيشاً صغيراً وربحا أول معركة لهما وأهمها، وسيقودانه في معارك الأسابيع المقبلة، وسيصوغ الرجلان شراكة عميقة وهما ينطلقان جنوباً صوب قندهار، وفي معركة تليها معركة. وعمد غريغ ورفاقه في «إيكو»، على طول الخط، إلى القيادة من الخطوط الأمامية. كانوا يتحدّون النيران العدوة ويعدون من موقع أفغاني إلى آخر، وهم يعيدون تشغيل الأسلحة المعَرقَلة ويوجّهون الهجمات ويستدعون الغارات الجوية ويصدّون هجمات الطالبان ويعالجون الجرحى ويدفنون الموتى.

وقد واجهوا أيضاً تحديات أخرى أقل وضوحاً، إذ أفسد ميل الحلفاء الأفغان إلى استراحات الشاي وأداء فريضة الصلاة برنامج الدعم العسكري الأميركي بالنار. وشرح غريغ لزملائه العسكريين الأميركيين المُربكين والمحبطين أن هذه

بساطة هي الحرب الأفغانية. ويمكن تدريبهم على كيفية نصب خط النار في مواجهة أهداف معادية واضحة، لكن لا يمكن ان نتوقع منهم نسيان أمر الصلاة أو الشاي بسبب برنامج غير مرئي لطيار ما.

ردمت «إيكو» الفجوة الثقافية، وتمكّنت من خلال أفعالها اليومية من تمتين العلاقة. لعبت دور الغراء الذي يلصق هذه الميليشيا القبلية البدائية بالقوة الجوية الأحدث في العالم، وتكرر ذلك في كل أنحاء أفغانستان. أقامت فرق السي. آي.إيه والقوات الخاصة لحمة بين المحاربين السابقين للعصر الصناعي وبين الطيارين غير المرئيين من عصر الفضاء في حرب خاطفة تدور رحاها في بعض أقسى الميادين التي يمكن تخيّلها. وقد اعتمدت الحرب وأمن الديار الأميركية عليها.

وفي واحد من الحوادث دحرت دورية صغيرة من الشيشان رجال كرزاي الذين هربوا إلى تلة مجاورة انتظرهم فيها غريغ. طلب الأفغان التوجيه منه، وأراد بعض أفراد «إيكو» القيام بهجوم مباشر كأمثولة لحلفائهم. استفزّهم الشيشان بحركات بذيئة، فطلب غريغ من رجاله ومن الأفغان الاستكانة. واصل الشيشان بعد ذلك بعدة دقائق حركاتهم المبتذلة، فلوّح لهم غريغ بيده. لم يدركوا أبداً أنه يلوح لهم مودّعاً إذ سقطت قذيفة «جدام» الموجهة من ثلاثين ألف قدم ومزّقتهم أشلاء.

ولعل أسوأ حادثة في قتال «إيكو» الملحمي في الطريق إلى قندهار جاء نتيجة نيران صديقة. فقد بدّل أحد عناصر «إيكو» البطاريات في جهاز نظام تحديد المواقع العالمي ماحياً عن غير قصد الإحداثيات المحددة سابقاً لمواقع العدو. وأعاد الجهاز تحديد موقعه الخاص، محدّدا مكان «إيكو» الدقيق الذي بثه العامل عن غير قصد إلى الطائرة الأميركية التي تحلق في طيران دائري من فوق، فسقطت قنبلة دقيقة التوجيه في وسطهم. رمى غريغ بنفسه غريزياً فوق كرزاي وحماه. وقُتِل عناصر من فريق «إيكو» ومن الحلفاء الأفغان أو جرحوا.

وقد أُصيبوا جميعهم بالصدمة جراء الارتجاج. واصل الطالبان هجومهم الضاغط. وأعاد رجال «إيكو» والأفغان سريعاً تجميع أنفسهم وهم يهتمون بالجرحى ويواصلون في الوقت نفسه مقاتلة العدو. نجوا وواصلوا سيرهم جنوباً في اتجاه قندهار.

في غضون ذلك شق فريق «فوكس تروت» وميليشيا الباشتون الحليفة التابعة لغول آغا شرزاي طريقهم قتالاً من الحدود الباكستانية صوب قندهار. وأخذت قوتا الميليشيا الحليفتان في الإطباق على العدو.

سقطت قندهار في أيدي قوات «إيكو» وكرزاي في السابع من كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠١، في ذكرى يوم العار في عام ١٩٤١، لكنه الآن يوم النصر. ووصل «فوكس تروت» بُعَيْدَ ذلك من الشرق. وشكّلت خسارة الطالبان عاصمتهم الروحية، وهي آخر حصن مديني للعدو في افغانستان، ضربة قاضية للملّا عمر وزمرته الذين هربوا عبر الحدود إلى باكستان.

نفّذ غريغ وفريقه «إيكو» واحدة من أروع عمليات التجنيد والعمل الخفي شبه العسكري في مدونات تاريخ السي.آي.إيه. ومنحت الوكالة غريغ وسام «نجمة الاستخبارات»، وهي المرادفة لميدالية الشرف، تقديراً لخدمته الباسلة ولقيادته الاستثنائية.

الإكراه

يمكن للإكراه، وبخاصة في عمليات مكافحة الإرهاب والحرب، أن يلعب دوراً مهماً في عملية جمع الاستخبارات.

وزّع طوني، نائب قائد فريق «دلتا»، وهي وحدة مشتركة أخرى بين السي. آي.إيه والقوات الخاصة، في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١ فريقه في جبال وسط أفغانستان، وقد انضم وفريقه إلى ميليشيا الهزارة التابعة لكريم خليلي. رحبت الهزارة، وهي أقلية شيعية تعرضت للاضطهاد الرهيب على أيدي الطالبان،

بالولايات المتحدة بامتنان وبالتزام عميق بالحرب. وأنجزت «دلتا» خلال أسابيع أهداف مهمتها الأولية: جمع الاستخبارات وتعميق التحالفات ومساعدة الحلفاء الأفغان على هزيمة الطالبان في مقاطعة باميان. كما سيطرت على الطرق المؤدية إلى الشرق على طول الطريق إلى كابول.

وأرادت الآن أمراً آخر.

بدا أشبه بفتى لطيف: طوله أقل من المتوسط، عضلاته بارزة، كتفاه عريضتان، وشعره داكن، وهو يبتسم بسهولة. بدا راضياً، وأمكنني تخيله نادلاً بقدّم عجينة الباستا في مقهى محترم في أحد الأحياء. وسيكون نوع النادل الفاعل والودود من دون أن يتخطى حدود اللياقة، ويستطيع تحصيل إكرامية إضافية لأنه يهتم بالزبائن وهم بدورهم يحبونه. ربما عمل نادلاً في حياة سابقة. لم أعرفه جيداً سوى من خلال سمعته.

عرفت أمراً واحداً وهو أنه ما كان ليُسقط أي طلبية بسبب يديه، فهما استثنائيتان، وغير متناسبتين بصورة غير طبيعية في الحجم وفي قوتهما الساحقة. وربما للأمر علاقة بالصدفة الوراثية ونظام تدريب شرس. وربما اعتصر الحجارة وهو يركض أو تدلى ممسكاً بأصابعه بخشب السقف وهو نائم.

بحلول منتصف كانون الأول/ديسمبر وسّع حلفاؤنا الأفغان، يوماً بعد يوم، نفوذهم، ناهيك بسيطرتهم، على البلاد. وبات الطالبان، والأهم من ذلك القاعدة، في اضطراب وذعر. عرفنا أن أسامة بن لادن وغيره من القادة يسعون للهرب وبخاصة بعد هزيمتهم الكارثية في تورا بورا.

أعطيت في خلال اجتماع للأركان أمراً مفاده: «علينا مضاعفة الجهود ضد قادة القاعدة الهاربين الآن وقد أمّنا معظم أهدافنا الجغرافية. أبلغوا فرقنا أننا نحتاج إلى كل استخبارات متوفرة عن بن لادن والقادة التابعين له. قتلنا الرقم ثلاثة عنده، محمد عاطف، وغيره، لكنني أريدهم جميعاً».

أجاب أحد المحللين في مقر القيادة: «بعث رئيس استخبارات الطالبان قاري عماد الله برسالة عبر وسطاء بأنه يريد التحدّث فكيف نرد؟».

قلت: «نتحدث. وسنعقد صفقة معه إذا أمكنه تسليمنا قادة القاعدة». لم يخامرني أدنى شك، فالقاعدة عدو أميركا، والطالبان خدامها المحليون. فإما ان يقفوا عائقاً في سبيلنا وإما أن يشكّلوا وسيلة للنيل من القاعدة.

سبق لعماد الله أن أشار في أوقات مختلفة إلى رغبته في الكلام كما في تموز/ يوليو من تلك السنة لكنه طرح شروطاً. أراد دوماً أكثر مما يستحق، والأهم أنه أراد أكثر بكثير مما تبرره المصالح الأميركية. وهو ليس أهلاً للثقة. وقد عرفتُ ذلك، لكنني سأعطيه فرصة. سأعطيه خياراً بسيطاً جداً.

سألتُ: «من الذي يعمل على صلة الوصل؟».

«طوني».

«جيد».

ناقشت مع فريقي في مقر القيادة المتحولات العملانية، وأعطيت الموافقة لطوني لعقد اجتماع مباشر مع عماد الله، على أن يتوقف الأمر على مراجعة الوضع الأمني وخطط خروج طوني. وقسّمت مهمة طوني إلى ثلاث نتائج:

«الخيار الأول، ضمان التعاون التام من عماد الله. وعليه أن يبرهن هذا، بطريقة ما، في الاجتماع الأول. وإذا تأكدنا من إمكان تحريكه في مكانه بوصفه عميلاً مُوجّهاً، فقم بذلك. وسنكافئه إذا سلّم أسامة بن لادن و/أو غيره من قادة القاعدة الأساسيين.

«الخيار الثاني، أسره والتحقيق معه.

«الثالث، إذا لم نتمكن من الإمساك به بسبب مقاومته، فيمكن لطوني أن يستخدم كل ما يتطلبه الأمر من قوة لحماية فريقه ونفسه. وبعبارات أخرى أن يقتله إذا تطلّب الأمر ذلك».

أوجزت الأمر في اليوم التالي لكوفر والمدير تينيت وجميع المشاركين في اجتماع الساعة ١٧٠٠ اليومي الذي عُقِد في قاعة الاجتماعات التابعة للمدير في الطابق السابع. لم أطلب الموافقة، بل أعلمتهم، على غرار ما فعلت مع فريقي، بالخطوط العريضة للأوامر وبالنتائج المحتملة. لم يبدِ كوفر أي انفعال. فمجرد حضوره الضخم كفيل بإخافة الرافضين. هو لم يقل شيئاً، ولم يضطر إلى قول شيء. ومضغ تينيت سيجاره المعصور ضغطاً وترطيباً. لا اعتراض، ولا نقاش.

لم أشر أبداً إلى نتائج ممكنة أخرى، كأن يؤسر طوني وفريقه ويتعرضون للتعذيب ويُقتلون بعد ذلك، فيما يتم تصويرهم بالفيديو في عرض للقاعدة على الإنترنت. أو يمكنهم، وفي ذلك رحمة أكبر، أن يُقتلوا في الاشتباك.

حُدّد مكان الاجتماع في منطقة متنازع عليها في مقاطعة غازني، وهي أرض حرام. قاد طوني فريقه المؤلف من ثلاثة عملاء أميركيين آخرين ودزينة من المواكبين الأفغان برّاً مستخدمين آلية في البداية ومكملين من بعدها سيراً إلى مكان اللقاء في منزل ليس فيه ما يميّزه. وغابت «البريداتور» وأي شكل آخر من أشكال الغطاء الجوي. لم نمتلك ما يكفي من المساعدة الجوية. فقد كانوا لوحدهم.

لم يأتِ عماد الله، بل أوفد أحد مرؤوسيه وهو حسن الاطلاع لكنه فشل في توفير استخبارات مفيدة. أضف إلى ذلك أنه لم يمتلك سلطة عقد صفقة. كما أنه لم يبد ميّالاً إلى العمل بوصفه أداة السي.آي.إيه لاختراق الطالبان. فهو يتبع أوامر رئيسه، ويشتري الوقت ولا يلبي الحد الأدنى من التوقعات المرسومة للاجتماع.

لم يتصل طوني طلباً للتوجيهات، فقد عرف مهمته. مارس الحكم الصائب على الأمور ونفّذ ما تتطلبه منه القيادة من مسؤولية.

أعطى الإشارة. سيطر وفريقه على مفرزة الطالبان. قيّدوهم وكمّوا أفواههم وتركوهم على أرضية الكوخ. لفّوا ممثل عماد الله في سجادة. وخرجوا في وضح

النهار من المنزل وشقوا طريقهم يحملون السجادة الضخمة جداً تحت أذرعهم، وبلغوا منطقة الهبوط المحددة مسبقاً. نقلتهم الهليكوبتر بعد تأخير يعتصر المعدة.

كشف السجين الطالباني في غضون أربع وعشرين ساعة على أسره عن مواقع قيادة القاعدة والطالبان وغير ذلك من المواقع على امتداد الحدود الباكستانية. واستندنا إلى هذه الاستخبارات التي تأكدت من مصادر أخرى، بما فيها طائراتنا التي تطير بلا طيار، وطالبنا بغارة جوية.

حوّلت الطائرات الأميركية مواقع العدو هذه إلى مزيج اختلط فيه الركام بالغبار واللحم بالعظام. قضى العشرات من القاعدة والطالبان. وانتقت «البريداتور» في خلال القصف فرداً يهرب على قدميه. بلغ إحدى الدراجات النارية وحاول الفرار، لكنه لم يبتعد كثيراً واختفى في انفجار حارق. راقبناه من على شاشة الفيديو، وعلمنا لاحقاً أنه رئيس استخبارات الطالبان عماد الله.

لقد كان عليه أن يقبل عرضنا.

كبرياء، مكانة وشرف

من المفضل اعتماد المقاربة الشاملة في استخدام العمل الخفي على غرار جوانب كثيرة من جمع الاستخبارات الذي يتطلب اعتماد العصا والجزرة. ويُفترض بمنفذي العمل الخفي أن يكونوا شركاء راغبين، لكنهم يحتاجون في الغالب إلى التشجيع.

اشتركنا مع حلفائنا الأفغان في جهدنا لتجنيد قادة الميليشيات القبلية لصالح قضيتنا. فلديهم تواصل منتظم مع أبناء بلادهم حتى مع أولئك المقيمين في الجانب الذي يسيطر عليه الطالبان.

عدّلت حملة القصف الدقيقة والموسعة تصوّر الكثيرين من القادة القبليين الأفغان. وآزر بعضهم قضيتنا بقناعة منهم، وبقي آخرون مترجّحين. استهدفنا بشكل خاص أولئك الذين رفضوا عروضنا، ثم سألنا قادة الطالبان المجاورين

الذين شهدوا في الغالب نهاية رفاقهم: أترغبون بالموت أو بالمكافأة؟ اختاروا بشكل شبه دائم المكافأة. وطالبنا بما هو أكثر من مجرّد كلمتهم. وأكّدنا أن برهان نيتهم الصافية ضد القاعدة ستبرم الصفقة. يجب أن يتجسّسوا لنا، ويديروا بنادقهم صوب رفاقهم في القاعدة، بل وحتى خيانة قادة الطالبان الآخرين. ولم يعزّز قادة الطالبان الذين وافقوا على عرضنا وحاربوا معنا حظوظهم بالنجاة وحسب بل أيضاً فوائدهم المادية.

سرّعت هذه السلسلة المتعاقبة من الهجوم والترهيب والتجنيد والنصر والمكافأة ما حققناه من تقدم في أواخر ٢٠٠١.

غير أن الشرف والكبرياء والمكانة تتغلب في الكثير من الحالات على الخوف في ميدان المعركة. ويطرح ثوسيديديس هذه الفكرة في نصّه الكلاسيكي «تاريخ الحرب البيلوبونيسية».

ظهر الأمر بوضوح في جهودنا طوال النزاع لتجنيد الجيوش القبلية، وربما يبرهن ذلك بأفضل ما يكون المنطق من وراء ١,٦٩ مليون رطل من السلاح والذخيرة والغذاء والثياب والبطانيات والإمدادات الطبية التي أُسقطت بالمظلات في ١١٠ رزم في واحد وأربعين موقعاً ما بين منتصف تشرين الأول/أكتوبر ومنتصف كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١. وسلّمت السي.آي.إيه وسلاح الجو، وقد انسجما في العمل، كل رزمة مفصّلة بحسب حاجات وتفضيلات شركائنا الأفغان، بمن فيهم حلفاؤنا المحتملون.

احتاج الزعماء القبليون الأفغان، مع الاقتراب السريع للشتاء، إلى حماية أناسهم بتوفير الملجأ والثياب والغذاء. وكيف يمكنهم، من دون ذلك، تركهم للذهاب إلى القتال؟ أخذت هذه الإمدادات تسقط من السماء في غضون ثمانٍ وأربعين إلى اثنتين وسبعين ساعة على تقديمهم طلباتهم هذه إلى ضباط السي.آي.إيه. لم نتجاوب مع مطالبهم المادية وحسب، بل فعلنا ذلك أيضاً بطريقة تعزز من موقعهم القيادي. أعطيناهم ما أرادوه وعرفت قبيلتهم ذلك. وزودناهم كذلك

بالأسلحة وبالاستخبارات بموازاة القوة الجوية، ما مكّنهم من ممارسة روحهم القتالية. ومحاربة غزاة القاعدة الأجانب الذين اختطفوا حكومتهم.

احترمت السي.آي.إيه حلفاءنا الأفغان ووفت بما وعدت به. ويمكن للثقة والقدرة على تعزيز موقع القادة الحلفاء لدى شعبهم، بما يساعدهم على تلميع كبريائهم وشرفهم ومكانتهم، أن تثبتا أنهما أقوى من أي كمّ من الذخيرة.

أدى تنسيق القوة، القاسية واللطيفة، في أفغانستان إلى تآكل مركز ثقل الطالبان الموجود في أذهان زعماء القبائل. ومع تحفيزنا الطالبان وتفكيكنا تحالفاتهم وتأليب الجيوش القبلية عليهم، عرّضنا القاعدة أكثر فأكثر إلى حملتنا الانقضاضية.

تورا بورا

عرفنا في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر أن أسامة بن لادن وزمرته القيادية قد انسحبوا من جلال أباد باتجاه الحدود الباكستانية، ربما إلى ملجئهم في جبال تورا بورا الشاهقة.

أطلعني برنتسن، الموجود الآن في كابول، يوماً بيوم على التقدم الذي يحرزه محطّمو الرؤوس، وسبق له أن أوفد نائبه، جون، لإقامة قاعدة في جلال أباد. جمع جون، وهو تكساسي طويل القامة وصلب وماريتز سابق، فريقاً مشتركاً من عملاء السي.آي.إيه وكوماندوس الجيش الأميركي لتقفّي أثر بن لادن ورجاله. وشكّل قتل قيادة القاعدة أو أسرها واحداً من أهدافنا الاستراتيجية الرئيسية منذ بدء حملتنا. أدرك برنتسن هذا، وأخذ الفريق الجديد، وقد سُمي جولييت، على عاتقه هذه المهمة.

عرفنا أننا إذا ضغطنا بقوة فسيهرب بن لادن إلى باكستان. وهو، بالرغم من كل تبجّحه، ليس بمحارب. لن يقف ويقاتل، فهو جبان ذبح الأبرياء. وسيهرب إذا لم نقتله أو نأسره.

كلّفت واضعي الخرائط عندنا مهمة رسم طوبوغرافية المنطقة بأسرها وإظهار كل الممرات التي يمكن أن تُستخدم طرقاً للهروب إلى باكستان. بدا نتوء باراشينار، وهو قطعة متعرّجة من الأرض الباكستانية تمتد إلى داخل أفغانستان جنوب تورا بورا تماماً، أنه أكثر ملاذ آمن يمكن للعدو بلوغه. لكن تصعب معرفة ذلك، فهناك عشرات من طرق الهرب التي استخدمها المهربون عبر القرون تتقاطع على امتداد مئات الكيلومترات من الحدود المتعرجة والبعيدة. وفي استطاعة العدو التسلّل إلى باكستان من أي مكان تقريباً. ووضعت الخريطة، وهي طبقة جميلة من نظام المعلومات الجغرافي تظهر ملامح الأرض ومواقع العدو وطرق الهرب المحتملة، المشكلة في منظور مجسّم حاد.

احتجت، وأنا مرة أخرى في المكتب البيضوي والخرائط بيدي، أن أشرح للرئيس بوش ما نواجهه من تحدّ على امتداد الحدود الباكستانية، بما في ذلك احتمال هروب أسامة بن لادن وغيره من قادة القاعدة. وليس المكتب البيضوي، بأريكته وكراسيه وطاولة القهوة المنخفضة بالمكان الرائع لعرض الخرائط. اقتلعت نفسي من الأريكة وجلست القرفصاء بين الرئيس بوش ونائبه تشيني، وأظهرت لهما ما نواجهه.

سأل الرئيس: «هل من طريقة لإحكام إقفال هذه الحدود؟».

«كلا، سيدي. لا يمكن لأي جيش في العالم إقفالها بوجود مثل هذه الحدود الطويلة والأرض القاسية والارتفاعات الشاهقة. في وسعنا نشر وحدات استطلاع مقرونة برصيد من الصور لمراقبة الطرق الأكثر ترجيحاً لانسحاب العدو. غير أنه يمكن، مع هذه الأرض الواسعة والطقس غير المتوقع، أن نفوّت هروبهم».

«إلى أين يحتمل أكثر أن يهرب بن لادن؟».

أشرت إلى الخريطة: «هنا، في نتوء باراشينار».

وسأل الرئيس: «ماذا بالنسبة إلى حلفائنا الباكستانيين؟».

«أنا لا أسيطر على هذا الجزء من باكستان».

«أين بن لادن الآن؟».

«نعتقد أنه متوجه إلى تورا بورا، هذا إذا لم يصبح فيها بالفعل».

«أشكرك»، قال الرئيس.

بعد ذلك ببضعة أيام، ونحن الآن في أوائل كانون الأول/ديسمبر، اتصل بي برنتسن وحثّني قائلاً: «جون منتشر الآن في قاعدة تورا بورا، وبن لادن هناك. سيكون الأمر قاسياً. يقول جون إنه يحتاج إلى المزيد من الرجال. ولا يمكن لحلفائنا الأفغان القيام بالأمر في هذه المرة، وجون لا يثق بهم. نحتاج إلى جوّالي الجيش الأميركي، أو المارينز. وسيفي ٨٠٠ جوال بالغرض».

وسألته: «أمتأكد أنت؟».

وكاد يصرخ: «نعم، أنا متأكد».

«حسناً».

«سأكتب برقية أختصر فيها الأمر. سأدع جون يتصل بك لأنه يستطيع تزويدك بمزيد من التفاصيل».

«جيّد. سأبقى في الانتظار».

أترك في العادة لرجالي في الميدان أن يختاروا متى يمكنهم التحدث معي. صحيح أنهم تحت إمرتي، لكنهم في ساحة القتال. وقضت مهمتي بتوفير القيادة والتوجيه الاستراتيجي والدعم.

اتصل جون بعد ذلك ببضع ساعات من هاتف متصل بالأقمار الصناعية من قاعدة تورا بورا.

«مرحى، رئيس، نحتاج إلى الدعم». وتحدث جون بنبرة حادة غير معهودة.

«نعم، أبلغني برنتسن ذلك».

«يمكننا النيل من ابن الحرام هذا، لكننا نحتاج إلى المزيد من الرجال. نحتاجهم الآن. أرسل لنا بعض الجوالين».

وشرع جون في إجمال الوضع بالتفصيل الواسع. دوّنتُ الملاحظات، وأطلعتُ كوفر والمدير على الأمر في اجتماع الساعة ١٧:٠٠. اتصلتُ في الصباح التالي بالجنرال تومي فرانكس في تامبا وأبلغته. وأعرب عن القلق من غياب التخطيط ومن الفترة الزمنية التي يتطلبها نشر مثل هذا الدعم الكبير. وشددت على أن رجالي في تورا بورا متصلبون، لكنني لم أتمكن من إقناع الجنرال فرانكس أو أي أحد آخر.

اتصلت ببيرنتسن.

«أبلغت الطابق السابع. أبلغت الجنرال فرانكس. مرّرت طلبك، لكنني أشك في حصوله. يريد الجنرال فرانكس التمسك بما نجح، أي بفرقنا الصغيرة مع حلفائنا الأفغان. يقول أيضاً إن الأمر يتطلب وقتاً للتخطيط، ووقتاً لنشر الجوالين. الكثير جداً من الوقت».

«اللعنة»، زمجر برنتسن. ثم عاود طرح حجته. ورويت له من جديد ما قمت به.

«علينا، يا غاري، أن نمضي بما لدينا. لا يسعنا الانتظار. لأن أي تأخير يعطي لبن لادن المزيد من الوقت للفرار، ويوفر له المزيد من الوقت لضربنا من جديد. لا نعرف عن الهجوم المقبل على ديارنا. ويحتمل أنه في إطار التحضير له الآن. لا يمكننا اعتماد الليونة مع العدو. اعتمد السرعة والخفاء. اهجم بما لديك. ويمكن تزويدك من الجو بكل الذخيرة التي تحتاجها».

أجاب: «نعم سيدي».

نشر برنتسن وجون فريقاً من أربعة عملاء في عمق جبال تورا بورا. زحفوا إلى بعد بضع مئات من الياردات من العدو. أقاموا مركز مراقبة في الصخور عند حد

الوادي تماماً. وفاقهم العدو عدداً أكثر من مئة إلى واحد. واستدعى رجالنا في الأيام الثلاثة التالية التي أمضوها من دون نوم أو رحمة طائرات «إيه سي-١٣٠ سبكتر» المسلحة، ووجهوها في حملة قصف كثيف في وسط العدو ما أدى إلى مقتلهم جميعهم تقريباً وتدمير معقل تراجع القاعدة الأهم.

كانت عملية مذهلة دمّرت معظم قيادة القاعدة وحطّمت بشكلٍ قاسٍ بنية القيادة والسيطرة التابعة لها من دون أي إصابات في صفوف الأميركيين. غير أنه انتصار مرّ وغير مكتمل لأن أسامة بن لادن رشى بعضاً من حلفائنا الأفغان وهرب إلى باكستان، إلى نتوء باراشينار.

وفي الوقت الذي فرّ فيه أسامة بن لادن إلى باكستان، وُجد في تورا بورا من الصحافيين الأجانب ما يفوق مجموع عدد عناصر السي.آي.إيه والجيش الأميركي.

ستفقد أثر عدونا الأول على مدى نحو عقد. لقد لطّخ هروب بن لادن انتصارنا في أفغانستان.

بيد أننا هزمنا عدواً غاشماً وقتلنا منه ما لا يقل عن عشرة آلاف وربما ضعفي هذا العدد أو ثلاثة أضعافه، ودمّرنا بنية القيادة والسيطرة ودفعنا بمن تبقى من قيادة القاعدة والطالبان إلى خارج أفغانستان، واستولينا على أكثر من عشرين موقعاً للقاعدة واستغللناها استخبارياً، بما في ذلك مختبر للأنتراكس، ومنعنا المزيد من الهجمات على ديارنا. وستستفيد الولايات المتحدة لسنوات كثيرة تلي من التأثير الثانوي والثالثي للاستيلاء على منجم من الاستخبارات وحرمان العدو من الملاذ الآمن في أفغانستان. هذا بالإضافة إلى اعتقال الكثير من عملائه أو قتلهم في مختلف أنحاء العالم. أضف إلى ذلك أننا ساعدنا الشعب الأفغاني في تحرير نفسه من نظام الطالبان القمعي. وقد حققنا هذا في أقل من ثلاثة أشهر مع ١١٠ عملاء للسي.آي.إيه وربما ٣٠٠ من القوات الخاصة الأميركية في الميدان.

عملية «أناكوندا»

خدمت الفرق المستقلة المترابطة التي نشرناها في أعقاب ٩/١١ الغاية منها وحوّلت القوى السياسية القبلية المتخاصمة إلى أدوات حملة عقابية دقيقة وسريعة. واحتجنا بحلول منتصف كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١، مع تزايد الاحتمال بإمكان ظهور أمة من فاجعة حكم الطالبان، ومع استعداد الولايات المتحدة للاعتراف الدبلوماسي بالحكومة الأفغانية، إلى إقامة محطة في كابول. أردنا رئيس محطة قوياً يمتلك الخبرة اللازمة والمهارة الدبلوماسية لجمع كل الفرق وإقامة قواعد ثابتة ودعم الوجود الحكومي الأميركي المتزايد. كلفت، واضعاً ذلك في ذهني، ريتش بالحلول محل برنتسن. قام غاري بعمل رائع وبطولي لكن ريتش أفضل منه لهذه المهمة. فقد عمل ريتش على قضية أفغانستان طوال العامين ونصف العام. وعمل رئيس محطة في القيادات الميدانية.

وافق كوفر على الفور عندما فاتحته بالفكرة. وأصبح ريتش أول رئيس محطة في أفغانستان الجديدة. وتسلم مركزه قبل عيد الميلاد في ٢٠٠١.

عرفنا، في منتصف كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢، أن بقايا القاعدة والطالبان قد انسحبوا وأعادوا التجمع في الجبال فوق وادي شاه-إي-كوت في شرق مقاطعة باكتيا في وسط أفغانستان. زادت الارتفاعات عن عشرة آلاف قدم. وشكّلت المنطقة، الوعرة حتى بالمقاييس الأفغانية، ملجأ للثوار عبر القرون. وافتقرت هذه المرتفعات، على غرار تورا بورا، إلى السكان المحليين الذين يمكن أن ننشئ من بينهم شبكات مصادر بشرية دائمة. وكل من يوجد على هذا الارتفاع في الشتاء فإنما يوجد لسبب، الاختباء أو القتال.

انتظم فريق مؤلف من ثلاثة عناصر من السي.آي.إيه وثلاثة عناصر من العمليات الخاصة في وحدة متعددة الاختصاصات لجمع الاستخبارات عن العدو في وادي شاه-إي-كوت. وضم الرجال الستة عشر جامعي استخبارات الإشارة وتقنيي مراقبة وضباط عمليات وقناصة ومحاورين.

اجتمعوا في الخامس من شباط/فبراير على مقربة من كرديز حول كومة من الصخور تغطي أثراً مدفوناً من مركز التجارة العالمي في نيويورك. ورفرف العلم الأميركي من ورائهم في الريح الباردة. وارتفعت على مسافة أبعد وراءهم الجبال المكسوة بالثلوج فوق وادي شاه-إي-كوت.

صلّوا:

نشكرك أيها الأب السماوي المبارك على هذه الفرصة لنكرم هنا اليوم من سقطوا من إخواننا الأميركيين من هذا المكان الذي نحصل فيه على الدعم لننتقم لموتهم الذي لا معنى له. نطلب منك، يا أبانا العزيز، أن تبارك هذا الموقع الذي نكرّسه لذكراهم. نصلي كي تكونَ مع عائلاتهم وعائلاتنا وكي تمنح عائلاتهم السلوان في حزنهم وحزننا. نعرف أن يدك معنا وأننا سننتصر. نسألك أيها الرب العزيز بركاتك وتوجيهك لجهودنا في العثور على المسؤولين عن العمل الذي جلبنا إلى هنا اليوم وتدميرهم. نرجوك أن تبارك وترعى كل واحد منا. باسم يسوع نصلّي، آمين.

ثم تعهّدوا:

نكرّس هذا الموقع تذكاراً دائماً للأميركيين الشجعان الذين ماتوا في ١١ أيلول/سبتمبر، بحيث يعرف كل من يسعى إلى إلحاق الأذى أن أميركا لن تقف جانباً تتفرج على الإرهاب وهو يسود. سنصدّر الموت والعنف إلى زوايا الأرض دفاعاً عن أمتنا العظيمة.

وتجمّعوا بعد ذلك لالتقاط الصورة. وبعد حوالى أسبوعين حطّت الصورة ونص الصلاة والتكريس على مكتبي.

حدّقت إلى الصورة التي تضم فريقاً متعدد الألوان من ١٦ وطنياً ملتحياً يقفون بفخر من حول كسرة من مبنى عظيم مهدّم من مدينة أميركية عظيمة. قرأت الكلمات وأعدت قراءتها. فكّرت بأننا نربح بسبب رجال كهؤلاء. خدام لبلدنا

يخافون الله ويعتنقون مهمة جريئة وخطرة. وجميعهم قادة يشكلون الفرق بحسب ما تفرضه الحاجة. لا يبالون إذا كنتَ من السي.آي.إيه أو من العمليات الخاصة، ولا يهمهم إذا كنت مجنّداً أو ضابطاً، ولا يلقون بالاً لشخص ما في واشنطن يخبرهم كيف يقومون بعملهم. يبالون فقط بالله وبرفاقهم المواطنين وبمهمتهم، وببعضهم بعضاً. يريدون ويحتاجون فحسب التوجيه الاستراتيجي والموارد، والدعم السياسي الذي يمكننا توفيره لهم.

طلبت من أحد المساعدين تصوير خمس نسخ وتأطيرها بحيث تضم كلاً من الصور والنصين. قدمت نسخاً لكوفر وتينيت وماسي. واحتفظت بواحدة لنفسي علقتها على جدار مكتبي، وأبقيت واحدة احتياطاً.

لخّصتُ للرئيس بوش في إيجاز في أوائل آذار/مارس ٢٠٠٢ في المكتب البيضوي الهجوم الوشيك على وادي شاه-إي-كوت في أفغانستان. وقد أعطاه الجيش الأميركي الاسم الرمزي «عملية أناكوندا». تولت القيادة المركزية للجيش القيادة وسبق لفريق الجنرال فرانكس أن أوجز الأمر للرئيس الذي أراد أن يسمع من السي.آي.إيه.

ناب نائب مدير السي.آي.إيه جون ماكلافلين عن تينيت، ودعاني للانضمام إليه في تقديم الإيجاز للرئيس ونائبه تشيني ومستشارة الأمن القومي رايس، فجلبت معي خرائطي. جلس الرئيس ونائبه على كرسيين. وجلست، كعادتي في المكتب البيضوي، القرفصاء بينهما.

شرحت، مستخدماً الخرائط، مواقع العدو في الوادي والجبال المحيطة. وأجملت طرق الهروب المحتملة التي نتوقع أن يسلكها العدو بعد درجة غير محددة من المقاومة. لم نعرف العدد الحقيقي للمقاتلين الأعداء ولا كل مواقعهم، إلا أننا قدّرنا أن القوة المعادية هي آخر أكبر تجمع متبقٍّ من قوات القاعدة/الطالبان في أفغانستان. توقّعنا قتالاً قاسياً ومعزّزاً يعقبه تشتّت الناجين وانسحابهم إلى باكستان. ولا نتوقع قتلهم جميعهم، أو الغالبية منهم، أو أسرهم. وستحول دون

ذلك التضاريس الأرضية القصوى والغطاء الذي توفره الغيوم المنخفضة والقوات الأميركية المحدودة وشبكات هروب العدو. وسيسعى بعد تشتّته إلى الاندماج في «الحقل البشري» المحيط به ويتوجّه صوب باكستان، تماماً كما فعل في تورا بورا.

شدّدت في الإيجاز على مهمة الاستخبار وشرحت بأن لدينا فرقاً مشتركة من السي.آي.إيه والعمليات الخاصة تعمل عن كثب مع كشافة أفغان لاستطلاع المنطقة. غطّت «البريداتور» الوادي بالحد الذي يسمح به الطقس ومدة الدوران. ونحن لا نزال نطيّر طائرتين فقط من دون طيار، واحدة منهما فقط مسلحة.

سألني الرئيس في نهاية إيجازي: «كيف هي معنويات رجالنا، يا هانك؟».

أجبته: «معنويات الرجال رائعة، يا سيدي الرئيس».

هزّ برأسه وقال: شكراً.

أحسست، وأنا أغادر المكتب البيضوي، بخلل في إجابتي. فهي صادقة لكنها بشكل ما غير كاملة. ويحتاج الرئيس ويستحق أكثر من هذه العبارة البسيطة وذات الدلالة. كما إن رجالنا في أفغانستان يستحقون ما هو أفضل.

رافقت نائب المدير مرة أخرى في اليوم التالي إلى المكتب البيضوي وأطلعت الرئيس بوش وفريقه على آخر التطورات عن جهودنا لمكافحة الإرهاب في أفغانستان والمنطقة. وسحبت في نهاية الاجتماع صورة وطلحية ورق من حقيبتي.

«أيمكنني، يا سيدي الرئيس، أن أعطيك جواباً أفضل على سؤال طرحته عليّ بالأمس؟»

«طبعاً»، قال وهو يشجعني بيده الممدودة.

أعطيته صورة الرجال الستة عشر، وبعضهم مسلّح، وقد وقفوا أمام كومة الحجارة الصغيرة والعلم الأميركي المرفوع على صارية مُرتجلة وراءهم مباشرة.

«سيدي الرئيس، هؤلاء هم بعض الرجال الذين سألتني عنهم بالأمس واستخبرت عن معنوياتهم. هذا الفريق، وهو خليط من السي.آي.إيه والعمليات الخاصة، يعمل في مهمة استطلاع لعملية «أناكوندا». وتغطي كومة الحجارة هذه قطعة من مركز التجارة العالمي في نيويورك. لقد صلّوا وتعهدوا مهمتهم في هذا الموقع. لا يمكنك التمييز بين السي.آي.إيه والعمليات الخاصة وهو ما يعكس تماسكهم في العمل معاً. أرجوك أن تصبر عليّ وأنا أقرأ لك ما قالوه».

قرأت التعهّد. وكدت عند حد ما اختنق.

«سيدي الرئيس، تجيب هذه الصورة والكلمات عن سؤالك بأفضل مما فعلتُ البارحة».

عمّ الصمت الغرفة لبضع ثوان.

«أشكرك»، قال الرئيس.

سلّمت الرئيس الورقة التي تحتوي على الصلاة والتعهّد لتترافق مع الصورة. وعلمتُ أنه عرضها في مكتبه الخاص بجوار المكتب البيضوي. دحرت الولايات المتحدة والقوى الحليفة القاعدة من الوادي في عملية «أناكوندا». وهلكت مئات عدة من العدو ولكن ليس من دون خسائر أميركية وحليفة. قُتل عدة أفغان بسبب حادثة نار صديقة. وخسر مغاوير البحرية الأميركية رجالاً عند جانب جبل تاكور غار الذي بات يُدعى «حافة روبرتس» تكريماً لأحدهم، نيل روبرتس.

راقبنا، من البث الحي الذي وفّرته فيديو «البريداتور»، المروحيّات تهبط ويتبع ذلك القتال عند «حافة روبرتس». ضخينا الفيديو الحي إلى زبائننا العسكريين في تاما وغيرها. ووافق فريق المغاوير المعزول، وقد رُبط بمركز قيادتنا، عندما عرضنا عليهم السند الناري. أطلقت «البريداتور» صاروخي «هلفاير» على العدو المقترب على بعد أقل من مئة ياردة من فريق مغاوير البحرية، ما أخمد هجوم العدو. وهي المرة الأولى التي توفّر فيها طائرة مسلحة

تطير من دون طيار نيران دعم جو-أرض لفريق قتال بري يشتبك مع القوات المعادية.

بعد أسابيع قليلة على عملية «أناكوندا» أفاد أحد مصادر السي.آي.إيه عن وجود مقاتلين أجانب في إحدى القرى الأفغانية. واشتبه المصدر بأنهم بقية من الناجين من معركة عملية «أناكوندا» وبأنهم يخططون للهرب إلى باكستان. حرّكت البحرية الأميركية، استناداً إلى هذا المصدر الاستخباري البشري الوحيد، طائرة «أورايون بي-٣» الاستطلاعية فوق القرية. لمح الطاقم الجوي فجراً ثلاث آليات تغادر القرية متوجهة إلى الجنوب الشرقي صوب باكستان. سلّمت الـ «بي-٣»، بسبب الإطار الزمني المحدود لتحليقها، الدفة إلى طائرتنا «البريداتور» التي تعقّبت القافلة لساعات وحددت بأن جميع ركابها من الذكور عند توقفهم للتبويل. واستعد فريق من مغاوير البحرية للانطلاق من مطار باغرام، الذي بات الآن قاعدة عسكرية أميركية تتزايد حجماً، لاعتراض من يشتبه بأنهم من الأعداء. أصابنا القلق من أن تتمكن القافلة من بلوغ الحدود الباكستانية قبل اعتراضها فوجّهنا فرقة صغيرة من السي.آي.إيه والأفغان إلى المنطقة لسد الطريق على القافلة. أسرع أفراد الفرقة بآلياتهم إلى حيث أرشدناهم عند نقطة التقاطع الواضحة مع قافلة العدو. وحوّل العدو طريقه عندما لمح فريقنا إلى طريق آخر دفع بهم بعيداً أكثر عن حدود باكستان. أخّرت هذه الانعطافة العدو ووفّرت المزيد من الوقت لمغاوير البحرية.

باقتراب مروحيّات مغاوير البحرية من القافلة العدوة سلّمنا التحكّم بكاميرا «البريداتور» إلى أحد عناصر المغاوير في مركز قيادتنا. انخفضت المروحيّة بشكلٍ انقضاضي وانتشر المغاوير في تشكيل هجومي كلاسيكي بشكل حرف L. لم ينج أحد من الأعداء ولم تحدث أي إصابات في صفوف الأميركيين.

كان القتلى جميعهم من الشيشان وفي حوزتهم عتاد عسكري أميركي يظهر أنهم استولوا عليه خلال عملية «أناكوندا».

نشرت السي.آي.إيه في الساعات الثماني والأربعين الأخيرة مصادر متعددة للاستخبارات ودمجتها وحلّلت بشكل دائم المعطيات الواردة من كل المصادر ونشرت قوة سد مؤلفة من السي.آي.إيه ومن الأفغان، وأعلمت زبوننا، فريق مغاوير البحرية. شكّل هذا مثالاً كلاسيكياً على الجمع الديناميكي للاستخبارات والتحليل ونجاح المستخدم النهائي.

الوداع

قمت في حزيران/يونيو ٢٠٠٢ برحلتي الأخيرة إلى أفغانستان كرئيس لمركز مكافحة الإرهاب/العميات الخاصة. زرتُ مزار الشريف وكابول وقندهار وخوست. وذهبت كذلك إلى قلعة جانجي التي قضى فيها مايك سبان. وقفت له إجلالاً ولجميع الحلفاء الأفغان الذين ماتوا في ذلك التمرد.

سافرت وريتش معاً إلى خوشت وقندهار. وقد قام بعمل عظيم كرئيس للمحطة. عمد منذ وصوله في كانون الأول/ديسمبر إلى ربط الفرق المبعثرة في شبكة وثيقة من القواعد تحت إمرته في محطة كابول. قاد الرجال وطارد العدو وشجع حلفاءنا. وساعد الأفغان في تطوير مديرية أمنهم الوطني وتأمين بلادهم ضد عودة ظهور الطالبان. وعمل عن كثب مع وزارتي الخارجية والدفاع، وهما تتصارعان مع تحديات بلد خام وفقير يبحث عن حكومة مخلصة وفاعلة.

أدهشني خلال رحلتنا السلام النسبي وتوقعات الشعب الأفغاني من الدعم الأميركي والدولي. احتاجوا إلى دعمنا، فأفغانستان باتت بعد سنوات من الحرب متخلفة بشكل بائس. هناك شح رهيب في الكهرباء، وقد خاب أملي من غياب الاستجابة لإنماء البلاد. لا توجد في قواعدنا إشارات كثيرة إلى حضور وكالات غير عسكرية. ووضعت الخارجية والوكالة الأميركية للتنمية الدولية معظم موظفيها القلّة في كابول وليس في الميدان حيث للحوكمة المحلية والإنماء الأهمية نفسها أو أكثر.

تعهد الرئيس بوش في الشهر الماضي بـ «مشروع مارشال» لأفغانستان. ولم أجد في رحلتي ما يدل إلى احترام هذا التعهّد.

ناقشتُ وريتش كيف أن العمل الخفي عابر ومكمّل للسياسة الأميركية وغيرها من المصادر. ولا يمتلك بضعة فتيان من السي.آي.إيه وعدد محدود من الجيش المبعثر في كل أنحاء البلاد فرصة في الحفاظ على ما تحقق من مكاسب. فقد ابتعنا الوقت والمجال، وهذا كل ما في الأمر.

اجتمعتُ وريتش مع كرزاي الذي أعرب عن امتنانه، وسأل عن الخطط الأميركية في شأن أفغانستان. تحدّثنا عن التهديدات الماثلة وبخاصة توسع الملاذ الآمن للقاعدة في باكستان، وتحدثنا كذلك عن إيران وروسيا والصين والهند. وطرح نقاشنا الخاص المطوّل أسئلة أكثر مما أعطى أجوبة.

في يومنا الأخير في البلاد، دعانا شركاؤنا الأفغان، بمن فيهم المهندس عارف وأمر الله، إلى غداء بعد الظهر تحت فيء الشجر عند جدول ماء صافية وباردة ينساب عبر السهول الشمالية. تحدثنا لساعات متأملين جهودنا المشتركة ومتسائلين عن المستقبل.

عرفوا أن مهمتي قاربت نهايتها. التقطنا بعض الصور، وأهدوني سجادة جميلة، وتبادلنا الوداع.

سيُعزل عارف من منصبه لاتهامه بالفساد لكن ليعود بعد ذلك بسنوات عضواً منتخباً في البرلمان. وسيترقّى أمر الله ليصبح رئيساً لمديرية الأمن الوطني حيث سيخدم بشجاعة وبكفاءة لسنوات عدة قبل أن يستقيل احتجاجاً على سياسات كرزاي وضعف قيادته.

سيُقَلّد ريتش وساماً على شجاعته في أفغانستان ويُكافأ بتعيينه مرة أخرى رئيساً لمحطة رئيسية. وقد خدم، حتى تقاعده في ٢٠٠٧، وبتميّز كبير كرئيس محطات في خمسة بلدان شديدة الخطورة.

الفصل الحادي عشر

أبعد من أفغانستان

نعرف عن الحرب أكثر مما نعرف عن السلام، وعن القتل أكثر مما نعرف عن الحياة.
ـ عمر ن. برادلي

تسلّل معظم من بقي حيّاً من قادة القاعدة، بعد تورا بورا، إلى باكستان. اعتقل حلفاؤنا الباكستانيون بعضاً منهم، لكنهم أخفقوا في القبض على أسامة بن لادن.

أمسكوا، في الأشهر والسنوات التالية، بعدة قادة آخرين وعناصر في القاعدة، ومن بين أولهم أبو زبيدة وقد اعتقل في آذار/مارس ٢٠٠٢ في فيصل أباد. وتبعه آخرون بمن فيهم رمزي بن الشيبة الذي أُمسك به في كراتشي في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢. واعتقل حلفاؤنا الباكستانيون المخطِّط لهجمات ٩/١١ خالد الشيخ محمد في غارة في روالبندي في آذار/مارس ٢٠٠٣.

ساهم النجاح في أفغانستان، على صعيد كل من القضاء على الملاذ الآمن للقاعدة وما حصلنا عليه من كنز استخباري، في تحقيق تقدّم أكثر اتساعاً واستمراراً. اعتقلت السي.آي.إيه والأجهزة الحليفة، في السنوات التي تلت، مئات عدة من عناصر العدو في عشرات الدول. وحال العمل الاستخباري والتحرك الخفي،

مقروناً بقوة الجيش وأجهزة فرض القانون، دون وقوع عدد كبير من الهجمات الإرهابية، ما أنقذ أرواحاً لا تُحصى.

إلا أن هذا العدو المرن والمتكيّف سعى دائماً إلى ملاذات آمنة أخرى، وطوّر طريقة عمل جديدة لحماية أجندته وتقديمها. ويصح هذا بنوع خاص في (واحد من بلدان الشرق الأوسط.

الشرق الأوسط

واصلتُ وكوفر، في أوائل كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢، جدالنا في القرار الرئاسي المتعلق بملاحقة قادة القاعدة وعناصرها، ليس في أفغانستان فحسب، بل في أنحاء العالم أيضاً. وتنطبق قرارات الرئيس القاتلة على كل مكان خارج الولايات المتحدة، وذلك واضح. وأكد جميع محامي البيت الأبيض ومحامي السي.آي.إيه أن قرار الرئيس وما يرتبط به من عمل خفي يحمل تفويضاً عالمياً.

سبق أن اخترنا كارل بوصفه قائد الفريق في ذلك البلد الشرق أوسطي. وهو ضابط سابق في القوات الخاصة في الجيش الأميركي ويمتلك خبرة عملانية واسعة في أفريقيا وأميركا اللاتينية والشرق الأوسط. وكان واحداً من رؤساء فروعنا في مركز مكافحة الإرهاب ممن اشتغلوا في العامين الماضيين على فروع القاعدة.

باشر كارل مهمته على الفور وجنّد سريعاً فريقاً صغيراً من الجواسيس، وعمل مع قسم الشرق الأدنى ليؤكد لهم أننا نسعى إلى إتمام جهودهم وليس تحدي جواسيسهم الميدانيين وقادتهم. أراد مركز مكافحة الإرهاب تعزيز عملياته وعمليات حليفنا الشرق أوسطي، وانخرط كارل في مقاربة مشتركة مع العمليات الخاصة الأميركية. خصّصنا التمويل اللازم وأنشأنا وحدة مقر قيادة صغيرة للدعم ملحقة بمركز مكافحة الإرهاب/العمليات الخاصة. كما انشأنا منصات مراقبة وتدبرنا أمر إقامتها في خارج البلد، ولكن على ما يكفي من القرب للتغطية المستدامة.

شرحت لكارل أن أهدافنا الاستراتيجية تقضي بالقضاء على قيادة العدو وملاذه الآمن والظروف التي يستغلها لكسب القدرة على اجتذاب السكان. ولم يحتج كارل إلى الكثير من التعليمات بفضل تجربته في مجال مكافحة التمرد. وسارع إلى تطوير خطة عملانية واسعة تتضمن كل شيء، من جمع الاستخبارات الأحادي إلى برامج التدريب لنظرائنا المحليين. كما ضمّنها فرق حملة طبية خاصة لاختراق المناطق القبلية وإيجاد المزيد من التفهم والنيات الحسنة وسط السكان المحليين.

تمثّل هدفنا الأول في زعامة القاعدة بقائد محدّد هو واحد من المسؤولين عن مقتل أميركيين، وقد أضمرتُ إصراراً شديداً على القضاء عليه بعدما رأيت عن كثب ما صنعته يداه.

وفي أواخر ٢٠٠٢، بعد أشهر على مغادرتي مركز مكافحة الإرهاب، دمج كارل وفريقه الاستخبارات الناتجة عن كل المصادر، ونفّذوا العمل الخفي بدقة كاملة.

أخذنا نحسّن قدراتنا للعثور على العدو والاشتباك معه والقضاء عليه. والحرب، وبنوع خاص هذا النوع من الحرب بين الناس، وليس بين الجيوش، والتي تُبث بشكل شبه مباشر إلى العالم، تتطلب ما هو أكثر بكثير. احتجنا إلى طريقة نكسب فيها الناس إلى جانبنا، فلا نكتفي بقتل من نختارهم من الأعداء فحسب. أدركت ذلك وقد خضنا حرباً في أفغانستان دمجنا فيها ذلك المبدأ باستراتيجيتنا، إلا أنه يبقى هناك الكثير الذي يحتاج إلى الدراسة والفهم. وتساءلت: إلى ماذا سيتطور النزاع البشري؟

الفصل الثاني عشر

تأمّل

من علامات الذهن المثقف القدرة على إضمار فكرة من دون القبول بها.
ـ أرسطو

بحلول حزيران/يونيو ٢٠٠٢، انتقل الرقّاص العملاني والسياسي في أفغانستان بالفعل من الأزمة الأمنية الوطنية إلى العمل الطبيعي. لم ينقضِ إلا تسعة أشهر على هجمات ٩/١١، ومع ذلك أخذ إعياء زاحف يهب على سياساتنا الأفغانية وعملياتنا مع انعطاف قوتنا السياسية ومواردنا صوب العراق.

فما هي خياراتي المهنية في هذه البيئة الجديدة؟

استدعاني رئيس قسم الموارد البشرية، روب ريتشر، قبل أسابيع على رحلتي إلى أفغانستان.

«هانك، تقول وزارة الدفاع إن في وسعك البقاء في مركز مكافحة الإرهاب/العمليات الخاصة أو تولي مهمة أخرى. قمتَ بعمل رائع، وليس عليك إلا أن تبلغني بما تريده».

«شكراً يا روب، سأعود إليك».

لعب روب دوراً أساسياً في تزويد مركز مكافحة الإرهاب/العمليات الخاصة

بالعناصر، وترافق ذلك في الغالب مع امتناع الأقسام الأخرى عن السماح لضباطهم بالانتقال إلى وحدتنا. كما ساعد في العودة المفاجئة لعائلتي في العام الماضي للإقامة في الولايات المتحدة.

تميّز ما قُدّم لي من عرض باختيار مهمتي بالسخاء، وأنا شاكر لذلك. إلا أنه زاد من شعوري الملح بالانزعاج من توجهنا في أفغانستان. إن بقائي ورحيلي سيّان عند الطابق السابع. وقد توقّعتُ، ربما بشكل غير منطقي، شيئاً أكثر، أقله شيئاً أكثر لأفغانستان. وربما خلطت بين مستقبلي ومستقبل أفغانستان. لم أشأ الرحيل لأن الحرب لم تنتهِ، غير أنني أدركت كذلك أن هذا النوع من الحرب لا ينتهي. وهذه ليست الحرب العالمية الثانية بيوم الانتصار في أوروبا ويوم الانتصار على اليابان. بل يشبه الأمر أكثر محاربة الداء، إذ ما إن نقوم باجتثاث وباء والقضاء عليه حتى نضطر إلى مواجهة آخر يتحوّل بشكل من الأشكال وينتشر.

قضينا على قياديين في القاعدة وعناصر، لكن أسامة بن لادن ونائبه أيمن الظواهري بقيا حيين ومسيطرين على التنظيم. ووفّرنا الاستخبارات عن انتقال قادة القاعدة إلى باكستان حيث بدا أن ملاذهم في المناطق القبلية أكثر أمناً من أي وقت مضى. تباطأ المجتمع الدولي في تلبية الحاجات غير العسكرية في أفغانستان بناها التحتية التي لا تزال بدائية. وقد استغلت القاعدة والطالبان المجتمعات الفقيرة والجاهلة والمعزولة التي يلتبس فيها القانون، ونحن لم نعالج هذه الظروف. عرفنا أن القاعدة لا تزال قادرة، بالرغم من إعاقتها، على التخطيط لهجمات أخرى وشنها. وقد اكتشفنا وفكّكنا فروعاً أخرى للقاعدة من المغرب إلى الفيليبين. والأمر أبعد من أن يكون قد انتهى، وبخاصة في أفغانستان حيث يتطلب أي حل دائم، ناهيك بالنصر، سنوات كثيرة.

أخفقنا في تحقيق الأهداف الاستراتيجية الثلاثة لمكافحة التمرد التي ناقشتها وفرانكس في أيلول/سبتمبر ٢٠٠١: إلغاء زعامة العدو، حرمانه من الملاذ الآمن وتحسين الظروف التي يستغلها.

بيد أن الإلحاح في شأن أفغانستان أخذ يخبو أكثر فأكثر وبات هناك حديث متزايد عن العراق. لم يسألني أحد رأيي كما أنني لم أعرف الكثير عن العراق ولم أرد المشاركة في هذا النزاع الآخذ في التخمّر. يتوجب عليّ أن أكبح «الأنا» في داخلي.

خامرني الشك في سياستنا وامتداداً في مستقبل دور السي.آي.إيه في أفغانستان. كافحت لفهم ما يرشح على مستوى السياسة الكبرى، فقد حجبت الحكومة الأميركية الكبيرة والبطيئة والثقيلة شبكتنا الديناميكية من كوماندوس العمل الخفي. تبدّلت القوة ولن أتمكن من القيام إلا بالأقل لو بقيت. وبتّ غير واثق مما سأفعله نظراً إلى أن موقفنا السياسي الأكثر نضجاً وتصلّباً قد أخذ يلقي بظلّه أكثر فأكثر على انتداب عمل السي.آي.إيه الخفي. ويمكن تفهم ذلك، فدورنا القيادي بعد ٩/١١ وُلد بنتيجة التقاء فريد للظروف.

سبق أن ناقشتُ هذا مع غريغ الذي اعتقدَ أن حملتنا ستشكّل نموذجاً دائماً. وقلتُ أنه سيتم إدخال بعض أوجه نجاحنا في عمليات مستقبلية وبخاصة على المستويات التكتيكية والعملانية وبصفة أخص العمل المشترك بين السي.آي.إيه والعمليات الخاصة. بيد أنني حذّرت غريغ من عدم توقع أن تلعب السي.آي.إيه من جديد مثل هذا الدور القيادي. فقد استغل المدير تينيت وكوفر لحظة وجيزة في التاريخ عندما لم يتوفّر للحكومة التي تلقت صفعة قوية أحد آخر. وسبق للجهاز الخفي أن أمضى أعواماً كثيرة يجمع الاستخبارات ويخطط ويحذّر ويتوقع هذه المأساة، وقد تحرّكنا. وأكّدت لغريغ أن القادة الوطنيين لا يحبون تسليم هذا القدر من السيطرة لأناس مثلنا لأن في ذلك الكثير من الخروج على التقليد ومن المخاطرة، ولأن ذلك غير ملائم إلى حد ما لبعض سياسيي واشنطن. فَهِمَ غريغ الأمر بالرغم من خيبة أمله. فهو عميل محض لا يتسع وقته للسياسة ولديه بعض انتقاص صبي الريف للذات، لكنه يمتلك الكثير من الفطنة.

لم تحمل نقاشاتنا أي ضغينة للسي.آي.إيه أو لحكومتنا. قبلنا وحسب بهذا

الواقع، وهو واقع لم يقلل من شأن خدمتنا أو، كما أملنا في ذلك، من مساهمتنا.

بقي، إذا وضعنا هذا الفهم جانباً، الكثير مما لم أدركه أو أقدّره. احتجت إلى التأمل في أعوامي الأربعة الأخيرة من عملي في مكافحة الإرهاب. جهدَنا من دون كلل، وبدا أن هناك غياباً في المراعاة المدروسة والموزونة التي تؤدي إلى فهم أعمق. وربما تبعثرت أجزاء من الإدراك الحدسي في ذهني المتعب. وكيف لي بجمع هذه الأجزاء في ما يشبه الفكرة المنظمة؟ ما الذي حدث بالفعل وبخاصة بعد ٩/١١؟ وماذا يعني ذلك؟

ثم هناك عائلتي وقد اشتقت إليها.

عاودت بعد ذلك بيومين الاتصال بروب.

قلت: «أريد الذهاب إلى الجامعة لتحصيل الماجستير».

أجاب: «رائع. سنغطي مصاريفك. وستبقى، بالطبع، تتقاضى مرتبك كاملاً».

«شكراً. سأتقدم بطلب انتساب إلى كلية الدراسات الدولية المتقدمة في جامعة جونز هوبكنز. لديهم برنامج ماجيستير لسنة واحدة في السياسة العامة. سأتابع الموضوع معك ما إن احصل على التفاصيل».

تميّزت حوافزي بالبساطة. احتجت، كزوج وكأب، إلى التعويض عن الوقت الضائع، واحتجت فكرياً إلى وضع الأعوام القليلة الأخيرة في إطار تاريخي ونظري. أصابني الإنهاك الجسدي، ومن شأن نمط أشد بطئاً واختلافاً أن يوفّر المساعدة. ويمكن لسنة تفرّغ علمي أن توسع آفاقي، مهنياً، وتجعلني ضابطاً أفضل. أحسست أنني أشبه بفتى يقطع الخشب بفأس ضعيفة لم يكرّس وقته قط لسنّ طرفها لأن هناك دوماً المزيد من الخشب الذي يحتاج للقطع. احتجت إلى التوقف عن التقطيع والجلوس والتقاط نفس عميق وسحب المبرد.

تذكّرت تحذير كوفر حول العواقب السياسية للهزيمة أو النصر، وفكّرت أنه ربما كان من الأفضل لي الخروج من مقر القيادة كله، أقلّه لفترة.

بعد عطلة في تموز/يوليو جدّدت فيها نشاطي وقضيتها مع عائلتي في أعالي جبال الروكي، قصدت كلية الدراسات الدولية المتقدمة. وشكّل الأمر بالنسبة إلي متعة إذ ارتديت الجينز الأزرق مع قميص «تي-شيرت» بدلاً من ربطة العنق أو السترة الواقية من الرصاص.

أوكلت لنفسي وظيفتي الأولى إذ انغمست في مراجعة التعليقات السياسية والإعلامية التي أعقبت فوراً هجمات ٩/١١. استهلكني ما انشغلت به يداي من عمليات إلى درجة لم أمتلك معها إلا فكرة يسيرة عن الخطاب العام في أعقاب ٩/١١.

مالت الأغلبية الكاسحة من الآراء إلى التشاؤم، ومال بعضها إلى الحدود القصوى، في شأن النتيجة الأميركية في أفغانستان. وأشار الكثير من المعلقين إلى الإخفاقات السوفياتية والبريطانية فيها، إما عن طريق الإيحاء بأن الولايات المتحدة ستتبع الطريق نفسه وإما عبر الإعلان الصريح عن ذلك. وحذّر المعلقون من الإفراط في التوسّع ومن «الإخفاق الإمبريالي». وتكلّم الخبراء العسكريون على طريقة الأساقفة عن «حرب الخليج» كما لو أنها نوع من النموذج الذي سيُعتمد في أفغانستان. وتشدّق مدّعو السياسة في الحديث عن الجمود الدبلوماسي للدول الوطنية في المنطقة. وتوقع بعض خبراء مكافحة الإرهاب، وأنا لم أسمع بالكثيرين منهم، الموت والدمار في آسيا الوسطى والشرق الأوسط والأرض الأميركية.

بالكاد تحدث أي منهم عن الإيديولوجيا الفكرية الفاسدة للقاعدة أو عن شعب أفغانستان. فكّرت في نقاشي مع مسعود في أوائل عام ٢٠٠٠ عندما شدّد على أهمية شعبه في أي نزاع. وتساءلت هل سأل واحد من هؤلاء الخبراء أي أفغاني أو أفغانية عما يعتقده أو تعتقده.

لم يدرِ الكثير من النقاش حول دور الاستخبارات في أفغانستان اللهم إلا في الإخفاق في توقع ٩/١١ ووقفها، وبدّل موت مايك سبان ذلك. ألقت التغطية

الإعلامية في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١ الضوء على الـسي.آي.إيه. غير أنه كان تركيزاً على دور العمل الخفي للوكالة وليس على الاستخبارات التي شكّلت أساس الحملة بأكملها. وليس الشح في تغطية دور الاستخبارات بالأمر المفاجئ إلا أنه مثير مع ذلك للخيبة، وقد ضايقني. كيف يمكننا خوض حرب ناجحة في المستقبل إذا لم نفهم هذا الجانب الأساسي؟

جاء توقّع واحد واضح ومبين بالنصر من الأستاذ في كلية الدراسات الدولية المتقدمة في جامعة جونز هوبكنز فؤاد عجمي الذي عرض لضعف القاعدة والطالبان متوقّعاً انهيارهما ما إن يواجَها بهجوم مصمّم ومعزّز.

طرح الأستاذ في كلية الدراسات الدولية المتقدمة إيليوت كوهين وجهات نظره في مقالة نُشرت في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١ في «ناشونال إنترست» بعنوان «حرب غريبة». كتب: «سجّل ١١ أيلول/سبتمبر معركة ذروة في حرب مبهمة، ولكنها مع ذلك حرب. ويعكس ما أظهره البعض من تردد في الاعتناق الكامل للغة الحرب رغبة في تحديد الحرب في إطار ضيق وجامد بوصفها النوع نفسه من النزاع الذي بدا أن الولايات المتحدة ربحته بقدر كبير من الحسم ضد العراق في ١٩٩١. بمعنى أنها تحديد لحرب لها بدايات واضحة ونهايات حاسمة تُخاض ضد دولة ما أو بتحديد أكبر ضد قواتها المسلحة، تواكبها أهداف محدَّدة بوضوح و«شروط النهاية» و«استراتيجيات الانسحاب».

نواجه حقبة من الحرب التي تنحصر داخل حدود تقليدية. وجادل كوهين بأننا سنواجه «حروباً تقاوم التصنيفات الواضحة لمن يعرّفون بالعقيدة العسكرية في الكليات الحربية أو للسياسيين والجنرالات الذين يبغون الوضوح والنظام فيما كل شيء كناية عن ظلمة وارتباك». وأضاف: «يمكن لهذه الحرب، على عكس الكثير غيرها، اتخاذ أشكال جديدة وخطيرة بسرعة كبيرة وبالقليل من التحذير». وهو ما يجعل الاستخبارات حاسمة إلى حد كبير لأنها تساعدنا على التقليل «من الظلمة والارتباك» وعلى فهم «الأشكال الجديدة والخطيرة». وأعلن كوهين

ببساطة أن «العملاء السريين والجواسيس قد يلعبون دوراً أكثر أهمية من دور الجنود أو الطيارين».

أصاب عجمي وكوهين المسألة في الصميم. ومعهد الدراسات الدولية المتقدمة هو المكان الذي يتوجّب أن أكون فيه.

لم تنتج مراجعتي هذه الأدبيات إلا القليل من التبصّر في أحداث المستقبل. لن نتابع ما وعدنا به من «مشروع مارشال» لأفغانستان. وسنسمح للطالبان في باكستان بإعادة تجميع صفوفهم والانتشار. وسيستهلك العراق انتباهنا ويستنزف الخزينة الأميركية بما قد يصل إلى تريليونيْ دولار. وستخفق وزارة دفاع رامسفلد في التآلف مع حقبة جديدة بدأت تظهر، ويؤدي فيها اللاعبون من غير الدول، الأعداء منهم والأصدقاء، دوراً رئيسياً.

عرّفت بنفسي للبروفسور كوهين الذي يدير قسم الدراسات الاستراتيجية. جلسنا في زاوية مكتبه وتحادثنا عن الصعوبات الأكاديمية للبرنامج. فكّر وتحدّث بوضوح وصراحة بطريقة موجزة وفاعلة، فأحببته فوراً.

علم أنني ضابط في السي.آي.إيه في إجازة للدراسة الأكاديمية. أصبحت التغطية عند هذا الحد من حياتي المهنية عائقاً أكثر مما هي مساعد. فبعد أربع سنوات من العمل في مكافحة الإرهاب كاد كل جهاز ارتباط في كل بلد يعرف هويتي، وكذلك فعل الكثير من المجموعات الإرهابية. وقد رصدت القاعدة جائزة لكل ضباط السي.آي.إيه في أفغانستان، وأنا من بينهم.

طرح المجتمع الأكاديمي الحد الأدنى من التهديد، أو هذا ما أملته على الأقل.

ولا حاجة، مع ذلك، لأن يعرف الأساتذة وفريقهم عن دوري في أفغانستان أو أي أمور محددة أخرى عن عملي. أردت لفت القدر الأقل من الانتباه لا الأكثر. وفضّلت أقل قدر من الحديث عن أفغانستان والمزيد منه عن نظام

الحرب والاستخبارات. أردت نقاشاً أقل عن العمليات وأكثر عن الاستراتيجية والسياسة.

عاودت في الفصل الدراسي الأول قراءة «فن الحرب» لصن-تزو وأجزاء من كتاب ثوسيديديس «تاريخ الحرب البيلوبونيسية». درست «عن الحرب» لكلوسفيتز و«وجه المعركة» لجون كيغان. هناك الكثير مما يتوجّب استكشافه، من التغييرات السياسية والاقتصادية المذهلة في الصين، إلى الإصلاح الذي أخذ يبرز داخل الإسلام. وهناك عدم الجدوى المتزايدة لحلف شمال الأطلسي والتطور المذهل للديمقراطية في أميركا اللاتينية وانتشار أسلحة الدمار الشامل. ووفّر الفضاء السيبراني (الإنترنت) ساحات جديدة لجمع الاستخبارات والقتال.

وفّر الفصل الدراسي الأول وجهات نظر أوسع في السياسة والاستراتيجية استُقيت مما استُخلص من دروس عبر العصور. إلا أن الملاحظة الأبسط والأهم ربما تتمثل في التقديرات الخاطئة للزعماء وبخاصة من يتمسّك منهم بالمفاهيم والسلوكيات العسكرية العتيقة. فقد ضُخّمت فظائع معارك الخنادق في الحرب الأهلية الأميركية بعد ذلك بخمسين عاماً في الحرب العالمية الأولى. كيف أمكن للجنرالات ألا يتآلفوا مع الواقع الصارم للأسلحة التي تطلق النيران المركزة والسريعة؟ وكيف عمدوا، بدلاً من ذلك، إلى قيادة ملايين الرجال كما لو أنهم يحملون البنادق القديمة التي تطلق طلقة واحدة أو السيوف؟ كيف أمكن للجيش الأميركي مقاومة مجيء الدبابة والطائرة بوصفهما سلاحين يغيران الحرب؟ كيف أمكن للولايات المتحدة أن تتحامق بهذا القدر من السوء في فيتنام؟ قرأت كيف قاوم جنرالاتنا التقليديون المحاربين الناشئين، ولكن الفاعلين المكافحين للتمرد، وعملوا مع ذلك على إرضاء رغبات الزعماء السياسيين ورفضوا إطلاعهم على الحقيقة البشعة للعدو الفيتنامي. وكذب القادة السياسيون في غضون ذلك على الشعب الأميركي. تُصوّر حقبة فيتنام انهيار الثقة الأساسية بين الجندي والدولة والأمة.

كيف يمكن للولايات المتحدة، جراء هذه المقاومة المتأصلة للتغيير، أن تواجه عدواً ليس بدولة مثل القاعدة؟ كيف يمكن التعامل مع عدو وحشي عزّز نفسه بأسلحة غير متناظرة وتكتيكات، وعمل في ميدان معركة عالمية تزداد هشاشة؟

أدى التقاء تاريخنا الحديث في عمليات مكافحة الإرهاب مع الصرامة الفكرية لمعهد الدراسات الدولية المتقدمة، والتي تمتد عبر قرون من المعرفة، إلى التركيز على التحوّل الأساسي في الحرب التي عشنها للتو. وقفزتْ ثلاث وقائع إلى الواجهة. أولاها أن درجة عدم التناظر في الأعمال الحربية قد بلغت مستوى جديداً. ولم يكتفِ الاتجاه بالازدياد بل أخذ يتسارع بمعدل مفزع. وأصبح بإمكان الأقل والأقل من العناصر الفاعلين إحلال المزيد والمزيد من الموت والدمار. أخذت الأسلحة تزداد قوة. وأضحى السكان والبنى التحتية أكثر كثافة وهشاشة. وفي ما هو أبعد من الوقع الناشط بات من الممكن لعناصر فردية مسلحة بفيروس كمبيوتر وبفيديو مرعب أو بتحريض غاضب يمكن رفعها على شبكة الإنترنت أن تحدث وقعاً عالمياً فورياً.

ثانيتها، أن دور اللاعبين من غير الدول أخذ يزداد. فالقاعدة وغيرها من المجموعات الإرهابية أخذت تنافس الدول الوطنية في تشكيل التهديدات على موطننا. كما إن الحلفاء من غير الدول، مثل القبائل الأفغانية، شكلوا حلفاء أكثر فاعلية من الحلفاء التقليديين مثل حلف شمال الأطلسي. وأخذ عدد هؤلاء اللاعبين من غير الدول وأهميتهم في الانتشار مثل المنظمات غير الحكومية والإعلام والأعمال والجامعات والجماعات الدينية وأكثر. وبالرغم من أن هؤلاء اللاعبين ووجهات نظرهم باتت جزءاً من المنظر الاستراتيجي فلا يزال إدخالهم في معادلة تخطيطنا الاستراتيجي أمراً نادراً.

ثالثتها، أن ساحة المعركة أضحت عالمية الآن على المستوى العملاني، بل وحتى التكتيكي. وفي إمكان مجموعة معادية ان تتآمر وتخطط في أحد أطراف

الكوكب وتنفذ في الطرف الآخر خلال أيام، بل ساعات. أما الوقع في الفضاء السيراني فيمكن قياسه بالثواني.

ما هو دور الاستخبارات إذاً إذا شرعت هذه العوامل، التي بدأت تظهر وتتلاقى، في تغيير طبيعة الحرب؟ كيف يمكننا تحديد وتعريف هؤلاء اللاعبين الصغار بوقعهم الكبير وهم يتنقلون عبر ساحة المعركة العالمية متخذين من الساحة البشرية جحراً لهم ومستخدمين تكتيكات الخداع والإنكار؟ بدا أن الاستخبارات أخذت تصبح أكثر صعوبة حتى وهي تصبح أكثر أهمية.

رفض باحثون محترمون من أمثال جون كيغان قيمة الاستخبارات في الحرب. وكذلك فعل بعض صنّاع السياسة. فهل يغيّر هذا التحوّل في طبيعة الحرب في وجهات نظرهم؟ هل تعتبر الأكاديميا الاستخبارات موضوعاً جديراً بالدرس، أم تعتبرها جديرة بأن تصبح اختصاصاً فريداً ومنفصلاً؟ هل يعيد الزعماء السياسيون النظر في قيمة الاستخبارات؟

احتجت إلى دراسة هذه المسائل فتسجّلت في مقرّر حول الفكر الاستخباري للبروفسورة جنيفر سيمس بعنوان «فن الاستخبارات وصناعتها».

تصوّرت البروفسورة سيمس نظرية متقنة للاستخبارات ترتكز إلى مبادئ تاريخية دائمة شدّدت فيها على الحلقات التي ترتبط عبرها ديناميكية دمج جمع المعلومات وتحليلها مع ردود فعل الزبون. وعليّ أن اعترف أنني جهلت، قبل المقرر، نظريات الاستخبار. ولم أمتلك أي فكرة عن المدى السيء الذي عالج فيه المجتمع الأكاديمي الموضوع، ربما في انعكاس لنظرة الحكومة الأميركية والمجتمع إلى عملاء الاستخبارات بوصفهم فريق عمل ضرورياً ولكنه قذر، يُستخدم في أعمال لا يريدها أحد آخر أو يهتم حتى بمناقشتها؛ أو بوصفهم سراباً أُعطي طابعاً رومنسياً وبطولياً يسلّي ولكنه لا يتمكن من الإخبار.

لم تعامل الأكاديميا الاستخبارات في بعض الجوانب بطريقة تختلف عن المعاملة التي تلقتها من الأف. بي. آي أو من وزارة الدفاع. من هم قادة الأف.

بي. آي ووزارتي الدفاع والخارجية أو أي وزارة أخرى ذات خط سياسي، الذين ارتقوا في صفوف السي.آي.إيه ليصلوا إلى موقع قيادي في وكالاتهم؟ من هو الزعيم الأكاديمي الذي حقّق النجاح من خلال دراسة الاستخبارات؟

طبختُ والبروفسورة سيمس معاً في النهاية فكرة نص أكاديمي نشرته دار جامعة جورجتاون في ٢٠٠٥ بعنوان «تحويل الاستخبارات الأميركية». وتشاركت سيمس وبورتون غربر في التحرير، وساهمتُ في فصلين منه.

من بين الأمور الكثيرة التي تعلّمتها وأنا في كلية الدراسات الدولية المتقدمة هناك ثلاثة بارزة تتعلق بالاستخبارات. أولها مدى تضارب الجمهور الأميركي وتهكّمه وجهله، ومعه الكثير من صانعي السياسة، في شأن الاستخبارات. شهدت في ربيع ٢٠٠٢ على الإخفاق المتكشّف في حرب العراق. وادّعى بعض صانعي السياسة أن الاستخبارات، التي اخطأت كلّياً في شأن أسلحة الدمار الشامل، جعلتهم يقومون بالغزو، كما لو أنه انتفت أي خيارات أخرى. وسيرفض زعماء آخرون، في السنوات التالية، توصيفات السي.آي.إيه الأولى لتمرد عراقي بدأ يظهر سريعاً لأنه يناقض إحساسهم بالنصر المحتوم. واستذكرت تعليقات ولفوفيتز في أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ في البيت الأبيض. فقد سعى أصحاب القرار السياسي إلى تسيير الاستنتاجات الاستخبارية بدلاً من ترك المجال لجمع الاستخبارات وتحليلها للاطلاع السياسي.

ثانيها، أنني ذهلت من الطبيعة المتغيرة للحرب ومن الأهمية المتزايدة للاستخبارات في هذا السياق الاستراتيجي. وقمنا، على عكس ما فعلنا في أفغانستان، بشن الحرب على دولة العراق فيما تجاهلنا كلّياً حليفنا الأهم، وهو الشعب العراقي. وشكّل العراقيون مجموعة غير منتظمة من اللاعبين من غير الدول يسعون إلى استعادة كبريائهم واعتبارهم. ولم تكن هذه الحرب من دولة إلى دولة، بغض النظر عن القدر الذي أرادته لها القيادة الأميركية المدنية والسياسية. بل إنها حرب تتعلق بالناس ودارت فيما بينهم. وطلب زعماؤنا، المتعثرون على طول هذا

الطريق الملتبس في بيئة النزاع الجديدة هذه، المزيد والمزيد من الاستخبارات. وانعكس هذا في الزيادات الضخمة في موازنات مجتمع الاستخبارات وفي انتشار الوكالات ذات الوظيفة الاستخبارية، ولكنها لا تمتلك إلا القليل من الزعامة الاستراتيجية أو الوضوح. بدا مجتمع الاستخبارات غير متيقن من توجهه المستقبلي، ومرد ذلك في جزء كبير منه، إلى أن صانعي السياسة فشلوا في توفير المتطلبات والتوجيه وهم في حاجة إلى أن يكونوا زبائن مسؤولين للاستخبارات.

ثالثها، بدا أن الديناميات السياسية في السياسات تطلب رداً على ٩/١١ مركزه واشنطن فيما بني نجاحنا في الواقع حول الانحياز إلى الميدان. تمسّكنا كحكومة بمفهوم القوة والسيطرة المركزّتين وأخفقنا في إدراك أن القوى المعادية الصغيرة والرشيقة العاملة في ميدان الحرب العالمي تتطلب ردّا مشابهاً. احتجنا إلى اختراق تلك الخلايا المعادية والمناورة من داخل نصف قطر انعطافها وهو ما لا يمكننا القيام به في واشنطن العاصمة.

كانت السنة الأكاديمية في كلية الدراسات الدولية المتقدمة منعشة فكرياً ومجزية مهنياً لأنني بت أمتلك الآن إطاراً مرجعياً أكثر اتساعاً. وقلقت أيضاً من الاتجاه الذي تسلكه سياستنا الخارجية، وقد أكّد عليها غزونا العراق. حان وقت العودة إلى السي.آي.إيه.

الفصل الثالث عشر

أميركا

على كل مواطن أن يكون جندياً. تلك كانت الحال مع الإغريق والرومان، ويتوجب أن تكون حال كل دولة حرّة.

ـ توماس جيفرسون

لم أعرف ماهية عملي التالي، لكن ستيفن كابس عرف. لقد ترقّى عبر الصفوف وبات الآن مساعداً لنائب مدير السي.آي.إيه للعمليات، وهو المسؤول الثاني في الجهاز الخفي. وقد طلب رؤيتي في مكتبه في الطابق السابع.

اضطر، بسبب بطنه المسطح ووركيه الضيقين وكتفيه العريضتين إلى إجراء تعديل في بذته الجاهزة لتناسب جسمه. بدا وكأنه لمّع فردتي حذائه البراقتين بالبصاق. وعكس وجهه خمسين سنة كاملة من العمر برأسه الأصلع ولحيته الكاملة التي ضربها الشيب وعينيه الغارقتين في محجريهما، وأعوام كثيرة أمضاها تحت شمس الشرق الأوسط. بدا عليه أيضاً أنه يستطيع القيام ببضع مئات من حركات تمارين الضغط بالساعدين.

«مرحى، هنري»، قال بصوته الجهور. وقد قطع كلانا شوطاً بعيداً مذ كنا متدرّبين في «المزرعة».

«تبدو بكامل لياقتك يا ستيف».

«أحاول، يا هنري، أحاول. استمع إليّ الآن. أريدك أن تفكّر في شيء».

ناداني دوماً باسم هنري، ولم يدعني أبداً فرانك. إنه رئيسي الآن وهو في صيغة الرئيس، وأنا اعرفه جيداً. عندما يريد من أحد «التفكير» في شيء فإنما يريد حقاً أن تؤدّى له التحية. كان ضابطاً في المارينز الأميركيين ولا يزال كذلك بطرق كثيرة.

«نعم. أنا أستمع».

«سيشغر مركز رئاسة المصادر الوطنية هذا الصيف. القسم جيّد لكنه يحمل إمكانية أكبر بكثير. أريد منك قيادة القسم والعمل مع زعماء الأعمال الأميركيين وأجهزة فرض القانون المحلية. وها أنت الآن ضابط رائع لكنك لا تبالي في الغالب، بالعبارات السياسية، بما يفكّر فيه الآخرون. تتحرك بسرعة تاركاً المؤخرة للآخرين، وقد يخلق ذلك مشكلة. ستحتاج كرئيس للمصادر البشرية إلى العمل على تصحيح ذلك. ستحتاج إلى إقامة شراكات جديدة. وفي هذا فرصة فريدة للخدمة».

وهو محق كالعادة.

«يبدو لي الأمر جيداً، لكن دعني لمزيد من التفكير في الأمر. سأتصل بك قريباً».

«نعم. قريباً جداً، يا هنري».

شرعت في ذلك اليوم في دراسة تاريخ المصادر الوطنية، قارئاً ومتحدثاً إلى أصدقاء خدموا في هذا القسم.

انطلقت الـ «أو. أس. أس»، سابقة الجهاز الخفي، من وول ستريت حيث شرع مؤسسها العقيد وليام «وايلد بيل» دونوفان في التجنيد. وقد اشتهرت «أو. أس. أس.» أكثر بما قامت به من عمليات تخريب وقتال جريئة وراء خطوط

النازيين وبمآثرها في شرق آسيا، لكنها عملت أيضاً على جمع الاستخبارات الحاسمة من رجال الأعمال الأميركيين والأكاديميين والعلماء والطلاب ممن يتمكنون من الوصول، بشكل مباشر أو غير مباشر، إلى الاستخبارات في كل أرجاء العالم. وشكّل القطاع الأميركي الخاص حجر الزاوية الأساسي للاستخبارات التي جمعتها الـ «أو. أس. أس». وتصرّفت المصادر البشرية وفق المبدأ نفسه من خلال مكاتبها المنتشرة في أنحاء البلاد والعاملة تحت أسماء مختلفة.

والمصادر الوطنية كناية عن اندماج راهن نسبياً بين كيانين: أحدهما قسم عُرف باسم «جمع الاستخبارات الوطنية» والآخر عُرف باسم «المصادر الأجنبية». ركّز الأول على الجمع الهادىء للمعلومات من القادرين على الوصول إلى الاستخبارات الخارجية. وعمد ضباط جمع الاستخبارات الوطنية إلى استخلاص المعلومات من الأميركيين حول حيّز واسع للغاية من المواضيع المتعلقة بالاستخبارات الأجنبية، من التقدم الصيني في تقانة «النانو» nanotechnology إلى صحة طاغية أفريقي ما. وطوّر ضباط جمع الاستخبارات الوطنية مزيجاً متنوعاً من الخبرة والمعرفة الواسعة. لم تتعلق مهمتهم بالتجسّس بل بالاستخلاص السري للمعلومات بكلفة ومخاطرة بلغتا الحد الأدنى وبمكافآت مذهلة أحياناً.

أما ضباط المصادر الأجنبية فقد جنّدوا أبناء جنسيات خارجية داخل الولايات المتحدة وبخاصة الملزمين بالعودة إلى ديارهم التي يُفضّل أن تكون موسكو وبيونغ يانغ. وعملوا عن كثب مع قوى فرض القانون الأميركية وبخاصة مع الأف. بي. آي عندما تتعلّق الحالة بمكافحة التجسس أو مكافحة الإرهاب. ولم تمتلك الأف. بي. آي اهتماماً كبيراً، أو قدرة أكبر، في نطاقات أخرى من الاستخبارات الخارجية المتعلّقة مثلاً بالديناميات السياسية الصينية الداخلية وسياسة النفط الفنزويلية، أو فرص جمع استخبارات الإشارة عبر شبكات الاتصالات في أميركا اللاتينية.

نتجت المصادر الوطنية عن اتحاد المؤسستين. ولهذا الاندماج مغزاه لأنه غالباً

ما يستحصل الأميركيون على ما يُستخلص منهم من معلومات من مواطن أجنبي ويمتلكون بالتالي ارتباطاً مباشراً بجاسوس أجنبي محتمل، شخص ثبت أن لديه القدرة على الوصول إلى الاستخبارات وأنه مستعد للكشف عنها. وسيركز ضابط من قسم جمع الاستخبارات الوطنية على محتوى المعلومات وليس على التجنيد المحتمل للأجنبي، على أن يعمل ضابط من المصادر الأجنبية من ناحيته على استهداف المواطن الأجنبي وليس على تطوير علاقة ثقة مع الشخص الأميركي الذي يمكنه تسهيل تجنيد الجاسوس الأجنبي. وشكّل هذا، في المنظومة المتشعبة القديمة، تضييعاً ضخماً للفرصة. وصُمّم قسم المصادر الوطنية لمعالجة ذلك. وهذا أيضاً نتيجة الخفض الكبير في المصادر الذي عانت منه السي.آي.إيه بعد انتصارنا في الحرب الباردة؛ فلا معنى بالنسبة إلى مخفضي الموازنات في الإبقاء على شعبتين منفصلتين تعملان في الولايات المتحدة.

بيد أن قسم المصادر الوطنية كان في شكل من الأشكال، وبالرغم من نجاح عملياته، ربيب الجهاز الخفي؛ لأن ضباط المصادر الوطنية خدموا في الخارج بوتيرة أقل من الضباط الآخرين. ويصح هذا بالتأكيد على إرث ضباط جَمْع الاستخبارات الوطنية. ويوجد في الجهاز الخفي انحياز مهني عميق ومفهوم إلى الضباط الذي يديرون عمليات شاقّة في أماكن قاسية. ويكاد لا يُحتسب استخلاص المعلومات من مدير أميركي في جناحه المترف في نيويورك حول سفرته الأخيرة إلى أوروبا، أقله في أذهان الكثير من ضباط الحالة. وعرفتُ، بالرغم من أنني أشارك في بعض هذا الانحياز، أنه يمكن للاستخبارات المستخرجة من مثل هذا الاستخلاص للمعلومات أن تغطي على ما يُجمع من استخبارات في مهمة ما عالية المخاطر في الخارج. ويتطلب أيضاً هذا النوع من استخلاص المعلومات مهارات عالية. فالمهمة تتعلق في النهاية بنوعية الاستخبارات وفاعلية العمل الخفي أكثر مما تتعلق بإتقان عملية ما وبمخاطرها وبما تثيره من انفعال.

وقسمُ المصادر الوطنية صغير بعبارات الموارد المالية والبشرية بالمقارنة مع الأقسام الجغرافية الأخرى في الجهاز الخفي. فقبل ذلك بسنوات قليلة غطت

موازنتي العملانية في مركز مكافحة الإرهاب بشكل كبير على كل تمويل قسم المصادر الوطنية. والأسوأ من ذلك أن بعض الضباط كان دون المستوى، وفشل بعضهم في الحصول على تصديق من «المزرعة» بالعمل في الخارج فهاجر إلى قسم المصادر الوطنية حيث يمكنه الحصول على عمل، وفضّل آخرون بيئة آمنة وحسب. بيد أنه وجد بينهم جيدون كُثُر. وتعاقب بعض ضباط المصادر الوطنية على العمل في الخارج وأبلوا بلاءً حسناً وعادوا إلى مهماتهم الأميركية ضباطاً أفضل. وملأ الكثير من الأقسام الأخرى محطات المصادر الوطنية؛ خدموا في الخارج ويحتاجون الآن إلى البقاء في الولايات المتحدة لأسباب عائلية. ولم يخدم بعض ضباط المصادر الوطنية قط في الخارج وأدوا مع ذلك أدوارهم بقوة. بيد أن القسم بدا أكثر ضعفاً في القيادة الميدانية. فهناك حاجة إلى تبديل عدة رؤساء محطات لم تنتج محطاتهم الاستخبارات، لا كمّاً ولا نوعاً. وجاءت حصيلة عمليات التجنيد التي قاموا بها بمصادر متدنية المستوى لا أكثر. كما إن محطتين لم تقوما بأي عملية تجنيد على الإطلاق.

لفتتني ثلاثة أمور إيجابية في سياق مراجعتي الأولى للقسم. أولها أن بعض ما أُنتج من استخبارات كان رائعاً وفريداً. والواقع أن القطاع الخاص الأميركي تقدّم جداً على الحكومة الأميركية في الكثير من مجالات التكنولوجيا الرفيعة بحيث ساعد المصادر الوطنية في رؤية الفجوات الحديثة وتطوير متطلبات استخباراتية جديدة. وأذهلني التضافر في العلاقة القاضي بتطوير رأس المال الفكري كأساس لمتطلبات استخباراتية أفضل. وأخذ هذا الاتجاه ينمو بفعل التطور التكنولوجي المتزايد ووقعه على البيئة الاجتماعية السياسية العالمية. واستحال على مجتمع الاستخبارات الأميركية مواكبته من دون دعم من القطاع الخاص، وشكّلت المصادر الوطنية واجهة التجسس على التكنولوجيا الرفيعة.

ثانيها، وفّر شركاء المصادر الوطنية في القطاع الخاص الوصول إلى الاستخبارات الأجنبية وإلى منصة تكنولوجية تولّد استخبارات أجنبية وإلى المواطنين الأجانب الذين لهم القدرة على الوصول إلى الأسرار. وعمل بعض

الشركاء في القطاع الخاص بالفعل على تجنيد مواطنين أجانب لصالحنا. كانوا على هذه الدرجة من الجودة، وصحّ هذا بنوع خاص في المجالات الغامضة لجمع الاستخبارات. سافر رجل أعمال أميركي من أصل أفغاني عائداً إلى الديار لتجنيد وإدارة شبكة ضيقة من رجال عشيرته ضد الطالبان؛ ولعبوا دوراً أساسياً في جهود عملنا الخفي قبل ٩/١١ وما بعدها. وانخرط عالم أميركي في نقاش أكاديمي مع نظير له أجنبي ليجنّد في النهاية المصدر، بمساعدة من أحد ضباط الحالة، ويحصل على معلومات تقنية فريدة حول برنامج أسلحة أجنبي. وما أمكن لمعظم ضباط الحالة تجنيد تلك العشيرة الأفغانية أو الوصول إلى ذلك العالم الأجنبي. ولعب القطاع الخاص دوراً أساسياً في المجالات العلمية بنوع خاص. فلم تعرف إلا قلة نادرة من ضباط العمليات أي شيء عن نكهات «الكوارك» وتقنية بنية «النانو» الذاتية التجميع أو الحلقة المغلقة للسلاسل المتوازية في علم الحركة «الروبوتية».

أضف إلى ذلك أنه مع التطور المتزايد لأجهزة الاستخبارات الأجنبية مقروناً بما تحقق من تقدم في علم المقاييس الحيوية صعب أكثر واكثر على ضباط السي. آي.إيه السفر بهويات مختلفة تحت غطاء تجاري من دون كشفهم. وتصوّرتُ بالتالي أن في وسع شركائنا في القطاع الخاص الذين يسافرون بأسمائهم الصحيحة ويعملون لشركاتهم الحقيقية أن يعزّزوا السي.آي.إيه في الخارج. والمخاطر عالية ولكن المكافآت المحتملة هي الأخرى مرتفعة أيضاً.

ثالثها، أقام الكثير من أفضل وألمع ضباط الاستخبارات الأجانب والدبلوماسيون والمسؤولون التجاريون والعلماء ورجال الأعمال في الولايات المتحدة أو زاروها بشكل متكرر، وشكلوا جواسيس محتملين لأميركا. ولكل دولة في العالم نوع من التمثيل في الولايات المتحدة كما في الأمم المتحدة. شكّل مضمار موطننا مجال التجنيد الأفضل في العالم وقد امتلأ بالأهداف ذات النوعية العالية. وما إن يتم تجنيد هذه المصادر الجديدة حتى يصبح التحقق منها وتدريبها أكثر سهولة في الولايات المتحدة منه في الخارج. والحقيقة هي أن

أفضل جواسيس الجهاز الخفي جُنّدوا في الولايات المتحدة. وهناك من بينهم نسبة كبيرة تطوّعت وحسب.

كانت ماري مارغريت غراهام، التي ترأست المصادر الوطنية قبل ذلك بحوالى عامين، هي الشخص الأكثر نفوذاً في نقاشاتي الأولى حول الوظيفة الجديدة. شدّدَتْ على العلاقات مع رؤساء مجالس الإدارة بوصفها مفتاح النجاح. وفي وسع قسم المصادر الوطنية، عبر التفهم والثقة، تعزيز موارد شركة ما وقدرتها على الوصول على مستوى العالم.

قالت: «فكِّر في ما يمكنك فعله بالعمل مع شركة كبرى متعددة الجنسيات».

سألتها: «نعم، لكن كيف تعتقدين أنني سأتلاءم مع هذه المجموعة؟». التقيتُ أجانب من كل الأنواع: إنهم موظفون عاديون، أسياد إقطاعيون، جواسيس شيوعيون، قتلة متوحشون، دبلوماسيون بليدون، طيارو أدغال مجانين، محاربون أبطال، بيروقراطيون فاسدون، مزارعون فخورون يعملون بأيديهم، نصّابون محنكون، عاملو إغاثة غير أنانيين، بل وحتى أطباء سحرة. لكن هذا يختلف. لا أستطيع أن أتذكر لقائي برئيس مجلس إدارة من الخمسمئة الأغنى في العالم أو برئيس جامعة أو بعالم ذي مستوى عالمي. وأنا، على هذا الأساس، غير ملم ببلادي بعدما كرّست حياتي المهنية للخدمة في الميدان الخارجي، مركّزاً على المسائل الخارجية حتى وأنا في الولايات المتحدة. أحسستني أشبه بالابن الضال أتأمل في عواقب عودتي إلى موطني.

قلبت ماري مارغريت عينيها وضحكت.

«أخبرهم ما فعلتَه في أفغانستان فحسب. قدّم لهم نسخة من كتاب وودورد «حرب بوش» وأخبرهم أنك هانك. لا تخجل من الأمر. سيحبونك».

قبل ذلك بحوالى سنة منحت، بطلب من السي.آي.إيه، بوب وودورد مقابلة أخبرته فيها عن دور السي.آي.إيه في أفغانستان ما بعد ٩/١١. رافقني مسؤول

الشؤون العامة بيل هارلو إلى منزل وودورد الفخم في جورج تاون للنقاش الذي استمر ساعتين. طرح وودورد، وهو غاية في التهذيب والثقافة، عشرات الأسئلة. وحذوت حذو هارلو في ما يتعلق بما يمكنني أو لا يمكنني الإجابة عليه. وحصلت على مجال أكثر مما اعتقدته في الأساس. كتب وودورد رواية دقيقة ومتوازنة ترتكز إلى مقابلات كثيرة مع الكثير من وجهات النظر المختلفة.

من الواضح أن زملائي في السي.آي.إيه وبعض الآخرين في الحكومة الأميركية عرفوا أنني هناك المشار إليه في الكتاب. وكذلك فعل عدد متزايد من الأهل والأصدقاء. وكذلك عرف آخرون، بمن فيهم رفاق صفي في كلية الدراسات الدولية المتقدمة، أو خمّنوا.

شدّدت ماري مارغريت على أن معظم الأميركيين يريدون مساعدة السي. آي.إيه، إلى حد ما على الأقل. وفاجأني هذا نظراً إلى كل الإعلام السلبي والروايات الشعبية الخيالية التي صوّرت ضباط السي.آي.إيه أشخاصاً مفتولي العضلات ناقصي الدماغ أو أوغاداً أو الاثنين معاً. أدركتُ أن انتهاك موطننا في ٩/١١ بدّل الأمور، لكن إلى أي حد؟

طلبت مني ماري، وهي صادقة ومتمعّنة في الأمر وجديرة بالثقة، أن أقبل المهمة. ذكّرتني بأن الأمر يشكّل فرصة لي ولكنه، وهذا هو الأهم، واجبي.

درست قسم المصادر الوطنية وتأمّلت ملياً الـ «مع» والـ «ضد»، إلا انه وُجد عامل آخر نفرت من الاعتراف به. بدا في الحقيقة وبطريقة ما أن قضاء يومين في سان دييغو بدلاً من الصومال أكثر جاذبية وحسب. وتساءلت إذا كنت قد بدأت أشيخ. أمكنني بالفعل سماع زملائي في القسم الأفريقي وفي مركز مكافحة الإرهاب وفي قسم النشاطات الخاصة وهم يضايقونني، وبخاصة غريغ الذي لن يستكين.

اتصلت بعد ذلك بيومين بكابس.

«رئيسٌ لقسم المصادر الوطنية. سيكون الأمر ممتعاً. سأتولاه. شكراً».

قال: «على الرحب والسعة».

أقفلت سماعة الهاتف وفكّرت، أن أطلب منه مكتباً فرعياً في فايل أو أسبن، لمجرّد إغاظته.

شرعت بالاتصال بكبار الضباط الذين عملوا بإمرتي في الخارج أو في مركز مكافحة الإرهاب. سأحتاج لمساعدتهم في تعبئة بعض مراكز رئاسة المحطات التي ستتوفر قريباً في قسم المصادر الوطنية.

تلقّيت، بوصولي إلى المصادر الوطنية، سلسلة من الإيجازات. فللقسم محطات وقواعد أصغر منتشرة في كل أنحاء البلاد، ولكلها تقريباً غطاء تجاري. عمل بعض المحطات أكثر على مكافحة الإرهاب، وركّز بعضها الآخر أكثر على الاستخبارات السياسية والاقتصادية والعلمية. وغطى اثنان من المكاتب الأكبر كل شيء تقريباً. اتسع مجال العمل لأن قسم المصادر الوطنية شكّل منصة للتجنيد ولجمع المعلومات للجهاز الخفي. وعمل شركاء القسم في القطاع الخاص كقوة متطوعين من المواطنين ـ الجواسيس الأميركيين الذين يجوبون العالم.

كانت قيمة الاستخبارات حاسمة. ففي الوقت الذي أخفقت فيه السي. آي. إيه في تقويم أسلحة الدمار الشامل في العراق، زوّد ضباط المصادر الوطنية الجيش الأميركي بتقارير قيمة عن البنية التحتية العراقية. فقد أعاد المتعهدون الأميركيون بناء الكثير من العراق بعد الحرب الإيرانية العراقية واحتفظ بعضهم بمعلوماته وزوّد بها المصادر الوطنية. وما إن تسلّمت المصادر الوطنية متطلبات الجيش الأميركي حتى شغلت شبكتها في كل أنحاء البلاد، وأعطى ذلك نتائج فورية. وفي إحدى الحالات تعرّف أحد مصادر القسم على هدف عسكري عراقي محدّد على مقربة من دار للحضانة ومطعم. دقّقت المصادر الوطنية ثلاث مرات بالإحداثيات الجغرافية ثم زوّدت الجيش الأميركي بالتقرير المفصل. وشاهد ضباط القسم في اليوم التالي على أخبار شبكات الكابل المتحدث العسكري

الأميركي وهو يعطي مثالاً على قصفهم الدقيق: زال أثر الهدف ولم تصب دار الحضانة بأذى.

جنّدت المصادر الوطنية أحياناً، بالتعاون مع الأف. بي. آي، مسؤولين حكوميين عراقيين سابقين مقيمين في الولايات المتحدة قدّموا استخبارات أساسية. وأعطى أكثر من نصف دزينة منهم معلومات استهدافية حاسمة. وحدّد غيرهم منشقين محتملين. وجنّد آخرون مصادر من ضمن عائلاتهم وعشائرهم. أنتجت المصادر الوطنية مئات التقارير لصالح زبائننا السياسيين والعسكريين.

كشفت إيجازات المصادر الوطنية عن تقدم يحبس الأنفاس في مجالات العلوم الحيوية والذكاء الصناعي والروبوتية وتقنية النانو التي أثرت في ممارسة الاستخبارات والحرب. وشرعت في الإشارة إلى الأمر بوصفه ثورة «حصرن» [الحروف الأولى من المجالات الأربعة المذكورة سابقاً]. بدا أن هذه الأمثلة لا تنتهي ومخيفة بعض الشيء. وقد يمكن لفيروسات الكومبيوتر، ربما في وقت قريب، أن توقف العمل في مساحات ضخمة من البنية التحتية. وسيمكن للمهندسين الإحيائيين تحويل البشر إلى آلات محاربة متطورة تتمتع بسرعة هائلة وبقوة وجَلَد ومرونة. وسيصبح في قدرة مسببات المرض المعدلة وراثياً أن تقضي على ملايين الناس.

كما أنه سيمكن لهندسة الروبوتات الدقيقة، التي تستنسخ ديناميكا الهواء لدى الحشرات، أن تنتج طائرات متناهية الحجم تطير بلا طيار وقادرة على التجسّس على مشتبه بهم من دون أن يرتابوا بذلك. وأخذت الشركات الأميركية في تصنيع مرشدات لاسلكية أو أجهزة تعقب أصغر حجماً وذات قدرة إرسال أكبر وحياة أطول، ما يقدّم للسي.آي.إيه أدوات جديدة لتحسين مهارة الصنعة. ومما لا شك فيه أن أجهزة الاستخبارات الأجنبية انخرطت هي الأخرى في برامج مماثلة. طرح دمج الكميات الكبرى من المعطيات وتحليلها تحديات كبرى وفرصاً، وسَعتْ وكالات الاستخبارات، والسي.آي.إيه من بينها، بفارغ الصبر إلى تطبيق تكنولوجيا المعلومات التجارية هذه.

أجد، عندما أتأمل ما قد يحمله المستقبل، أن قيمة القطاع الخاص للاستخبارات الأميركية تبدو أكبر. إذ لا يمكن للحكومة الأميركية مضاهاة مجال «حصرن» وغيرها من التكنولوجيات أو سرعتها. وفيما استكشفت أقسام أخرى من السي. آي.إيه، مثل مديرية العلوم والتكنولوجيا، تطبيقات مباشرة وعملية في مجتمع الأمن القومي، عزّزت المصادر الوطنية القيمة الإنسانية في العلاقة بين التجسس والعلوم. فما هي التكنولوجيات الجديدة التي ستولد متطلبات جديدة لجمع الاستخبارات الأجنبية؟ كيف يمكن للمصادر الوطنية، بعملها مع الشركاء في القطاع الخاص، أن تستحصل على هذه الاستخبارات الأجنبية؟ وكيف ستؤثر الطبيعة المتغيرة للتجسس والحرب على القطاع الخاص، والعكس بالعكس؟ كيف يمكنني، بوصفي الرئيس الجديد للمصادر الوطنية، أن أتمكن من فهم أولي لهذا بما هو أبعد من الإيجاز التمهيدي؟

الجواب على مثل هذه الأسئلة، وهو مفتاح نجاح المصادر الوطنية، موجود، كما قالت لي ماري مارغريت غراهام، أولاً وقبل أي شيء لدى قادة القطاع الخاص الأميركيين.

الرئيس التنفيذي

جلس الرئيس التنفيذي، وهو عصامي من أصحاب الملايين وأحد القادة في قطاعه، في مكتبي في قسم المصادر الوطنية في مقر قيادة السي.آي.إيه. وقد استحصلنا له على الترخيص الأمني اللازم للزيارة. جاء إلى هنا من قبل، فهو مصدر مهم وشريك ويتعاون مع السي.آي.إيه منذ سنوات. لم يمضِ عليّ سوى أسبوعين في العمل وهو أحد أوائل الزائرين.

إنه سيد طويل القامة، يتمتع باللياقة البدنية ويمتلك طاقة ذهنية عملاقة. واجه مشكلة في الجمود في مكانه. ولم أتمكن من أن أستشف أيهما أكبر: أفضوله الذي لا يرتوي في شأن الكون بأسره أم حماسته على مساعدتنا في جمع الاستخبارات

الأجنبية. اعتقدت، عند حدّ ما، أنه سيبدأ بالقفز في أرجاء مكتبي مع اقتراب مؤشر سرعة محركه الذهني من الخط الأحمر. وتمكن بطريقة ما من البقاء جالساً إلى الطاولة. وشاركته النقاش حول جهودنا التعاونية.

شرح لي بإسهاب كيف أن بنيته العالمية السفلى أفادت عمليات السي. آي.إيه. وتضمنت المساعدة المقدّمة توفير الغطاء لبعض الأفعال العملانية المحددة والوصول إلى الأهداف الأجنبية البشرية منها والتقنية والدعم الإداري لعمليات محددة. وهل هناك شيء لا يفعله هذا الشخص؟

أجاب بسرور وفخر على أسئلتي الكثيرة. تحدّث ودوّنتُ الملاحظات.

أراد، بعد انتهائنا من مراجعتنا العملانية، البقاء والدردشة.

سأل: «ماذا عن القاعدة؟ لماذا يكرهوننا؟».

«يخافون منا، يخشون العولمة وما تعنيه بالنسبة إلى رؤيتهم المنحرفة والرجعية لما يجب أن يكون عليه المجتمع. يخافون من أن تدفنهم العولمة وما يصاحبها من سوق حرّة وقيم ليبرالية. يُفترض أن يخافوا. فالعولمة تتسارع، وما من سبيل لوقفها. وهم يختلفون بالطبع مع سياساتنا وبخاصة المتعلقة منها بالشرق الأوسط».

قال: «لكن العولمة يسيّرها القطاع الخاص في الغالب».

«يمكنك أن تراهن على ذلك، ولهذا فإن للقطاع الخاص، بغض النظر عن الدول، دوراً حاسماً يلعبه. فهذا القطاع، على غرار القاعدة والمرتبطين بها، كناية عن شبكة من اللاعبين من غير الدول. ويمكن لهذه الشبكة في الغالب أن ترد على التهديد بأفضل مما تفعله الحكومة».

«ماذا تعني؟ أعطني مثالاً».

«حسناً. فكِّر في ردنا على ٩/١١. فالإجراء المضاد الفاعل الوحيد في ذلك اليوم لم يأتِ من الطائرات المقاتلة الأميركية بل من حفنة من المواطنين العاديين

في الرحلة ٩٣ لشركة يونايتد. جمعوا المعلومات من الأهل والأصدقاء بواسطة هواتفهم الخلوية. عرفوا بأمر الطائرات الأخرى التي استُخدمت كآليات انتحارية، فتغلّبوا على الخاطفين وحالوا دون ضرب الطائرة واشنطن العاصمة. حوّل هؤلاء الوطنيون أنفسهم من ركاب ساكنين إلى شبكة ذاتية التنظيم من اللاعبين من غير الدول. أنقذوا المئات وربما الآلاف من الأرواح. ولم تنقذ الحكومة الأميركية أحداً في ذلك اليوم.

«وأفغانستان مثال آخر. شكّل حلفاؤنا شبكات من اللاعبين من غير الدول، ميليشيا قبلية منتشرة في كل أنحاء البلاد. كذلك لعب رجال الدين والأعمال دوراً مهماً.

«فكّر في طريقة استخدام القاعدة القطاع الخاص. يجمعون الاستخبارات من مواقع الإنترنت. يفتشون عن المواقع الحسية في الخرائط السياحية، ويستخدمون الشركات أو التوظيف أو السرقة وسيلة للحصول على التمويل. يعتمدون على شركات القطاع الخاص في اتصالاتهم ومواصلاتهم وبالحقيقة في كل سلسلة لوجستياتهم. يستخدمون الشركات والمنظمات غير الحكومية، وبخاصة الخيرية منها، غطاء. وأخذت أهدافهم تصبح سهلة أكثر فأكثر وغير حكومية: الطائرات التجارية ومباني المكاتب ومحطات القطارات والفنادق بل وحتى السفن السياحية. فالقطاع الخاص منخرط في هذا القتال، شاء ذلك أم أبى».

ولاحظ صديقي الجديد أن «هذا مخيف».

«صحيح، وهو ما يعطي القطاع الخاص دوراً مهماً في مساعدتنا على تحديد شبكات الإرهاب. وربما امتلك القطاع الخاص، سواء كان شركة بنية تحتية عالمية مثل شركتك أو صاحب متجر في وزيرستان، الاستخبارات التي تسمح بتحديد العدو ومساعدتنا على وقفه ووقف المزيد من الهجمات. وهذا ما يضفي هذا القدر من القيمة على تعاونك».

امتلكت شركته مكاتب في كل أنحاء العالم وفي وسع موظفيه الذهاب إلى

أي مكان. وسيتوق أي شخص تقريباً إلى لقاء ممثلي شركته بسبب ما تحظى به نوعية عمله من شهرة وقوة مالية. وأدرك ما يستجلب ذلك من مخاطر عليه وعلى موظفيه ومستثمريه. لكنه اعتنقه لأن واجبه يحتم عليه خدمة شركته وبلاده وحمايتهما. وهو ممتن لأن السي.آي.إيه منحته هذه الفرصة في المساهمة. لم يسبق لي أن تخيّلت أبداً أن رئيساً تنفيذياً سينظر إلى تعاونه بمثل هذه الطريقة، إلى هذه الدرجة على الأقل. فسوق التجارة العالمية ميدان معركته وقد خدم بواجب وشرف. وهذا نمط سأعاينه المرة تلو الأخرى في سنتيْ رئاستي التاليتين للمصادر الوطنية.

تحادثنا لما يقارب الثلاث ساعات. عرفت أنه سيغادر إلى الساحل الغربي. فهل فقد أي إحساس بالوقت؟

قلت بتهذيب: «إنها محادثة رائعة لكنني لا أريد أن أبقيك فأنا أخشى أن تفوّت رحلتك الجوية».

«لن أفوّت رحلتي»، أجاب بنظرة متسائلة. ثم أدرك خطئي وشرع في الضحك.

«لا تقلق يا هانك، فطائرتي لن تقلع من دوني».

أجبت: «آه». إنه يمتلك بالطبع طائرته الـ «ليرجت» أو «غولف ستريم في» أو ما شابه. أمامي الكثير أتعلمه في شأن نخبة القطاع الخاص الأميركيين.

«زرني»، قال. «أودّ أن استضيفك على الغداء في ناديّ».

أجبت: «نعم، سيدي. يمكنك المراهنة على ذلك». وقد تناولنا الغداء في النادي الجميل جداً.

رئيس الجامعة

التقيت رئيس الجامعة في جناح فندق استأجره، باسم مستعار، ضابط محلي في

المصادر الوطنية. ويقع في المدينة نفسها التي توجد فيها الجامعة ولكن على بعد أميال كثيرة منها. تيقّنا من عدم وجود مراقبة على الطريق الذي سلكناه إلى مكان اللقاء. وقد شدّدت على ضباط المصادر الوطنية أن فن الحرفة لا ينتهي عند حدود الولايات المتحدة.

بدا بطلعته الوسيمة وشعره الطويل المنسدل وبسترته الفضفاضة الزرقاء التي ارتداها من فوق قميص باللون الأزرق الطفولي، أشبه بعارض في مجلة «جنتلمانز كوارترلي» منه برئيس جامعة. إلا أن مصافحته المتينة وتحديقه المباشر دلّا على أنه عملي تماماً. تكهّنت بأنه ينشد الكمال ولا يتسامح إلا بالحد الأدنى مع الحماقة أو النقاش غير المنطقي.

بعد تعارف تمهيدي وجيز، وبعدما شكرته على خدماته كمربٍّ وكشريك للسي.آي.إيه قفز مباشرة إلى صلب الموضوع. قال: «لا أريد وجود القاعدة أو أي جماعة إرهابية في حرم جامعتي. فسلامة طلابي والموظفين وأمنهم وواجباتي كمواطن تتغلب على تحفظاتي حيال التعاون مع السي.آي.إيه. لدينا طلاب مسلمون راديكاليون في حرم الجامعة لكننا لا نعرف مدى راديكاليتهم أو مدى توسع امتدادهم الخارجي. هل تعرف؟ علينا أن نكتشف ذلك».

أبلغناه عن اثنين من الطلاب الأجانب في جسمه الطالبي. وارتكزنا في ذلك إلى استخبارات شاركنا بها ارتباطنا الخارجي. وشرحنا بأن لجهاز الارتباط الأجنبي ذلك سجلاً حافلاً بانتهاك حقوق الإنسان وبأنه يميل إلى اعتبار كل المعارضين إرهابيين، ولا يمكننا بالتالي التثبت من كل المعلومات. ونحن نحتاج إلى تعاونه وبالتحديد إلى الوصول إلى واحد او اثنين من أساتذته الذين يعرفون هذين الطالبين.

«ربما نهتم، وذلك متعلق بالمزيد من التقويم، في تجنيد أحد هذين الطالبين للعودة إلى الخارج والتجسّس لنا. نحتاج إلى مصادر كهذه، وبخاصة هناك في ملاذات العدو الآمنة. فهل تساعدنا؟» سألته.

«بالتأكيد. من هما الأستاذان؟»

زوّدناه بالاسمين لكننا لاحظنا أنه ربما يوجد آخر مناسب أكثر. إلا أننا وببساطة لا نعلم.

«سنشارك الأف. بي. آي بأي استخبارات تأتي تكملة لعملهم. لكننا لن نكشف بالتأكيد عن اسمك أو اسم أي أستاذ كمصدر لنا. ذلك كله يبقى طي الكتمان».

«إنك محق تماماً إذ لا يمكن للأف. بي. آي الاحتفاظ بالأسرار. سيقايض هؤلاء الفتية في أي يوم الثقة بتغطية صحافية مؤاتية، وهم غير فاعلين في الحرم الجامعي. يظهرون، يلوحون بشاراتهم، ولا توصلهم تهديداتهم المبطنة إلى أي مكان. ولو تعلّق الأمر بمسألة تختص بتطبيق القانون لساعدتهم طبعاً، لكنني لا أرى عند هذا الحد أنه تم انتهاك أي قانون. أرى أن هناك تهديداً لحرمي الجامعي وأرى أجندة استخباراتية. سأدعمك».

أدرك هذا المرء الأمر، وفهم الفارق بين الاستخبارات والدليل، بين السي. آي.إيه والأف. بي. آي. وخالفت الأف. بي. آي ذلك. وطالبت تكراراً بمعرفة هوية مصادر قسم المصادر الوطنية. وشرحت لهم أن ذلك غير ممكن، وليس بالتأكيد مع مواطنين أميركيين رفضوا اللقاء بالأف. بي. آي حتى ولو طلبنا منهم ذلك. وللمواطنين الأميركيين حقوق بما في ذلك حق التعاون سرّاً مع السي. آي.إيه لحماية الولايات المتحدة.

قبل رئيس الجامعة بواجباته القاضية بحماية جامعته وبلاده. وفسّر بعض قادة الجامعات مسؤولياتهم بطريقة مختلفة وخافوا من السي.آي.إيه وكأنها غازٍ «أورويلي» ما. ولم تمتلك السي.آي.إيه بالطبع أي وسيلة قانونية لفرض التعاون، إذ لا يمكنها العمل إلا مع مواطنين يريدون التعاون. وغاب أي تخويف أو تأثير إلا الوطنية والاهتمام الذاتي. كما أن أفضل الشركاء والمصادر هم الذين يعتنقون المهمة وليس من يُجبرون على التعاون. وذلك هو جمال الحريات المدنية الأميركية

وقوّتها في عالم التجسس. وهذا صحيح بالرغم من أن البعض يرى فيه مفارقة غير مقبولة. شاهدته في كل يوم في عمليات المصادر الوطنية. والحريات المدنية القوية هي التي تبقي بلادنا قوية وتتضمّن حق المواطنين الأحرار في المساعدة على حماية بلادهم. صحيح أن هؤلاء الأشخاص يساعدوننا في التجسّس على مواطنين أجانب لكن ذلك يقع ضمن حدود الحقوق، وعلى ما أعتقد ضمن واجبات المواطنين بحسب ما ينص عليه دستورنا.

ولهذا السبب ازداد حذري من الأف. بي. آي التي تمتلك سلطة البحث والمصادرة والتوقيف معلنة عن دورها التجسسي الأسمى داخل حدودنا. يبدو ترسيخ مثل هذه السلطة القهرية والتطفلية في كيان واحد تهديدياً على غرار ما جرى في السلطة المتزايدة للجيش الأميركي في الديار مع إنشاء القيادة الشمالية. لم أرد وجود الاستخبارات وفرض القانون في وكالة محلية واحدة. ولم أرد بالتأكيد اندماج فرض القانون والاستخبارات مع القوة العسكرية داخل ديارنا. عملتُ طيلة العقدين الماضيين على حماية الولايات المتحدة وها إنني أتساءل الآن هل إن القاعدة، أو أي عدو آخر غيرها، ستخيفنا فتدفعنا إلى سلوك يهدد أمتنا أكثر مما تفعل. لا يمكن للقاعدة أن تهزمنا، لكن يمكننا أن ننسف مؤسساتنا ونهدد حرياتنا إذا بالغنا في رد فعلنا.

من ناحية أخرى، كانت قدرتنا على جمع الاستخبارات عن التهديدات الخارجية داخل حدودنا وتحليلها بدائية في أفضل الحالات. وكانت مفارقة اتفاق السي.آي.إيه وأحد رؤساء الجامعات على الحاجة إلى التجسس على حرمه الجامعي، حافلة بالمعاني.

استغرق الاجتماع مع رئيس الجامعة أقل من ثلاثين دقيقة. عاودت شكره، فنظر إليّ بما يشبه الاستهجان كما لو أن ذلك الشعور كان غير ضروري. أحنى رأسه باقتضاب وانسلّ سريعاً عبر ردهة الفندق.

تساءلت: كيف يمكن لبعض السلطات الجامعية السماح بوجود عنصر من

القاعدة في الحرم؟ هل لأنهم يخشون التعاون مع الاستخبارات الأميركية أكثر من التهديد الذي يشكله طلابهم؟ أم أن في الأمر جهلاً صادقاً متجذراً في سوء فهم السي.آي.إيه؟ أو تركيبة ما من الاثنين؟

سيشارك قسم المصادر الوطنية والأف. بي. آي في السنة التالية في رعاية تجمع لرؤساء الجامعات لمناقشة مسائل التعاون هذه في الاستخبارات وفرض القانون.

الأسلحة البيولوجية

ساور الثريَّ الكبيرَ القلقُ من الأسلحة البيولوجية. ليست العلوم البيولوجية صناعته لكنه صاحب مصالح واسعة وأراد أن يعرف المزيد عنها بوصفه مواطناً مسؤولاً، وأحب أن يعرف كيف يمكنه المساهمة. إنه شريك جيد يُركن إليه وله نفوذ هائل، فنظَّمتُ لفريق من الخبراء في السي.آي.إيه أن يطير ويلتقي به في منزله الفخم. قدّمنا له إيجازاً، وراجعنا هجوم «أوم شينريكيو» بغاز السارين في عام ١٩٩٥ في مترو الأنفاق في موسكو؛ وقد أدّى إطلاق الغاز الذي يؤثر في الأعصاب إلى مقتل اثني عشر شخصاً وإصابة المئات. أخبرته عن التجارب التي أجرتها القاعدة في الحرب البيولوجية في مزارع ديرونتا في أفغانستان، ولخّصت ما عرفناه عن مختبرات الأنتراكس التي اكتُشِفت في أفغانستان. قدّمنا المزيد من الإيجاز وسرعان ما تطور الاجتماع إلى نقاش. أدركتُ من خلال أسئلته المركّزة مدى تراخي الحكومة الأميركية في ما يتعلق بالأسلحة البيولوجية، ليس النقص في الاستخبارات فحسب بل أيضاً غياب السياسة التي ستوجه متطلبات الاستخبارات. استمر حديثنا معظم النهار.

تميّز الدفاع الوطني ضد الأسلحة البيولوجية بعدم النضج، بل تميّز جمعنا الاستخبارات ضد التهديدات بالأسلحة البيولوجية بأنه أكثر ضعفاً، وكادت تغيب عندنا أي سياسة في هذا الشأن. أصابني جهلنا الجماعي، وقد برز خلال

الاجتماع مع شريكنا الرئيس التنفيذي، بالحنق. بدت فجوات الاستخبارات المتعلقة بالأسلحة البيولوجية أشبه أكثر فأكثر بالثقوب السوداء الدائمة التوسّع.

ينمي ضابط الاستخبارات الجيّد إدراكاً لما لا يعرفه أو تعرفه. ويحتاج المرء إلى جرعة من التواضع للاعتراف بجهله، بل أيضاً إلى البحث عما يجهله. ثم يلي ذلك الجزء الصعب المتمثل بالقيام بأمرٍ ما حيال ذلك، وهو ما يتطلب أحياناً تصميماً واثقاً.

ليس في إمكان المصادر الوطنية وضع السياسة غير أنه يمكننا تحفيز المتطلبات من الأول إلى الآخر. ولا نحتاج إلى انتظار صانعي السياسة ليخبرونا بما هو المهم، مع أن هذا يدخل في نطاق مسؤولياتهم.

حين عدت إلى مركز القيادة جلست مع دونا في مكتبها الصغير الفوضوي. هي مسؤولة عن متطلبات المصادر الوطنية والإفادة، وتحدّد ما الذي يشكل استخباراً قيماً وتوجّه الميدان وتساعده في مهمة جمع المعلومات. تحدّرت دونا من بلدة صغيرة في بنسلفانيا وانضمت إلى السي.آي.إيه بعد خمس سنوات على تخرجها من المعهد. بدأت عملها موظفة بمرتب من الفئة الابتدائية الخامسة. واستحقت في فترات الخدمة في أوروبا وفي أميركا اللاتينية الترقية تلو الأخرى. وباتت الآن رئيسة قسم بمرتب من الفئة ١٥. هي فطنة وشديدة المراس، انطوائية وغير مدركة لإمكاناتها القيادية، وكثيراً ما قذفتُ بالأسئلة وبالمشاكل صوبها. أخبرتها عن الاجتماع وعن الوضع غير المرضي لسياستنا المتعلقة بالأسلحة البيولوجية وجهودنا الاستخباراتية في هذا الصدد. وهي تعرف ذلك بالفعل، لكنني أخبرتها على أي حال.

قلت في نفسي: «هذا بشع. لدينا سياسات حول الأسلحة الذرية والكيماوية ولكن ليس لدينا الكثير حول البيولوجية منها. كما أن جمعنا للمعلومات المتعلقة بالأسلحة البيولوجية مخزٍ. وفي وسع الأذكياء والأشرار تحضير العوامل المسببة للمرض في المطبخ. يمكننا ملاحظة معمل ذري ولكن ليس ذلك المطبخ».

قالت: «أمهلني لمزيد من التفكير في الموضوع».

سافرت في غضون ذلك إلى أتلانتا واجتمعت ببعض الخبراء في مركز مكافحة الأمراض والوقاية منها للحصول على الشرح. وغادرت وأنا أكثر قلقاً من ذي قبل.

يمكن، بحسب المركز، لتفشي مرض مريع ما أن يحصل بطريقة طبيعية أو بفعل الإنسان. وربما لن يتمكن أحد من معرفة ذلك في البداية. ولإنتاج العوامل المسببة للمرض، في كل الحالات تقريباً، استخدام مزدوج مشروع. يحتاج العلماء إلى إنتاج الأمراض واختبارها ليتمكنوا من إيجاد العلاج والدواء. والمفتاح هو في تمييز اللاعبين السيئين في عالم اللاعبين الشرعيين.

يمكن للمصادر الوطنية، وباقي السي.آي.إيه في هذا السياق، ملاحقة مئات الدلائل بلا جدوى. فكيف السبيل إلى تضييق بؤرة التركيز؟ وما هو المناسب؟

شرحت لي دونا بعد ذلك بحوالى أسبوعين، على أثر محادثاتها مع خبراء آخرين، المقاربة الفضلى.

قالت: «التسليح».

وسألتها: «تسليح ماذا؟».

«العوامل المسبّبة للمرض. ذلك ما يصنع الفارق في جمعنا الاستخبارات. نحن نركز على عملية تحويل المسبّبات المرضية إلى أسلحة. وتحدّثت مع عالم أحياء ركزَ على الجُسَيْمات. فقد نجد لدى شخص فيروساً ما، وقد يكون مجرد خريج جامعة يقوم ببحثٍ مشروع. لكن إذا وجدنا شخصاً ومعه وسائل نشر الجُسَيْمات فسيصبح لدينا هدف للاستخبارات».

«هذا منطقي. وماذا غيره؟»

«يصبح الأمر أفضل ... أو أسوأ»، قالت. «شرح عالم الأحياء هذا الأبحاث الحديثة بشأن مرض الزهايمر. تحقّق بعض التقدم، ويتعلّم العلماء كيفية استحداث المرض وهي الخطوة الأولى في كيفية تعلّم علاجه».

«هذا جيّد»، قلتُ.

«ليس جيداً إذا أخذت البحث وأنتجت وسائل مهاجمة الجيوش أو السكان متسبّباً بانهيار ذهني».

سألتُ: «انهيار ذهني؟ للجيوش؟ وماذا نفعل بهذا إذاً؟».

خلصت دونا إلى القول: «سيعمل صديقنا عالم الأحياء معنا لإنتاج كتيّب مبادئ للميدان بحيث يشرع جامعو المعلومات لدينا بالتركيز على مسألة تصنيع السلاح البيولوجي. ويمكننا، بالعمل مع مديرية الاستخبارات وغيرها من أقسام مديرية العمليات، توليد متطلبات أكثر تحديداً لبلدٍ إثر بلد. وعند ذاك سنرى ما الذي سنجده».

أضفتُ محاولاً أن أكون مفيداً. «ويمكننا تمرير ذلك إلى شركائنا في أجهزة الارتباط الخارجية ليتمكنوا من البحث».

هناك أمر تعلّمناه لدى ملاحقة أدلة الأسلحة البيولوجية وهو الأهمية الساحقة للمعرفة والقصد. ويعتمد السلاح البيولوجي أكثر من أي سلاح دمار شامل آخر على ما في رأس الفرد. وبوجود وفرة من السموم في العالم الطبيعي، مثل حبوب الخردل لإنتاج الريسين، يستطيع الأفراد الفطنون والعارفون من ذوي النوايا القاتلة إنتاج عامل من عوامل الأسلحة البيولوجية. وكلفة مثل هذه العمليات رخيصة نسبياً ويسهل إخفاؤها. ولذا أعطينا الأولوية للعثور على التهديدات الكامنة التي تظهر في البعد الإنساني. وذلك هو طبعاً جوهر التجسّس.

حملنا لائحة بمؤسسات في بلدان أساسية منخرطة في جهود الأسلحة البيولوجية، وفتشنا عن طلاب الجامعات الأميركية المرتبطين بهذه المؤسسات.

لم يتمكّن قسم المصادر الوطنية من كسب قوة جذب فورية لعدم توفّر المزيد من الموارد أو الحافز الإضافي، وبسبب الاهتمام الفاتر من الأقسام الأخرى. بيد أن دونا تابعت الدفع. جاءت الردود الميدانية هزيلة في البداية، لكننا عملنا مع

المحللين وشريكنا عالم الأحياء الخاص وبعض المختبرات الحكومية لتشذيب متطلبات جمع المعلومات وإعادة تركيزها وتقديمها إلى أن امتلكنا مجموعة موثوقاً بها من الاستخبارات. وأصبح في وسع المحللين تقويم التهديدات ومساعدتنا على توليد المزيد من المتطلبات.

نبع مما بدا حوض نهر جافاً سَيَلان من الإفادة والعمليات.

تمكّنت المصادر الوطنية من الوصول إلى معظم معطيات ما بعد ٩/١١ وإلى القدرات التحليلية لمجتمع الاستخبارات، لتمييز الأجانب في الولايات المتحدة الذين لهم روابط ممكنة مع مؤسسات معروفة لها علاقة بالأسلحة البيولوجية في الخارج. استخدم فريقنا الأول التحليل النمطي لمعطيات تأشيرات الدخول للطلاب الأجانب، وطرح ذلك أسئلة واسعة واضحة. من هم الأشخاص الذين خرجوا عن النمط بعبارات الوصول والخروج للفصل الدراسي الجديد؟ هل دخل أحدهم الولايات المتحدة بتأشيرة طالبية ولم يلتحق بالمدرسة؟ على أن يُعمل من ثم على المزيد من التحقيقات المحدّدة. من هم الخريجون الأجانب الذين لهم أي صلة بجامعات أجنبية أو مؤسسات تمتلك برامج علوم أحياء مرتبطة ببرامج الأسلحة البيولوجية؟ أي من هؤلاء الطلاب يمتلك أي شواذات أخرى في خلفيته أو يرتبط بعلاقة مع ضباط استخبارات أجانب معروفين؟

أصبنا. ربطنا مؤسسة في إحدى الدول بطالب أجنبي منخرط في دراسة السموم في إحدى الجامعات الأميركية. ووجدنا المزيد من الطلاب الأجانب المرتبطين بشكل مشابه بالمؤسسة نفسها. وعند هذا الحد، وبوجود رابط واضح بين المصادر الوطنية وبين مكافحة التجسّس يوحي بتهديد جرمي بنقل تكنولوجيا الأسلحة البيولوجية، استدعينا الأف. بي. آي التي فتحت تحقيقاً. ولم أعرف أبداً ما الذي وجدته.

أدت اليقظة المتزايدة إلى استخبارات ذات علاقة. وعلمت محطة للمصادر الوطنية، على سبيل المثال، أن مجموعة صغيرة اشترت نظاماً ذا تكنولوجيا عالية

يُستخدم غالباً في المختبرات لمعالجة العوامل البيولوجية. وأعطى ذلك المبرر لمزيد من التحقيق بما في ذلك تحليل الروابط بين أرقام الهواتف وعناوين البريد الإلكتروني، ما أوصل إلى مجموعة إرهابية معروفة. وعندها مررت المصادر الوطنية الاستخبارات إلى مركز مكافحة الإرهاب وإلى الأف. بي. آي للملاحقة في الخارج.

توجد في الغالب في عمل الاستخبارات أجوبة جزئية فقط ونتائج محدودة أو غير معروفة. ويتمثل التحدي المهني لضابط الاستخبارات، من بين التحديات الكثيرة الأخرى، في العيش مع النتائج غير المكتملة. لا تكتمل اللوحة أبداً، ويوجد دوماً أمور تُضاف إليها وأمور مجهولة وأمور تتغير. وصحّ هذا بنوع خاص في برنامج استخباراتنا المتعلقة بالأسلحة البيولوجية.

لم يتحقق في الغالب أملي الأساسي بأن يسوّق جمعنا الاستخبارات المتعلقة بالأسلحة البيولوجية لسياسات حكومية أميركية أكثر قوة، ولمزيد من التحفيز على جمع الاستخبارات. بقي السيلان في جمعنا المعلومات سيلاناً، لكنه بات مكتفياً ذاتياً مع ردود فعل من الزبائن ومتابعة في بعض المجالات، خصوصاً تلك المتعلقة بالقاعدة وجهدها المستمر للحصول على السلاح البيولوجي.

علمت، من خلال تجوالي في الولايات المتحدة، المزيد عن شبكات المصادر الوطنية العميقة في القطاع الخاص واستعداد المواطنين الأميركيين للتعاون. أرادوا جميعهم تقريباً الاستماع إلى مطالبنا، وستعمد الغالبية الساحقة إلى المساعدة، إلى درجة معينة على الأقل. عملنا عن كثب مع محامي الشركات الكبرى ومع فريقنا القانوني لتغطية كل الأسس القانونية. وهذا مهم بشكل خاص في صناعات الاتصالات والمعطيات.

اعتمدنا في كل هذه الحالات، ولكن بخاصة عند امتداد العمليات المشتركة بين المصادر الوطنية والقطاع الخاص إلى الخارج، أسساً للعمل المهني مشددة لحماية هذه الشراكة. فقد خاطر الكثيرون، ليس بسمعتهم وحسب، بل أيضاً

بالمصالح التجارية لشركاتهم. وشرح الكثيرون من الرؤساء التنفيذيين المتعاونين أن مسؤولياتهم القيادية، مع احتلال مصلحة شركتهم الأولوية في ذهنهم، تحتم عليهم مساعدة السي.آي.إيه. ورأوا أن المصلحة في سلامة شركتهم وأمنها تتلاءم مع أمن وسلامة بلادنا.

أو كما قال لي أحدهم: «صحيح أنه إذا انكشفت العلاقة بيننا فسيتسبب ذلك بفوضى مريعة. وسيلاحقني بعض المستثمرين ومحاميهم على مدى سنوات. لكن الأمر سيكون أشد سوءاً بكثير إذا حصلت ٩/١١ أخرى ومات أناسي ... ولم أفعل شيئاً لوقف ذلك».

رفض رئيس تنفيذي واحد الاجتماع بي متذرعاً بالخوف على أمنه الشخصي، وتساءلت عما يعنيه بالفعل. هل سنضربه بخرطوم مطاطي؟ هل سنلوث سمعته النقية عندما نجتاز عتبة هذا المكتب؟

سألني ضابط شاب وقد عرف بالأمر: «ماذا يجب أن نفعل؟».

«لا نفعل شيئاً. نحن في بلاد حرّة. لكن تخيّل كيف هي الحياة بالنسبة إلى هذا الشخص ... يتفقّد نفسه في كل صباح ليرى إذا كان لا يزال يمتلك رجولته».

وفي المقابل أراد رئيس تنفيذي في تكساس معرفة هل يمكنه مساعدتنا في قتل الإرهابيين، وعنى بذلك أن يقوم شخصياً بقتلهم. أبلغته أن لدينا أناساً آخرين يتولّون ذلك، وشكرته على كل حال.

تقنية النانو

غطّى تعاون القطاع الخاص كل أجزاء الولايات المتحدة، من وادي السيليكون إلى وول ستريت، ومن الشركات الضخمة المتعددة الجنسيات إلى المؤسسات الصغيرة، ومن البنوك القنوعة المحافظة إلى رجال الأعمال الشرسين الليبراليين. وأدار هذا التعاون السلسلة الممتدة من الصناعات التقليدية التي ساعدت منذ أيام الـ «أو. أس. أس» إلى المشاريع الحديثة المسخّرة للعلوم الجديدة. وأحد أفضل الأمثلة وأكثرها انتاجاً هو تقنية «النانو».

جادل المدافعون والمنتقدون لسنين في قيمة تكنولوجيا «النانو»، واستمر المستثمرون في كبح أنفسهم ساعين إلى تطبيقات عملية أكثر. بيد أن القيمة على المدى الطويل بدت مؤكدة بحسب كل من المؤسسة الوطنية للعلوم والعلماء ورجال الأعمال الفطنين الذين تحدثنا معهم. وتوقّع البعض منهم صناعة بقيمة تريليون دولار في غضون عشر سنين.

تعني «نانو» واحداً على مليار، ويبلغ «النانومتر» واحداً على مليار من المتر. ويركز علم «النانو» على البُنى الجزيئية على هذا المقياس، وهي البُنى الأصغر التي يمكننا بناؤها. ولا يمكن في علم المواد الوصول إلى أي ما هو أصغر إلا إذا بلغ الأمر مستوى الذرّة.

علمتُ أن الأمر لا يتعلّق بالحجم فحسب، بل أيضاً بالتغيير في خصائص المواد التي تتصرف بطريقة مغايرة على مستوى النانو. وتعمل الجزيئيات بطريقة مختلفة مشكّلة روابط جديدة تؤثر أيضاً في خصائص المواد. وتتسع تطبيقات هذه التكنولوجيا الصغيرة والغريبة للغاية.

في البداية عرّف محلل في استخبارات الدفاع المصادر الوطنية إلى هذا الموضوع. وتولّت دونا الأمر لأنه معقّد ولا يفقهه معظمنا. أمكنها، وهي التلميذة اللامعة، تشرّب المعطيات الجديدة من كل الأنواع وفهمها. درست علم النفس، وتعرف الطبيعة البشرية ودوافعها، وقامت بالتالي بهندسة حملتنا للفت أنظار جامعي الاستخبارات. وأوجزت المصادر الوطنية أمثلة عن الطريقة التي تغيّر فيها تقنية «النانو» طبيعة عمل الأمن القومي، بما في ذلك التجسّس.

يمكن لقماشة نانو مشرّبة بجهاز تعقّب لا يمكن عملياً كشفه أن تشكّل تهديداً مباشراً وفورياً لضباط عمليات السي.آي.إيه في الميدان ولعملياتهم. ويمكن لسترة جديدة يرتديها ضابط السي.آي.إيه حاكها له خياطه الآسيوي المفضّل أن تحتوي على جهاز تعقّب يرصده جهاز استخبارات معادٍ. وفي هذه الحال ستصبح كل مهاراته في تفادي المراقبة بلا فائدة.

قد تحول غرفة محصّنة مصنوعة من مواد ذات بنية «نانو» دون اختراق رأس حربي لها. وبالنسبة إلى عامل استخبارات الإشارة فإنه يمكن لمواد «النانو» المستخدمة في نظام الاتصالات إنتاج أدوات أصغر حجماً ذات أنماط إشارة فريدة فتمنع بالتالي جمع المعلومات أو تشوّش عليها. كما أنه يمكن للأجهزة الدافعة ذات بنية «النانو» أن تثبط الأنظمة المضادة للصواريخ البالستية وبخاصة تلك التي تعتمد على الاصطدام وذلك من خلال التغيير الديناميكي لتسارع الصاروخ أو لمساره. وستطرح أقمشة «النانو» القادرة على التمويه النشط، أي تغيير الألوان والأنماط لتتلاءم مع البيئة، تحديات جديدة للتعريف والاشتباك.

وعت وزارة الدفاع تماماً ميزات تقنية النانو. وسبق أن أنشأت قبل ثلاثة أعوام، في ٢٠٠٢، معهد تقنية «نانو» الجندي في جامعة ماساتشوستس للتكنولوجيا وموّلته، وركّزت مهمته على تحسين قدرة الجندي في ساحة المعركة على البقاء، واستثمرت الوزارة خمسين مليون دولار في البداية.

لكن ما الذي يفعله خصوم الولايات المتحدة؟ وما هو الوقع على الأمن القومي الأميركي؟ وما هي أهم هذه التهديدات الممكنة؟ هذه هي الأسئلة التي احتاجت المصادر الوطنية إلى صوغها، والإجابة عليها.

أجرت دونا وشبكاتها مسحاً لبرامج تقنية «النانو» في بلدان أجنبية مختارة مركّزة على تطبيقات الأمن القومي. تعرّفت المصادر الوطنية على المؤسسات الأجنبية وحدّدت مكامن ضعفها لتطور من بعدها سيناريوهات عملانية.

وعندها أحرزنا هدفاً. خططت المصادر الوطنية، بالتعاون مع عملاء السي. آي.إيه في الخارج ومع أحد الأجهزة الأجنبية، لعملية وانطلقت بها. واستحصل عملاؤنا في مآل الأمر على أول عينة.

أوصل أحد الضباط العينة إلى مكتبي. وهي المادة التي كلفت ساعات كثيرة من عمل الرجال ومبالغ طائلة من الدولارات. وتفحصت المواد لوحدي في مكتبي وابتسامة كبيرة، تكاد تتحول إلى ضحكة، ترتسم على وجهي.

من كان ليظن أن هذه المادة ستوفر على وزارة الدفاع ملايين الدولارات من الأبحاث والتطوير؟ وربما تنقذ حياة أميركيين؟

غادر نائبي، الذي خدمني جيداً، في ختام سنتي الأولى إلى مهمة أخرى. وتمكنتُ من إقناع جينا بأن تصبح نائبتي الجديدة. وكانت لها فترات خدمة متعددة في الخارج عملت خلالها رئيسة محطة في مكان يشكّل تحدّياً خاصاً. كما تولّت أحد المكاتب المهمة في مركز مكافحة الإرهاب. لكن وبعد فترة قصيرة على وصولها طلب نائب مدير العمليات الجديد، خوسي رودريغيز، بترفيعها إلى الطابق العلوي لتصبح رئيسة أركانه. واحتجت إلى العثور سريعاً على نائب جديد.

كنت أعرب عن استيائي في مكتب جينا وأسألها إن كان لديها أفكار في شأن من سيحل بديلاً منها.

«طبعاً. هنا في المصادر الوطنية تماماً. فقد جمعتْ فريقاً بارعاً من الضباط الشبان الذين يحبونها. إنها قائدة. دونا».

«آه، بالتأكيد. ستكون رائعة. لماذا لم أفكّر فيها؟» وأنا أعرف السبب. فهي ليست ضابط عمليات، بل ضابط إفادة. وأنا منحاز، على غرار غيري من ضباط العمليات، وهذا خطأ. قامت دونا بمهمات متعددة في الخارج. وهي تعرف القسم كأي واحد آخر وتدرك المسائل الجوهرية أفضل من أي شخص آخر. وساعدت مبادراتها إلى جمع المعلومات القسمَ في مضاعفة استخباراته في سنة. كما أن القسم عزّز، بمساعدة منها، تجنيد العملاء الأجانب. وفي وسعها القيادة، وليس فقط قيادة من هم تحت إمرتها المباشرة. وفي وسعها بناء وقيادة شبكات فاعلة عبر الوكالة وعبر مجتمع الاستخبارات. والأفضل من ذلك كله أنها لا تتساهل حيال أي هراء بما في ذلك هرائي. وشاهدتها تعرّي بعض الضباط المتعجرفين والذكوريين الذين تحدوها.

أطللت برأسي من الباب وطلبت من سكرتيرتي أن تنادي على دونا التي

وصلت في غضون ثوانٍ قليلة تحمل بيدها لوح الكتابة والقلم وارتمت على الأريكة. وكانت جينا وراء مكتبها.

«حسناً، ما الذي تريدانه؟» سألت دونا وهي تستغرب صمتنا وابتساماتنا.

قالت جينا: «اتخذ هانك قراراً في شأن نائبه الجديد».

«آه، جيّد، من؟»

«أنتِ»، أجبتُها.

وأجابت دونا في النهاية: «لا شكّ في أنك تمزح».

قلتُ: «لا».

وأضافت جينا، «أنتِ الأفضل. وأنتِ في الواقع المرشحة الوحيدة».

«جينا، في وسعك البدء في إطلاعها على العمل»، قلت معطياً تعليماتي، وأنا أخرج من الباب تاركاً إياهما للعمل على بلورة عملية الانتقال.

كان ذلك واحداً من أفضل القرارات الإدارية التي اتخذتها على الإطلاق.

وستبقى دونا نائبة لرئيس المصادر الوطنية لسنتين قبل أن تترقى إلى مرتبة كبار جهاز الاستخبارات. وانتقلت في مآل الأمر إلى وظيفة أخرى تولت فيها مسؤولية إدارة كل مصادر الجهاز الخفي. وبالرغم من أنها انضمت إلى الوكالة في سلسلة الرواتب العامة الخامسة فستتقاعد من ضمن سلسلة رواتب كبار جهاز الاستخبارات الخاصة. وهي بعبارات العسكر قد انتقلت في خلال أعوام خدمتها الخمسة والعشرين من جندي عادي إلى جنرال بأربع نجوم. والأهم من ذلك أنها ساهمت في تقدم جمع الاستخبارات الحاسمة وفي إدارة المصادر في حقبة ما بعد ٩/١١.

أمكنتني العودة إلى الطريق بوجود نائبة جيّدة في مركزها. وأمضيت نصف وقتي تقريباً أسافر في أنحاء الولايات المتحدة ساعياً إلى التعلّم والقيادة من

الميدان مساعداً محطات المصادر البشرية في التقدم في علاقاتها وفي مهمتها.

أثارت اندفاعاتنا الاستخباراتية القوية في أنحاء الوطن قلق مسؤولي الأف. بي. آي واستياءهم، وقد رأوا في نجاح المصادر الوطنية فشلاً لهم. واعتزل اثنان من شركائنا الكبار في الأف. بي. آي اشمئزازاً من هذه المحاولة لتشويه سمعة جهودنا الجماعية. وطالب آخرون باختزال دور المصادر الوطنية، وتضمن ذلك مناشدات رفعتها الأف. بي. آي إلى البيت الأبيض. وقمت عند حد ما بتزويد مستشارة الرئيس لشؤون الأمن الداخلي، فران تاونسند، بمقارنة بين إفادة المصادر الوطنية والأف. بي. آي حول مكافحة الإرهاب. وشكّل ذلك إرباكاً للأف. بي. آي وأدى إلى إغضابها أكثر.

قلقت، بوصفي رئيساً للمصادر الوطنية، على حدودنا. من الواضح أن القاعدة وحزب الله وحماس وغيرها قد تغلغلت إلى ديارنا. وسيسعى العدو إلى وسائل أخرى للدخول بعدما أغدقت الحكومة الأميركية الموارد من أجل غربلة أفضل عند موانئ الدخول. وتصوّرتُ أنه سيتسلل برّاً من مناطق جرداء من النادر أن تخضع للمراقبة أو تسيّر فيها دوريات.

لم أهتم كثيراً للهجرة غير الشرعية إدراكاً مني بأن جميع المهاجرين غير الشرعيين يأتون إلى الولايات المتحدة بحثاً عن عمل. وإذا أردنا وقفهم فلماذا لا نعمد إلى الاقتصاص ممن يشغلونهم؟

عرفت من خبرتي الشخصية، حتى من خارج العمليات الخفية، كم أنه يمكن للحدود أن تكون قابلة للتسرّب. فقبل ذلك بسنوات، في رحلة بحقيبة الظهر مع الوالد في منتزه بيغ بند الوطني، شققنا طريقنا نزولاً إلى ريو غراندي. حصل هذا بعد ثلاثة أيام من النوم على الأرض الصخرية في أعالي جبال شيزوس. كنا في الشتاء وكان الطقس بارداً. وملّ والدي من تناول ما أطبخه على موقد التخييم.

قال: «علينا يا بني أن نحصل على غداء محترم».

«لا يوجد شيء هنا، يا والدي، أقلّه ليس على هذا الجانب من النهر»، قلت

شارحاً ونحن نسير إلى جانب الضفة. أوشك الظهر على الحلول، وأمدتنا الشمس الدافئة على هذا الارتفاع المنخفض بشعور رائع.

«لا شيء؟»، سأل من جديد.

عاينتُ وأنا أتطلّع إلى الخريطة قرية في المكسيك على بعد أقل من ميل واحد.

«يمكننا أن نجرّب هذه القرية المكسيكية لكنني غير متيقن من كيفية عبورنا النهر».

سرنا بضع مئات من الياردات الأخرى وشاهدت شخصاً مع قارب صغير.

اقتربت منه وقلت: «بكم؟».

أجاب: «دولار واحد للعبور ودولاران للعودة، العودة إلى إستادوس أونيدوس».

قلت: «موافق». وتوجهنا إلى المكسيك.

رجعنا مشياً إلى النهر، بعد غداء رائع من التاكوس المكسيكي، وعاد بنا قبطان زورقنا إلى الولايات المتحدة. لم أفد السي.آي.إيه بتلك الرحلة إلى بلاد أجنبية.

أخبرت القصة، وأنا رئيس للمصادر الإنسانية، لبعض عناصر الجمارك والدوريات الحدودية على الحدود الأميركية الكندية لدى زيارتي لهم.

حصل الأمر في عزّ برد الشتاء في ماين وكنت أزور عملاء فرض القانون هؤلاء للحصول على فهم أفضل للاستخبارات في العمليات الحدودية. أخذنا نتبادل القصص حول التوغّلات عبر الحدود، وسبق لي أن اخترقت الكثير من الحدود بصفتي المهنية مستخدماً مستندات متنوعة ووسائل سفر. لكن توغّلي إلى المكسيك مع والدي هو الذي أضحكهم أكثر.

لم يسبق قط أن شاهدت ما أظهرته لي الدورية الحدودية عند الحدود مع

كندا. ركبنا عربات ثلج فائقة السرعة وانطلقنا إلى المعبر الحدودي حيث التقينا بدورية من الشرطة الكندية الملكية تركب عربات الثلج هي الأخرى. وشرعنا في دورية مشتركة في رحلة تخدّر الوجه على امتداد الحدود الدولية ذات الغابات الكثيفة والمغطاة بالثلوج المرتفعة. توقفنا من وقت إلى آخر لتفحّص آثار عربات الثلج الأخرى التي عبرت في الأمسية السابقة وبعضها يجر الزلاجات. هذه آثار المهربين الذين ينقلون البضائع والناس من كندا إلى الولايات المتحدة. ذُهلت لمدى حركتهم غير المشروعة وقد ظهرت آثارها على الثلج المتساقط حديثاً.

سألتُ: «كيف يعبرون من دون اكتشافهم؟».

وشرح كبير العملاء: «آه، إننا نقبض على بعضهم، لكن في الأمر عملية حسابية أساسية. يوجد عدد كبير منهم وعدد قليل جداً منا على حدود ضخمة ومفتوحة على مصراعيها». وسحب خريطة ليظهر المدى الذي اجترناه. لم تشكّل مسافة الأميال القليلة سوى كسرٍ ضئيلٍ من منطقة عملياتهم الواسعة.

وعرض: «لنعد وسأريك منظوراً آخر».

اندفعنا بطائرة «سسنا» صغيرة على امتداد الحدود. وعرض الثلج المتساقط حديثاً لوحة مثيرة محفورة من الآثار المتداخلة للمهربين وضباط فرض القانون.

سألت لاحقاً، ونحن نرتشف الشاي الساخن في المكتب الصغير المجاور للعنبر، عن قدراتهم على جمع الاستخبارات إلى جانب الدوريات البرية والجوية. الاستخبارات المصورة؟ استخبارات الإشارة؟ الاستخبارات البشرية؟

هزّوا برؤوسهم علامة النفي وأجابوا: «بالرغم من أن السكان المحليين يفيدون أحياناً عن نشاطات مشبوهة فلا يوجد لدينا الكثير غير استطلاعاتنا الخاصة».

سألتُ: «ما الذي تحصلون عليه من واشنطن العاصمة بعبارات الاستخبارات المفيدة؟».

ضحكوا جميعهم وقالوا: «لا شيء».

«وماذا عن حلفائنا الكنديين؟»

أجابوا: «آه، يعانون من مشكلتنا نفسها إضافة إلى موازنة وقدرات أقل».

غادرت، ومعي كوب بلون الغابة الخضراء لدورية الحدود الأميركية مصنوع من الفولاذ الذي لا يصدأ، وتقدير جديد لحجم التحدي.

الفصل الرابع عشر

السياسة

يتمثّل الحكم الأول والأهم والأشد أثراً، الذي يتوجّب على رجل الدولة والقائد اتخاذه في أن يثبتا من خلال هذا الاختيار نوع الحرب التي يخوضانها، فلا يخطئان في فهمها أو يحاولان تحويلها إلى ما هو غريب عن طبيعتها. وهذه أولى المسائل الاستراتيجية وأكثرها شمولية.
ـ كارل فون كلاوسفيتز، في الحرب

دعاني المستشار الجديد لوزارة الخارجية فيليب زيليكوف إلى لقائه في شباط/ فبراير ٢٠٠٥. سبق أن التقينا قبل ذلك بعامين، وهو في منصب المدير التنفيذي للجنة ٩/١١. وقد أجرى وغيره مقابلة معي لوضع التقرير الذي لحظ تأييدي السابق لهجمات ٩/١١ للتدخل الأميركي ضد القاعدة في أفغانستان. ونشرت اللجنة تقريرها في تموز/يوليو ٢٠٠٤.

استوعب النصف الأول من النص الذي وضعته اللجنة، وهو الجزء الذي تولاه زيليكوف وفريقه، الأحداث التاريخية بطريقة واضحة وفاتنة. في حين تميّز النصف الثاني من التقرير الذي تضمّن توصيات اللجنة بالتعقّل وبالسخافة معاً. على الكونغرس بالتأكيد إعادة صوغ إشرافه على مجتمع الاستخبارات، ويجب بالطبع حصول دمج أكبر للاستخبارات. لكن ما هو الغرض من إقامة طبقة أخرى من البيروقراطية مع استحداث منصب مدير الاستخبارات القومية؟ لماذا إطلاق يد الأف. بي. آي بعد ما ارتكبته من أخطاء؟ لماذا تقويض السي.آي.إيه بعدما،

بحسب التقرير نفسه، أدركت التهديد الذي تشكله القاعدة وتصرّفت حياله بشكل لم تفعله أي وكالة حكومية أخرى؟ ولماذا التوصية بحل الذراع شبه العسكرية للسي.آي.إيه وهي المكوّن الحاسم والقائد في وصفة ضرب العدو في ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢؟

لماذا لم تنظر اللجنة بالتالي إلا إلى إخفاقات الاستخبارات؟ ولماذا لم تنظر إلى الإخفاقات السياسية؟ تصوّرتُ أن السبب ربما كان يكمن في أن السياسيين وصانعي السياسة هم الذين حدّدوا القواعد وشكّلوا كامل أعضاء اللجنة. وغابت أية حوافز من شأنها أن تدفع بالسياسيين إلى لوم أنفسهم. فهم يقومون بحماية قبيلتهم، ولم يحتل أحد من محترفي الاستخبارات أي مقعد من مقاعد اللجنة. إن الأمر أشبه بجمع لجنة مستقلة لمراجعة أزمة العناية الصحية من دون أن يشارك فيها أي طبيب.

والأسوأ من ذلك أن اللجنة والجمهور وضعا للسي.آي.إيه معياراً من الكمال التكتيكي لا يمكن بلوغه في سياق من الإخفاق السياسي الاستراتيجي. فقد ارتكبت السي.آي.إيه أخطاء، إلا أنه لا يوجد في مساعي الإنسان ما هو أكثر قصوراً عن الكمال من التجسّس والحرب. بيد أن السي.آي.إيه قدّمت تحذيراً استراتيجياً مفاده: تريد القاعدة قتل ما أمكن من الأميركيين. والأدهى أن العدو برهن تكراراً عن قصده وقدرته. تحدثت استخبارات السي.آي.إيه أكثر عن مجيء المزيد من الإرهاب، إلا أن صانعي السياسة صرفوا من أرباح الانتصار في الحرب الباردة وعمدوا بعد ذلك إلى توزيع سلطات محدودة ومجزأة وموارد ضئيلة على السي.آي.إيه. ومن المسلم به أن بعض قادة السي.آي.إيه، أمثال بافيت، لم يريدوا المزيد من المسؤوليات، لكن قادة مركز مكافحة الإرهاب، أمثال كوفر، اشتكوا باستمرار من التهديد وتوسّلوا قبل وقت طويل على ٩/١١ للحصول على الإمكانات التي تتيح لهم القضاء على العدو. وضايقنا ريتش بالحاحه على كوفر وعليّ لمزيد من الموارد. وقد خاطر ريتش وفريقه بحياتهم بطيرانهم بمروحية مسعود الأثرية لأننا لم نمتلك واحدة خاصة بنا.

فكّرت في كل هذه الأمور وأكثر وأنا أنظر إلى زيليكوف. بدت الفجوة بيننا كبيرة، وهي المسافة التي تفصل بين عملاني خفي وبين أكاديمي تحول إلى مستشار سياسي. لم أحمل، بالرغم من هذه الهوة في وجهات النظر، أي ضغينة حيال زيليكوف أو غيره من أعضاء اللجنة. بل إنني، وعلى العكس، احترمتهم على عملهم، ولكن ليس على كل استنتاجاتهم.

أجرى زيليكوف النقاش في مكتبه الذي يقع تماماً في أسفل الردهة بجوار مكتب وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس التي انتقلت للتو من منصب مستشارة الأمن القومي في البيت الأبيض. وهي في صدد جمع فريق جديد بمساعدة زيليكوف.

هو بروفسور يمتلك ذهناً تحليلياً لامعاً لكنه يفتقر إلى المهارات في العلاقات الشخصية، وأجرى معي حديثاً لطيفاً قبل أن ننخرط في نقاش حول الجغرافية السياسية الكبرى. لم يستطع إلا أن يتحذلق حتى وهو يجهد ليكون مهذباً ويولد التواصل. أراد وجهة نظري فأوجزت له بعض أفكاري، وتميّز الحديث بالود. قدّرت نباهة زيليكوف ولاحظت كذلك استعداده للاستماع إلى انتقاداتي الصريحة، وأسعدني أنه أراد معرفة وجهة نظري.

لاحظتُ أن مقاربة الولايات المتحدة لمكافحة الإرهاب ضيقة وتقليدية جداً. وشدّدت على عدة نقاط:

«أولاً، وبالرغم من أن الدول الوطنية ستبقى تشكّل المبدأ التنظيمي الأهم في الشؤون الدولية، أصبح لاعبون من غير الدول، أمثال القاعدة، أكثر أهمية. ويجب علينا أن ندخل اللاعبين من غير الدول، الأعداء منهم والحلفاء، كعوامل في فكرنا الاستراتيجي، فزعامتهم حاسمة. ويجب أن نجهّز أنفسنا للقضاء على زعماء محددين من غير الدول أو لتقويتهم. علينا وضع خريطة للأرض البشرية وقد باتت أكثر من أي وقت مضى جزءاً من المشهد الاستراتيجي، ويتطلّب هذا استخبارات أكثر وأفضل.

«ثانياً، علينا أن نهاجم العدو في ملاذاته الآمنة من وجهة نظر سياسية وليس بعبارات جمع الاستخبارات أو العمليات العسكرية فحسب. فالقضاء على الملاذ الآمن للعدو يشكّل هدفاً استراتيجياً. يجب أن نعبّر عن قوتنا، بمزيج من القساوة واللين، في هذه المجالات. وأين نعثر على هذه الملاذات الآمنة؟» سألت ببلاغة وأنا افتح إحدى الخرائط.

«هنا، هنا، هنا وهنا». وأشرت على الخريطة إلى خط «دوراند» (أفغانستان/ باكستان) وكشمير (باكستان/الهند) وساحل بحر سولاويزي (ماليزيا/الفيليبين/ أندونيسيا) والساحل والقرن الأفريقي بما في ذلك اليمن عبر البحر الأحمر وإلى جيوب في المشرق (لبنان/سوريا، لبنان/إسرائيل، وإسرائيل/غزة). ويوجد غيرها، لكن هذه احتلت رأس قائمتي.

ما هو القاسم المشترك بينها كلها؟ إنه وجودها في المناطق الحدودية، إذ يعثر العدو على ملجأ له في هذه المواقع بسبب جغرافيتها الطبيعية والسياسية. وتدرك القاعدة وحزب الله ومن ينتمي إليهما الحدود الدولية ويستغلانها لمصلحتهما. ونحن لا نزال ننظر إلى العالم بوصفه مجموعة من الدول الوطنية. لكن العدو لا ينتظم بتلك الطريقة، ولا يحارب بتلك الطريقة إلا للاستفادة من قيودنا البيروقراطية.

«متى اجتمع، مثلاً، سفراء في جنوب آسيا ـ أو في هذه الحالة أي مسرح مكافح للإرهاب ـ للنظر في سياسة مكافحة الإرهاب؟ للنظر إلى المنطقة وليس إلى البلدان المسؤولين عنها وحسب؟» سألتُ ببلاغة وأنا أعرف الجواب. وأجبت: «لم يجتمعوا قط».

شكّل ما أوجزته على الخريطة تكراراً لما سبق أن قلته لكوفر في أيلول/سبتمبر ١٩٩٩. لم يتبدّل الملاذ الآمن للعدو إلا في معظم أفغانستان. وبقيت باكستان تطرح مشكلة رئيسية، في حين أصبحت الصومال واليمن أكثر سوءاً. لم نركّز في العام ١٩٩٩ على اختراق هذه المناطق للقيام بجمع الاستخبارات وبالعمل

الخفي، ولم نكن في العام ٢٠٠٥ قد نظمنا أنفسنا بعد لصوغ سياسات تتناسب مع أهدافنا الاستراتيجية. والواقع هو أن القضاء على الملاذ الآمن للعدو لم يُناقش حتى كهدف استراتيجي.

ليس الأمر مشكلة إقليمية وحسب. توجّب علينا التفكير والتخطيط والعمل على أربعة مستويات سياسية: محلية، وطنية، إقليمية وعالمية.

لم أعرف حينذاك بعد كيف أصف الكارثة التي تكشّفت في العراق والتي بدا أنها عدة نزاعات متراكبة بعضها فوق بعض، في سياق حرب الولايات المتحدة على القاعدة، فأغفلتها.

«ثالثاً، يجب أن نسخّر كل أدوات فن الحكم. فنحن نتحدث عن مقاربة حكومية متكاملة لكننا لا نقوم بها، ولا نمتلك أي تخطيط لقوة حملة بما هو أبعد من السي.آي.إيه والجيش، وهذا ما يجعلهما يقومان برفع كل الأحمال الثقيلة. لكن ما الذي سيحصل بعد تأمين كل هذه القرى والوديان؟ أين الكهرباء والاتصالات والعناية الصحية والتربية والإنماء الاقتصادي والأمل؟ نحن من دون ذلك لا نملك انتصاراً دائماً. فقوتنا القاسية توفّر لنا المجال والوقت، ثم ماذا؟

«لم نحدد أعداءنا وحلفاءنا من غير الدول بطريقة صحيحة، ولا توجد فوارق كافية في سياستنا. وغالباً ما نخلط بين القاعدة والحركات الإسلامية كلها بوصفها إيديولوجية سياسية تنافس ديمقراطيتنا الليبرالية، وهي ليست نفسها. ونحن لا نواجه العدو في المكان الصحيح، أي في ملاذاته الآمنة، كما أننا لا ندمج كل أدوات حكمنا. ونفشل في تحديد هذه الأهداف الاستراتيجية الثلاثة وفي تحقيقها». وخلصت إلى القول، «وفي ما عدا ذلك فإننا نعمل جيّداً».

هزّ زيليكوف برأسه بثبات وابتسم وشفتاه مزمومتان بقوة.

قال: «دعنا نقوم بحديث إضافي».

«بالتأكيد. تعرف أين تجدني».

تصوّرت أن هذه خاتمة نقاشنا.

اتصل بي من جديد بعد ذلك بحوالى شهرين، وأجرينا نقاشاً آخر في مكتبه. راكمتُ المزيد من الانتقادات لسياستنا بما فيها الإخفاق في العراق حيث سعينا إلى فرض استراتيجياتنا التقليدية على حرب غير تقليدية، أو بدقة أكبر على نزاعات متعددة غير تقليدية متكومة بعضها فوق بعض. فنحن نحارب ضد حملة إرهابية للقاعدة تعتمد على مجندين من كل أنحاء الشرق الأوسط، ولها ارتباطات بالتمرد السني المحلي إضافة إلى الثورة الشيعية التي تدعمها إيران، وشبكة يائسة وشريرة من الموالين للنظام السابق، وزمر من العصابات المجرمة التي تنهب البلاد. ونحن، بغزونا واحتلالنا، أهنّا شعب العراق وأغضبنا حلفاءنا العرب في أنحاء المنطقة.

تصوّرت بعد هذا اللقاء الثاني الذي شجعني فيه زيليكوف على الانتقاد، أنه يتطلع إلى شيء محدّد مني. وسمعت بعد ذلك من صديقين أنه يسعى، بالنيابة عن الوزيرة رايس، إلى ملء منصب منسّق مكافحة الإرهاب، وإنني المرشح الأول له. وقد تولى رئيسي ومرشدي كوفر بلاك هذه الوظيفة في عهد الوزير باول. فاتصلت به على الفور وسألته النصح. لم تُعرض الوظيفة عليّ بعد، لكنني أردت أن أكون مستعداً في حال قدّمت لي رايس هذه الفرصة.

«اقبل بها»، صاح كوفر. «أتذكر ما قلته لك عن الوكالة؟ إنها مكان رائع، لكن حان وقت الرحيل. تأكد وحسب أنك ستعمل مباشرة مع رايس، وليس مع أي شخص آخر. ولا تعمل بالتأكيد لزيليكوف، فرايس هي مصدر قوتك الوحيد. إن وظيفتك ورتبتك كسفير متجول هما بمثابة تعويذة كبرى. ستصبح ممثلاً للرئيس، وستُستقبل أينما تذهب، في أي مكان في العالم، بوصفك مبعوثاً له. ستكون مبعوثه.

«هناك بعض الجوانب السلبية. فالخارجية مؤسسة مصابة بالاختلال الوظيفي. أمنها ضعيف، وإدارتها مريعة. فريقك صغير وضعيف، وموازنتك مزرية. أفهمت؟»

وقلت مُعلناً ما هو واضح: «وماذا عن الغطاء؟ فلا عودة عن ذلك».

«طبعاً لا. فستكون هناك تغطية صحافية أكبر بكثير مما يمكنك تخيله، إضافة إلى المزيد من الدبلوماسية العامة. حضّر نفسك لذلك، فهو مهم. كذلك حضّر نفسك لما تبدو عليه السي.آي.إيه من الخارج، فهي مختلفة وليست مغرية دوماً، والجهاز الخفي ليس محور الكون».

سبق لي أن ألقيت قبل عامين نظرة على المشهد الخارجي للسي.آي.إيه وأنا في كلية الدراسات الدولية المتقدمة، وتساءلت عن الدبلوماسية العامة. إلا ان ذلك لم يخطر ببالي.

سألت: «إذاً يا كوفر، مسألة الصحافة هذه غريبة أليس كذلك؟».

«نعم، غريبة جداً. لكن في وسعك التعامل معها. تذكّر أنه يمكنهم أن يطرحوا عليك أي سؤال، لكن يمكنك أن تجيب كيفما تريد. فأنت، وببساطة، تملك السيطرة على المقابلة».

تردّدت، وأمكن لكوفر أن يشعر بحيرتي.

«هانك، أنت أذكى شخص مكافح للإرهاب في الحكومة كلها. ولا أحد يعرف بهذا الأمر أكثر منك. لقد عشته. قمتَ بسحق القاعدة والطالبان في أسابيع قليلة، وأدرتَ عمليات في كل أنحاء أفريقيا، في مواجهة شتى أنواع الأشخاص الحقيرين. وأنتَ تقلق الآن من الصحافة؟ لا تكن جباناً هكذا. اقبل الوظيفة اللعينة. آه، وانتبه من رامسفلد. فهو ابن زنى لا يعرف الرحمة».

«نعم، أعرف ذلك».

«إلى اللقاء»، زمجر وأقفل السماعة.

لم يتعلّق الأمر بمجرّد غطائي أو بمغادرتي الوكالة؛ بل تعلّق بانسحابي من حلم حياتي. فالاستخبارات هواي. ومذهب الجاسوسية يشدّد على إخفاء الهوية

وليس على الدعاية. قال تد غوب، مؤلف «كتاب الشرف: عملاء السي.آي.إيه ـ الحياة السرية والموت»: «من الصعب على ثقافتنا بأكملها أن تدرك طبيعة هذه التضحية. فنحن نعيش في ثقافة الشهرة حيث لا وجود لما لا يتم التعرّف إليه». وأضاف إن الجواسيس «يتحدّرون من ثقافة يختفي فيها من يتم التعرف إليه من الوجود، والضوء فيها قاتل».

وأنا لا أخطِّط، في حال انتقالي إلى الخارج، لأن أختفي من الوجود، بالرغم من أن بعض القدامى العنيدين في الجهاز السري قد يرون الأمر على هذا الشكل.

سأتمكن في وظيفتي الجديدة من رؤية الاستخبارات من منظور مختلف، منظور المستهلك. وسأتمكّن من توسيع آفاقي والأهم من ذلك خدمة بلادي بطريقة مختلفة وربما أكبر. وقد قام عدد قليل آخر من الجهاز الخفي في السي. آي.إيه بمثل هذا الانتقال، لكنهم ليسوا كثراً.

ثم هناك بالطبع وقع ذلك على عائلتي.

أخبرت سيندي عن احتمال الوظيفة الجديدة والحياة الجديدة. وردّت بمجموعتها الخاصة من الأسئلة.

سألت: «ماذا أقول لعائلتنا، أولئك الذين لا يعرفون بعد أنك جاسوس؟ لأصدقائنا؟ لجيراننا؟ لأصدقاء أولادنا؟ وماذا عن أمننا؟» وهذه ليست أسئلة بالفعل بل بالأحرى تعبير عن قساوة قلبي الحادة.

عاشت حياة تحت الغطاء ربما هي أصعب من حياتي. وها أنا أطلب منها التخلي عن الرواية التي حافظت عليها ورعتها طيلة أربعة وعشرين عاماً في أربع قارات. وأنا أطلب منها أن تشرح للجميع أن زوجها لم يكن أبداً موظفاً حكومياً صغيراً. بل إنه جاسوس وعامل في مكافحة الإرهاب. وسيصبح الآن دبلوماسياً. لن يصبح سفيراً لدى أي دولة، بل على الأصح سيصبح سفيراً متجولاً.

وسيخرج كل شيء إلى العلن بفعل عملية التثبيت العلنية المطلوبة في مجلس الشيوخ. ولا توجد، إذا قبلت بالوظيفة، طريقة للالتفاف على الأمر. وهي وظيفة لم تُعرض عليّ بعد.

أوحيت أنه «ربما يكون الأمر على ما يُرام في حينه»، من دون أن يحدث ذلك وقعاً ظاهراً على مستمعتي.

سبق لها أن عملت على الترفيه عن مئات المواطنين الأجانب في منازلنا المختلفة، من العشاءات الصغيرة إلى الحفلات الكبيرة في الحديقة. قامت بعمليات مكافحة المراقبة وأنزلتني في أماكن الاجتماعات مع العملاء، وساعدتني في تذكّر كل تلك الأسماء التي كنت سأنساها لولاها. تعلّمتْ طبخ «تاكو» لحم الخنزير، وشرائح لحم غزال «الإمبالا» ومشوي الظباء. غلت الماء وفلترته ليصبح صالحاً للشرب. وحاربت لسنوات ذباب الملاريا. واعتنت بثلاثة صبية أصيبوا عند حد ما بالزحار المتفجّر الذي ينتزع الأمعاء والشائع في شبه الصحراء الأفريقية. وتعاركت مرة في شارع في إحدى المدن الأفريقية بيد واحدة مع نشّال حقائب، فيما أمسكت بالطفل باليد الأخرى. وبكت على كلبنا اللابرادور الذي نازع متشنّجاً بعدما سمّمه من يُعتقد أنه أحد اللصوص.

عملتْ دون أن تتقاضى أجراً مع زوجها الجاسوس وربّت في الوقت نفسه صبيةً صعاب المراس في سلسلةٍ من البلدان الأجنبية، لكنها تفهّمت تلك المهمات واعتنقتها. إلا أن هذه النقلة من زوجة وشريكة جاسوس خفي إلى زوجة مسؤول حكومي عام جاءت غير متوقعة ومجهولة وشاذة. وكافحنا لفهم ما ستعنيه مثل هذه النقلة.

بعد ذلك ببضعة أسابيع طلبت الوزيرة رايس رؤيتي في مكتبها في الطابق السابع. تمت مواكبتي عبر مكتب خارجي كبير مفروش بأثاث وسجاد من الطراز العتيق إلى مكتبها الخاص الصغير المفروش بالخشب الداكن والأثاث الجلدي، وقد فاحت منه رائحة السلطة.

رحّبت بي بأسلوب شكلي مناسب وشبه متصنّع. جلستُ على بعد مقعدين مني وشبكت ذراعيها. سبق لي أن أبلغت زيليكوف أنني سأقبل بالوظيفة وتساءلتُ لماذا هي ليست أكثر ارتياحاً. لقد خضنا مراراً في نقاشات في السابق في عامَي ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢ وهي لا تزال مستشارة للأمن القومي، دائماً في مجموعات صغيرة. أدركت أنه لم يسبق لنا أن التقينا لوحدنا. ونحن بالكاد يعرف أحدنا الآخر. أدركت كذلك أن نظرتها إلى السي.آي.إيه ليست بمجملها إيجابية.

فكّرت، ونحن نبدأ حديثنا، أنها تخطو خطوة ثقة كبرى وهي تطلب مني العمل بهذه الصفة. ولديها كل الحق في الحذر لأنها لا تعرفني حق المعرفة.

راجعتُ بعض النقاط التي قلتها لزيليكوف، لكنني جلبت معي في هذه المرة عرضاً للشرائح بالـ «باور بوينت» لتوضيح ملاذات العدو الآمنة حول العالم وحاجتنا إلى تسخير أدوات الحكم في مقاربة إقليمية. انتقلتُ للجلوس بقرب رايس لأتمكن من أن أريها الإيجاز.

قالت موافقة: «نحتاج إلى مقاربة إقليمية».

وسألتها: «وتريدين مني تطبيقها؟».

«نعم».

وسألت: «وأن أعمل مباشرة معك؟».

أجابت: «نعم، تعمل مباشرة لصالحي»، وأضافت «سيتوجب عليك العمل أيضاً مع عناصر آخرين في الوزارة».

وخلصتُ إلى القول: «بالتأكيد. شكراً على إتاحة هذه الفرصة لي للخدمة».

تصافحنا، وسرت مغادراً مكتبها ومدركاً أن حياتي كجاسوس قد انتهت.

لا تزال هناك عملية التدقيق التي سيقوم بها فريق الرئيس بوش السياسي، يعقبها التثبيت في مجلس الشيوخ. وباتت لدي، بانتظار ذلك كله، مهمة جديدة.

سبق أن أخبرت كابس وتينيت برحيلي المحتمل من السي.آي.إيه، وساندانى. قدت سيارتي إلى المنزل وأبلغت سيندي.

ثبّتني مجلس الشيوخ بعد ذلك بأسابيع قليلة كمنسّق لمكافحة الإرهاب. استغرقت العملية عشرين دقيقة، ولم تُطرح أسئلة جدالية أو تعليقات. وأقسمت اليمين في ذلك اليوم وهو الأول من آب/أغسطس ٢٠٠٥.

أضحيت الآن في الجانب السياسي مستهلكاً للاستخبارات. ولم تعد هناك أي مهمات خفية.

بدا الأمر بعد كل تلك السنين أشبه بالخيال. فقد انضممت إلى السي.آي.إيه وتعلّمت فن التجسس، وأدرت شبكات العملاء، وجمعت الاستخبارات القيّمة، ونفذت أعمالاً خفية عالمية، وقدت الرجال في الحرب، وساعدت في الدفاع عن بلدي. عشت الأحلام الكبيرة لصبي صغير.

كان الأمر بطرائق أخرى حقيقياً جداً. تفجّعت على وفاة الكثيرين. كافحت مع مخاطر التجسّس والعمل الخفي والحرب. تحمّلت إبهام وأخطاء سياستنا الخارجية وسياساتنا.

لكنني أحببت مهمتي في السي.آي.إيه والفرص التي اقتنصناها والانتصارات التي حقّقناها. والأكثر من ذلك أنني افتخرت وتميّزت بالدفاع عن دستورنا وبخدمة أمتنا العظيمة.

حفظ الله أميركا وجواسيسها. فسنحتاجهم أكثر من أي وقت مضى.

الخاتمة

تلقيت من ريتش رسالة نصيّة مفادها: «مات بن لادن». حصل ذلك في الأول من أيار/مايو ٢٠١١ الساعة ٢٢:٣٢ بالتوقيت الشرقي. اعتزلت وريتش في عام ٢٠٠٧ العمل في الحكومة الأميركية وشرعنا في تأسيس مؤسسة استشارات استراتيجية عالمية. وانضمت دونا إلينا في السنة التي تلت.

حدّقت إلى رسالة ريتش وانقضت بضع ثوانٍ طويلة قبل أن أبتسم وأهز برأسي.

اتصلت بي سيندي بعد ذلك ببضع دقائق من فلوريدا حيث تزور والدتها، وأنا في جورجيا أزور أهلي، وقد حضرتُ معهما القداس في صبيحة ذلك الأحد. وسرت ووالدي في الغابة بعد ظهر ذلك اليوم.

سألتني سيندي: «هل تشاهد التلفاز؟».

«نعم. بعد كل هذه السنين ... أخيراً».

انضم إليّ والداي وشاهدنا الأخبار تتكشف. وشرع الصحافيون يتصلون بي من دون توقف. فأطفأت هاتفي الخلوي.

قبل ذلك بساعات كثيرة في الجانب الآخر من العالم، هبط مغاوير البحرية الأميركية تنقلهم مروحيّات شبح شقّت طريقها ليلاً في مدينة أبوت أباد واخترقوا المنزل الآمن التابع للقاعدة وأطلقوا النار على أسامة بن لادن الذي أقام في المكان لسنوات وأردوه. وقتل الكوماندوس كذلك ابن أسامة البالغ وساعيه

الأساسي وشقيق الساعي. وأمسك المغاوير بكمية لا تُقدّر بثمن من الاستخبارات الموضّبة في وثائق و«فلاشات» flash drives وحواسيب. بقوا على الأرض أقل من ٤٥ دقيقة، ولم تقع بينهم أي إصابة. كما لم تمتلك الحكومة الباكستانية أي فكرة عن الغارة التي لم تعرف بها إلا مجموعة صغيرة من القادة الأميركيين والعملاء الخفيين. حافظت السرّية على عنصري المفاجأة والنجاح.

عثرت السي.آي.إيه على أسامة بن لادن بعد متابعة مئات الدلائل وتجنيد المصادر وإدارة فرق مراقبة أحادية والاستفادة من أجهزة الارتباط الأجنبية وتشغيل قواعد للمراقبة والتحليل المستمر للمعطيات الخام. وحتى في ذلك الحين لم يتأكد محلّلو السي.آي.إيه من وجود بن لادن في الموقع. غير أن مدير الوكالة ليون بانيتا امتلك ما يكفي من الثقة وأطلع الرئيس أوباما ومجلس الأمن القومي على مدى أشهر عدة على ما أخذ يتجمع من أجزاء. وشرعت فسيفساء الاستخبارات في الظهور. أعارت وزارة الدفاع مغاوير البحرية للسي.آي.إيه. ووافق الرئيس أوباما، الذي ازدادت ثقته بالسي.آي.إيه في العامين الأخيرين، على الهجوم.

عمل مغاوير البحرية، بموجب البند الخمسين من قانون سلطات السي.آي.إيه، بوصفهم القوة الضاربة للعمل الخفي للسي.آي.إيه. وشكّل ذلك مزيجاً جميلاً من الاستخبارات والعمل الحكومي القاتل، وتناغم بين المجسّات ومطلقي النار في واحد من أعظم الأعمال الخفية وأشرفها.

يعتبر إلغاء زعامة القاعدة هدفاً استراتيجياً. وجاءت هذه الغارة الباهرة والجريئة بمثابة الخطوة الأهم في بلوغ هذا الهدف. وشكّلت بالنسبة إلى الكثيرين من ضحايا القاعدة وعائلاتهم حول العالم، وهم من أتباع كل الديانات، لحظة تحقّقت فيها العدالة.

ويشكّل أيضاً حرمان العدو من الملاذ الآمن هدفاً آخر. وقد أعاقت جهودنا في أفغانستان في خلال عامَي ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢ وخفّفت بقوة من قدرات القاعدة، لكن الحكومة الأميركية والمجتمع الدولي فشلا في الاستفادة من ذلك النجاح الأول.

وشهدتُ من عام ٢٠٠٥ إلى عام ٢٠٠٧ على هذا الفشل وأنا سفير متجوّل ومنسق لمكافحة الإرهاب، كما شهدتُ أيضاً على توسع القاعدة وازدهارها داخل باكستان حيث أعاد الطالبان تجمعهم. وانتشر سرطانهم الإيديولوجي من خلال شبكة من الحلفاء الراديكاليين في كل أنحاء باكستان. تحادثتُ في خلال زيارة لي لباكستان في عام ٢٠٠٦ مع وزير الداخلية أفتاب أحمد شرباو الذي أعرب عن مخاوفه من «طلبنة» بلاده. وقد أدرك التهديد، وهو الباشتوني المتحدر من بيشاور. وسينجو من عدة محاولات اغتيال بسبب جهوده الباسلة، ولكن الفاشلة، في قلب هذا الاتجاه الخطر. وسيموت آخرون كثيرون من الباكستانيين الشجعان من أمثال المرشحة لرئاسة الوزراء بنازير بوتو التي ماتت على أيدي القاعدة والطالبان وحلفائهما.

وفّر مسؤولون باكستانيون آخرون في الجيش وفي أجهزة الاستخبارات الحماية لهذه المجموعات المناضلة وشجعوها بوصفها قوات وكيلة في مواجهة الهند وأفغانستان والولايات المتحدة.

تسلّل الطالبان من قواعدهم في باكستان عائدين إلى أفغانستان وأعادوا إحياء شبكات دعمهم. وسيطروا بحلول عام ٢٠٠٦ على مساحات من الأراضي في شرق أفغانستان وجنوبها. دفعت الولايات المتحدة بالمزيد من القوات وأضعفت بحلول عام ٢٠١١ توسّع الطالبان مع انتشار أكثر من مئة ألف جندي أميركي. فهل يمكن للولايات المتحدة تسليم المسؤولية الأمنية للأفغان؟ ومتى؟

أعطى الرئيس أوباما توجيهاته في عام ٢٠٠٩ بزيادة هجمات الطائرات المسلحة التي تطير من دون طيار في المناطق القبلية في باكستان. وقتلت هذه الطائرات المئات من عناصر القاعدة والطالبان. وتفرّق أعضاء القاعدة في مجموعات أصغر وهرب الكثير منهم من باكستان إلى مناطق أكثر أماناً بما في ذلك اليمن والصومال.

بقي الطالبان وغيرهم من المجموعات الإرهابية في باكستان يشكلون تهديداً مستمراً. وطوّروا، على غرار القاعدة، أجندة تذهب إلى ما هو أبعد من المسرح

الأفغاني/الباكستاني. وهو ما يبرزه الهجوم المروّع في العام ٢٠٠٨ على مومباي في الهند. وأيد بعض الطالبان الباكستانيين وخططوا لهجمات على الأرض الأميركية مثل عملية التفجير الفاشلة في عام ٢٠١٠ في ساحة التايمز في نيويورك. واستمر المنتسبون إلى القاعدة في الصومال واليمن وشمال أفريقيا في العمل في هذه البلدان وفي ما هو أبعد منها. وشن عناصر الشباب من الصومال هجوماً في عام ٢٠١٠ في كامبالا، أوغندا، أدى إلى مقتل ٧٤ شخصاً. وفي إحدى الحالات حاولت القاعدة في اليمن، مستخدمة اسم القاعدة في الجزيرة العربية، تدمير طائرة متوجهة إلى الولايات المتحدة مستخدمة متفجرات مخبأة داخل خراطيش حبر الطابعات.

ويمكن للعدو المتطوّر والمصمّم، في ساحة معركتنا العالمية المفتوحة والمدمجة، وبخاصة بوجود أراضٍ تحت سيطرته، أن يشكل تهديداً في كل مكان تقريباً.

ويشكل التخفيف من الظروف التي أدت إلى بروز القاعدة وحلفائها هدفاً استراتيجياً آخر. واختلطت الجهود الأميركية والحليفة في أفغانستان، وتحسّنت الرعاية الصحية والتعليم بشكل كبير. حصل أقل من عشرة بالمئة من الأفغان في عام ٢٠٠١ على العناية الصحية الأساسية؛ وبات يحصل عليها ثلثاهم تقريباً بعد عقد من ذلك. ولم يلتحق بالمدارس تحت حكم الطالبان القاسي سوى قلة من الصبية دون الفتيات. وضمت الصفوف بحلول عام ٢٠١١ أكثر من سبعة ملايين ولد من بينهم مليونان ونصف المليون فتاة.

إلا أن حوكمة أفغانستان ونموها الاقتصادي أخذا يضعفان. وفشلت المساعدة الأميركية التي بلغت ١٥ مليار دولار على مدى العقد السابق في مساعدة الأفغان على بسط حكم القانون والأسواق الحرة. وقدّر البنك الدولي أن ٩٧ بالمئة من الناتج المحلي الإجمالي الشرعي لأفغانستان مصدره المساعدة الخارجية، ويضيع معظمه بفعل عدم الكفاءة والفساد. وربما يأتي ما يصل إلى نصف الناتج المحلي

الإجمالي من التجارة غير المشروعة بالمخدرات. ولم تشأ الغالبية الساحقة من الأفغان عودة الطالبان بل أرادوا الأمن وحكم القانون.

لا يريد الشعب الأفغاني وجود القاعدة في بلادهم. وكذلك الأمر بالنسبة إلى بعض الطالبان الأفغان الذين لا يحاربون الولايات المتحدة إلا بسبب وجودها في بلادهم. ولا يرغب الكثيرون من المقاتلين الطالبان الأفغان بحرب خارج حدودهم، ولا يفهمون ذلك.

تعلّمت مجموعات راديكالية أخرى حول العالم أمثولات قاسية من ارتباطها بالقاعدة. وقد ألقت الدرجات المختلفة للنجاح في مكافحة الإرهاب في جنوب شرق آسيا وفي العراق، على سبيل المثال، بظلال من الشك حول الكفاءة الاستراتيجية والعملانية للقاعدة ولزعامتها المتآكلة جداً. وأبرزت القاعدة وغيرها من التهديدات العابرة للدول المصالح المشتركة للأمم والشعوب. وباتت الأمم والمؤسسات المختلفة أكثر إدراكاً للتهديد الإرهابي، ويستمر التعاون في ما بينها بالنمو. وشكّلت هذه المهمة واحدة من مهماتي الأولى وأنا أتولى منصب المنسق الأميركي لمكافحة الإرهاب وتمثّلت في زيادة الوعي والتعاون.

لم تُوجّه الضربة الأكبر للقاعدة من غارة ناشطة أو من مبادرة سياسية، بل بالأحرى من الجماهير الإسلامية التي أطلقت في عام ٢٠١١ احتجاجات الربيع العربي. وسقطت الحكومات القمعية في تونس ومصر وليبيا. ونزل الشعب في اليمن وسورية وسواهما إلى الشوارع. ولم يكن لذلك علاقة بالقاعدة وحلفائها. فهي ثورة شعبوية أشعلها البحث عن العدالة والكرامة من خلال الاتصالات الدولية وشبكات التواصل الاجتماعي. شرعت الشعوب في مهاجمة الظروف التي سعت القاعدة إلى استغلالها. فهل يُخفِّف من هذه الظروف إلى حدّ تفقد معه إيديولوجية القاعدة الحاقدة سوقها؟ هل سيتمكن هؤلاء المواطنون المتمردون المثاليون من إنشاء مؤسسات ليبرالية أو سيعمد آخرون، مثل الإخوان المسلمين، على خطف الثورات؟ هل تكتسب القاعدة متسعاً أكبر للمناورة في المجال غير

المحكوم في اليمن وغيره؟ هل يقع هجوم آخر على الأرض الأميركية حيث بات الإرهابيون الناشئون محلياً والذين حوّلوا أنفسهم بأنفسهم إلى راديكاليين أمراً شائعاً بازدياد؟

انفجر الربيع العربي في السياق العالمي للأزمة الاقتصادية في الغرب، وبخاصة في جنوب أوروبا، والازدهار الاقتصادي في الصين والهند. وقدمت قوى أخرى بارزة، مثل البرازيل وأندونيسيا، فرصاً استثنائية للنمو الاقتصادي العالمي والاستقرار السياسي المتجذر في مؤسسات ليبرالية متشابكة. وباتت هناك مؤسسات ليبرالية وديمقراطيات في العالم أكثر من ذي قبل. كما وُجدت مخاطر أكثر وأشد تنوعاً. وتستمر كذلك وتيرة التغيير في الشارع تقودها التكنولوجيات المعرقلة. وتحدّى اللاعبون الجدد من غير الدول، الجيدون منهم والأشرار، الوضع القائم. وسواء تعلق الأمر ببائع جوّال تونسي وحيد تعرّض للإذلال فأحرق نفسه وأشعل الربيع العربي أو بمجموعة فوضوية مثل ويكيليكس التي قوّضت العلاقات الدبلوماسية الأميركية، فإنهم شكّلوا نوعاً من القوة العالمية غير المتناظرة.

بات العالم بعد العقد الأول من القرن الحادي والعشرين أكثر تحدّياً. وقد واجهت الحكومة وقادة القطاع الخاص مجموعة متوسّعة ومعقّدة من المخاطر والفرص. من هي المجموعة التي ستصبح القاعدة التالية؟ متى ستتعرض الأرض الأميركية للهجوم وكيف سنرد؟ هل تطوّر إيران الأسلحة النووية وتسلمها لوكلائها أمثال حزب الله؟ هل يختار العراق حكومة ديمقراطية قابلة للحياة تستجيب لحاجات مواطنيها؟ هل تستمر المكسيك في النمو لتصبح مجتمعاً ديناميكيا ليبرالياً ذا سوق حرة؟ أو يقوّضها مجرمو المخدرات الذين يتحدّون سيادة الدولة؟ هل يصبح الفضاء السيبراني آمناً؟ هل تصبح الصين بوصفها حامل أسهم عالمياً أكثر مسؤولية أم لا؟ هل تقضي روسيا على الفساد وترسخ نفسها قوة اقتصادية دائمة؟

كيف ستؤثر تكنولوجيات «حصرن» (العلوم الحيوية والذكاء الصناعي

والروبوتية وتقنية النانو) في عالمنا التجاري والاقتصادي والجيوسياسي؟ أي مخترعين أو رجال أعمال سيطورون تكنولوجيات تحويلية ليقدموا لنا طاقة مرنة يُعتمد عليها ومتجدّدة؟ كيف ستعالج الولايات المتحدة أهم شأنين من مشاغل الأمن القومي: الاقتصاد وتعليم مواطنينا؟

يمكن للعشوائية وعدم اليقين، وهما حادان في الغالب في أزمنة التغيير السريع، أن يولّدا القلق والخوف. لكن التغيير يصب في مصلحة قوة أميركا. فقد صُمّم دستورنا ومؤسساتنا الليبرالية للتكيّف. ولا تزال أفضل السنوات أمامنا ربما بوجود مواطنين أقوياء ومتكيّفين ومرنين يطالبون بزعماء يستحقون هذا الاسم. نحتاج إلى زعماء يعتنقون الاستقامة الفكرية والخطاب السياسي البناء وحوكمة واقعية بدلاً من الجهل المتكبّر والبلاغة العقائدية والإيديولوجية الخلافية في اليمين وفي اليسار. نحتاج قادة أمثال واشنطن ولينكولن يفهمون الاستخبارات ويتحمّلون مسؤولياتهم عنّا.

يجب على زعمائنا أن يكونوا على اطلاع جيد في معرفتهم وأفعالهم للإبحار في هذا العالم الذي يزداد تعقيداً وديناميةً. سيحتاجون إلى المعلومات ذات الصلة في حينها، المعلومات التي تم تحليلها، وأهداف القادة المحدّدة في الذهن لتكون عملية، فتقوّم وتستخدم. وهي بالتالي أكثر من معلومات. إنها استخبارات جيدة أشبه بالفنون الجميلة التي يفهمها مالكها ويقدّرها.

نسبت روايات غير مؤكدة إلى أرسطو قوله: «الفن لا يهدف إلى تمثيل المظهر الخارجي للأمور بل مغزاها الدفين». وهكذا الأمر بالنسبة إلى الاستخبارات.

شكر

أقنعني الوكيلان الأدبيان سكوت مويرز وأندرو وايلي بوضع هذا الكتاب. وأنا ممتن لثقتهما بي وتشجيعي. كذلك قام إيمون دولان، قبل مغادرته دار «بينغوين» للنشر، بقفزة إيمان بشرائه حقوق النشر. اكتشفتُ أنه يوجد فارق ضخم بين كتابة فصلين في نص أكاديمي وبين وضع كتاب. وساعدني إيمون وِسْكوت، الذي انتقل لاحقاً إلى دار «بينغوين» وعمل محرراً موهوباً لي، في هذه العملية الشاقة. ولعبت إميلي غراف، من دار «بينغوين»، دوراً مهماً جامعةً مختلف المسوّدات المحرّرة ومسوّقة الصور وأكثر.

الشكر أيضاً لصديقي بيل هارلو الذي كفلني وسهّل تعرّفي إلى سكوت وأندرو.

وبالرغم من أن أعضاء مجلس مراجعة المنشورات في السي.آي.إيه أخطأوا في بعض ما حذفوه، فإنهم تميزوا مع ذلك بالمجاملة في عملية المراجعة التي قاموا بها في الوقت المطلوب. ويفرض المجلس تضمين الكتاب رفع المسؤولية التالي:

«كل ما تمّ التعبير عنه من عرض للوقائع والآراء أو التحليل يعود إلى المؤلف ولا يعكس الموقف الرسمي أو وجهات نظر السي.آي.إيه أو أي وكالة حكومية أخرى. ويجب ألّا يُفسّر أي ما في المحتويات على أنه يؤكد أو يوحي بأنه تصديق من الحكومة على صحة المعلومات أو تأييد من الوكالة لوجهات نظر المؤلف. وقد راجعت السي.آي.إيه هذه المادة للحؤول دون الكشف عن معلومات محفوظة».

لم أحتفظ خلال حياتي المهنية بيوميات أو بملاحظات شخصية؛ لأن ذلك يُشكِّل مخاطرة غبية. وارتكزت بالتالي في وضع هذا الكتاب على استرجاع ما في الذاكرة وعلى بعض المحادثات مع أصدقاء وزملاء. أما الاقتباسات فتعتمد على جهودي الصادقة في إعادة تركيب المحادثات. وبالتالي فإن كل الأخطاء هي أخطائي، وأخطائي وحدي.

وضعت مسوّدة النص على مدار حوالى سنتين وأنا أعمل وأسافر. والفضل لستيف جوبس وفتية «أبل» الذين اخترعوا «ماك إير». وأتوجه بالكثير من الشكر لسخاء الأصدقاء الذين قدموا لي في السياق منازلهم الهادئة والجميلة وشققهم التي قمت فيها بمعظم الكتابة، وهم هربرت ألن، ريغ وبتسي هايد، المرحوم هايز كيربي، بول ومارلين زاكوفيتش، جو روبرت، تشارلز بيك، جايمس وشارون هوريهان، وستون وديبورا فيليبس. ويستحق آل زاكوفيتش وهوريهان شكراً خاصاً لأنهم أووا عائلتنا الرحّالة لعقود.

يجب أن أتوجّه أيضاً بالشكر لصديقي وزميلي في اصطياد الأرانب تي. دي. كلسي، وهو عبقري حقيقي شكّل من دون أن يدرك مصدر وحي لي بفضل ألمعيته وشغفه بالحياة وبالفن.

أنا مدين للأبد لهيرب ألن، وهربرت ألن، وكل فريق ألن وشركائه، وبخاصة جورج تينيت، على دعمهم وتشجيعهم مساعيّ في القطاع الخاص. وأتقدم بشكر خاص لهربرت الذي أعاد تدريبي على ركوب الدراجة. وأتمنى لو أنني استطيع فقط أن أحب من جديد الـ «روك أند رول» وبرغل الذرة. كما أنني ممتن باستمرار لثلاثي تكساس جايمس لانغدون وجاك مارتن وروس بيروت جونيور. وكان جايمس بشكل خاص مرشداً مقداماً دائم الحضور من أجلي. كذلك الأمر بالنسبة إلى جو روبرت صاحب الكياسة والشجاعة. وهم جميعهم مرشدون رائعون وأصدقاء عظام. ويصعب أن أتخيّل حصولي من دونهم على الوسائل والوقت للتعامل مع هذا المشروع الأدبي.

ثم هناك شركائي الأقوياء كالصخر والموظفون في مجموعة كرامبتون. لقد أخجلتموني جميعكم بإيمانكم بي وأنا شاكر لكم. ورافقني ريتش، البطل المميز والقائد الهادئ، منذ البداية. وأنا أتصل بريتش كلما وُجد عمل شاق وبخاصة عندما نواجه أزمة. وأنا مدين بشكر خاص لدونا ولروودني على مراجعتهما المخطوطة وتحسينها، وعلى قيادتهما، والأكثر من ذلك على صداقتهما.

ثم هناك جميع الرجال والنساء في السي.آي.إيه وأنا لم أتطرق إلّا إلى عدد قليل جداً منهم في هذا الكتاب، وهناك أيضاً الحلفاء الأجانب والعملاء السريون الشجعان الذي يركبون مخاطر لا يتمكّن معظم الناس من تخيّلها. أشكركم على كونكم رفاق سلاح. ويصحّ ذلك على من يعملون في قوات العمليات الخاصة الأميركية، إضافة إلى محاربي القوات الخاصة من الحلفاء وبخاصة أولئك الموجودين في أستراليا ونيوزيلندا وكندا والأردن والمملكة المتحدة ودولة الإمارات العربية المتحدة. قصدت أن يكرمكم هذا الكتاب جميعكم، جواسيس ومقاتلين، وعائلاتكم.

تستحق عائلتي تقديراً خاصاً. بقي والداي، باركهما الله، أحياء وهما يربيانني. علّماني أهم الأمور ومنها: المثابرة على الإيمان والسعي في طريق الفضيلة. تركاني أمضي بقوة وبعيداً عارفين أنني سأعود دوماً. كما أنني أشكر عائلتي الموسّعة، بالدم وبالزواج، والمنتشرة في جورجيا وما هو أبعد، بمن فيهم عشيرة آسيا- المحيط الهادئ. وأنا فخور لأنني جزء من هذه العائلة الرائعة السخية والمحبة.

وليقبل أبناؤنا الثلاثة أعمق امتناني واحترامي على قوّتهم ومحبتهم. وأنا فخور بهم للغاية.

الشكر لزوجتي البطلة، سيندي لاو، التي راجعت المخطوطة وطرحت توجيهات ناقدة... وما هو أكثر بكثير. أشكرك على تلك السنوات الرائعة الكثيرة في زوايا كثيرة من العالم. وآمل في أن أتمكن من أن أكون الزوج الذي تستحقينه.